التفسير البلاغي للاستفهام

في القرآن الحكيم

أول تفسير موضوعي لـ (١٢٦٠) استفهامًا في القرآن كله

تأليف الدكتور

عبد العظيم إبراهيم المطعني

الجزء الثالث

مكتبة وهبة

١٤ شارع الجمهورية - عابدين

القاهرة تليفون: ٣٩١٧٤٧٠

فاكس: ٣٩٠٣٧٤٦

اسم الكتاب: التفسير البلاغى
للاستفهام فى القرآن الحكيم
أول تفسير موضوعى لـ (١٢٦٠)
استفهام فى القرآن كله
الطبعة الثالثة ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م
الدكتور عبد العظيم المطعنى
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية -
عابدين - القاهرة.
٤٨٨صفحة : (جـ٣) ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع : ٩٨/١٤٢٥٦
الترقيم الدولى : I.S.B.N.
977-225-124 - 8

تحذير
جميع الحقوق محفوظة لمكتبة وهبة (للطباعة والنشر). غير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج هذا الكتاب أو أى جزء منه ، أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد إلكترونية ، أو ميكانيكية ، أو نقله بأى وسيلة أخرى ، أو تصويره ، أو تسجيله على أى نحو ، بدون أخذ موافقة كتابية مسبقة من الناشر.

All rights reserved to Wahbah Publisher. No Part of this Publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior written permission of the publisher.

سورة المؤمنون

١ - ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٣٢].

الدراسة والتحليل:

سورة (المؤمنون) مكية. ومن أبرز القضايا التى تعرض لها القرآن فى مكة قبل الهجرة قضيتا التوحيد والبعث، وكثيرًا ما يوظِّف القرآن قصص الأنبياء والأمم الغابرة لنصرة هاتين الحقيقتين. وهذا ما سنراه فى سورة (المؤمنون) وهذه الآية واحدة من آيات تحكى قصة هود أو صالح على خلاف بين المفسرين. وجاء فى عجزها هذا الاستفهام: (... **أفلا تتقون**).

وهذا التركيب كثير الورود فى القرآن وضابطه أن تدخل همزة الاستفهام على فعل مضارع منفى. وما أكثر صوره التى مرَّت بنا فى هذه الدراسة. وموقف الأئمة من هذا التركيب الاستفهامى تقدم مرات كذلك. فهو استفهام مجازى قولاً واحدًا أما المعنى المراد منه فلا بأس من إعادة بعض أقوالهم فيه).

فقد فسَّره الإمام الزمخشرى تفسير استفهام الإنكار وإن لم يصرح به قال:

* (**أفلا تتقون**): أفلا تخافون أن ترفضوا عبادة الله الذى هو ربكم وخالقكم ورازقكم، وشكر نعمته التى لا تحصونها واجب عليكم. .)[١].

يعنى أن رسولهم ينكر عليهم الإعراض عن عبادة الله ثم عبادة غيره أما أبو السعود فقد صرَّح بالإنكار فقال:

(الهمزة لإنكار الواقع واستقباحه. والفاء للعطف على مقدر. . أى: أتعرفون ذلك (مضمون قوله تعالى: ما لكم من إله غيره فلا تتقون عذابه)[٢].

---

(١) الكشاف (٣/ ٢٩).   (٢) تفسير أبى السعود (٦/ ١٣٠).

والألوسى عندما نظر فى هذا الاستفهام قال: (الكلام فيه كالكلام فى نظيره المار فى قصة نوح. .)[1].

والذى قاله فى قصة نوح هو الذى قاله الإمام أبو السعود آنفا. يعنى أنه استفهام لإنكار الواقع واستقباحه[2].

والخلاصة: أن هذا الاستفهام استفهام إنكار قطعًا ويردف على الإنكار فيه الحث، والتحضيض على تحقيق المستفهم عنه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(فأرسلنا فيهم رسولاً منهم)** الفاء للعطف على ما قبله، وهو: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ وأوثر حرف الجر (فيهم) على: إليهم، إشارة إلى أن رسولهم كان منهم يعرفونه منذ نشأته بالفضل وكرم الأخلاق، وأوثر الوصف بالرسالة على الاسم الصريح **(هود أو صالح)** لما فى الوصف بها من وجوب الطاعة وصدق البلاغ.

* **(أن اعبدوا الله)** فى العبارة إيجاز حذف، والتقدير: فقال أن اعبدوا الله. ولعل سر الحذف - بلاغة - الدلالة على سرعة الدعوة إلى توحيد الله وعبادته، وهجر عبادة الأصنام وإنما بدأ بالدعوة إلى العبادة دون الدعوة إلى توحيد الله الخالص تلويحا لهم إلى أن وحدانية الله من الأصول المسَلَّم بها عقلا، فلا ينبغى أن يرتاب فيها ذو عقل، كما لا يرتاب فى وجود الشمس عاقل، وهى فى رائعة النهار.

* **(ما لكم من إلهٍ غيره)** جعل انفراد الله بالألوهية علة وسببا للأمر المتقدم فى إفراده بالعبادة، تأكيدا للمعنى الذى أشرنا إليه من جَعْل تفرده بالألوهية من بديهات العقول ودخول (من) على (اله) والأصل: ما لكم إله غيره. لاستغراق النفى الشامل لجميع أفراد جنس الآلهة المتوهم وجودها عند المشركين. وهذا هو معنى الزيادة التى يقول بها النحاة فى مثل هذه العبارة، يعنى الزيادة على أصل الجملة لفظًا لا معنى.

(١، ٢) روح المعانى (١٧/ ١٩ - ٢٤).

و(غيره) احتراس عظيم المعنى: إذ لولا ذكره لصار معنى النفى منصبا على الألوهية مطلقا - الحق منها والباطل - ولما ذُكر (غيره) انتفى ما عدا الله عز وجل وثبتت وحدانيته وجىء بـ (غيرُه) مرفوعا وهو نعت لمجرور (إلهٍ) لأن حركة حرف الجر الزائد لا يجوز اتباعُها. والمعنى: ما لكم من إله إلا هو.

* **(أفلا تتقون)** أى: تعلمون هذه الحقيقة البدهية فى العقول ولا تجلون الله وتعظمونه وترجون رحمته وتخافون عذابه.

والإنكار فى الجملة مسلط على الطرفين: الايجابى، وهو علمهم بوحدانية الله، والسلبى، وهو عدم عبادته وخشيته لأنهم ضلوا على علم. فلا عذر لهم فى كفرهم بالله والإعراض عنه والإقبال على عبادة: ما لا يسمع ولا يبصر شيئًا ولا يملك ضرًا ولا نفعًا لا لنفسه ولا لغيره.

* * *

٢ - ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾

[المؤمنون: ٣٥].

الدراسة والتحليل:

كانت الآية المتقدمة نصرة لعقيدة التوحيد، وجاءت هذه الآية تحكى قول منكرى البعث، وهى ثانية القضايا التى واجهها القرآن بمكة، قبل الهجرة، وإنكار البعث كان له عند منكريه شبهتان ضعيفتان أو هما وَهْمٌ لا وجود له.

الشبهة الأولى: الأحوال التى تعترى الأجسام بعد الموت من صيرورة ما عدا العظم ترابا والعظم رفات. وهذه الشبهة أكثر القرآن من حكايتها عن منكرى المبعث.

الشبهة الثانية: أن آباءهم وأجدادهم قيل لهم أنهم سوف يبعثون بعد الموت، وعلى طول العهد لم يبعث منهم أحد، كما سيجئ فى هذه السورة بإذن الله.

وفى هذه الآية حكاية للشبهة الأولى حيث حكى القرآن عنهم هذه المقولة:

(أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون) وهو أسلوب استفهامى مرَّت نظائر له من قبل.

وخلاصة ما قاله **الأئمة في معناه**: أنه لإنكار الوقوع واستبعاده، وإن اختلفت عباراتهم[1].

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(أيعدكم..)** أوثر المضارع لمناسبة أن الوعد سيقع في المستقبل. وهذا الاستفهام وإن كان للإنكار أصلا فإن التعجب لا ينفك عنه، أي: كيف يعدكم بهذا الأمر المحال.
* **(أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما)** التوكيد في كلامهم المحكي حكاية منهم لجزم النبي ﷺ بأنهم سوف يحيون ويحشرون ويجازون على كفرهم الجزاء الوفاق.

والتراب والعظام هما محط الاستبعاد والإنكار وتقديم التراب على العظام لأنه أدخل في تكذيب الوعد بالحياة مرة أخرى، لبعده عن الصلة بالحياة الدنيا التي كانوا عليها.

أما العظام، وإن نخرت وتفتَّتْ فإن فيها آثاراً مما كانت عليه قبل الموت.

وتنكيرهما - التراب والعظام - للتحقير المبِّرر عندهم للإنكار والاستبعاد.

* **(أنكم مخرجون)** أنَّ - هنا - توكيد للأولى أو بدل منها، سوَّغ ذكرها طول الفصل بين (أنَّ) الأولى وبين الخبر (**مُخرجون**) وفي حذف فاعل الفعل الذي صنع منه اسم الفاعل (**مخرجون**) الذي فعله: تُخْرَجون. لتبرير الإنكار مرة أخرى، لأن في ذكر الفاعل، وهو الله عز وجل، ما يُكذِّبْ دعواهم، لأن الله على كل شيء قدير.

و(**مخرجون**) كناية عن الإحياء الثاني. والمعنى: أيقول لكم هذا البشر الزاعم أنه رسول الله أنكم وقت موتكم ثم صيرورتكم ترابا وعظاما مفتتة باليه بالإحياء مرة أخرى؟ وجمع العظام دون التراب للدلالة على أنهم أرادوا تفتتها وتفرقها.

والتأكيد في الموضعين حكاية لما ورد في لسان الشرع.

* * *

---

(١) انظر مثلا: تفسير أبي السعود: (٦/ ١٣٤) روح المعاني (١٧/ ٣٠) وبعضهم فسره تفسير الإنكار ولم يصرح به.

٣ - ﴿ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا، وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤٧].

الدراسة والتحليل:

عرضت سورة (المؤمنون) صوراً مصغرة من قصص الرسل وفى هذه الآية لمحة من قصة موسى وهارون مع فرعون وقومه. وهى تصور قمة الرفض لما جاء به موسى وهارون من عند الله، من وحى أمين، ومعجزات باهرة، ولكن قوم فرعون ركبوا متن الشطط فقالوا - كما حكى عنهم القرآن فى هذه الآية:

(**أنؤمن لبشرين مثلنا، وقومهما لنا عابدون**)؟ بنوا رفضهم للإيمان على شبهتين:

الأولى: إن موسى وهارون بشران. والله - إن كان مرسلاً حقا - لا يرسل بشرًا؟.

الثانية: أن قوم موسى وهارون خاضعون لهم، أذلاء مسخرون لخدمتهم. فكيف ينزلون من عليائهم ويؤمنون بمن ينبغى أن يخضعا لهم كما خضع قومهم؟.

وهذا الاستفهام - بالإجماع - استفهام مجازى معناه الإنكار والاستبعاد عند أهل العلم، ونحن نردف عليه التعالى والتعاظم عند فرعون وملئه. وهذه خلاصة ما يقال فيه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* (**فقالوا...**) عطفت هذه الجملة بالفاء لإفادة ترتيب قولهم هذا على دعوة موسى وهارون لهم للإيمان بالله وحده لا شريك له من مخلوقاته.

الثانى: أن هذا الرفض وقع منهم فور سماعهم الدعوة للإيمان. وفى هذا رمى لفرعون وقومه بالطيش والحمق، إذ لو كانوا عقلاء راشدين لنظروا وفكروا فيما أتاهم به الرسولان الكريمان.

* (**أنؤمن لبشرين مثلنا**) آثروا الوصف العام بالبشرية كناية عن موسى وهارون عليهما السلام، وعدلوا عن اسميهما الصريحين لاتخاذهم من البشرية محطا للإنكار، ودعامة عاضدة له.

وأكدوا هذا بقولهم (**مثلنا**) مريدين بذلك مساواة موسى وهارون بهم، فهم أحقاء أن يسيروا فى الحياة على ما تمليه عليهم عقولهم؟

* (**وقومهما لنا عابدون**) هذه هى الشبهة الثانيـة التى جعلوها محطا للإنكار. والجملة فى موضع الحال أى: كيف نؤمن لهما والحال أن قومهما عابدون لنا؟ وتقديم الجار والمجرور (لنا) على (عابدون) لإفادة القصر، أى عـابدون لنا لا لغيرنا مما يدعو إليه موسى وهارون.

ثم لتوافق الفواصل على حرف النون قبله حرف مد.

و(**عابدون**) الذى يلوح لنا فيه أنه استعارة تصريحية لـ (خاضعون. لا العبادة بالمعنى المعروف. وسرها البـلاغى: المبالغة فى تصوير الخـضوع بالعبادة الخـالصة وإيثار اسم الفاعل (**عابدون**) على الفعل: يعـبدون للدلالة على أن خضـوعهم دائم مستـمر، لا تتخلله حالات تمرد أو عصيان.

* * *

٤ - ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِى الْخَيْرَاتِ، بَل لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

الدراسة والتحليل:

من سنن الله فى الحياة الدنيا أن لا يحرم عبداً من حظوظها بسبب كفر أو معصية، بل قد يغدق عليه من نعمها ويرزقه بغير حساب، لأن الدنيا عند الله هينة، فهو يبذلها للكافر والمـؤمن، والفاجر والمستـقيم. وهاتان الآيتان تقرران فى وضـوح هذه السنة الحكيمة، وهما تكشفان فى الوقت نفـسه أن مكذبى الرسل كانوا ينخدعون بما يجريه الله عليهم من نعم الدنيا الزائلة، ويتـوهمون أنهم لو لـم يكونوا على حق ما أنعم الله عليهم بتلك النـعم من المال والولد وفى الوقت نفسه تنعـيان عليهم انخـداعهم هذا، لأنهم لـم يفطنوا إلى حكمـة الله فى إمدادهم بالمال والولد. فليس ذلك خـيراً لهم بل ليزدادوا إثماً فوق آثامهم. والله - كما يقول الشاعر:

قـــد ينـعم الله بـالبلـوى وإن عظـمت
ويبـــتـلى الله بـعض الـناس بـالنـعم

لهذا جاء فى الآيتين هذا الاستفهام الزاجر:

(أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين. نسارع لهم فى الخيرات، بل لا يشعرون).

وقد مهد الإمام الزمخشرى إلى معنى هذا الاستفهام ولم يصرِّح به فقال:

(والمعنى: أن هذا الإمداد ليس إلا استدراجاً لهم إلى المعاصى. واستجراراً إلى زيادة الإثم، وهم يحسبونه مسارعة لهم فى الخيرات، كما يفعل بأهل الخير من المسلمين)[1]، وقد أفصح الإمام أبو السعود عنه فقال:

(الهمزة لإنكار الواقع واستقباحه)[2].

يعنى إنكار لحسبانهم أن إنعام الله عليهم إنعام فى الباطن والظاهر معا، وهو شر لهم لم يفطنوا إليه.

وتابع الإمام الألوسى - كعادته - الإمام أبا السعود ولم يخرج عما قال[3].

والخلاصة: أن هذا الاستفهام للإنكار كما قال أهل العلم ومن المعانى التى يستساغ إردافها عليه: التجهيل والسفاهة.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(نمدهم به من مال وبنين)** فى (نمدهم) استعارة تصريحية تبعية، شبه إغراق ملاذ الحياة الدنيا عليهم بالإمداد كامداد الجيش بقوة تضاف إلى قوته، بجامع حصول الزيادة فى كل منهما.

و**(من)** بيانية. وتنكير **(مال)** و**(بنين)** لإفادة التكثير كما ينبئ عنه مقام الكلام.

وتقديم **(مال)** على **(بنين)** لسببين:

الأول: أن الإنسان يكون له مال قبل أن يكون له بنين.

الثانى: لأن انشغال الرجل بماله أكثر من انشغاله بولده.

أى أن تقديم المال على الولد لقدم الصحبة وأكثريتها.

* **(نسارع لهم فى الخيرات)** هذا هو محط الإنكار لا مجرد الحسبان، ولا الإمداد بالمال

---

(١) الكشاف (٣/ ٣٥).

(٢) تفسير أبى السعود: (٦/ ١٣٩).

(٣) روح المعانى: (١٧/ ٤٣).

والبنين مهما كان، وإنما مصب الإنكار هو حسبان الإمداد والبنين مسارعة من الله لهم فى إيصال الخيرات لهم. وفى المسارعة كناية عن تلاحق حصول المال لهم، وتتابع إنجاب الذرية.

* وفى حذف (له) بعد (**نسارع**) إذ التقدير: نسارع لهم به. فى هذا الحذف إيجاز، وهو من فضائل البيان وقد اجتمع فى الدلالة على المحذوف تقديم نظيره فى (**نمدهم به**) ثم دلالة المقام التى تستلزم ربط الجملتين الدالتين على معنى مشترك بينهما، وهى إنكار الحسبان الذى محطه هو المسارعة.

وفى إيثار المسارعة، وهى مفاعلة بين طرفين إيماء إلى معنى دقيق يقتضيه المقام، فدلالة نسارع غير دلالة نُسرع المعدول عنها. فدلالة (**نسارع**) تفيد أن هذه المسارعة لهم من الله لتدفع عنهم شرين أحدهما: الفقر، والثانى العقم. فالله فى ظنهم يحامى عنهم ويدفع عَدُوَّى الحياة. ولا يكون حالهم هكذا عند الله إلا إذا كانوا أولياءه. إلى هذا وصل بهم الجهل والغرور.

أما نسرع فلا تفيد مصارعة ولا مغالبة، بل تفيد المبادرة فى ذاتها.

* (**بل لا يشعرون**) إضراب إبطالى، وانتقال من تصور متوهم إلى حق مكين. فالحق أنهم لا شعور لديهم بحقائق الأمور، وإنما هم لعدم فطنتهم كالأنعام تخدعها الظواهر ولا تدرى شيئا عن البواطن.

* * *

٥ - ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ * أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ * أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ، بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٨ : ٧٠].

الدراسة والتحليل:

آثرنا جمع هذه الآيات الثلاث لأمرين: أحدهما: أنها حديث عن موضوع واحد أو متحدَّث عنه واحد. والثانى: أنها جارات فى المصحف لم يفصل بين تجاورها فاصل قط. إنها حديث عن مكذبى الرسل، الرافضين للحق الذى أنزله الله، اتخذوا

من وحى الله إلى رسله الكرام، ومنهم الرسول الخاتم مادة للتندر والسَّمر، واللغو الفارغ. وما بعث الله رسله إلا لتحقيق السعادة لهم فى العاجلة والآجلة. فكانت حالهم هذه أعجوبة من أعاجيب الدهر، ومنهج القرآن مع هؤلاء وأمثالهم أن ينبههم إلى ما هم فيه من ضلال، ثم يقيم عليهم الحجة، بعد إزالة كل شبهة يتذرعون بها.

وفى هذه الآيات الثلاث وردت أربع صور استفهامية ثنتان فى الأولى، وثنتان فى كل من الثانية والثالثة.

* **﴿أفلم يدبروا القول﴾؟.** * **﴿أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين﴾؟.**
* **﴿أم لم يعرفوا رسولهم﴾؟.** * **﴿أم يقولون به جنة﴾؟.**

وقد تناول الأئمة هذه الآيات فعُنى الإمام الزمخشرى بالمعنى العام لها من أنهم لم يدبروا القرآن واتخذوه مهجوراً، كأنهم قد جاءهم عهد بالأمان من الهلاك لم يأت أسلافهم، وكأنهم لم يعرفوا محمداً ﷺ، وقد نشأ فيهم من أزكى البيوت، وعرفوه قبل البعثة طاهر السلوك، عفيف اللسان واشتهر بينهم بالصدق والأمانة، ومع هذا نسبوه إلى الجنون والسحر والتشعوذ؟[(١)].

هذه خلاصة - مع التصرف - لكلام الإمام جار الله، الذى لم يقل شيئا عن صور الاستفهام الأربع.

أما الإمام أبو السعود فقد أطال وأجاد، ولا سبيل إلى ذكر كلامه لطوله، وحسبنا منه ما قل ودل ولم يخل فقد قال فى الاستفهامين الأول والثانى فى الآية الأولى:

(أفلم يدبروا القول) الهمزة لإنكار الواقع واستقباحه. والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام، أى: أفعلوا ما فعلوا من النكوص والاستكبار والهجر، فلم يدبروا القرآن ليعرفوا بما فيه من إعجاز النظم، وصحة المدلول، والإخبار عن الغيب[(٢)] أنه الحق من ربهم فيؤمنوا به فضلا عما فعلوا فى شأنه من القبائح..)[(٣)].

(١، ٢) الكشاف (٣/ ٣٦ - ٣٧). (٣) (أنه الحق) معمول: (ليعرفوا).

وإنما حمل الهمزة على إنكار الواقع لأن إعراضهم عن القرآن وعدم تدبره واقع منهم فعلا.

وقال فى الثانى:

(أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين): أم منقطعة وما فيها من معنى (بل) للإضراب والانتقال عن التوبيخ بما ذُكِر إلى التوبيخ بآخر. والهمزة لإنكار الوقوع)[1].

يعنى أن الانتقال كان عن توبيخهم على عدم تدبر القرآن إلى توبيخهم على عدم اعتبارهم بأحوال أسلافهم. أما الهمزة فلإنكار أن يكون جاءهم شىء لم يأت أسلافهم أما (أم) فى الاستفهام الثالث **(أم لم يعرفوا رسولهم)** فقضى بأنها منقطعة، وأن الإضراب والانتقال فيها من توبيخهم على الجريمتين السابقتين إلى توبيخهم على تجاهل أحوال رسولهم محمد ﷺ، والهمزة التى فى (أم) لإنكار الواقع، لأن تجاهلهم للرسول كان واقعاً فعلا[2].

وقال فى الرابع **(أم يقولون به جنة)** إن الانتقال كان من توبيخاتهم الثلاثة الماضية إلى توبيخهم على وصف رسولهم بالجنون. وأما الهمزة التى فى (أم) فلإنكار الواقع كذلك لأن وصفهم للرسول بالجنون ثابت متحقق[3].

والحق أن الإمام أبا السعود قد شفى الغليل بهذا البيان الرائع، وفتق أكمام البلاغة القرآنية ممتعا ومقنعًا وتلخيص ما قال فى كلمات هو الآتى:

* إن الهمزة فى الاستفهامات الأربعة للإنكار، وهو إنكار الواقع فى ثلاثة، والوقوع فى واحد، هو أن يكون قد جاء المشركين ما لم يأت آباءهم.
* وأن (أم) فى المواضع الثلاثة منقطعة. والانتقال فيها من توبيخ سابق إلى توبيخ لاحق.

وليس عند الإمام الألوسى جديد لم يقله الإمام أبو السعود إلا تعقيب على رأى الإمام الزمخشرى الذى أشرنا إليه من قبل، وهو أن معنى قوله تعالى: ﴿**أم جاءهم ما**

---

(١) تفسير أبى السعود: (٦/ ١٤٣).   (٢، ٣) المصدر السابق (ملخصا) - (٦/ ١٤٣).

لم يأت آباءهم الأولين﴾ فقد فسره الزمـخشرى بـ (الأمن) أى ليس لديهم عهد بالأمن من الهلاك.

لم يرض الإمام الألوسى هذا الرأى، وذهب إلى أن المراد فيه نفى أن يكون لمشركى مكة، كتـاب لم يؤت أسلافـهم مثله يخـالف ما جاء فى القـرآن الحكيم. وفى ذلك يقول:

(ثم لا يخـفى أن إسناد المجئ إلى الأمن غـير ظاهر ظهـور إسناده إلى الكتـاب، وبهذا تنحط درجة هذا الوجه عن الوجه الأول)[١].

والوجه الأول - عنده - هو الإسناد إلى الكتاب، والثانى الإسناد إلى الأمن.

وإلاَّ[٢] تجويز أن يكون الاستـفهام بالهمـزة فى قوله تعالى **﴿أم جـاءهـم مـا لم يأت آباءهم﴾** للتقرير، وكان الإمام أبو السعـود قد جزم بأنه للإنكار. أعنى الهمزة التى فى معنى (أم) المنقطعة التى هى بمعنى بل والهمزة. وفى ذلك يقول الألوسى:

(وفى الكشف: إن جـعلت فائدة الـتدبـر (هى) اسـتـعـقاب العلم فـالهمـزة فى المنقطعة للتقرير وإثبات أنهم مصرون على التقليد فلذلك لم يتدبروا ولم يعلموا. وإن جُعِلت - يعـنى فائدة التدبر - الاعـتبار والخـوف فالهـمزة فيـها للإنكار أو التـقرير تهكما)[٣].

فهذا التجويز - كما اتضح - ناشىء عن اختلاف المقصود من التدبر لا أن الألوسى يريد برأى صـاحب الكشف تخطئـه الإمام أبى السعـود. وحمل الإمـام أبو حيـان الاستفهامات الأربعة علـى التوبيخ، ولكنه لم يشر إلى نوع (أم) صراحة. ولم يخرج فى كلامه عما سبق قوله عند الأئمة الثلاثة، وإن كان هو أوجزهم عبارة[٤].

والخلاصة: أن الاستـفهام الأول وإن كان للإنكار عنـد الأئمة فإن فيـه معنى الحث على التدبر والتقريع على تركه.

---

(١) روح المعانى (١٨/ ٥١).

(٢) عطف على (ألا تعقيب على رأى الإمام الزمخشرى) المذكور قبل هذا.

(٣) روح المعانى (١٨/ ٥١).

(٤) البحر المحيط (٦/ ٤١٣).

أما الثانى فيضاف إلى الإنكار فيه معنى التذكير بهذا الخطأ، وإن كنا نرجح أنه للنفى لا الإنكار؛ لأن القوم لم يدعوا أنهم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين. وسبق أن قلنا مرات إن الإنكار يواجه به من يدعى خلاف الواقع، أما النفى فيكون لسلب ما هو غير واقع إذا اقتضى هذا السلب داع بيانى. أما الاستفهامان الثالث ﴿**أم لم يعرفوا رسولهم**﴾، والرابع ﴿**أم يقولون به جنة**﴾ فالثالث للإنكار المشوب بالتعجيب من حالهم. والرابع للإنكار والتكذيب والتجهيل.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**أفلم يدبروا القول**﴾ التدبر هو النظر فى أعقاب الأمور والتأمل فيها. وهو فى الآية استعارة لتتبع القرآن بعد سماعه والنظر فى أعطافه ومراميه، وما توحى به عباراته من مقاصد.

وآل فى (**القول**) للعهد، أى القول المعهود الذى هو القرآن. وفيه إلزام لهم بالحجة، ورمى لهم بالغفلة؛ لأنهم عادوا الحق دون أن ينظروا فيه. فهم مقصرون فى حق أنفسهم كالظامىء الذى يموت عطشا والماء العذب بين فكيه.

* ﴿**أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين**﴾ أى ليس لهم عذر فى بقائهم على الضلال، فلم يسبق فى الوجود أن أنزل الله على أسلافهم كتابا يخالف ما يدعو إليه القرآن من التوحيد والبعث والحياة الآخرة. فقد ظلم هؤلاء أنفسهم لما رفضوا القرآن من غير فحص ولا نظر فيه، وليس لديهم ما يدعو إلى إعراضهم عنه من وحى سابق.

* وإيثار ﴿**ما لم يأت**﴾ على: ما لم يجىءْ، لأن المضارع من الفعل (أتى) أخف نطقا من المضارع من الفعل (جاء) ولم يأت المضارع (يجىء) فى القرآن قط لا مرفوعا ولا منصوبا ولا مجزوما. وبين الفعلين: جاء وأتى فرق دقيق فى المعنى لا يتسع المقام لبيانه والتمثيل له[1].

---

(١) نشرت مكتبة وهبة بحثا ضافيا فى الفروق بين الإتيان والمجىء فى استعمالاتهما فى القرآن للدكتور محمود موسى حمدان. نوصى بالإطلاع عليه.

وفى وصف (الآباء) بـ (الأولين) احتراس بديع الدلالة، إذ المراد أجدادهم الأقدمين كعاد وثمود قومى هود وصالح. أما الآباء والأجداد الأقربون فلم يبعث فيهم رسول، ولا نزل عليهم كتاب قط.

* ﴿**أم لم يعرفوا رسولهم**﴾ أوقعت المعرفة منفية على ذات الرسول، على سبيل الكناية عن أحوال الرسول وسيرته وأخلاقه. والمراد عدم معرفة صفاته الخُلُقية لا الخَلْقيَّة. وهى كناية فى غاية اللطف لأن نفى معرفة (المحل) وهو ذات الرسول يقتضى نفى معرفة (الحالِّ) فى ذلك المحل بالطريق البرهانى الأبلغ. وهذا هو الذى يقتضيه المقام - هنا - لأن قريشا تنكرت لرسولها الكريم تنكُّر من يجهله جهلاً تاما حتى لكأنه لم يُسمع به، ولم يُعْلَمْ موجوداً قط. وفى هذا تصوير وتهويل لصدودهم عنه.

* ﴿**فهم له منكرون**﴾ الفاء مع إفادتها العطف هنا تومىء إلى معنى السببية فيما عطفت لما عطفته عليه أى أن عدم معرفة رسولهم هى سبب إنكاره ورفضه. وهذا المعنى من (معمولات) الإنكار بالهمزة المدلول عليها بـ (أم) ولزيادة قبح إعراضهم عنه أُكِّدّت هذه الجملة ثلاثة توكيدات:

الأول: اسمية الجملة حيث كان المسند إليه (هم).

الثانى: تقديم الجار والمجرور (له) على الخبر: ﴿منكرون﴾ حتى لكأنهم يعرفون كل شىء إلا رسولهم فيجهلونه ويجهلون عنه كل شىء.

الثالث: مجىء الخبر اسم فاعل ﴿منكرون﴾ المفيد لاستمرار إنكارهم له فى جميع الأزمان.

* ﴿**أم يقولون به جنة**﴾ تصوير رابع لجرائمهم الوقحة حيث لم يكتفوا برفض الوحى الذى جاءهم به، ولا بعدم الاعتبار بالكتب السابقة الموافقة له، ولا بتجاهله وهم أعرف الناس به، بل تمادوا فوصفوه بالجنون. وهو أعقل العقلاء. وأفطن الفطناء، وأزكى ولد آدم بلا مراء ثم بالغوا فى وصفه بالجنون فجعلوه مكانا للجِنَّة والخبل وكان فرعون أقل منهم جُرمًا حين وصف موسى باسم المفعول ﴿**إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون**﴾ أما هم فقد جعلوه مأوى للجن.

* ﴿بل جاءهم بالحق، وأكثـرهم للحق كارهون﴾، بل للإضراب والانتقال الابطالى من (كفرياتهم) وأباطيلـهم، إلى مـا هو الحـق الذى لامـراء فـيــه. وآل فى ﴿الحق﴾ للاستغراق أى جاءهم بالحق كله.

* * *

٦ - ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾

[المؤمنون: ٧٢].

الدراسة والتحليل:

وفى هذه الآية تعرية أخرى للمشركين، وقطع لعذر جديد كان يمكن أن يكون سببا فى الإعراض عن النبى ﷺ لو كان قد حدث.. فالنبـى كان يشقى فى سبيل هدايتهم إلى الحق وتشهد بهذا الشقاء المر أرض مكة وضواحـيها، حتى تورمت قدماه من كثرة التنقل والسير فى السهل والوعر من شعـابها، لم يطلب منهم مالاً ولا عونًا ولا شربة ماء. فما لهم يصدون عنه ويناصبـونه العداء هو ومن آمن برسالته. إن أجره على الله وحـده. فبـأى عذر يـتشـبث هؤلاء المعـاندون. وفى تقرير هذه الحـقـيقـة ورد هذا الاستفهام:

﴿أم تسألهم خرجا..﴾؟.

والاستفهام فى الآية - هنا - للنفى، يعنى: أنت لا تسألهم أجرًا على ما تبذل من جهد فى هدايتهم فهم يصدون عنك هربًا من بهاظة التكاليف. وإنما هو العناد وكراهية الحق، والله هو الرزّاق لهم - على كفرهم - ولكل من دب على وجه الأرض.

والخلاصة: أن هذا الاسـتـفـهـام للنفى أصـلاً، نـفى الوقـوع فى الماضى والحـال والاستقبال. ثم للتعريض بغباوة أولئك الشاردين.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿أم تسألهم خرجا﴾ (أم) منقطعة بمعنى (بل) والهـمزة: بل أيزعمـون أنك تطالبهم بأجـر على أداء الرسالة؟ وتنكيـر ﴿خرجا﴾ للتكثيـر والتعظيم. أى مالاً كثـيرًا من نفيس ممتلكاتهم. والهمزة لنفى ما يزعمون لأنهم أعرضوا عنه إعراض الغارم.

* ﴿فخراج ربك خير﴾ تعليل للنفى ببيان أن رزق ربه له يغنيه عن مثل هذا.
* ﴿وهو خير الرازقين﴾ استئناف مؤكد لنزاهة صاحب الدعوة ﷺ.

* * *

٧ - ﴿ وَهُوَ الَّذِى يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلاَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٠].

الدراسة والتحليل:

هذه من آيات تمجيد الله، والثناء عليه بما هو أهله، أتى بها النظم الحكيم على منهجه من التلوين فى المعانى والأغراض، والتنقل من فن قولى إلى فن قولى آخر، لتحريك الذهن، ودفعا للسآمة والملل.

وعناصر التمجيد فى هذه الآية ثلاثة: الإحياء والإماتة وتباين آيتى الليل والنهار. ولما عرضت الآية هذه العناصر الثلاثة ناسبها أن تكون الفاصلة هذه الجملة الاستفهامية:

﴿أفلا تعقلون﴾؟.

وما أكثر ما ورد هذا التركيب الإنشائى فى نظم الكتاب العزيز، وما أكثر ما فصلناه بلاغيا حتى صار معناه مألوفا لنا من كثرة التكرار.

وخلاصة ما نذكره عنه هنا:

أنه استفهام مجازى قطعا لصدوره عن الله من جهة. ولدلالة المقام وبنائه اللفظى حتى إذا كان فى كلام غير الله عز وجل.

أما المراد منه فهو الإنكار، أى: أتعلمون أن الله يحيى ويميت ويقلب الليل والنهار فلا تفكرون تفكر العقلاء فتهتدوا أو تستقيموا.

ويردف على هذا الإنكار الحث والترغيب فى إعمال العقل فالمعنى الأول، وهو الإنكار، هو الأصل، أما المعنى الثانى، وهو الحث، فحرى أن يُسمى معنى مفهوم المعنى أو معنى دلالة الالتزام؛ لأن إنكار الشىء يلزم منه الترغيب والحث على ضده.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**وهو الذى يحيى ويميت**﴾: أوثر الموصول وصلته لأن الصلة هى موطن العظة والاعتبار، وتقديم الإحياء على الإماتة لسبق الحياة الموت، فلا يموت إلا من سبقت له الحياة.

والإتيان بالفعلين ﴿**يحيى - يميت**﴾ مضارعين لتجدد معنييهما وتعاقبهما منذ خلق الله الخلق، إلى أن تقوم الساعة.

وحذف مفعوليهما للعلم بهما، ولأن الغرض البلاغى حاصل دون الافتقار إلى ذكر المفاعيل.

* ﴿**وله اختلاف الليل والنهار**﴾ عطفت هذه الجملة على ما قبلها للتوسط بين الكمالين، لاتفاقهما فى الخبرية لفظا ومعنى.

وقدم الليل على النهار لأن الظلام أسبق وجودًا من الضياء، وهذا التقديم هو منهج القرآن - دائمًا - فى الليل والنهار إذا اجتمعا فى موضع واحد. وأل فيهما للجنس. وتقديم الجار والمجرور ﴿**له**﴾ على ﴿**اختلاف**﴾ لإفادة القصر أى: له لا لغيره. واختلافهما من عدة وجوه. كالظلمة والضياء والسكون والحركة، والطول والقصر. ومعنى (**له اختلافهما**) أى أسباب اختلافهما من حركات الكواكب ودوران الأفلاك، فهو مجاز مرسل حيث أطلق المسبب وأريد السبب.

* * *

٨ - ﴿قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٢].

الدراسة والتحليل:

وردت هذه الآية مع طائفة من الآيات تتحدث عن مخازى المشركين من العرب، وتحكى عنهم وترد عليهم. والآية موضوع الدراسة تحكى عنهم تشبثهم بمقولة منكرى البعث الأقدمين، وتردد - هنا - مع آية لاحقة الشبهتين اللتين أشرنا إليهما من قبل اللتين تمسكوا بهما فى إنكار البعث.

فالشبهة الأولى وهى استحالة عودة الحياة بعد الموت والطوارىء التى تعترى

الأجسام فتحيلها ترابا وعظاما. حكتها عنهم هذه الآية.

والشبهة الثانية، وهى أن الأقدمين وعُدوا هذا الوعد من رسل سابقين، ولكن ذلك الوعد لم يتحقق. هذه الشبهة حَكتها عنهم الآية التالية لهذه الآية، وهى:

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾.

وقد عرضنا من قبل لهذا الاستفهام، ونوجز الحديث عنه هنا فى الآتى:

لم يقل فيه الأئمة شيئًا اعتمادًا على ما قالوه فى نظيره من قبل فى هذه السورة[1].

وخلاصة ما قيل هناك: أن هذا الاستفهام لإنكار وقـوع البعث استنادًا إلى الشبهتين اللتين تقدم ذكرهما آنفًا وأن الاستفهام الثانى ﴿أئنا﴾ توكيد للاستفهام ﴿أئذا﴾ والحامل لهم على التوكيد أمران فيما نرى:

* **الأول**: طول الفصل بين الأول وبين ﴿لمبعوثون﴾.
* **الثانى**: إرادة حكاية إخـبار الرسـول لهم بالبعث؛ لأنه جـزم الإخبـار به بلا تردد.

وذلك فى مواضع كثيرة من القرآن الحكيم. كما فى قوله تعالى:

﴿... **بلى وربى لتأتينكم**﴾ ردًا على قولهم: ﴿.. **لا تأتينا الساعة**﴾ [سبأ: ٣].

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**قالوا أئذا متنا..**﴾ فصلت هذه الجملة عن الجملة التى قبلها، وهى:

﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ﴾ لأن بين الجملتين كمـال الاتصال، لأن الجملة الثانية ﴿**قالوا ائذا متنا..**﴾ بدل أو عطف بيان على الأولى ﴿**قال الأولون**﴾، ويجوز أن تكون العلاقة بينهمـا شبه كمال الاتصال إذا قُدِّرتْ الثانيـة جوابا عن سؤال نشأ عن الأولى، حاصله: وماذا قال الأولون؟.

* أما تقديم ﴿**ترابا**﴾ على ﴿**عظاما**﴾ ثم إفراد الأول وجمع الثانى فقد تقدم النص على أسرارها البلاغية فى الآية [٣٥] من هذه السورة.

وقد دحض القرآن الحكيم هذه الشبهات وأحـالها إلى أباطيل وأوهام كما تقدم فى سورة الإسراء. وكما سيأتى فى سورة (يس) إذا شاء الله.

* * *

(١) انظر مبحث الآية (٣٥) فيما تقدم.

٩ - ﴿قُلْ لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَنَ فِيهَا إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ للهِ، قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٥].

الدراسة والتحليل:

من مناهج القرآن - إذا تصدى لشبهات الخصوم - أن يذكر شبهات الخصم بكل أمانة وحرص، ثم يواجه تلك الشبهات مواجهة حاسمة حكيمة، ويفندها واحدة واحدة، حتى لا يبقى لها على أثر. والهدف من هذه المواجهة أحد أمرين:

الأول: إخراج الخصوم من الكفر إلى الإيمان. وهذا هو المقصود الأعظم، ومن أجله أرسل الله رسله هداة للناس.

الثانى: إقامة الحجة على الخصوم إذا ظلوا على كفرهم بعد كشف شبهاتهم، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

ومواجهة القرآن لشبهات الخصوم لها مسلكان:

(أ) أن تكون المواجهة فى حجم الشبهة المثارة بلا زيادة فى الرد، ولا نقص فيه.

(ب) أن تكون المواجهة أضخم وأعم من الشبهة المثارة، مع دخول تلك الشبهة فى (منسوفات) المواجهة القرآنية والشبهات التى أثارها منكرو البعث واستندوا إليها فى إنكارهم للحياة الآخرة واجهها القرآن الحكيم بالمسلكين معًا ولكنْ كل منهما على حدة.

ففى الإسراء كانت المواجهة مقصورة على إبطال شبهة الإنكار[1] وكذلك فى سور أخرى.

أما هنا - فكما ترى - تجاوز القرآن شبهة إنكار البعث، وواجه الخصوم مواجهة واسعة فى ست آيات متتابعات لم تبق للباطل على أثر، وشبهة الإنكار واحدة من شبهات الكفر التى نسفها القرآن - هنا - نسفا. وجاءت هذه المواجهة الحكيمة، موزعة ثلاثة أسئلة وثلاثة أجوبة وثلاثة تعقيبات على كل جواب تعقيب، وكل سؤال وجواب تعقيب فى آيتين لا ثالث لهما.

---

(١) انظر السفر الثانى من هذه الدراسة (١٨٠).

والآيتان - موضوعا الدراسة هنا عرضتا فى أسلوب ممتع أجزاء المواجهة الثلاثة على النسق الآتى:

* ﴿**قل لمن الأرض ومن فيها..**﴾؟

* ﴿**سيقولون لله..**﴾.

* ﴿**قل أفلا تذكرون**﴾؟.

إن سؤالهم عن ملكية الأرض، ومن فى الأرض سؤال عن سبب الملكية لا عنها وحدها. والله لم يملك الأرض ومن عليها عن طريق الشراء من غيره - كلا - ولكن عن طريق خلقه للأرض ومَنْ فى الأرض.

وإقرارهم بملكية الله للأرض ومن عليها إقرار منهم بأن الله هو الذى خلق فملك. فهل يعجز الذى خلق أولاً عن أن يحيى من مات ممن فى الأرض ثانيا؟ هذا هو المطلوب وهم - ولو فرض أنهم لم يقروا نطقًا - لزمهم الإقرار عقلا، ثم كان العنصر الثالث:

﴿**أفلا تذكرون..**﴾؟ أى أبعد هذه البدائه تغفلون عن الحق فلا تتذكرون.

فالاستفهام الأول للتقرير.. والاستفهام الثانى لإنكار عدم التذكر، والتبكيت عليه، ثم حثهم وترغيبهم فى تحصيله وإلا. فقد أخلص القرآن لهم النصح. فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليها وما الله يريد ظلما للعباد.

هذه خلاصة ما قيل وما يقال فى هذين الاستفهامين. وليس لدى الأئمة جديد يضاف إلى ما أثبتناه.

والتقرير فى الأول: تقرير بالمالك، لذلك قُدِّم ﴿من﴾ واليا حرف الملكية والاختصاص، وهو اللام.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**قل لمن الأرض..**﴾؟ فى الآيات الست كما تقدم ثلاثة أسئلة، وهذا واحد منها، والمسئول عنه هو ملكية الأرض ومن فيها لمن تكون. ولكل سؤال فى السؤالين الآتيين مسئول عنه، وقد بدأ النظم الحكيم - هنا - بالأرض ومن فيها لأنها أقرب

شيء إلى المسئـولين - المشركين - يُتـخذون منها مـهدًا ومعـاشا وممشى ومسـرحا لنشاطهم وعملهم.

وقد تضمن السـؤال عن الأرض لمن تكون السؤال عمَّن فى الأرض لمن يكونون. . ويشمل هذا السـؤال ما على الأرض من مـخلوقات غيـر عاقلة، وما فـى بطنها من كنوز، وما يجرى فيها من أنهار وبحور ومحيطات أنه سؤال عن العوالم السفلية كلها.

* ﴿**إن كنتم تعلمون**﴾ أسلوب تهييج وإلهاب وحث على الإجابة الصـحيحة، لا رغبة فى الصدق من الخصم المعاند، ولكن ليدفع عن نفسه معرة الجهل.

وهذا الأسلوب كثير الاسـتعمال فى مخاطبـات القرآن حتى مع المؤمنين، بل ومع الملائكة الأبرار، لأنه يفـجر فى نفس المخـاطب - فردا أو جمـاعة - طاقـات النخوة والحماسـة فيقذف بالحق من قـلبه إلى لسانه وإن كان ذلك القـذف غير مرغـوب فيه عنده. فإذا دُفِعَ إلى النطق بالحق، فقد قامت الحجة عليه. ولزم الانصياع للحق. وإلا فقد فَقَدَ كل شيء فى ميدان الحجاج والجدال.

وفى الآية من سمـات الايجاز بالحذف حذف الجار والمجـرور بعد ﴿قل﴾ والأصل قل لهم.

وكذلك حذف جـواب الشرط بعد ﴿**إن كنتم تعلمون**﴾ والتقدير: فـأقروا هى ومن فيها لمن؟.

وتقديم ﴿**لمن**﴾ على ﴿**الأرض**﴾ وكان الأصل أن يقال: الأرض ومن فـيها لمن؟ هذا التقديم اقتضاه داعيان بلاغيان:

الأول: أن المقرر به هو المالك، الذى كنى عنه بـ ﴿من﴾ والثانى إرادة القصر، وهى من لوازم هذا التركيب: أى من الذى يملكها دون غيره؟.

* ﴿**سيقولون لله**﴾ السين إشـارة إلى سرعـة حصـول هذه الإجابة فى الذهن، سـواء صرحوا بها أو لم يصرحوا. لأن المراد إلزامهم بالحجة أو وضوح الحجة فى نفسها.

وفى قولهم ﴿**لله**﴾ حـذف المسند إليه: سـواء قدِّر مقـدما: هى ومن فيـها لله، أو

مـؤخرا: لله هى ومن فـيـها. وهذا إيجـاز بالحـذف - كذلك - لقـيـام الدليل على المحذوف دلالة واضحة.

* ﴿قل أفلا تذكرون﴾ تكرار ﴿قل﴾ فى الآيتين لما تقدم مرات للإشعـار بأهمية المقول بعدها، ووجوب المواجهة به فور تلقيه.

وأوثر التذكر فى التعقيب الأول هنا إشارة إلى أن ملكية الله للأرض ومن عليها لا ينبغى أن ينازع فيها منازع غاية ما يمكن أن تُنْسى فيذكر الناسى بها.

* * *

١٠ - ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَـرْشِ العَظِيمِ * سَيَقُولُونَ للهِ، قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٦، ٨٧].

الدراسة والتحليل:

هاتان الآيتان هما الثالثة، والرابعـة من الآيات الست التى اتخذ منها القرآن قذائف حارقة لأباطيل المشركين من إنكار البعث وغيره.

فى الآيتين الأولى والثـانيـة كـانت القذائف أرضـيـة. وفى هاتين الآيتين جـاءت القذائف سماوية.

الأولى منهما تقرر المشركين برب السموات السبع، ورب العرش العظيم.

وكان الجواب على هذا التقرير أو السؤال، هو الجواب على السؤال الأول.

﴿**سيقولون لله**﴾ ثم كان التعقيب مختلفا عن التعقيب الأول.

﴿**قل أفلا تتـقون**﴾ كـان التـعقـيب فى الأولى إنكار عـدم التـذكـر ثم الحث على التذكـر.

وتذكر جلال الله وعظمته وسعة سلطانه ووفير فضله وسيلة لخشية الله وتقواه.

لذا كانت الفاصلة - هنا: ﴿تتقون﴾.

والأئمة لم يقولوا شيئا عن الاستفهامين - هنا - كما لم يقولوا شيئا فى الأولين.

وخلاصة القول فيهما هى خلاصة القول فى الأولين:

الأول: للتقرير بملكية الله للسموات السبع والعرش العظيم.

والثانى: لإنكار عدم التقوى مع الحث والترغيب فيها.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**قل من رب السموات السبع..**﴾: على كثرة ورود ذكر السموات فى القرآن. فأن نادرًا ما توصف بأنها: السبع ومن ذلك النادر ذكرها هنا معرَّفة بالألف واللام مع وصفها بـ (السبع) ولهذا الوصف (السبع) خصوصية خاصة من أجلها آثر القرآن ذكره - هنا - ذلك أن المقام هنا يواجه شبهات المشركين، ومن أبرزها قضية التوحيد، وقضية البعث بعد الموت. والوصف بالعدد - أيا كان - فيه توكيد للمعدود. وهذا من أسرار النظم الدقيقة. ويضاف إليه سر آخر هو إفراد كل من الأرض والسموات، بالذكر، والمنهج فيهما أن يذكرهما مقترنتين مع تقديم السموات، أو السماء على الأرض.

وخولف - هنا - هذا المنهج من حيث الاقتران والتقديم فالأرض قدمت فى آية والسموات أخرت فى أخرى. كل هذا من أجل تعديد آلاء الله ومتعلقات قدرته العظيمة أما تقديم الأرض فقد تقدم أن قربها من المخاطبين رجّح البدء بها قبل السموات.

* ﴿.. **ورب العرش العظيم**﴾ قدمت السموات على العرش لأنها مرئية مشاهدة. وتوظيفها فى الاستدلال على وحدانية الخالق وجلاله، وكما له أسرع من الاستدلال على تلك المدائح بالعرش؛ لأن العرش كائن غيبى، طريق العلم به هو الخبر الصادق، أما طريق العلم بالسموات فهو الرؤية بالبصر، والتسليم بالحسيات يمهد - لا محالة - للتسليم بالغيبيات. وهذا منهج استدلالى حكيم يبثه النظم القرآنى فى أسلوب بيانى ممتع، ومقنع فى آن واحد. وهذه من أظهر سمات الإعجاز فى الكتاب العزيز.

والغالب فى منهج القرآن أن يذكر (العرش) بلا وصف ومن غير الغالب ذكر العرش فيه موصوفا. وإذا ورد موصوفا فوصفه واحد من ثلاثة:

العظيم - الكريم - المجيد. والوصف بـ (الكريم) ورد مرة واحدة والوصف

بالمجيد ورد مرة واحدة. أما الوصف بـ (العظيم) فقد جاء ثلاث مرات آيتنا واحدة منها. وهذا الوصف (العظيم) يأتى فى المقام الذى يراد من الكلام فيه تربية المهابة فى قلوب المخاطبين بالإشارة إلى جلال الله وكماله.

ولما كان المقام - هنا - فيه مواجهة صاعقة للباطل وأهله أوثر وصف العرش بـ(العظيم) لما يدل عليه هذا الوصف من معانى القهر والغلبة والعزة. ودلالته على هذه المعانى ظاهرة.

لأن العظمة مشتقة من العَظْم، والعظم أقوى ما يكون فى عناصر الجسم.

﴿**سيقولون لله. قل: أفلا تتقون**﴾ هذا هو الجواب على السؤال الثانى:

﴿**من رب السموات السبع ورب العرش العظيم**﴾ وكان مقتضى الظاهر أن يكون الجواب بالتعيين، أى: يقولون: الله وقد خولف ذلك الظاهر فقالوا: لله.

والسبب - فيما لاح لنا - أن السؤال لما كان عن (رب) ورب الشىء هو مالكه. كان الجواب (لله) مشتملا على المعنيين معًا:

* التعيين بأن رب السموات والعرش هو: الله.

* وملكية الله للسموات والأرض. فما أبلغ هذا النظم العظيم.

* * *

١١ - ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ للهِ، قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٨، ٨٩].

الدراسة والتحليل:

سارت هاتان الآيتان على منهج الآيات الأربع التى فرغنا من الحديث عنها:

سؤال، ثم جواب، ثم تعقيب على الجواب.

السؤال عن تعيين مَنْ بيده الملك كله.

والجواب: الملك كله لله وحده لا شريك له.

والتعقيب: إنكار وتوبيخ لمن يقر بهذه الحقيقة، ثم تأتى بعد ذلك أقواله وأفعاله

عكس ما يقتضيه إيمانه، إنه مسحور ذهب رشده فها هو تعصف به شبهات الباطل عصف السحر برشد الرشيد.

والاستفهامان فى هذه الآية مثل نظرائهما فى الآيات المتقدمة:

الأول: ﴿**قل من بيده ملكوت كل شىء..**﴾ للتقرير بخصوعية الملك لله وحده لا شريك له.

والثانى: ﴿**فأنَّى تسحرون**﴾ لإنكار عدم الاعتداد والغفلة عن المقرر به مع ما يتبع التقرير والإنكار من معان مناسبة كالالزام فى الأول والتعجيب فى الثانى.

واتحد الجواب فى المواطن الثلاثة، فجاء على صيغة واحدة: لله. وهذه اللام فى الأجوبة الثلاثة لإفادة الاختصاص والملكية. ومجموعها كناية عن الإقرار بتوحيد الله وتفرده بالتصرف فى الملكوت.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**قل من بيده ملكوت كل شىء..**﴾ فى هذه العبارة قصر طريقه التقديم والتأخير، فقد قدِّم الخبر أو المسند على المسند إليه، والتقدير: قل ملكوت كل شىء بيد من؟

فأفاد التقديم أن يكون معنى السؤال: من المختص بالتصرف فى الكون. ولكن السؤال صيغ هكذا:

﴿**من بيده ملكوت كل شىء**﴾ لأن معنى الاستفهام فُهِمَ من ﴿من﴾ فهو المقرر به باعتبار ما ذكر بعده فصار مسنداً إليه. والمسند هو ملكوت كل شىء بيده. ثم قدِّم الجار والمجرور ﴿بيده﴾ على ملكوت كل شىء لإفادة اختصاص الله بذلك أى: من بيده لا بيد غيره ملكوت كل شىء؟.

و﴿**بيده**﴾ تعبير حقيقى عند السلف، لأنهم يجرون الصفات الخبرية لله على ظاهرها مع تنزيه الله عن الحوادث.

وكناية عن القدرة عند كثير من الخلف، أو هو تمثيل لخضوع الملكوت لإرادة الله وقدرته.

والملكوت مبالغة فى ﴿**المُلْك**﴾ وتعظيم وتفخيم لشأنه فعبِّر عنه بما يشبه الجمع.

وقد ترقى القرآن فى السؤال فبدأ بالأرض وملابساتها، ثم صعد إلى السموات وعرشها.

ثم جمع فى السؤال الثالث بين ما تفرق فى السؤالين الأولين وهذا فن بديعى هو التفريق والجمع، حيث فرق أولاً بين العوالم الأرضية والعوالم السماوية. ثم جمعها فى ﴿ملكوت كل شىء﴾ كما تدرج فى الفواصل الثلاث على النحو الآتى:

* الفاصلة الأولى كان موضوعها الحث على التذكر بعد إنكار تركه.
* الفاصلة الثانية كان موضوعها الحث على التقوى بعد إنكار تركها.
* الفاصلة الثالثة كان موضوعها إنكار الغفلة والذهول عن الإذعان للحق الذى تقرر فى السؤالات الثلاثة على النسق المذكور.

كما كان الترقى فى عناصر المسئول عنه الثانى مع الأولين:

ففى الأول كان ﴿من فيها﴾ أى: من فى الأرض. وفى الثانى كان ﴿العرش العظيم﴾.

أما فى الثالث فكان المردوف على عنصر المسئول عنه الأول هو: **﴿يجير ولا يجار عليه﴾** أى يمنع من يشاء من أذى من يشاء ولا يملك أحد أن يمنع ما يريده الله بعباده أو بعض عباده وفى هذا طباق السلب، حيث جمع بين فعلى مصدر واحد ﴿يجير - يجار﴾ الأول مثبت، والثانى منفى.

وفى حذف فاعل الثانى وبنائه للمجهول رمز لطيف إلى أن فاعل هذا الفعل معدوم لا وجود له. فحذفه من اللفظ كناية بالغة اللطافة عن عدم وجوده فى الواقع. وهذا من دقائق الايحاءات فى لغة الإعجاز، وإعجاز اللغة.

وعطف جملة **﴿ولا يجار عليه﴾** على جملة **﴿وهو يجير﴾** لأنهما خبريتان لفظا ومعنى فالعلاقة بينهما هى: شبه كمال الاتصال والإجارة مستعارة للحماية، بجامع حسن الرعاية فى كلٍ وتعدية **﴿يجار﴾** بحرف الجر **﴿على﴾** لتضمن يجير معنى ينصر.

* **﴿إن كنتم تعلمون﴾** تهييج وإلهاب، للحمل على النطق بالحق كما تقدم فى الآية الثانية من المجموعة الأولى، وقد أعيد - هنا - لطول الفصل، وترك فى الآية الرابعة من المجموعة الثانية لقرب العهد بذكره فى الآية الثانية من المجموعة الأولى.
* **﴿سيقولون لله..﴾** إيجاز بالحذف، والتقدير سيقولون خضوع الملكوت وكل شىء فيه

وإجارة من أراد إجارته من كل وامتناع أن يجير عليه أحد أحد لله وحده. لا شريك له. كل هذه الجمل والكلمات عُبِّر عنه بجملة وشبه جملة.

ومع هذا الحذف الكثير فأن المراد من هذا التعبير القرآنى الموجز أسرع إلى الفهم من سرعة الضوء.

* ﴿فأنى تسحرون﴾ خـولف فى أداة الاسـتـفـهـام بين هذا الموضع وبين الموضـعين السابقين، فالأداة فيهما كانت الهمزة.

والأداة - هنا - كـانت ﴿أنَّى﴾ والداعى البـلاغى لهذا الاختـلاف، أن الإنكار فى الأولين كان مسلـطا على ترك أمرين محمـودين، وهما التذكر والتـقوى، أما فى هذا الموضع فالإنكار مسلط على أمر مذموم، وهو السحر بمعنى الغفلة والذهول عما يجب الاعتـداد به من صفـات الله مع العلم بها. فـحالهم هذه تدعـو إلى التعـجب وشدة الإنكار. و﴿أنَّى﴾ بمعنى كيف أو من أين. فهى الكفيلة بالوفاء بهذا المعنى من التهويل والتعجيب.

* * *

١٢ - ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٥].

الدراسة والتحليل:

هذا خطاب الله لأهل النار بعـد دخولهم النَّار أخبـر الله به فى الحياة قـبل صدوره إليهم فى الآخرة، والغرض من هذا الإخبـار تحذير عباده من أن يكونوا ممن يقال لهم هذا القول.

وقد صُدِّرت الآية بهذا الاستفهام:

﴿ألم تكن آياتى تتلى عليكم..﴾.

وهو استفهام مجازى قطعًا، أما المعنى المراد منه فهو التقرير والإنذار والتبكيت.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **﴿آياتى﴾** كناية عن القرآن، والسر البلاغى فى إيثارها على الاسـم الصريح، ما فيها

من خصوصية الدلالة على المعجزات الباهرة، لأن لفظ (آية) مشترك بين المعجزة الخارقة لكل معهود، وبين مجموعة الألفاظ المتفق على تسميتها آية.

* ﴿**عليكم**﴾ أوثر حرف الجر (على) على حرف اللام الجارة فقال ﴿**عليكم**﴾ دون: إليكم للرمز بعلو شأن الآية. وما فيها من الإيحاء بمعنى الإلزام والعطف بالفاء فى:

* ﴿**فكنتم بها تكذبون**﴾ للتشنيع عليهم فى سرعة التكذيب وجعله مسببا عن سماع الآيات وتقديم (بها) لما فيه من توكيد التبكيت لإيقاع التكذيب عليها.

* * *

١٣ - ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٢].

الدراسة والتحليل:

وهذه الآية تحكى طرفا مما سيقال لأهل النار الذين كذَّبوا بالبعث فأدخلهم الله النار فرجَوْا الله أن يعيدهم إلى الدنيا مرة أخرى ليُصلِحوا ما أفسدوه فى المرة الأولى، لكن الله يوبخهم ويأمرهم بالصمت وألا يكلموه، ثم يبين لهم لماذا كان هذا مصيرهم، وذلك ما نصت عليه الآيات الآتية:

﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ * إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِى، وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّى جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦ - ١١١].

وبعد هذه الآيات وردت آيتنا هذه يتصدرها هذا الاستفهام:

﴿**كم لبثتم فى الأرض..**﴾ وقد تجاوزه الأئمة كما تجاوزوا ما قبله.

وخلاصة ما يقال فيه: أنه استفهام مجازى، وأن معناه هو تذكيرهم بقصر إقامتهم فى الدنيا التى قصروا هممهم عليها مع تحسيرهم وتنديمهم على ما فرطوا فيها وعلى ما جنوا على أنفسهم.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**قال....**﴾ القائل هو الله عز وجل، بدليل قوله تعالى قبيله:

﴿... **اخسئوا فيها ولا تكلمون**﴾ ويكون فى الكلام التفات من التكلم إلى الغيبة.

لأن ما تقدم على هذه الآية مباشرة هو قوله تعالى:

﴿**إنى جزيتهم اليوم بما صبروا...**﴾.

وقد فصلت هذه الجملة عما قبلها ولم تعطف عليها وكلتاهما خيريتان لفظا ومعنى؛ لأن الثانية استئناف مسوق للانتقال من الحديث عن المؤمنين الفائزين برضوان الله تعالى إلى العودة للحديث مع أصحاب النار. فباينت الجملة الأولى ـ مضمونا وصورة ـ الجملة الثانية شكلا ومعنى.

* ﴿**كم لبثتم فى الأرض**﴾ كم كناية عن حقيقة المدة الملبوثة فى الأرض وتعدية اللبث بحرف الجر (فى) يرشح أن يكون هذا السؤال عن مدة لبثهم فى قبورهم بعد الموت؛ لأنه لو كان المراد السؤال عن لبثهم فى الحياة الدنيا، لتعين أن يُعدَّى الفعل بحرف الجر (على) فلما عُدِّى بـ (فى) احتملت العبارة كلا المعنيين وإذا كان المسئول عنه هو لبثهم فى القبور فإن المعنى البلاغى المراد منه حينئذ هو إظهار جهلهم بما لبثوا وتمكن قدرة الله من التصرف فيهم إحياء وإماتة وبعثا، وكانوا من قبل ينكرون هذا البعث.

وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿**فى الأرض**﴾ كناية عن القبور.

* ﴿**عدد سنين**﴾ تمييز (كم) وسر ذكره بلاغيا، وكان يمكن أن يكتفى بـ ﴿**كم لبثتم**﴾ كما قال للذى مرَّ على قرية.. ثم أماته الله مائة عام ثم بعثه: ﴿**كم لبثت**﴾[1]، أن سر ذكر التمييز ﴿**عدد سنين**﴾ هنا؛ ليظهر كمالُ جهلهم حين أجابوا فقالوا ﴿**لبثنا يوما أو بعض**﴾ [المؤمنون: ١١٣].

لأن الفرق بين ﴿**عدد سنين**﴾ وبين ﴿**يوما أو بعض يوم**﴾ فرق هائل.

وهذا يؤكد ما قلناه من أن المراد من هذا الاستفهام: التجهيل.

* * *

(١) انظر السفر الأول من هذه الدراسة (٢٠٠).

١٤ - ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً، وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾

[المؤمنون: ١١٥].

الدراسة والتحليل:

ما يزال القرآن الحكيم يتحدث عن منكرى البعث، وهذا الخطاب يقال لهم وهم فى دركات الجحيم، حيث تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون.

إن إنكارهم للبعث جريمة نكراء، يترتب عليها أنهم لم يفقهوا حكمة خلق الله لهم فى الدنيا، والعقلاء لا يعملون عملاً إلا ولهم منه قصد:

إما دفع ضرر، أو جلب نفع، فكيف تكون تصرفات أحكم الحاكمين لغواً وعبثاً لا حكمة فيها ولا غاية؟

من أجل هذا خاطبهم الله هذا الخطاب الكاشف عن جهلهم وغباوتهم.

أيخلق الله هذا الكون وما فيه من آيات عظام بلا حكمة فى خلقه وتسييره وتدبير أموره؟ كلا ولكن الذين كفروا لا يفقهون.

وقد استهل النظم الحكيم هذه الآية بهذا الاستفهام: **﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً..﴾**؟

وفى بيان الاستفهام يقول الإمام جار الله الزمخشرى: (أى ما خلقناكم للعبث، ولم يدعنا إلى خلقكم إلا حكمة اقتضت ذلك، وهى: أن نتعبدكم ونكلفكم المشاق من الطاعات وترك المعاصى، ثم نرجعكم من دار التكليف إلى دار الجزاء فنثيب المحسن، ونعاقب المسئ..[1]).

لم ينص الإمام الزمخشرى على المعنى المجازى للاستفهام، ولكن كلامه يفهم منه أنه استفهام إنكار وتأنيب.

وكذلك فعل الإمام أبو السعود، حيث يقول: (أى: ألم تعلموا شيئاً فحسبتم أنما خلقناكم بغير حكمة بالغة حتى أنكرتم البعث[2])، ونحا نحوهما الإمام الألوسى[3].

---

(١) الكشاف: (٣/ ٤٥). (٢) تفسير أبى السعود: (٦/ ١٥٣).

(٣) روح المعانى (١٨/ ٧٢).

والخلاصة: أن هذا الاستفهام للإنكار والتأنيب، والمنكر فيه أمران:

الأول: حسبانهم - ظنهم - أن الله خلقهم للعبث بدون حكمة حكيمة من خلقهم.

الثانى: أنهم بعد موتهم لا يبعثون.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**أفحسبتم**﴾ أوثر هذا الحسبان على الظن؛ لأن الحسبان أقوى والمقام يقتضى إيثاره؛ لأن منكرى البعث كان إنكارهم إياه قريباً من اليقين.

* ﴿**أنما خلقناكم عبثاً**﴾ هذا متعلق الإنكار الأول، وقدِّم على ما عطف عليه لأنه أعم منه، وسبب فيه، فهم ما أنكروا البعث إلا بعد أن أفرغوا خلقهم ووجودهم من أية حكمة أو غاية لله فيه، فتقديمه على حسبانهم عدم الإرجاع إلى الله مراعى فيه اعتباران: (أ) كونه أعم منه. (ب) كونه سبباً فيه.

والتوكيد فى (**أنما خلقناكم عبثا**) تصوير لما كان يدور فى نفوس منكرى البعث من قوة الإنكار، ولولا إرادة هذا التصوير لقيل - مثلا -:

أحسبتم خلقنا لكم عبثا، لكن لما كانوا يكادون يجزمون بهذه الفكرة عبَّر القرآن الأمين بما يناسب قوة الفكرة عندهم.

وإيثار الماضى (**خلقناكم**) على المضارع: نخلقكم، لأنه خطاب لأحياء مخلوقين، وإن كان سيردد لهم بعد دخولهم النار كما دلت على هذا الآيات المتقدمة.

* ﴿**وأنكم إلينا لا ترجعون**﴾ وتوكيد الجملة - هنا - جار على نسق توكيده فى الجملة المعطوف عليها، للدلالة على أن فكرة إنكار البعث عندهم لم تكن مجرد خاطرة أو هاجسة عابرة، بل كانت متمكنة عندهم، ولو لم يُرَدْ هذا المعنى لقيل - مثلاً -:

ولا إلينا ترجعون، ولكن لما كانوا يقاربون درجة اليقين فى إنكارهم للبعث صاغ النظم الحكيم المعنى كما كانوا يرونه فى عبارة تناسبه.

والإرجاع المفهـوم من الفعل (**تُرجعون**) كناية عن البـعث الذى كـرروا إنكاره فى حياتهم مرات كما ورد فى الكتاب العزيز، الذى لا ينطق إلا بالحق.

وبهذا حاصرت سورة (المؤمنون) شبهات منكرى البعث.

فكشـفت زيفـهـا، ومـحت بـاطلهـا، بأقطع الأدلة من النقـل والعـقل، والواقع المحسوس، وقامت لله الحجة عليهم، وكل امرئ بما كسب رهين.

* * *

سورة النور

١ - ﴿وَلاَ يَأْتَلِ أُولُواْ الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا، أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ، وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

سورة النور مدنية، وتكاد تكون وقفاً على التشريع فى مجال الأسرة مع إشارات إلى آيات الله فى الكون وتمجيد الله عزَّ وجل، وورود الاستفهام فيها قليل.

الدراسة والتحليل:

وقد نزلت هذه الآية الكريمة فى شأن أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - أيام حديث الإفك، لأن أبا بكر كان ينفق على قريبه المهاجر مسطح، ولما وقع حديث الإفك كان مسطح هذا من الخائضين فيه بسوء فأقسم أن يتوقف عن الإنفاق على مسطح لخوضه فى ترويج السوء عن أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - الصديقة بنت الصديق، ولما نزلت هذه الآية وقرأها النبى ﷺ على أبى بكر عاد رضى الله عنه إلى إجراء النفقة على مسطح.

وقد ورد فى الآية هذا الاستفهام:

﴿ألا تحبون أن يغفر الله لكم..﴾؟

لم نجد للأئمة آية إشارة إلى هذا الاستفهام، إما لوضوح معناه المجازى المراد، وإما لجواز أن تكون (ألا) فيها هى التحضيضية.

وعلى اعتبارها استفهاماً دخلت فيه الهمزة على (لا) النافية فإن المعنى المجازى المراد منه هو: الحث والترغيب فى الإنفاق فى سبيل الله، وإن أساء إلى المنفق مستحقُّ العطاء، وبخاصة إذا كانوا من ذوى القربى وذوى الأعذار الشديدة، وهذه خلاصة لما يقال فيه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**ولا يأتل أولوأ الفضل منكم والسعة..**﴾ عطفت هذه الجملة على جملة ﴿**لا تتبعوا خطوات الشيطان**﴾ فى الآية قبلها لـلتوسط بين الكمالين على ما تقدم بيانه مرات: أى لا تتبعوا خطوات الشيطان ولا تقسموا على حرمان المستحقين للعطاء.

* ﴿**أولوا الفضل..**﴾ أصحاب العراقة فى الدين، أو الأغنياء الذين يملكون من المال ما يزيد على حاجتهم، والأثرياء الذين وسَّعَ الله عليهم فى الرزق.

وقد أشرنا من قبل إلى أن النظم القرآنى يضيف (أولوا) بمعنى أصحاب إلى ما هو جزء منه أو كالجزء، فإذا كان المضاف إليه منفصلاً عن المضاف أوثر (أصحاب) على (أولوا) كأصحاب الأخدود، وأصحاب القرية.

* (**أن يؤتوا**) فيها إيجاز بالحذف، والتقدير أن يؤتوا بعض أموالهم.

وفى (**يؤتوا**) كناية عن شدة الكرم والسخاء، أى لا ينتظرون قدوم صاحب العذر بل يبادرونه بالذهاب إليه وإعطائه ما يزيل كربه قبل أن يسأل هو العطاء.

* ﴿**أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله**﴾ ذكرت هذه الصفات لترقيق قلوب الأغنياء للفقراء، و(**فى سبيل الله**)، إما قيد فى الإيتاء، أو قيد فى المهاجرين، والأول أصوب لأن الإعطاء إذا كان لغير وجه الله وابتغاء مرضاته فلا فضل فيه حتى يحث عليه ويرغب فيه.

* (**وليعفوا وليصفحوا**) عطفت على ما قبلها للتوسط بين كمال الاتصال وكمال الانقطاع.

وفى الجمع بين العفو والصفح مراعاة نظير، والعفو ترك المؤاخذة، والصفح هو صفاء النفس من آثار الإساءة ومتعلق العفو والصفح محذوف تقديره عنهم.

* ﴿**ألا تحبون أن يغفر الله لكم**﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب مبالغة فى الترغيب فى المغفرة، واستمالة للنفوس نحو التحلى بأسبابها.

وإسناد المغفرة إلى (الله) لاستنهاض الهمم نحو العمل الصالح، والأخذ بالتى هى أحسن.

* ﴿والله غفور رحيم﴾ تذييل مقرر لمضمون الكلام قبله، وحث وترغيب فى الحصول على المغفرة، والمسارعة فى أعمال الخير المقربة منها.

* * *

٢ - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ، كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحهُ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

الدراسة والتحليل:

بعد أن مثَّل الله تمثيلاً رائعاً لأعمال الذين كفروا لبيان خيبة مسعاهم مثَّله بالسراب الخادع مرة، وبالظلمات الحالكة مرة أخرى، بعد هذا التمثيل أشار فى هذه الآية التالية لآيتى التمثيل أن كل شئ فى الوجود يسبح بحمده ويصلى له، ما عدا هؤلاء الذين كفروا بربهم وبارزوه بالمعاصى، وأن ذلك التسبيح ينبغى ألا يُنازَعَ فيه، وكان مطلع الآية هو هذا الاستفهام:

﴿ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض..﴾؟

لم يقل الإمام جار الله شيئاً فى هذه الصورة، أما الإمامان أبو السعود والألوسى فقد أبانا أن الهمزة فيه للتقرير، وأن الرؤية علمية ورجَّح الألوسى أن يكون إطلاق الرؤيا على العلم حقيقة لا مجازاً[1] ولم يخرج بقية الأئمة عما قالاه.

والخلاصة: أن هذا الاستفهام للتقرير، والرؤيا - هنا - علمية لا محالة، ويردف على التقرير أمران:

الأول: التنبيه على جلال الله وعظمته وخضوع الكائنات له.

الثانى: التعريض بغباوة الذين كفروا وإجرامهم فى حق أنفسهم.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **﴿ألم تر..﴾** الخطاب ابتداء للنبى ﷺ، ثم لكل مكلف من بعده.

والرؤيا علمية لا بصرية، والتقدير: ألم تعلم، واستعمال الرؤية فى العلم،

---

(١) تفسير أبى السعود (٦/ ١٨٢)، وروح المعانى (١٨/ ١٨٦).

استعارة تصريحية تبعية حيث شبه العلم الحاصل بإخبار الله الصادق بالمرئى بالبصر، بجامع كمال الإيقان فى كل منهما.

* ﴿**أن الله يسبح له..**﴾ هذا متعلق الرؤيا، وتوكيد الخبر فيه بـ(أن) والجملة الإسمية للدلالة على تحققه فى الواقع بحيث لا ينزع إليه ريب ومجئ الخبر جملة فعلية (**يسبح**) لتوكيد مضمونه عن طريق تكرار النسبة، فالجملة من الفعل والفاعل مسندة إلى الله، والضمير فى (له) عائد على الله، فكأن جملة الخبر أسندت إلى الله مرتين وإيثار المضارع (**يسبح**) لإفادة وقوع هذا التسبيح فى جميع الأزمان.

* ﴿**من فى السموات والأرض**﴾: (من) فاعل (يسبح) و(**من فى السموات**) كناية عن موصوف هو الملائكة.

والواو فى (**والأرض**) عاطفة على محذوف دل عليه المذكور قبله، والتقدير: ومن فى الأرض، وتقديم (**من فى السماء**) على من فى (**الأرض**) لأشرفية المقدم على المؤخر، والمراد بـ: من فى الأرض العقلاء المكلفون على طريق الكناية عن موصوف والسر فى حذف (من) المعطوف على (مَنْ) الأولى الرمز أن إلى أهل الأرض المسبحين لله يرفعهم تسبيحهم إلى مصاف الملائكة.

* (**والطيرُ صافات**) قراءة الجمهور رفع الطير معطوفاً على (من) فى ﴿**من فى السموات**﴾ أى: وتسبح له الطير كذلك وإفراد الطير بالذكر وإن كانت من كائنات الأرض، لأنها كثيرة الطيران فصارت بهذا جنساً وسطاً بين أهل السموات وأهل الأرض، فخصت بالذكر على هذا الاعتبار.

والسر فى تقييدها بـ(**صافات**) التعجيب من ذكرها وتسبيحها لله وهى فى هذه الحالة المخيفة فى الجو، أو للإيحاء بأنها تشكر الخالق العظيم الذى منحها القدرة على الطيران وجعل سيرها فى الفضاء أيسر من سيرها على الأرض.

* وفى حذف الفعل معها إيجاز بالحذف للعلم بالمحذوف مما قبلها والتقدير: وتسبح لله الطير صافات: أى حالة كونها طائرة صفوفاً أو صافات أجنحتهن.

* ﴿**كل قد علم صلاته وتسبيحه**﴾ استئناف مسوق لتقرير ما قبله.

وفى (كلٌ) إيجاز بالحذف أعنى التنويه فيه إلى ذكر ما يطول ذكره من أنواع المخلوقات التى تسبح لله.

وفاعل (علم) إما الله عز وجل، أى علم صلاة وتسبيح كل نوع من أنواع المخلوقات بلغاتها المختلفة.

وإما كل واحد من المخلوقات علم كيفية الصلاة والتسبيح لله وهداه الله إلى الصلاة التى يصليها، والتسبيح الذى يسبحه، وهذا هو الأقرب والأصوب لقوله تعالى: ﴿وإن من شئ إلا يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ [الإسراء: ٤٤].

وتقديم الصلاة على التسبيح لاشتمالها عليه فى عرف المخاطبين.

* ﴿**والله عليم بما يفعلون**﴾ استئناف لبيان أن الله محيط بكل أفعالهم، ومنها الصلاة والتسبيح.

وأوثر (**عليم**) على (عالم) لما فى الصفة المشبهة باسم الفاعل من تمكن الصفة بالموصوف ودوامها، وهذه الجملة المستأنفة تدل على الضمير المرفوع فى قوله تعالى:

* ﴿**كل قد علم صلاته وتسبيحه**﴾ لكل فرد من المسبحين أو كل نوع منهم: الملائكة - البشر - الجن - الدواب - الطير؛ لأن الضمير لو كان عائداً على الله للزم التكرار - بلا داع - فى جملة: ﴿**والله عليم بما يفعلون**﴾ وهذا هو الأنسب بالمقام لأنه يترتب عليه الآتى:

* أن تلك الأنواع تعلم كيف وبم ولماذا تسبح الله وتصلى له.
* وأنه يعلم كل ذلك ويحصيه فى كتاب لا يضل فيه ولا ينسى.

* * *

٣ - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِه وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يشَاءُ، وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ، يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٣].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية امتداد للآية السابقة من حيث الغرض العام وهو تمجيد الله عز وجل بآياته العظمى فى الحياة والإحياء، آية تلفت أنظارنا إلى فوق، لنقرأ كتاباً تتحرك أمام ناظرينا صوره وألوانه ورسوماته عجباً عاجباً.

فالله يكون السحب فى الفضاء الأفقى، يكون من قطرات الماء وذراتها ويدفعها دفعاً حكيماً فى اتجاهات وأبعاد هندسية بديعة الصنع، ثم يصنع من تلك الذرات والقطرات والأدخنة كتلاً كالسقوف المرفوعة ذات ألوان ومساحات وحركة، وفق نظام حكيم، وأحجام سميكة، ترى قطيرات الماء تتناثر من فجواته فى بعض حالات له وفى حالات أخرى يتدفق منها الماء غزيراً فى بعض الأماكن، ويمر مراً سريعاً فى بعض الأماكن دون تدفق، وفق إرادة العلى العظيم، وقد يرى منه الضوء الصافى يقارب أن يخطف الأبصار الناظرة إليه من شدة لمعانه وصفاء مرآه، كل هذه المعانى دُفِعَتْ إلينا دفعاً بواسطة هذه الجملة الاستفهامية (**ألم تر...**).

والأئمة - جميعاً - مجمعون على أن الاستفهام - هنا - تقريرى وأن الرؤية فيه بصرية كما يقرره الواقع، والتقرير المستعمل فيه الاستفهام من حيث أنه تقرير له معانٍ تردف عليه، من أبرزها التذكير والاعتبار بآثار رحمة الله وقدرته الفائقة.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**ألم تر أن الله يزجى سحاباً**﴾: توكيد الخبر إشارة إلى تحقق مضمونه، واشتهار حدوثه فى الحياة.

وتنكير (سحاباً) لإفادة الكثرة والتعظيم، وهما أمران ملاحظان لكل حى.

وإيثار المضارع (يزجى) على الماضى للدلالة على حدوث الظاهرة فى الحال وفى الاستقبال؛ لأنها سنة الله فى الحياة.

* ﴿ثم يؤلِّف بينه﴾ العطف بـ(ثم) لتصوير الواقع تصويراً أميناً، لأن بين تصاعد الأبخرة المائية فى الأفق، وبين تكوين السحاب منها فترات من الزمن، والتعبير عنه أولاً بـ(سحاباً) مجاز مرسل علاقته اعتبار ما سيكون؛ لأن مرحلة تصاعد الأبخرة سابقة على مرحلة تكوين السَّحاب والتأليف هنا معناه الضم والجمع والتسخير، وعُبر عنه - أى عن الضم - بالتأليف على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، وسرها سرعة الانقياد والالتئام كأنها قلوب متآلفة ينزع بعضها إلى بعض.
* ﴿ثم يجعله ركاماً﴾ أى طبقات بعضها فوق بعض، والعطف بـ(ثم) مرة أخرى للأعلام بمرحلة ثالثة من مراحل تكوين السحاب، وحملها لكتل هائلة من الماء تحجب ضوء الشمس ونور القمر، وتلطف الهواء للحيلولة بينه وبين حرارة الشمس.
* ﴿فترى الودق يخرج من خلاله﴾ الودق الغيث والمطر، والرؤية هنا بصرية، والفاء لعطف مرحلة على مرحلة مع إفادة الترتيب دون التعقيب بدلالة الواقع، لأنا كثيراً ما نرى السحاب دون أن يمطر.
* ﴿وينزل من السماء من جبال فيها من برد﴾ الواو للاستئناف غير البيانى، أو هى عاطفة على (يزجى) وما بعد الواو مؤذن باختلافه عما قبلها، فما قبلها كان لمراحل تكوين السحاب وما بعدها للامتنان بتنزيل الماء من السحب، ولا يقدح فى هذا ما مرَّ من قوله تعالى: ﴿فترى الودق يخرج من خلاله﴾، إذ لا مانع من أن يكون المراد من الودق القطيرات المائية الخفيفة كما هو مشاهد فى حالات كثيرة، بدليل أن النظم عبَّر عنه بـ(يخرج) مع تسميته ودقاً، أما هنا فقال: (**وينزِّل من السماء ماءً**)، وصيغة التضعيف فى (ينزِّل) للتكثير كما سماه (ماء) وتنكيره للتكثير والتعظيم.
* ﴿من جبال فيها من برد﴾ (من) الأولى لابتداء الغاية و(من) الثانية للتبعيض، و(من) الثالثة بيانية والتقدير: ينزل من السماء من جبال فى السماء من برد ماءً وقُدِّم الماء لأهميته؛ ولأنه محط الإنعام.

وفى (**جبال**) استعارة أصلية شبهت فيها مصادر الماء العلوية بالجبال فى ضخامتها،

وهذا تصوير مطابق للواقع، فقد شاهدنا - مرات - من الطائرات التى تسير فوق السحب، شاهدنا السحب مثل الجبال فى ضخامتها وارتفاعها، ولها سفوح كسفوح الجبال، وقمم كقمم الجبال ولها طول وعرض وارتفاع وإن كنا نراها ونحن على الأرض سطحاً مستوياً.

(**فيصيب به من يشاء، ويصرفه عن من يشاء**)، من إيجاز الحذف فى هاتين الجملتين حذف متعلق المشيئة بعد الفعلين (**يصيب - يصرف**)، والتقدير يصيب به من يشاء أن يصيبه به، ويصرفه عمن يشاء أن يصرفه عنه.

وفى الجملتين حسن التقسيم واستقصاء الأقسام إذ لا ثالث لهذين القسمين المذكورين.

وبين الإصابة والصرف طباق إيجاب ﴿**يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار**﴾ استعارة بالكناية، حيث شبه سنا البرق بذى إرادة وقوة، يستلب الأبصار ويذهب بها، وسرها المبالغة فى وصف السنا بالصفاء.

* * *

٤ - ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ، بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [النور: ٥٠].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية إطلالة سريعة على أحوال المنافقين، الذين أبطنوا الكفر وأظهروا الإيمان، اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله وكانوا يتلونون حسب المواقف ويلبسون لكل حالة لبوسها يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم، ولكن الله كان يفضح نياتهم ويكشف لرسوله دخائل أنفسهم.

وفى هذا الإطار وردت آيتنا هذه، فجاءت تعقيباً على مواقف ملتوية لهؤلاء المنافقين حكاها القرآن الأمين فى الآيات الثلاث الآتية، الواردة قبل هذه الآية مباشرة:

﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا، ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُعْرِضُونَ * وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ..﴾.

وقد أدلى كل إمام برأيه فى هذه الاستفهامات الثلاثة وكان أوفاهم عرضاً الإمام أبو السعود، ونذكر ما قاله لوفائه (**أفى قلوبهم مرض..**) إنكار واستقباح لإعراضهم المذكور وبيان لمنشئه، بعد استقصاء عدة من القبائح المحققة فيهم والمتوقعة منهم، وترديد المنشئية - أى أسباب الأعراض - فمدار الاستفهام ليس نفس ما وليته الهمزة وأم من الأمور الثلاثة بل هو منشيئتها له، كأنه قيل:

أذلك - أى إعراضهم المذكور - لأنهم مرضى القلوب لكفرهم ونفاقهم (أم) لأنهم ارتابوا فى أمر نبوته ﷺ مع ظهور حقيقتها؟ (أم) لأنهم (**يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله**) ثم أضرب عن (الكل) وأُبطلت منشئيته وحُكِمَ بأن المنشأ شئ آخر من شنائِعهم، حيث قال: (**بل أولئك هم الظالمون**)، أى ليس ذلك لشئ مما ذكر..

هذا قوله، وقد أظهر الإمام أبو السعود أستاذية ماهرة فى غوصه وراء المعانى الدقيقة فى هذه الآية، وفتق أكمام زهرها.

فالإنكار فى الصور الثلاث مسلط على الأعراض، أما ما ذُكر عقب أداتى الاستفهام - الهمزة وأم - فلنفى أن يكون ما بعدهما فى المواضع الثلاثة سبباً فى الإعراض عن الرسالة والرسول، بل السبب هو كونهم هم الظالمين، فليس المرض الذى فى قلوبهم ولا الريب ولا خوف الحيف هو الصارف لهم عن الإذعان، بل هو الظلم والجهل المتأصل فى طباعهم، ثم تابعه الإمام الألوسى فى هذا، واتفق الإمامان أن الاستفهام فى المواضع الثلاثة إنكارى، وأن المنكر هو سببية مرض قلوبهم وارتيابهم وخوفهم فى الإعراض عن رسول الله ﷺ مع اعتماد الظلم الموصوفين هم به سبباً فى الإعراض[1].

أما الإمام البيضاوى فيتفق ويختلف معهما، يتفق معهما فى نفى أن يكون ما بعد (أم) فى الموضعين الثانى والثالث سبباً فى الإعراض ويختلف معهم، حيث جعل سبب الإعراض هو المرض الذى فى قلوبهم وهما كانا قد جعلا سبب الإعراض هو الظلم المتأصل فيهم[2].

---

(١) تفسير أبى السعود (٦/ ١٨٧)، وروح المعانى (١٨/ ١٩٤، ١٩٥).

(٢) تفسير البيضاوى (٢/ ١٢٨، ١٢٩).

والخلاصة: أن الأئمة انقسموا قسمين فى بيان المراد من هذه الاستفهامات الثلاثة:

فأبو السعود والألوسى ومعهم الطيبى كما أشار الشهاب الخفاجى[1] يرون أن الإنكار منصب على ما ولى الهمزة وأم فى المواضع الثلاثة، وأن سبب إعراض المنافقين عن حكم رسول الله ﷺ هو الظلم الموصوف به المنافقون.

والإمام البيضاوى يسلط الإنكار على ما بعد (أم) فى الموضعين ويعتمد الأول سبباً فى الإعراض، على اعتبار أن (أم) فى الموضع الأول منقطعة.

والذى لاح لنا - وله سبب وجيه - أن الاستفهام الأول **﴿أفى قلوبهم مرض﴾** للتقرير والتوبيخ؛ لأن المنافقين مرضى القلوب، وقد ورد هذا صريحاً فى آيات الذكر الحكيم[2]، فهو إذاً سبب إعراض المنافقين عن حكم رسول الله بينهم وبين خصومهم.

أما الاستفهامان الثانى **(أم ارتابوا)** والثالث **(أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله)** فهما للإنكار أو النفى وهو الأدق.

فما قاله الإمام البيضاوى - وإن لم يوجهه هذا التوجيه - كلام مقبول، وأحرى بالرضا والإقناع، ويشفع لنا وله أن النظم الحكيم قدَّم مرض قلوبهم على الارتياب والخوف المذكورين بيد أننا لا نوافق البيضاوى على جعل (أم) منقطعة حسبما فهم الشهاب من كلامه، بل هى أحرى أن تكون لمجرد العطف فيها رائحة الاستفهام بسبب عطفها على استفهام محض، والله أعلم بسر كتابه، وما شهدنا إلا بما يرجحه المقام.

أسرار النظم وبلاغياته:

نكتفى فى هذا المبحث - هنا - بالإشارة إلى أسلوب القصر فى **(بل أولئك هم الظالمون)**، حيث حصر النظم الظلم الكامل فى المنافقين لتوقعهم الارتياب فى عدالة النبى ﷺ، وخوفهم من جور يقع عليهم فى حكمه، وطريق القصر فيه هو تعريف الطرفين وضمير الفصل

* * *

---

(١) حاشية الشهاب (٦/ ٣٩٥).

(٢) من ذلك قوله تعالى فى سورة البقرة آية ١٠: ﴿فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾.

سورة الفرقان

١ - ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً﴾ [الفرقان: ٧].

الدراسة والتحليل:

سورة الفرقان مختلف فيها أمكية هى أم مدنية؟ أم بعضها مكى وبعضها مدنى؟ ومن ينظر فى موضوعات هذه السورة يجدها أشد شبهاً بالموضوعات التى طرقها القرآن بمكة، قبل الهجرة إلى المدينة، مثل الطعن فى القرآن وعزوه إلى أساطير الأولين ثم الإعراض عنه، واستبعاد أن يكون رسول من البشر وعكوفهم على عبادة الأصنام.

ومن خصائص هذه السورة بناء الفواصل فيها، فإنها مبتناة على حرف الراء فى الأغلب، فإن خرجت عنه فى آية أو أكثر سرعان ما تعود إليه.

بل نجد جميع فواصلها تنتهى بالتنوين بعد الفتح مهما كان حرفها الأخير إلا فى بضع كلمات.

وأول آية ورد فيها استفهام من آياتها هى السابعة، فقد ورد فيها قول المشركين محكياً هكذا:

﴿وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق﴾؟ وهو تصور غريب منهم، واقتراح جاهل، حيث أنكروا على الرسول تناول الطعام والسير فى الأسواق، واقترحوا أن ينزل إليه ملك يتولى الإنذار ويسير الرسول خلفه وهو صامت!!

كما اقترحوا أن يُرمى إليه كنز من السماء من أنفس الجواهر أو تغرس له جنة (حديقة) يأكل منها!

أنكروا عليه أكل الطعام هكذا، ثم أباحوه له، فأى الأمرين يريد هؤلاء السفهاء؟

وقد حمل الأئمة هذا الاستفهام على الإنكار، وحرف الاستفهام دخل على جملة محكية عنهم ذات شقين:

الأول: إثبات الرسالة من حيث الظاهر.

والثاني: إنكار أكل الطعام والمشى فى الأسواق الواقعين من الرسول ﷺ.

وقد فطن من تعرض لهذا الاستفهام من الأئمة إلى أن الإنكار الواقع على الأكل والمشى فى الأسواق مراد منه تسليطه على الرسالة نفسها، ثم أنهم - أى المشركين - لم ينكروا ما أنكروا صراحة، بل سلكوا مسلك الكناية؛ لأن قولهم ﴿**مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق**﴾ يتساءلون عن السبب الحامل له على الأكل والمشى فى الأسواق، وكنوا بهذا التساؤل عن نفى ذلك السبب، لأنه لو كان موجوداً ما جاز السؤال عنه، وإذا كان السبب معدوماً لزم أن يكون المسبب عليه، وهو الأكل والمشى فى الأسواق معدوماً مثله، ولكنهم يرونه واقعاً من الرسول، فلذلك أنكروه عليه.

وقصدهم من هذا كله، أنه - لو كان رسولاً كما يدعى - ما أكل الطعام ولا مشى فى الأسواق فأكله الطعام ومشيه فى الأسواق دليلان على أنه ليس رسولاً.

تناول الأئمة هذه المعانى فى عبارات مختلفة فآثرنا صوغ ما قالوه فى هذا التلخيص، وهو خلاصة وافية لما قيل عن هذا الاستفهام[1].

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**وقالوا مال هذا الرسول**﴾ هذه الجملة معطوفة على قوله تعالى [آية: ٤] ﴿قال الذين كفروا إن هذا إلا أفك افتراه..﴾، لأن النظم القرآنى يسرد أقوال المشركين، أما ما جاء بين المعطوف والمعطوف عليه من قوله تعالى [آية: ٦] ﴿**قل أنزله الذى يعلم السر..**﴾، فاعتراض بين المتعاطفين مسوق للرد على شبهة المشركين التى أوردوها للطعن فى القرآن.

* ﴿**مال هذا الرسول**﴾ استفهام عن السبب - أى: أى سبب دعاه إلى الأكل والمشى فى الأسواق إذا كان رسولاً، جعلوا الاستفهام عن السبب كناية عن نفى المسبب،

---

(١) الكشاف (٣/ ٨٢)، تفسير أبى السعود (٦/ ٢٠٣)، وروح المعانى (١٨/ ١٨٧)، والبحر المحيط (٦/ ٤٨٣).

كما جعلوا نفى المسبب كناية عن نفى الرسالة، بالطريق البرهانى من حيث البناء التركيبى على زعمهم.

واسم الإشارة (**هذا**) مراد به التحقير والسخرية منهم برسول الله ﷺ تنزيلاً لضعة المكانة - عندهم - منزلة دنو المكان.

وأثبتوا الرسالة له عليه الصلاة والسلام لفظاً مريدين إنكارها معنى وواقعاً، ولأن الوصف بالرسالة ينافى ما ذكروه بعد من أكله الطعام ومشيه فى الأسواق - حسب زعمهم - ولذلك لم يقولوا: ما لمحمد بن عبد الله يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق؛ لأن ذكر الاسم الصريح يُفوِّت عليهم غرضهم من الكلام.

* ﴿**يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق**﴾ إيثار الفعل المضارع فى (**يأكل - يمشى**) لتقوية الإنكار الذى قصدوه، فهو يأكل ويمشى كلما احتاج إلى الأكل والمشى فى الأسواق فى جميع الأزمان، يعنى أن ما ينافى الرسالة - عندهم - هو عادة له تتكرر بتكرار دواعيها، وهذا الغرض الذى قصدوه لا يصلح له إلا الفعل المضارع.

وفى إيثار (**يمشى**) من حيث لفظه ومعناه خصوصية أخرى جعلتهم يعبِّرون به دون الفعل (**يسعى**) الآن يمشى يدل على معنى التباطؤ والتأنى، دون يسعى الذى يدل على السرعة، والمناسب لغرضهم هو الأول، إشارة إلى أنه يمشى فى الأسواق من أجل اقتناء ملاذ الطعام والشراب والمنافع الأخرى التى يغشى الناس الأسواق من أجلها.

* ﴿**لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً**﴾: لولا أداة تحضيض وحث، حكمها حكم الاستفهام فى نصب المضارع الواقع جواباً لها، وهو - هنا - (**فيكون**)، وبناء الفعل (أُنْزِل) لما لم يسم فاعله، تصوير دقيق لما كان يعتمل فى نفوسهم حين قالوا هذا الكلام، لأن غرضهم منه هو نفى الرسالة عنه ﷺ، ولو كانوا قد صرحوا بذكر الفاعل فلا مناص لهم من أن يقولوا:

لولا أنزل الله إليه ملك، فيفوِّت ذكر اسم الله عليهم كمال الغرض الذى أرادوه، حيث كانوا سيعترفون بإثبات الصلة بين الله وبينه، وهذا مالا تساعدهم عليه أنفسهم

واقتصارهم على النذارة دون البشارة فى قولهم المحكى عنهم **(فيكون معه نذيراً)** لأنهم لم يعملوا شيـئاً حسناً قط تمتلئ أنفسـهم أملاً فى الجزاء الحسن عليـه، بل كان يخيم على قلوبهم شؤم معاصيهم ولجاجة ألسنتهم، فلم يروا فى رسالات الرسل إلا الإنذار على الشرك والمعاصى، ولو كـانوا يستشعرون حسن جـزاء على عمل حسن لهم حين قالوا هذا القول لضمـوا البشارة إلى النذارة مقدمة أو مؤخرة عليـها، ولكن الأمر كما قال الشاعر الحكيم:

إذا سـاء فـعل المـرء سـاءت ظنـونه
وصـدّق مـا يعـتـاده من تـوهم

وكما قال الآخر: وكل إناءٍ بالذى فيه ينضح.

أو كما جاء فى المثل المعروف: ما فيك يظهر على فيك.

وقول الآخر:

إن الـكـلام لـفـى الـفـؤاد وإنما
جـعل اللسـان عـلى الفـؤاد دليـلاً

* * *

٢ - ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ، كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً﴾
[الفرقان :١٥].

الدراسة والتحليل :

هذا خطاب سيقـال لأهل النار، عندما يتأهبون لدخولها أمـر الله رسوله أن يواجه به المشركين، موازنا بين المصير المؤلم لأمثـالهم، وبين مصير الأتقياء البررة، وهو جنة الخلد وقد جاء فى الآية الاستفهام فى حيز الأمر بالقول **(قل أذلك خير أم جنة الخلد)**.

هذا الاستفـهام تركه الأئمة ولم ينصوا - صـراحة - على المراد منه، ونحن نرجع ذلك إلى الأمرين اللذين أشرنا إليهما من قبل وهما:

* كثرة ما أوضحوه فى نظائره من قبل.
* وضوحه فى نفسه.

إذ لا يخفى أمره على بديهة النظر، ولا يختلف حوله اثنان فمن قال: إنه لنفى مساواة النار بالجنة، أو نفى اشتراك النار فى الخيرية مع الجنة. فهو صادق.

ومن قال: إنه لنفى الخيرية عن النار نفيًا مطلقا، وإثباتها للجنة إثباتا مطلقا فهو صادق.

ويجمع هذا كله أن نقول - وهو الأصوب - إن المراد من هذا الاستفهام هو:

الإنكار لخيرية النار، والتقرير لخيرية الجنة، فهو استفهام إنكار من جهة، وتقرير من جهة أخرى.

وهذه خلاصة ما يقال فيه، وإن أهمله الأئمة، رحمهم الله.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(قل أذلك خير)** قدمنا مرات ومرات أن كل كلام فى النظم القرآنى الحكيم صُدِّر بفعل الأمر (قل) كان ذلك إيذانا بأهمية المقول بعده، وضرورة المواجهة به وإبلاغه فور نزوله، وهذا ملحوظ هنا، كما هو ملحوظ فى كل موضع من مواضع وروده، وقد حذف الجار والمجرور وهو: لهم، المتعلق بـ (قل) للإيذان بصلاحية هذه المواجهة، لهم ولمن يكون على شاكلتهم فى كل زمان. هذا هو سر الإيجاز بالحذف - هنا - وهو سعة المعنى، ولو قيل: لهم لكان قيدا فى الأمر.

واسم الإشارة **(ذلك)** الموضوع للمشار إليه البعيد للإيذان بتهويل السعير المشار إليها التى أعدها الله لمن كذَّب بالساعة فى قوله قبل هذه الآية موضوع الدراسة: بآيات ثلاث: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ، وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَاعَةِ سَعِيرًا﴾ فجعلت لهولها وشناعتها بعيدة عن التصور.

* **(أم جنة الخلد)** إضراب إبطالى من توهم نسبة الخيرية إلى النار، إلى تحقق نسبتها إلى الجنة. ونسبة الخيرية إلى النار فى هذه الآية جرت مجرى الفرض فى باب الجدل والاستدلال ولا خير فيها قط. وكان الأصل أن لا ينسب إليها خير قط لئلا يقع الإخبار بخلاف الواقع فى القرآن وكله صدق. ولذلك نص ابن عطية على

جواز هذه النسبة فى الاستفهام لأنه إنشاء وأن سيبويه وغيره منع ذلك فى الأساليب الخبرية المحضة وإضافة (جنة) إلى (الخلد) لتأكيد استدامة نعيمها كما قال عز وجل:

(أكلها دائم وظلها) [الرعد: ٣٥].

* **(التى وعد المتقون)** هذه الجملة نعت تفخيمى للجنة وبشارة لأهل التقوى، وتحسير لأهل الكفر والفجور وحُذِف فاعل الفعل (وعد) وبنى لما لم يسم فاعله للعلم بالفاعل، وللإشارة بأنه وعد مقرر لا يحتاج إلى نص على فاعله لعدم النزاع فى الوفاء به.

وكما حذف الفاعل حذف متعلق الفعل (بها) وللبلاغيين توجيه لطيف لمثل هذه المحذوفات، وهو توفير العناية بالفعل أو الحدث نفسه وتجريده للحضور فى الذهن.

* **﴿كانت لهم جزاء ومصيرا﴾** استئناف مسوق لتقرير الوفاء بالوعد. والجزاء المكافأة. أما زيادة الوصف (**مصيرا**) فهو كما قال الإمام جار الله الزمخشرى، هو لمدح مكان الجزاء؛ لأن النعيم الحسن فى المكان الحسن مما يسعد المتنعم. والجزاء السىء فى المكان السىء مما يزيد غموم المعذبين فيه. ومنه ذم الله مكان شراب أهل النار: [الكهف: ٢٩] فقال **(بئس الشراب وساءت مرتفقًا)**.

وتقديم الجار والمجرور (لهم) فى **(كانت لهم جزاء ومصيرا)** للقصر، أى لهم هم لا لغيرهم.

* * *

٣ - ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧].

الدراسة والتحليل:

وهذه الآية تحكى مشهدًا من مشاهد يوم القيامة. هذا المشهد يجمع الله فيه المشركين الذين عبدوا شركاء من دون الله سموهم آلهة، ثم يجمع الذين عُبِدُوا من دون الله سواء كانوا ملائكة ورسلاً أو عبادًا صالحين، ثم يوجه الله لهم هذا السؤال:

﴿أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء، أم هم ضلوا السبيل﴾ فيقولون والمشركون قد سمعوا السؤال ثم يسمعون هذا الجواب:

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ، وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾.

عندئذ يظهر للمشركين خيبة رجائهم فى معبوديهم، فتمتلىء نفوسهم حسرة وألما، ويدركون أنهم خسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

والآية - كما ترى - ورد فيها استفهامان:

الأول: **(أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء)**؟

الثانى: **(أم هم ضلوا السبيل)**؟

وقد أجمل الإمام الزمخشرى الحديث فى بيان المراد منهما فقال: (فإن قلت: فما فائدة هذا السؤال؟ قلت: فائدته أن يجيبوا بما أجابوا به حتى يبكت عبدتهم بتكذيبهم إياهم فيبهتوا وينخذلوا، وتزيد حسرتهم. ويكون ذلك نوعا من غضب الله وعذابه لهم»[١].

كما أوجز الإمام البيضاوى فقال: «وهو استفهام تقريع وتبكيت للعبدة»[٢].

وذكر الإمام أبو حيان كلام الزمخشرى مع تصرف يسير فى بعض الكلمات[٣].

أما الإمام فخر الدين الرازى، فبعد أن قتبس بعضا من كلام الإمام الزمخشرى أوجز فقال:

---

(١) الكشاف (٣/ ٨٥). (٢) تفسير البيضاوى (٢/ ١٣٧).

(٣) البحر المحيط (٦/ ٤٨٨).

«هذا استفهام على سبيل التقريع للمشركين. . . لأن أولئك المعبودين لما برأوا أنفسهم، وأحالوا ذلك الضلال عليهم صار تبرؤ المعبودين عليهم أشد فى حسرتهم وحيرتهم»[1].

واكتفى الإمام النسفى بذكر ما قاله الزمخشرى[2].

والخلاصة: أن من أدلى بدلوه فى المراد من الاستفهام فى الآية لم يخرج عما قاله الإمام الزمخشرى وإن اختلفت بعض العبارات.

والذين اختصروا كلامه نظروا إلى المقصود من التبكيت والتحسير فى كلام الزمخشرى، فقالوا إن المقصود من الاستفهام هو التقريع، أو التحسير والتحيير. فإذا جمعنا بين أقوالهم مع إضافة ما يناسب المقام قلنا:

أن المراد من هذا الاستفهام هو:

إظهار خيبة رجاء المشركين فى معبوديهم، والمسارعة إلى إدخال الحسرة عليهم مع التيئيس والتقريع والتنديم على ما كان منهم فى الحياة الدنيا بعد فوات الأوان.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **﴿ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله﴾** فى **(يوم يحشرهم)** كناية عن موصوف هو يوم القيامة، وعبِّر عن معبوديهم من الملائكة، والرسل والصالحين بـ (ما) التى لغير العاقل تصويراً لهم بأنهم لا شىء فى مقام (المعبودية) حتى لكأنهم غير عقلاء أصلا[3].

وإيثار المضارع **(يعبدون)** زيادة فى تنديم المشركين على ضلالهم، وكأنهم يرون عبادتهم الخاسرة تجرى أمام أعينهم ليدركوا فرط ضلالهم وسفاهة أحلامهم و**﴿من دون الله﴾** تقرير بقبح عبادتهم من لا يضر ولا ينفع مع إعراضهم عن عبادة الله الغنى الحميد.

---

(١) التفسير الكبير (٢٤/ ٦٢).　　(٢) تفسير النسفى (٣/ ١٦١).

(٣) الذى حملنا على هذا التوجيه عدم الاقتناع بما قالوه في هذه المسألة. ونرجو أن يكون ما قلناه مقبولا عند أهل الذكر.

* ﴿فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء﴾ الفاء لترتيب القول على حشر المشركين ومعبوديهم.

وإيثار المضارع (يقول) لتصوير ما سيكون يوم القيامة كأنه واقع الآن ترهيبا لهم لعلهم يثوبون إلى رشدهم.

وفى تقديم الاسم على الفعل فى ﴿أأنتم أأضللتم﴾ لأن المسئول عنه هو الفاعل دون الفعل، بدليل ترديد فاعل الاضلال بين المخاطبين وبين المشركين أنفسهم فى قوله تعالى: ﴿أم هم ضلوا السبيل﴾.

فكما قدم (أنتم) ليلى الهمزة قدَّم (هم) ليلى (أم) و(أم) متصلة، ويكون جوابها بتعيين أحد المعادلين وحذف حرف التعدية (عن) قبل (السبيل) حيث لم يقل: ضلوا عن السبيل. بل قال (أم هم ضلوا السبيل) لبيان بُعد ضلالهم عن الهدى، فلم يعرفوا السبيل نفسه؛ لأنهم لم يطلبوه حتى يضلوا عنه، بل ضلوه أصلا فلم يكن لهم سبيل إلى الهدى قط.

* * *

٤ - ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ، وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

الدراسة والتحليل:

فى هذه الآية رد على ما أثاره المشركون من قبل فى الآية [٧] من هذه السورة، حيث أنكروا على الرسول ﷺ أكله الطعام ومشيه فى الأسواق، متخذين من هذا الإنكار وليجة لإنكار الرسالة المنزلة عليه من ربه، وكانوا قد اقترحوا أن تكون له جنة تكفيه معاشه، فرد الله عليهم - هناك - على هذا الاقتراح (المضحك) بقوله عز وجل: ﴿تَبَارَكَ الَّذِى إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ [الفرقان: ١٠].

ثم استطرد النظم بعد هذه الآية فذكر بعض مقابح المشركين وبين أجزيتهم العادلة عليها.

وهنا فى الآية موضوع الـدراسة عاد النظم ليرد عليهم ذلـك الإنكار. فبين الله أن أكل الطعـام والمشى فى الأسواق كـان شيـمة كل الرسل الذين أرسلهم الله من قـبل محمد ﷺ. ومـحمد ليس بدعا من الرسل، فإذا أكل الطعـام ومشى فى الأسواق لم يأت بمنكر يلام عليه كما لم يسُلَمْ عليه إخوانه من الرسل السابقين.

ثم أردف على هذا ذكر سنة من سـننه عز وجل فى عباده، وهـى اختبار بعـضهم ببعض، ورصد مواقف العباد فى هذه الفتنة من يصبر منهم ومن لا يصبر. وذلك فى هذا الاستفهام. ﴿**أتصبرون وكان ربك بصيراً**﴾.

وما قالـه الأئمة فى الاستفـهام (أتصبرون) بعـد تصريح بعضهم أنه للتـقرير يدور حول ثلاثة محاور:

* هل لهذا الاستفهام معادل فيكون المعنى: أتصيرون أم لا تصبرون.
* أولا معادل له فيُحمل على الأمر، أى: اصبروا.
* وإذا كان له معادل فلم حذف المعادل؟

فالذى جعل له معادلاً أخرج الخطاب فى: أتصبرون مُخرج العموم، أى: ما يشمل الرسل وغير الرسل من المؤمنين.

والمعنى: أن من حكمـة الله فى عبـاده أن يبتلى بعض الناس بـبعض فى اخـتلاف أحوالهم ومعاملاتهم بعضهم بعضا ليصبر من يصبر ويجزع من يجزع.

ومن لم يجـعل له مـعـادلاً خص الخطاب بالرسل والاسـتفـهـام بالأمـر، يعنى: اصبروا، لأن الرسل لا يليق بهـم إلا الصبر أما مع بقاء الخطاب على الغـموم وتقدير المعادل فـقد نص من قال بهـذا على أن حذف المعـادل، وهو: أم لا تصبرون نكتـته البلاغية هى الترغيب فى الصبر وكان معادله غير موجود وهو الجزع.

هذه خلاصة أمينة لما قالوه. وعلى كل التـقديرات فإن الاستفهـام فى الآية للتقرير والحث على الصبر لأنه الغاية المثلى من ابتلاءات الله لعباده[1].

---

(١) انظر: الكشاف (٣/ ٨٧) وتفسيـر أبى السعود (٦/ ٢١٠) وروح المعانى (١٨/ ٢٥٤) والتفسـير الكبير (٢٤/ ٦٦).

أسرار النظم وبلاغياته :

* ﴿**وما أرسلنا قبلك من المرسلين...**﴾ أسلوب قصر طريقه النفى والاستثناء. وهو استثناء مفرغ من جميع الأحوال أى: ما أرسلنا قبلك من المرسلين فى حال إلا آكلين ماشين فى الأسواق. وهو قصر موصوف - هم المرسلون - على صفة، هى الأكل والمشى فى الأسواق. والقصر فيه إضافى منظور فيه إلى إنكار المشركين على النبى ﷺ أكل الطعام والمشى فى الأسواق احتيالاً منهم على إنكار الرسالة.

﴿**إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق**﴾ أكد الأكل وما عطف عليه بـ(ان) واسمية الجملة، ولام التوكيد دفعا للإنكار الذى أظهره المشركون فى شأن محمد ﷺ.

* ﴿**وجعلنا بعضكم لبعض فتنة**﴾ عطفت جملة (وجعلنا) على جملة (وما أرسلنا) للتوسط بين الكمالين لاتفاقهما فى الخبرية لفظا ومعنى. ومن محسنات الوصل هنا كون المسند إليه واحدًا فى الجملتين، وهو الله عز وجل. وكون المسند فيهما شأنين من شئون الله فى عباده.

* (**أتصبرون**)؟ جملة تعليلية لما قبلها. وولى الفعل (**تصبرون**) همزة الاستفهام لأنه المقرر به، والمحثوث عليه.

* ﴿**وكان ربك بصيرًا**﴾ استئناف أو تذييل مسوق لتقرير ما قبله من التصرف الحكيم لحكمة الله عز وجل وتسليه وتشريفًا لمحمد ﷺ.

وإيثار الاسم الجليل (رب) من بين الأسماء الحسنى لما فيه من خصوصية حسن الرعاية والحفظ والإنعام وإضافته إلى ضمير صاحب الرسالة إيذان بأن الله معه، وهو ناصره على الذين كفروا بما جاء به، وألحقوا به الأذى قولا وعملا.

* * *

٥ - ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِى أُمْطِرَتْ مَـطَرَ السَّوْءِ، أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا، بَلْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٠].

الدراسة والتحليل :

بعد أن ساق الله بعض المثل من الأمم الهالكة، للعظة والاعتبار وبين سرعة زوالهم لما أخذهم الله بذنوبهم، وأن الله تعالى حذرهم قبل إهلاكهم على سبيل التذكير ليقوا أنفسهم بالإيمـان والطاعة سوء المصير الذى صار إليه أولئـك المجرمون بعد هذا خص بالذكر قـرى قوم لوط، وما حل بهـا من دمار وكانت قـريش تراها وهى خاوية على عروشهـا فى مقدمها للتجـارة إلى الشام، وفى رجوعها منهـا. ومع هذه الرؤية عموا وصـموا فـتـدرج معـهم النظم فى التـحـذير، ولفت أنظارهم إلى تلك القـرى التى شاهدوها بأبصارهم[١].

وفى هذه الآية ورد هذا الاستفهام:

﴿أفلم يكونوا يرونها﴾؟

لم يورد الإمام الزمـخشرى بـيانا للاستـفهام، ولكن أبا السـعود نظر فـيه نظرات صائبة. قال:

﴿أفلم يكونوا يرونها﴾: توبيخ على تركهم التذكر عند مشـاهدة ما يوجبه. والهمزة لنفى استمـرار رؤيتهم لها، وتقرير استمـرارها حسب استمرار ما يوجبـها من إتيانهم عليها. لا لإنكار استـمرار نفى رؤيتهم، وتقرير رؤيتهم لها. والفـاء لعطف مدخولها على مقدر يقتضيه المقام:

أى: ألم يكونوا ينظرون إليها فلم يكونوا يرونها.

أو: أكانوا ينظـرون إليها فلم يكونوا يـرونها فى مرات مـرورهم ليتعـظوا بما كانوا يشاهدونه من آثار العذاب»[٢].

يعنى أن الإنكار منصب على نفى استـمرار الرؤية وإثبات ذلك الاستـمرار حسب

---

(١) اقرأ الآيات المذكورة قبل هذه الآية [٣٥ - ٣٦ - ٣٧ - ٣٨].

(٢) تفسير أبى السعود (٦/ ٢١٩).

أسفارهم ومشاهداتهم. وليست لإنكار استمرار النفى.

فرؤية قريش لقرى قوم لوط مستمرة كلما سافروا إلى الشام أو عادوا منها. وليس المراد استمراراً لنفى الرؤية الذى يترتب عليه تقريرها.

لأن الأمر لو كان كذلك لكان وقوع الرؤية حدث مرة واحدة.

أما على الأول فإن الرؤية حدثت وتحدث مرات.

والمراد من النظم عدم الرؤية النافعة مع وجود النظر لا نفى الرؤية ونفى النظر معًا.

وقد أعجب الإمام الألوسى فنقل كلام الإمام أبى السعود ونص على نسبته إليه فقال: (كذا فى إرشاد العقل السليم)[1].

والخلاصة: أن الإمامين أبا السعود والألوسى هما اللذان إهتما ببيان المراد من هذا الاستفهام، أما من عداهما من الأئمة، فلم يتجاوزوا بيان المعنى العام من الآية دون التعرض للاستفهام الذى فيها.

والحق أن الفضل فى تحليل معناه يعود إلى الإمام أبى السعود وحده أما الألوسى فهو مجرد موافق له.

وبعد ذلك التحليل الرائع الدقيق الذى عرفناه عند الإمام أبى السعود فإننا نوجز المراد من الاستفهام فى العبارة الآتية:

إن المراد من قوله تعالى: **﴿أفلم يكونوا يرونها﴾** هو نفى استمرار عدم رؤيتهم للقرية وتقرير استمرار رؤيتها عند أسفارهم. مع توبيخهم على عدم اتعاظهم بما يرون من آثار العذاب، وحثهم على تحصيل ما وبِّخوا على تركه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **﴿ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء﴾**: فى هذه العبارة مؤكدات وهى:

اللام - قد - الفعل الماضى.. وهذا التوكيد يؤدى غرضين بلاغيين:

الأول: ثبوت مرور المتحدث عنهم، وهم رجال قريش، على القرية المذكورة ثبوتا لا نزاع فيه.

---

(١) روح المعانى (١٩/ ٢١).

الثانى: توظيف هذا الثبوت المؤكد فى الدلالة على قوة الإنكار فى الاستفهام الذى ورد بعد هذه الفقرة أما قوله تعالى: ﴿**التى أمطرت مطر السوء**﴾ فهو وصف للقرية من جهة. ومن جهة أخرى هى كناية عن قرى قوم لوط موضع العبرة والعظة، وإيثار الكناية على الاسم الصريح لأن محط الاعتبار هو ما ابتلى الله به قوم لوط من إمطارهم بالحجارة لما أتوا من الفواحش ما لم يأته أحد من العالمين.

ولو كان قد ذكر الاسم الصريح لفات ملحظ العبرة فى المرور عليها، ولما كان للإنكار والتوبيخ وجه.

* وحذف فاعل (**أمطرت**) وبنى الفعل لما لم يسم فاعله لعدم تعلق الغرض بالفاعل، بل بالحدث نفسه (الإمطار بالحجارة) من حيث هو هو.
* ﴿**أفلم يكونوا يرونها**﴾ تقدم أن مدخول الهمزة محذوف وأن ما بعد الفاء معطوف على ذلك المحذوف. وهذا على غير مذهب الجمهور. فهذا الحذف من الإيجاز، وهو استثمار أقل ما يمكن من الألفاظ فى أكثر ما يمكن من المعانى وهو إنكار عليهم على ترك الاعتبار مع تحقق الرؤية.
* ﴿**بل كانوا لا يرجون نشوراً**﴾ بل للإضراب والانتقال من توبيخهم على عدم الاعتبار إلى الالماح إلى كفرهم بالبعث والكناية عنه بنفى رجائهم نشوراً.

* * *

٦ - ﴿ **وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً، أَهَذَا الَّذِى بَعَثَ اللهُ رَسُولاً** ﴾ [الفرقان: ٤١].

الدراسة والتحليل:

فى هذه الآية تصوير لمشاعر الحقد والكراهية التى كانت تسيطر على المشركين كلما رأوا رسول الله ﷺ يحتقرونه وهم الحقراء ويسخرون منه وهم المسخور منهم، ويتعالون عليه وهم الأسفلون؟ أعماهم الشيطان فأراهم الحق باطلا والباطل حقا وزين لهم سوء أعمالهم فاستمرأوا ما هم فيه من ضلال وفجور.

وقد حكت عنهم الآية قولهم هذا:

﴿أهذا الذى بعث الله رسولا﴾ .

وهو أسلوب استفهام ناطق بالمراد منه. وفى هذا يقول الإمام الزمخشرى:

(اتخذه هزوا فى معنى استهزأ به، والأصل اتخذه موضع هزء، أو مهزوءًا به) و(هذا) استصغار، و﴿بعث الله رسولا﴾ وإخراجه فى معرض التسليم والإقرار وهم على غاية الجحود والإنكار سخرية واستهزاء)[1].

يعنى أن إقرارهم بأنه رسول ذكروه توطئة لايقاع السخرية عليه لا أنهم يقولون ما يطابق اعتقادهم. فهم مضطرون لذكره لأنه محط الإنكار والسخرية عندهم، ولو لم يذكروه لما تحقق لهم قصدهم.

وكلام الإمام أبو السعود قريب من هذا إذ يقول: (**أهذا الذى بعث الله رسولا**): إشارة للاستحقار وإبراز بَعْث الله رسولا فى معرض التسليم... مع كونهم فى غاية النكير لبعثه ﷺ، بطريق التهكم والاستهزاء وإلا لقالوا: أبعث الله هذا رسولا)[2].

هذه العبارة الأخيرة كان قد ذكرها الإمام جار الله آثرنا ذكرها هنا خشية التكرار. ومعناها الذى أراده الإمامان أنهم لو كانوا قد قالوا:

أبعث الله هذا رسولا، لكان الإنكار مسلطا على البعثة دون المبعوث، أما وقد قالوا: ﴿أهذا الذى بعث الله رسولا﴾ فإن الإنكار فيها قصدوا تسليطه على المبعوث دون البعثة.

وذلك لأن أداة الاستفهام يليها المستفهم عنه سواء كان الاستفهام للإنكار أو التقرير.

وهذا فهم طيب من الإمامين؛ لأن هؤلاء المشركين ما كانوا ينكرون أن يبعث الله رسلا، وإنما كان إنكارهم منصبا على أن يكون الرسل بشرا، فلله درهما رحمهما الله وجاراهما الإمام الفخر، فحمل الاستفهام على الاستحقار والاستهزاء[3].

والخلاصة: أن الأئمة، مجمعون على أن هذا الاستفهام مجازى، المراد منه أمران:

---

(١) الشكاف (٣/ ٩٣).

(٢) تفسير أبى السعود (٦/ ٢٢٠).

(٣) التفسير الكبير (٢٤/ ٨٤).

الأول: إنكار بعث محمد ﷺ رسولاً من عند الله عز وجل.

الثانى: إظهار السخرية والاستهزاء به كما سوَّلت لهم شياطينهم وجهلهم بسنة الله فى عباده. وأن قصدهم السخرية والاستهزاء دلواًّ عليه بإيلاء اسم الإشارة همزة الاستفهام، عادلين به عن الفعل (بعث) لأنهم لا ينكرون البعث، بل ينكرون المبعوث.

أسرار النظم وبلاغياته :

* ﴿**وإذا رأوك...**﴾ إيثار (إذا) إشارة إلى أن المشركين لم يتركوا فرصة يرون فيها النبى إلا سخروا منه واستهزأوا به، لأن - إذا - تؤذن بتحقق جواب الشرط.

* ﴿**إن يتخذونك إلا هزوا**﴾ أسلوب قصر، وهو قصر لرؤيتهم النبى ﷺ على السخرية منه والاستهزاء به. فهم حريصون كل الحرص - لفرط حقدهم وجهلهم - على أن يكون دأبهم هو إنكار الرسالة، واختقار صاحبها.

وساعد على هذا الاتيان بالفعل مضارعا (**يتخذونك**) لما فى المضارع من الإيذان بتكرار الحدث كلما تحقق موجبه.

* ﴿**أهذا الذى بعث الله رسولا**﴾ فى العبارة إيجاز حذف لأن التقدير: يقولون، أو قائلين، فالجملة المذكورة مقول القول المحذوف.

ودلالة (**هذا**) على المقصود لهم حيث أشاروا إليه باسم الإشارة الموضوع للمشار إليه القريب مكانا، تنزيلا منهم لدنو المكانة منزلة دنو المكان.

كما حذف من الفعل (بعث) مفعوله الذى هو عائد الصلة على الموصول. وسره البلاغى أنهم لما أنكروا رسالته فى الواقع أنكروها فى اللفظ فلم يوقعوا الفعل (بعث) على ضميره ﷺ، ليطابق اللفظ ما فى قلوبهم من الجحد والإنكار. وكان الأصل أن يقولوا: أهذا الذى بعثه الله رسولاً؟

* * *

٧ - ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ [الفرقان: ٤٣].

الدراسة والتحليل:

من منهج النظم القرآن الحكيم تلوين المعانى وتعدد الأغراض فى السورة الواحدة، ليكون ذلك التلوين مدعاة لتنشيط الذهن، ودفع الملل والسآمة، وفى سورة الفرقان مرت بنا نماذج من هذا التنوع.

وفى هذه الآية نرى الله عز وجل يلتفت إلى رسوله الكريم ويوجه إليه الخطاب، بعد الحديث عن المشركين وتعديد مصائر الأمم التى كذبت الرسل، مع الإشارة إلى بعض سنن الله فى عباده ومن المعلوم أن النبى ﷺ كان شديد الحرص على إسلام قومه، يحمل نفسه كثيراً من المشاق فى سبيل هدايتهم، ثم إن الله عز وجل كان يذكره من حين إلى آخر بألا يحمل نفسه ما لا يطيق، وأن يقف عند حد البلاغ المبين، ويدع الناس لخالقهم.

وهذه الآية - موضوع الدراسة - واحدة من الآيات التى تذكر الرسول الكريم بالوقوف عند حد التبليغ فيقول الله له: لا تجعل من نفسك وكيلا على من أعرض عن الهدى وعبد أهواءه وما يزينه له الشيطان. وجاء هذا المعنى فى صورة استفهامين أولهما تمهيد لثانيهما.

* **﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾؟**
* **﴿أفأنت تكون عليه وكيلا﴾؟**

وقد مس الإمام الزمخشرى المراد منهما مسًّا خفيفا يفهم من كلامه أن الاستفهام الثانى للإنكار[1].

أما الإمام أبو السعود فقد أطال وأحسن. وها نحن نذكر كلامه - على طوله - لبراعته فيه. قال رحمه الله:

﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾: تعجيب لرسول الله ﷺ من شناعة حالهم بعد حكاية قبائحهم من الأقوال والأفعال، وبيان ما لهم من المصير والمآل وتنبيه على أن

(١) الكشاف (٣/ ٩٣).

ذلك من الغرابة، بحيث يجب أن يرى ويتعجب منه. . .

أى أرأيت من جعل هواه إلهًا لنفسه. . وبنى عليه أمر دينه، معرضا عن سماع الحجة الباهرة والبرهان النير بالكلية على معنى:

انظر إليه وتعجب منه»[1].

هذا قوله فى الاستفهام الأول: (أرأيت من اتخذ إلهه هواه). وهذا ما كنا قد ذهبنا إليه من قبل مرات عديدات، بديلا لمذهب الجمهور الذين حملوا هذا التركيب على معنى: أخبرنى، فى كل ما كان على غرار هذا الموضع. وكان الذى قلناه أن المراد به إحضار المستفهم عنه فى الذهن ليُحكم عليه - أى ليخبر عنه - وهو حاضر ماثل فى الشعور.

وها هو ذا الإمام أبو السعود يقرر - هنا - ما كنا قد رجحناه فى أمثال هذا الاستفهام. وهذا يوكد أن مذهب الجمهور، وهو حمل الاستفهام من هذا القبيل على معنى: أخبرنى - ليس بلازم. وبخاصة أنهم لم ينصوا على المراد من فعل الأمر: أخبرنى - أو أخبرونى إن كانت الرؤية مسندة إلى جمع، ومن البديه أن تفسيره بفعل الأمر ليس مقنعا ما لم يضف إليه معنى آخر.

أما الاستفهام الثانى ﴿أفأنت تكون عليه وكيلا﴾؟ فقد قال فيه:

(إنكار واستبعاد لكونه - ﷺ - حفيظًا عليه بزجره عما هو عليه من الضلال، ويرشده إلى الحق طوعا أو كرها. والفاء لترتيب الإنكار على ما قبله من الحالة الموجبة له - وهى اتخاذ الهوى إلهًا - كأنه قيل: أبعد ما شاهدت غلوه فى طاعة الهوى وعتوه عن اتباع الهدى، تقسره على الإيمان شاء أو أبى)[2].

فلله در أبى السعود، فقد اقنع وأمتع، وأثبت أستاذية ماهرة فى الغوص وراء المعانى وأسرار البيان.

وقد اقتفى الإمام الألوسى أثر الإمام أبى السعود فكاد ينقل ما قال لفظا ومعنى.

فالاستفهام الأول للتعجب، والثانى للإنكار، ثم أشار إلى أن الرؤية - هنا بصرية.

---

(١) تفسير أبى السعود (٦/ ٢٢٠ - ٢٢١).

(٢) تفسير أبى السعود (٦/ ٢٢١).

ثم كـان له بعد ذلك إضـافات ونقـول عن أهل العلم فى هل ترتيب (إلهه هواه) على أصله، أم فيه تقديم وتأخير وأن الأصل (هواه الهه) وذكر فى هذا مذاهب عديدة من شاء فليطلع عليها فى تفسيره، أما نحن فنكتفى بهذه الإشارات السريعة[1].

والخلاصة: أن الاستفهام لاستحضار صـورة المستفهم عنه فى الذهن والتعجيب من حاله. أما الثانى فهو لإنكار أن يكون النبى ﷺ وكيلا على الناس بل هو رسول عليه البلاغ.

أسرار النظم وبلاغياته :

* ﴿**أرأيت من اتخذ إلهه هواه**﴾ تصدر جملة المستـفهم عنه الاسم الموصول (من) فكان أول من سُلِّطت عليـه الرؤية، ولكن لا باعتـبار ذاته وشـخصـه وهو المتبـادر إلى الذهن، بل باعتبار الأحوال المذكورة بعـده، وهى: اتخاذ الهوى إلهًا يعبد من دون الله.

وتقديم (إلهـه) على (هواه) لإفادة القصـر كما ذهب ابن المنيـر فى حاشيـته على الكشاف[2]، لأن الأصل: اتخذ هواه إلهه، فـقدم (إلهه) لإرادة القصـر أى: لم يتخذ إلهًا إلا هواه، بقصـر صفة الألوهية على الهوى. وهى الحالة الغـريبة التى عجَّب الله منها رسوله الكريم. ولا نرى فى العـبارة تشبيها للهـوى بالإله كما ذهب بعض أهل العلم، بل إن هذا - الكافر - عبد هواه لا على معـنى تشبيهه بالإله، بل على أنه هو الإله نفسه. هذا بالنسبة لمعتقد المتـحدث عنه لأننا لو سلمنا أن فى العبارة تشبيها للزم أن هذا الكافر يؤمن بالله، كل ما فى الأمر أنه يشرك هواه مع الله فى الألوهية، وهذا لا يساعد عليه المقام، وبخاصة حمل التركيب على القصر. لا يقال: إنه قصر ادعائى لأنّا نقول إن الذيـن عبدوا الأصنام وقـالوا إنهم يعبـدونها لتقـربهم إلى الله زلفى لم يُعجِّب الله أحدًا من ضلالهم؛ لأنهم أقل ضـلالاً ممن لم ير فى الوجود إلهًا غير هواه وقد شنَّع الله على هذا النوع من الكفر فى مـوضع آخر فقال: ﴿**أفرأيت من اتخذ إلهه هواه، وأضله الله على علم، وختم على سمـعه وقلبه، وجعل على بصره غشـاوة فمن يهديه**

---

(1) روح المعانى (١/٢٣ - ٢٤).

(2) انظر الكشاف (٣/٩٣).

من بعد الله، **أفلا تذكرون**﴾ [الجاثية : ٢٣] إن من هذا شأنه لا يشتم لله رائحة فى حياته، لأنه دمية صماء.

* ﴿**أفأنت تكون عليه وكيلا**﴾: إيلاء أنت حرف الاستفهام؛ لأن الإنكار مسلط عليه لا على الفعل ﴿تكون﴾ وفى هذا التركيب معنى القصر؛ لأن الإنكار مختص بهذا الفاعل، دون غيره، وهو الله عز وجل ولو كان المراد إنكار الفعل - أصلا - لقيل: أفتكون عليه وكيلا؟

وإيثار الفعل المضارع (تكون) على الماضى: كنت، لأن المضارع يفيد إنكار الوكالة فى جميع الأزمان أما الماضى فيكون الإنكار مقصوراً على ما مضى، ويبقى الحال والاستقبال خارجين عن الإنكار مع جواز وقوع الوكالة فى أحدهما أو كليهما بمقتضى دلالة المفهوم.

ومن البديه أن الاستفهام الأول - مع ما له من معنى خاص قد عرفناه من قبل - تمهيد لطيف للاستفهام الثانى، وكأنه سيق من أجله.

وهذا ما أشار إليه الإمام أبو السعود من قبل من أن الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها.

* أما ترك العطف فى هذه الآية على ماقبلها فلكمال الانقطاع. لأن ما قبلها خبرية لفظا ومعنى، وهى إنشائية لفظا ومعنى.

* * *

٨ - ﴿**أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ، إنْ هُمْ إلاَّ كَالأنْعَامِ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً**﴾ [الفرقان: ٤٤].

الدراسة والتحليل :

هذه الآية فذلكة رائعة جمع فيها النص الحكيم ما تفرق من نقائص الجماعات الشاردة عن سماع الحق، المحاربة لله ورسله، إن إفراطهم فى الكفر والعناد سلب عنهم عقولهم وأصم آذانهم فحط قدرهم عن قدر العجماوات، وإن بقوا فى صورة الآدميين، لأن العبرة ليست بالأشكال والصور بل بالقلوب والألباب والأعمال.

وقد هوّن الله الأمر عن رسوله لكيلا يحزن عليهم، ونبهه إلى حقيقة كان يجب أن يفطن إليها، وهى أن هؤلاء المجرمين لا يُتوقَّع عنهم خير، ولا يَحْسُنُ بهم ظن، فكيف يظن عليه السلام أنهم يحسنون السمع والعقل.

﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون..﴾؟

يقول الإمام جار الله الزمخشرى: **﴿أم تحسب..﴾**: أم هذه منقطعة معناه: بل أتحسب، كأن هذه المذمة أشد من التى تقدمتها حتى حُقَّت بالاضراب عنها إليها، وهى كونهم مسلوبى الأسماع والعقول لأنهم لا يلقون إلى استماع الحق أذُنًا، ولا إلى تدبره عقلا ومشبهين بالأنعام التى هى مثل فى الغفلة والضلال، ثم أرجح ضلالة منها[(١)].

وقال الإمام أبو السعود:

﴿أم تحسب..﴾ إضراب وانتقال عن الإنكار المذكور إلى إنكار حسبانه ﷺ لهم ممن يسمع أو يعقل[(٢)].

والخلاصة: نهج الأئمة، منهج الزمخشرى وأبى السعود فى حمل هذا الاستفهام على الإنكار، أى إنكار الواقع من ظن رسول الله ﷺ أن هؤلاء المشركين يرجى منهم خير أو هداية. ومع هذا التقرير فإن المقام صالح لإفادة معان أخرى، منها الإيحاء إلى النبى أن يخفف على نفسه من المشقة، فى طلب هدايتهم، ثم تحقير المشركين المعاندين وحط منزلتهم عن منزلة العجماوات.

أسرار النظم وبلاغياته :

* **﴿أم تحسب..﴾** حمل الأئمة الانتقال المفهوم من (أم) المنقطعة، هنا على الإضراب والانتقال من إنكار سابق إلى إنكار لاحق. والمعنى عليه:

لا تجعل من نفسك وكيلا عليهم ولا تظن أن أكثرهم يسمعون فيحسنون الاستماع أو يتعقلون ما يسمعون، فالأول لإنكار حرصه الشديد على هدايتهم. والثانى لإنكار توقع الهداية من أكثرهم.

---

(١) الكشاف (٣/ ٩٤).

(٢) تفسير أبى السعود: (٦/ ٢٢١).

* ﴿إن هم إلا كالأنعام﴾ تشبيه لهم بالعجماوات فى عدم الإدراك والخلو من الأهداف النبيلة، لأن العجماوات لا ترى إلا اللحظة التى هى فيها.

* ﴿بل هم أضل سبيلا﴾ إعادة الضمير (هم) لتوكيد النسبة بين المسند والمسند إليه، وإنما كانوا أكثر ضلالاً من الأنعام - حقيقة لا خيالاً - لأن الأنعام تطيع مربيها فيما يراد منها ولا تأبى أن تجود بما سُخِّرت من أجله من إدرار الألبان والركوب.

أما هؤلاء فمع ما ركب الله فيهم من قوى وملكات ذهنية وعقلية وحواس مميِّزة فإنهم ضلوا عن علم، وهلكوا عن بصر. فكانوا أسوأ من الأنعام وأضل.

* * *

٩ - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ [الفرقان: ٤٥].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية الكريمة تصدرت مجموعة من الآيات موضوعها واحد، هو لفت الأنظار إلى آثار قدرة الله عز وجل فى الكون العظيم، مما يشاهده الناس فى معاشهم ويتكرر بتكرر أسبابه الإلهية، والمعنى الذى تلفت إليه هذه الآية الأنظار هو ظاهرة الظل.

والظل هو الدرجة الوسطى بين الضوء والظلام، فهو أكثف من الضوء وأضوأ من الظلام.

وهذا الظل -الطبيعى- يحدث بوجود جسم فى مكان يحول بأحد جانبيه بين الضوء من النفاذ إلى جانبه الآخر المقابل للجانب الأول.

فقبل منتصف النهار يحجب الجسم ضوء الشمس عن الجانب الغربى، وبعد منتصف النهار يحجبه عن الجانب الشرقى هذا من البدائه عند جميع الناس. بيد أن الذى نشير إليه -هنا- لأن معنى النظم الحكيم يتوقف فهمه عليه، هو الآتى:

أن هذا الظل له سببان:

الأول: وجود جسم مادى منتصب ينشأ الظل عن وجوده. وهذا سبب عادى يدرك بالبصر.

الثانى: حركة الشمس الظاهرة الناشئة عن دوران الأرض حول نفسها تجاه الشمس. وهو سبب غيبى لا يدرك بالحواس. وإنما طريقه العلم.

وهذه الحركات الفلكية ناشئة عن إرادة الله الحكيمة وقدرته العظيمة. وإلى هذه المعنى ألمحت الآية رقم [٨٠] من سورة [المؤمنون] التى تقدم بيان المراد من الاستفهام فيها، وهى قوله تعالى:

﴿.. وله اختلاف الليل والنهار، أفلا تعقلون﴾.

إذا تمهد هذا نقول: إن هذه الآية التى معنا، وهى قوله تعالى:

﴿ألم تر إلى ربك كيف مدَّ الظل...﴾ تلفت الأنظار إلى عظمة قدرة الله وحكمة إرادته، لأن امتداد الظل وما يطرأ عليه من أحوال سببه حركة الأفلاك الناشئة عن الإرادة والقدرة الإلهية. فهو موطن العبرة والعظة. وما الظل ولا الأحوال التى تعتريه إلا أمارة وعلامة على التدبير الإلهى الحكيم.

وللعلماء الذين عُنوا بتفسير الكتاب العزيز وجهات نظر مختلفة حول ست كلمات أربع منها وردت فى هذه الآية. واثنتان وردتا فى الآية التى بعدها، وهى:

﴿ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا﴾ [الفرقان: ٤٧].

* الظل وما المراد به؟
* مد الظل، أو امتداد الظل.
* سكون الظل، وتعليقه على المشيئة الإلهية.
* دلالة الشمس عليه.
* القبض.
* اليسير.

وقد أطال الأئمة المفسرون واجتهدوا اجتهاداً واسعاً حول المراد من هذه الكلمات.

ولا سبيل -هنا- لذكر كل ما قالوه، وإنما نذكر منه أبرز ما فيه تمهيداً للرأى الذى لاح لنا وسنثبته بعد قليل، ونشير فيما يأتى إلى حصيلة ما قاله الأئمة فى إيجاز:

* الظل هو ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس، أو هو ما بين غروب الشمس وطلوعها. أو هو ظل الأجسام الكثيفة المنتصبة تجاه الشمس كالجبال.
* مد الظل أو امتداده هو انبساطه وانتشاره وطوله.
* سكون الظل إدامته واستمراره.
* دلالة الشمس عليه بضوئها المخالف لحقيقة الظل.
* قبض الظل: إزالته ونسخه إما بالنهار مكان الليل، أو إزالته يوم القيامة.
* اليسير: الهيِّن السهل التدريجى[1].

هذه خلاصة نحسبها وافية لما قالوه. والجدير بالذكر أن الأئمة قد يدفع بعضهم معنى ذهب إليه آخرون ومن يطلع على أقوالهم يجد فى بعضها تدافعا حاداً، ولا نكون مغالين إذا قلنا إن من يطلع على مجمل الآراء التى أبدوها يجد نفسه فى أمس الحاجة إلى التطلع إلى ما يزيل قلق النفس الناشىء عن تلك الاختلافات دون الوصول إلى ما يقنع.

وها نحن أولاء نثبت -بعد طول نظر وتأمل- الرأى الآتى ونحسب أنه صواب حاسم لما دار بينهم من خلاف، أو هو أقرب إلى الصواب الذى تركن إليه النفس.

وخلاصة ما نراه: أن المراد بالظل هو ما بينا ضابطه فى أول مبحث الدراسة والتحليل منذ قليل، وهو الظل المألوف المعروف للعامة والخاصة، وذلك لأن الآية مسوقة للعظة والاعتبار، فينبغى أن يكون ما لفت الله أنظارنا إليه هو ما نتفق جميعاً على معناه، ونشترك فى مشاهدته.

وكان الإمام أبو السعود قد أشار إلى ذلك، وهو يرد على من قال: إن المراد بالظل هو ما يشبه ظل الجنة، أو هو أول ظل حدث فى بداية الكون.

أما (مدُّ) الظل، -فيما نرى- فهو طوله بعد طلوع الشمس فى الأفق الشرقى، لأن طول ظل الأجسام فى هذه الآونة يكون له امتداد بالغ الغاية ناحية الأفق الغربى ثم

---

(1) انظر الكشاف: (٣/ ٩٤)، وتفسير أبى السعود: (٦/ ٢٢٢)، وروح المعانى: (١٩/ ٢٥)، والتفسير الكبير: (٢٤/ ٨٨).

يأخذ فى القصــر شيئا فشيـئًا، حتى إذا توسطت الشمس كبـد السماء زال ذلك الظل تماما ولم يَعُدْ لَـهُ وجود ولكن سرعان ما يتــحول مساره إلى ناحيـة الأفق الشرقى ثم ينمو فى الطول كلما قربت الشمس من ناحية الغروب، حتى تغرب تماما.

وعلى هذا فإن (القبض اليسير) هو انعدام الظل ساعة توسط الشمس كبد السماء، وإنما وُصِفَ بأنه (يسيرا) لأن زمن انعدام الظل فى هذه اللحظة يكون قصيراً جداً ريثما يبدأ بروزه مرة أخرى من ناحية الأفق الشرقى.

وينطبق على هذا قول المفــسرين فى تفســير (يسيــرا) أنه قبض تدريجى هيِّن، لأن انتقاص طول الظل يكون فعــلا بالتدريج، ويكون فعلا -هيِّنًا- أى يتم فى لطف دون أن يلحظه النظر العــابر، ويسره ولطفه مــن تدبير الله الحكيم جلت حكمــته وعظمت إرادته.

هذا الفهم الذى قدَّمناه تفســيراً للقبض اليسير لم يتنبه له أحــد من سادتنا المفسرين عفا الله عنا وعــنهم. وهو فهم نحسب أنه يزيل كل خلاف دار بينهــم حول الوصول إلى معنى مقبول لهذا النظم الكريم.

ولا يدخل -معنا- فى مقصود الآية الكريمة الظلال الصناعية داخل المبانى المسقوفة، لأن ذلك من صنعة الإنسان، وإنما مــقصود الآية هى الظلال المتحركـة لا الثابتة، التى تخضع لصنع الله ودوران الأفلاك.

فموطن الاعــتبار فى الآية أن الله تعالى لفت أنظارنا بالمسبــبات، وهى نشوء الظل والأحوال التى تطرأ علــيه طولاً وقصــراً وانعداما، إلى الأســباب غيــر العادية، وهى حركات الأفلاك الكونية علواً وسفلاً التى نشــأت عن قدرة الله وإرادته ومشيئته تعالى فهى وحدها المؤثرة فى حدوث هذه الظواهر، وليست الأجسام الكثيفة. وقد أمتن الله علينا باستمرار هذه الظواهر بما فيها من منافع لنا، لنعلم عدد السنين والحساب ونبتغى من فضله. وأنه لو شاء لوقف حــركات الأفلاك - كما سيــأتى فى سورة القصص - فالأسبــاب العادية لا وزن لها، وإنما الوزن - كل الوزن - لتدبيــر الله أمور الكون فى نظام حكيم بديع ينبغى أن نقدره حق قدره ونشكره عليه ما وسعنا الشكر.

وقد تكررت دعوة القرآن إلى إلغاء الأسباب العادية القـريبة وقصر الاعتبار على ما وراءها من تصريف الله عز وجل لشـئون الحياة؛ لأن تدبير الله هو مناط كل اعـتبار. فانظر إلى قوله تعالى يمَن على عباده:

﴿ومن آياته الجوار فى البـحر كالأعلام. إن يشأ يسكن الريح فـيظللن رواكد على ظهره. إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ [الشورى: ٣٢ -٣٣].

فالريح سبـب عادى قريب لحركة الملاحـة المائية، لكن مناط العظمة والاعـتبار هو تصـريف الله للريح تجرى وفق إرادتـه فإذا شـاء أسكن تلك الريح فـتتـعطل حركـة الملاحة، وتظل السفن راكدة على ظهر الماء. ويفقد ملاَّحوها التحكم فيها[1].

وهكذا يدعونا القـرآن إلى التأمل فـيما وراء الظواهر من أسـباب بعيـدة هى منشأ الإيجاد والإعـدام، والحركة والسكون ولأن هذا التـأمل هو طريق الإيمان الراسخ بالله عز وجل الذى -إذا حصل فى القلوب- تزول الجبال الراسيات ولا يزول.

أما المراد من الاستـفهام فهو التـقرير والتوقيف على آثار قـدرة الله وبالغ حكمته، وينشأ عـن هذا التقرير الحـث على التأمل والاعـتبار، وبناء العـقيـدة على النظر فى موجبات الإيمـان بالله، وإطراح التقليد. وكلام الأئمة لا يخرج عـما لخصناه فى هذه العبارات.

أسرار النظم وبلاغياته:

* من أبرز ما يتـعلق بأسرار النظم قبل الـنظر فى مفرداته صلة هذه الآية ومـا بعدها بالآيات التى قبلها، ففى الآيات التى قبلها إشـارات واضحة إلى غباوات وحماقات الذين كفـروا بالله ورسله، وكذبوا الوحى الآمين وأنكروا الـبعث والحيـاة الآخرة، واتخذوا من دون الله آلهة لا تنفع ولا تضر ولا تملك موتا ولا حياة ولا نشورا.

وبعد أن أبطل الله مـدعياتهم بالبـراهين النقلية والعـقلية معـاً شرع -بدءاً من هذه الآية- يعرض فى جلاء ووضوح لوحات ناصعة من كتاب الكون العظيم لحماية الإيمان

---

(١) لا يقال: إن حركة الملاحة البحـرية تعتمد الآن على مخترعات وأجهزة علمـية بالغة الجودة والدقة، لانّا نقول لو شـاء الله تعالى لأعطب تلك الأجهـزة ووقفها عن الدوران. فـالأمر بيده يصرفـه كيف يشاء، ثم إن هذه المخترعات لم تُلْغِ تصرف الله فى الكون ولن تُلْغِيَهُ.

فى قلوب المؤمنين من التـزعزع، ولتـمهيـد الطريق لحصـول الإيمان عند من لم يؤمن ولإقامة الدليل تلو الدليل على جهل أولئك الذين رفضوا الحق الناصع الذى بعث الله به رسوله الكريم والرسل من قبله ﷺ.

واستـمر هذا العـرض الممتع المقنع ينتظم عـدة آيات يكشف مجـالى قدرة الله فى الكون علويه وسفليه، إلى أن وصل إلى تسجيل خزى آخر اقترفه الذين كفروا:

﴿ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم، وكان الكافر على ربه ظهيراً﴾

[الفرقان: ٥٥].

* **﴿ألم تر إلى ربك كيف مدَّ الظل﴾**: همزة الاستفهام دخلت على الفعل المضارع المنفى بـ(لم) فأحالت النفى إثباتا، أى: قد ترى. وقد لتحقيق الرؤية، وهى رؤية بصرية؛ لأن موضوع الرؤية -كمـا تقدم- ظواهر طبيعية مدركة بحـاسة البصر، وهى الظل وما يتوارد عليه من أحوال عارضة.

وعُدِّى الفعل (ترى) بحرف الجر (إلى) لتضـمين الرؤية معنى الانتهاء، هذا ما نص عليه بعض الأئمة. وقد لاح لنا فيـه معنى آخر، هو أن هذه الأداة (إلى) تتوسط فعل الرؤية ومفعوله إذا كان ذلك المفعول ذاتا، للفرق بينه إذا كان ذاتا وبين ما لم يكن منه ذاتا. ولهذا نظائر قد تقدمت نذكـر منها على سبيل التمثيل ريثمـا نعود إليه عند آخر مثال منه فى النـظم الحكيم بإذن الله. نذكر منه المثالين الآتيين وكلاهمـا مَرَّا فى سورة البقرة:

الأول: ﴿ألم تر إلى الذى حاجَّ إبراهيم فى ربه...﴾ [البقرة: ٢٥٨].

الثانى: ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم..﴾ [البقرة: ٢٤٣].

وسر إيقاع الرؤية على اسم الله الكريم (رب) شبيه بالمجاز المرسل باستعمال المسبب وإرادة السبب؛ لأن هذا الاستفهـام للحث على مشاهدة الظواهر التى تقود إلى الإيمان بالله، وتكون سببا فى تحقيقه. والإيمان بالله مسبب عنها. فأطلق المسبب، وهو الإيمان

بالله الناتج عنهــا الذى عُبِّر عنه بالرؤيــة، وأريد السبب، وهو مشــاهدة تلك الدلائل البــاهرة. حتى لكان المــرئى هو الله عز وجل وليــست الدلائل المنصــوبة على الإيمان بالله.

أوهو كناية، حــيث كنى برؤية الله عن رؤية دلائل الإيمان بــه ثم إن إيثــار الاسم الجليل وإضافتــه إلى ضمير صــاحب الرسالة ﷺ. لما فيه من معــانى الخلق والإيجاد والحفظ وحسن الرعاية والإنعــام. أما الإضافة إلى ضمير النبى فلتــرقيق الخطاب معه عليه الصلاة والسلام وتسرية عن قلبه المهموم من جرَّاء كفر قومه.

* **﴿كيف مدَّ الظل﴾** أى إلى كيــفية مد الــظل وما فيهــا من بديع الصنع والمد -هنا- بمعنى التحريك -كما قال الإمــام الزمخشرى بدليل أن النظم الحكيم قابله بالسكون فى قوله تعالى **﴿ولو شاء لجعله ساكنا﴾** فيكون المد استعارة للحركة.

وإيثار **(الظل)** على الضوء هنا؛ لأن الظل - نهاراً - طارىء تتــوارد عليه الأحوال. أما الضوء فهو الأصل.

ولأن مساحات (الظل) - نهاراً - أضيق بكثير من مساحات الضوء.

* **﴿ولو شاء لجعله ساكنا﴾** إيجاز بالحذف، حيث حذف مفعــول المشيئة، والتقدير: لو شاء إسكانه لجــعله ساكنا. وسكون الظل عند الإمام جــار الله الزمخشرى اســتعارة عن إزالتــه ونسخــه فالجــمع بينهمــا -أى بين المد والسكون- طبــاق إيجابى دقــيق المسلك.

* **﴿ثم جعلنا الشمس عليه دليلا﴾** فى جعلنا التفات من الغيبة فى (شاء) إلى التكلم فى (نا) سره تفخيم (الجعل) بتفخيم المسند إليه لفظا ومعنى.

* * *

١٠ - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً﴾ [الفرقان: ٦٠].

الدراسة والتحليل:

فى هذه الآية يسجل النظم الحكيم جريمة أُخْرى من جرائم المشركين، وموقفا من مواقفهم المعاندة للدعوة. وكأن النبى ﷺ قد تجاوز مرحلة مطالبتهم بالإيمان بالله أصلاً إلى مطالبتهم بفرع من فروع الإيمان وهو السجود بمعنى الانقياد والطاعة تلميحا لهم بأن الإيمان بالله -لظهور دلائله- أمر ينبغى ألا ينازع فيه أحد.

وقد ورد فى هذه الآية استفهامان هما:

* **﴿.. وما الرحمن﴾؟**
* **﴿أنسجد لما تأمرنا﴾.**

ولم يقف الأئمة أمامهما طويلا، وخلاصة ما قالوه فى الاستفهام:

الأول: إنه حقيقى لأنهم لم يكونوا يعرفون أنه من أسماء الله، وقد ضعَّف الإمام الألوسى هذا القول بعد أن أشار إلى أنه ما عليه أكثر المفسرين. أما الذى إرتضاه هو فهو أن الاستفهام فى **﴿قالوا: وما الرحمن﴾** قالوه على سبيل التجاهل والوقاحة[١] ونظَّره بما حكاه عن فرعون حين قال لموسى عليه السلام: **﴿وما رب العالمين﴾**؟ [الشعراء: ٢٣].

ووصف الألوسى هذا القول بأنه الأظهر. وكان الإمام أبو السعود قد أورده فى جملة أقوال، ولكنه لم يتحمس له كالإمام الألوسى.

أما الاستفهام الثانى **(أنسجد)** فما قالوه فيه يُفْهَم منه أنه للإنكار وإن لم يصرِّحوا به[٢].

والذى نرجحه أن الاستفهام الأول من تجاهل العارف قالوه بقصد التنصل والهروب من الأمر بالسجود، كما قصدوا منه التمهيد ليؤسسوا الاستفهام الثانى عليه وهو:

---

(١) روح المعانى: (١٩/ ٢٩).

(٢) انظر فوق ما تقدم: الكشاف: (٣/ ٩٨)، والتفسير الكبير: (٢٤/ ١٠٦)، وتفسير البيضاوى: (٢/ ١٤٦)، والنسفى: (٣/ ١٧٣).

﴿أنسجد لما تأمرنا﴾ وهو للإنكار والاستبعاد، أى: إنكار وقوع سجود منهم لمن يدعوهم إليه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **﴿وإذا قيل لهم أسجدوا للرحمن﴾** حذف فاعل الفعل الماضى (قيل) وبناؤه لما لم يسم فاعله للعلم به؛ ولأن الغرض لا يتوقف على معرفة الفاعل بل على المأمور به، وهو السجود، لأن السجود للرحمن ينبغى أن يُسارَع إليه متى طلب ومن أى آمر أمر به.

وإيثار اسم (الرحمن) لما فيه من معنى إيجاب السجود لأنه وسع الناس برحمته، فحقه أن يُشكر ويُسجد له، لا أن يُتَعَالَى وَيُتَعَاظَمَ عليه.

* **(قالوا وما الرحمن)** عبرَّوا عنه بـ(ما) وهى للسؤال عن غير العاقل مبالغة فى إنكاره وجحده، ولينسجم اللفظ مع معنى التجاهل الذى أرادوه.

ولا وجه لما قاله أكثر المفسرين من أنهم لم يكونوا يعرفون (الرحمن) اسمًا من أسماء الله، وعبدالرحمن بن عوف سمى (عبدالرحمن) قبل نزول القرآن. ثم حتى لو كانوا لا يعرفون ذلك فعلا فإن أمر الرسول لهم بالسجود (للرحمن) قرينة قوية صارفة عن توهم إرادة غير الله بـ(الرحمن) وقد صدر لهم الأمر من رسول لا يؤمن إلا بالله الواحد القهار.

وصارف آخر، وهو أن الرسول ﷺ ما كان ليأمرهم أن يسجدوا للرحمن إلا إذا كان على يقين من معرفتهم به، وأن الرحمن هو الله.

والذى حملهم -هنا- على هذا التجاهل المتعمد أن الأمر الذى صدر لهم كان بالسجود كما يفهم من ظاهر اللفظ وهو وضع الجبهة على الأرض. وهذا أمر شاق على أناس ملأ الجهل والكفر والكبرياء نفوسهم.

* **﴿أنسجد لما تأمرنا﴾** الذى نرجحه فى (ما) هنا -بدلالة المقام- أنها مصدرية، أى: أنسجد لأمرك؟ وهذا ما يدل عليه كلامهم الذى حكاه القرآن عنهم؛ لأنهم لما أنكروا معرفتهم بـ(الرحمن) وكان ذلك الإنكار يعنى عدم وجود (الرحمن) حسب

زعمــهم، لم يبق شيء يسجــدون له سوى مجــرد الأمر الصادر لــهم من صاحب الرسالة. فــالأمر المجرد من أى مــدلول خارجى. هو المسجــود له عندهم، ولذلك استبعدوا ذلك السجود.

فالسادة المفــسرون ترخصوا كــثيراً فى هذا التأويل الذى لا يترتب عــليه أية جريرة يؤاخذ عليها المشركون والحق مع الإمام الألوسى رحمه الله.

* ﴿**وزادهم نفوراً**﴾ أى زادهم الأمــر بالســجــود نفــوراً وبُعّــداً عن الحق. أو زادهم السجود المأمــور به ذلك النفور. وتنكير (نفوراً) للتهــويل والتفظيع، أما إسناد زيادة النفور إلى السجود المأمور به فــهو مجاز عقلى علاقته السببــية، لأن الأمر بالسجود هو الباعث على زيادة النفور.

* * *

سورة الشعراء

١ - ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٧].

الدراسة والتحليل:

سورة الشعراء مكية النزول، لذلك كادت تقتصر على مواجهة فكر الكفر والكافرين، وذكر أحوال الأنبياء السابقين مع أقوامهم، وتسجيل مواقف الذين كذبوا الرسل، وبعضا من قول الرسل لهم، ثم حرص النظم القرآنى فيها على تعقيب كل قصة بذكر عذاب الله الذى أنزله الله بهم جزاء كفرهم وعنادهم والسورة -من بدايتها إلى نهايتها- رَكَّزت على شىء واحد له طرفان باعتبار المعنى المراد منه:

أحدهما: عزاء جميل وتثبيت وتسلية لصاحب الدعوة ﷺ ببيان مصارع الأمم التى أهلكها الله بكفرها وعنادها.

الثانى: إنذار وتحذير لمشركى العرب من استمرارهم على الكفر والعناد، وإنزال الأذى بالمؤمنين.

وكان أول استفهام ورد فيها هو قوله تعالى: **﴿أوَ لم يروا إلى الأرض...﴾** وواو الجمع فى **(أوَ لم يروا)** كناية عن كفار مكة الذين كذَّبوا رسول الله محمداً ﷺ. وكان ذكرهم قد تقدم فى أوائل هذه السورة.

تناول الإمام جار الله هذه الآية بالشرح، فأجاد وأحسن وأحاط، وفتَّق أكمام المعانى، واستقصى دقائق أسرارها ولكنه لم يفصح عن المراد من الاستفهام فيها(١).

أما أبو السعود فقد صدَّر كلامه فى هذا الاستفهام ببيان المراد منه، ثم أعاد ما قاله الإمام الزمخشرى من قبل.

قال رحمه الله:

﴿أوَ لم يروا...﴾: الهمزة للإنكار التوبيخى، والواو للعطف على مقدر يقتضيه

---

(١) الكشاف (٣/ ٣٠٥).

المقام. أى: أفعلوا ما فعلوا من الإعراض عن الآيات والتكذيب والاستهزاء بها، ولم ينظروا (**إلى الأرض**) - أى: إلى عجائبها الزاجرة عما فعلوا الداعية إلى الإقبال عما اعرضوا عنه وإلى الإيمان به.

وقوله تعالى: ﴿**كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم**﴾ استئناف مبين لما فى الأرض من الآيات الزاجرة عن الكفر الداعية إلى الإيمان. وكم خبرية[1].

هذا ما استقل بذكره قبل سوقه كلام الزمخشرى، وقد وفىَّ الاستفهام حقه من الدراسة، كما بيَّن نوع (كم) بأنها خبرية لا استفهامية.

وحمله الاستفهام على الإنكار التوبيخى بناء على أن الواو عاطفة على مقدر. ذلك المقدر هو الذى دخلت عليه الهمزة فأنكرته، كما بينه هو فيما نقلناه عنه آنفا.

أما الإمام الألوسى فقد نَـهَجَ نَهْجَ أبى السعود، وردد معانيه مع بعض ألفاظه. وجوَّز أن يكون الاستفهام للرد على الذين أنكروا البعث. وقدَّر المحذوف هكذا: أكذَّبوا بالبعث ولم ينظروا إلى عجائب الأرض الزاجرة عن التكذيب بذلك» ثم رجحَّ أن يكون الاستفهام للرد عليهم فى تكذيبهم بالرسالة جملة. قال: والأول هو الأظهر»[2] ولم يذكر الأئمة الآخرون هذا التفصيل الذى تقدم عن الأئمة الثلاثة، ولعل مرجع هذا كثرة ما عالجوه من مثل هذا الاستفهام في السور المتقدمة.

ونحا الإمام الطاهر منحى الأئمة الأقدمين فى حمل الاستفهام على الانكار و«كم» على الخبرية، ثم خالفهم فيما عطفت عليه الواو، فهى عنده عاطفة على مذكور فى الكلام لا محذوف مقدر كما ذهب الإمامان أبو السعود والآلوسى. واعتبر همزة الانكار مقدمة من تأخير لأن الاستفهام له الصدارة فى الكلام.

وهو -بهذا- جارٍ على مذهب الجمهور لا على مذهب الزمخشرى الذى مر بيانه مرات من قبل[3].

والخلاصة: أن هذا الاستفهام عند أهل العلم للإنكار حتى عند من جرى على

---

(١) تفسير أبى السعود: (٦/ ٢٣٤-٢٣٥).

(٢) روح المعانى (١٩/ ٦١).

(٣) التحرير والتنوير (١٨/ ١٠١).

مذهب الجمهور فى تقديم الهمزة من تأخير. وسيأتى بيان لهذا فى مبحث أسرار النظم.

والذى نقوله - الآن - أن هذا الاستفهام سواء كان للإنكار كما قالوا أو لغيره يتضمن معانى أخرى من أبرزها التوبيخ على عدم انتفاعهم بدلائل الإيمان، ثم الحث على تدارك ما فات من الاعتبار والتدبر.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**أو لم يروا**﴾: تقدم أن بعض الأئمة صرَّح بأن هذا الاستفهام للإنكار، والإنكار عند بعضهم مسلط على المحذوف المقدر الذى دخلت عليه الهمزة وهو يدور حول الإعراض عن دلائل الإيمان، قال هذا من جعل الهمزة قارة فى مكانها غير مقدمة من تأخير تطبيقًا لمذهب الإمام جار الله.

أما من جعل الهمزة مقدمة من تأخير على مذهب الجمهور، وهو الطاهر بن عاشور، فللإنكار عنده ملحظ آخر؛ فسره بأن الرؤية، وهى بصرية عند الجميع، ثابتة، ولكنها نزلت منزلة العدم لأنهم لم يستفيدوا منها فيؤمنوا عملاً بمقتضاها. هذا ما انتهوا إليه.

أما الذى يلوح لنا، وهو الأليق بدلالة المقام فإن الاستفهام للتقرير بالرؤية، لا لإنكارها. وعلى هذا يتعين الأخذ بمذهب الجمهور. فالقرآن يقررهم بالرؤية، ويلزمهم بها إلزامًا، وهذا هو مناط الاحتجاج عليهم، وهو لا يتأتى إلا على التقرير وبعد هذا التقرير يُنكر عليهم القرآن عدم جريهم على مقتضى تلك الرؤية، وهو الإيمان بالله وما جاء به الرسول ﷺ جملة وتفصيلا. وليس هذا الإنكار الناشىء عن التقرير بالرؤية منصبا على إنكارهم البعث والنشور، بل هو عام يشمل تكذيبهم بالرسالة عقيدة وشريعة.

* ﴿**إلى الأرض**﴾ - عديت الرؤية هنا، بحرف الجر (إلى) وهذا مثال آخر لما كنا قد لمحناه وسجلناه من قبل، من أن الرؤية تُعدَّى بهذا الحرف (إلى) إذا كان متعلق الرؤية ذاتا لا معنى وهذا يقوى ما سجلناه عن هذه السمة الأسلوبية فى لغة الإعجاز فى فن الاستفهام.

أما إذا كان متعلق الرؤية معنى فيخلو الاستفهام عن الرؤية من التعدية بحرف الجر (إلى) ويُعدَّى فعلها بنفسه، وأمثلته كثيرة فى لغة الإعجاز.

ومنها - على سبيل التمثيل - قوله تعالى: ﴿أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقًا ففتقناهما..﴾ [الأنبياء: ٣٠]، لأن الرؤيا - هنا - علمية باتفاق، فهى إذًا معنى ذهنى.

* ﴿كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾ وجَّه الله عز وجل أنظارهم أولاً إلى الأرض. ثم أبدل منها هذه الجملة، وهى كثرة ما أنبت فيها من نبات مختلف ألوانه وطعومه وأحجامه وأشكاله ومنافعه وهذه الجملة هى محط التقرير والاستدلال على إيجاب الإيمان ولم يوجه سادتنا المفسرون السر فى إيقاع الرؤية أولاً على الأرض، مع أن المراد لفت الأنظار -إلى الزروع والأشجار والنبات. والذى لاح لنا فيه هو الإشارة إلى كثرة الإنبات فأخرج الكلام مُخرج ما لو كانت الأرض كلها موضعًا لهذا الإنبات حتى لا يكاد الذهن أن يتصور فيها موضع قدم لا نبات فيه.

وموضوع الكثرة هذا قد ألمح إليه الإمام جار الله وآخرون من كلمة (كم) وهى كناية عن الكثرة فى العدد، وكلمة (كل) وهى كما قالوا: كناية عن الإحاطة والكثرة فى النوع، يعنى أن الله عز وجل يمتن علينا بأنه أنبت لنا من كل أصناف النبات كمًا هائلاً، فلم تكن الكثرة فى نوع واحد أو بعض الأنواع، بل شملت جميع الأنواع. فهى - نِعَمٌ - تستوجب الشكر، لا الكفر ودلائل ناصعة تستوجب الإذعان والإيمان، لا الإعراض والتكذيب.

و﴿من﴾ فى ﴿من كل زوج كريم﴾ بيانية أو بعضية، ولكن على اعتبار أن الله ينبت فى الأزمان المتتابعة بعضا من كل الأنواع لا ينبته مرة واحدة، بل مرة بعد أخرى لدوام الانتفاع به حسبما تقتضيه حكمته فى تدبير مصالح العباد، والذى نرجحه فى معنى (الزوج) فى قوله عز وجل: **(من كل زوج كريم)** وهو إناث وذكور كل نوع من النبات، لكى تلقح الذكور الإناث لاكتمال خلق الثمار.

أما الوصف بـ **(كريم)** فقد فسره الأئمة بأن الكريم هو الطيب أو المحمود أو

المُرْضِى، ومعنى هذا أن فى العبارة استعارة تصريحية شبه فيها كثرة ما يجود به النبات بالكرم، ثم اشتق منه (كريم) بمعنى كثير نافع.

أو مجاز عقلى أسند فيه الوصف إلى السبب، والفاعل هو الله تعالى: أى: كريم فيه مُنّبتُه.

وفى هذه الآية تعريض بمكذبى الرسل وفرط غباوتم بجحدهم النعم، وكفرهم بالآيات البينات: وإسناد الإنبات إلى نون العظمة لتفخيم شأن النعمة وعظم الآيات.

* * *

٢ - ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾

[الشعراء: ١٨].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية حلقة من الحوار الذى دار بين موسى عليه السلام، وبين فرعون عليه اللعنة. وذلك حين بعث الله موسى إلى فرعون وقومه وكانت رسالة موسى إلى فرعون ذات شقين:

الأول: دعوتهم إلى توحيد الله عز وجل.

والثانى: السماح لبنى اسرائيل بالخروج من مصر بعد أن ذاقوا فيها على أيدى فرعون وملئه أبشع صور العذاب والاضطهاد وقول فرعون - هنا - لموسى كان ردًا على طلب موسى من فرعون أن يُخلى سبيل بنى اسرائيل. تنفيذًا لأمر الله لموسى وهارون:

(فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين. أن أرسل معنا بنى اسرائيل)

[القراء: ١٦-١٧].

فكان رد فرعون مخاطبا موسى عليه السلام:

﴿ألم نربك فينا وليدًا..﴾؟

تجاوز الأئمة بيان المراد من الاستفهام فى الآية، إلا الإمامان الألوسى وابن عاشور.

فقد نص الأول على أن المراد منه هو الامتنان[1].

وقال الثانى إن المراد منه هو التقرير[2].

والخلاصة: لا منافاة بين الامتنان والتقرير اللذين فسرا بهما المراد من الاستفهام؛ لأن الامتنان مقترن بالتقرير، وقد يراد منه الافحام إذا أخذ فى الاعتبار الآية التى ذكر فيها فرعون قتل موسى لأحد المصريين قبل فراره إلى مدين. وهى: ﴿**وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين**﴾ [الشعراء: ١٩].

والذى ينبغى أن يقال فى هذا الاستفهام أنه أصلاً للتقرير.

وينشأ عن هذا المعنى - بدلالة المقام - معان أخرى يوحى بها المقام، وهى:

* العتاب * التذكير، ثم الاستعطاف والتليين، ففرعون لعنه الله يذكر موسى بنعمة الفراعنة عليه، ويعاتبه على تنكره للنعمة، ثم يستعطفه ليعدل عن الطلب الذى تقدم به إلى فرعون وهو إطلاق سراح بنى إسرائيل.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**قال..**﴾ فصلت هذه الجملة عما قبلها للاستئناف البيانى لأنها جواب عن سؤال نشأ عن الأولى حاصله:

ماذا قال فرعون لما قال له موسى: أرسل معنا بنى اسرائيل؟ ﴿**ألم نربك فينا وليدًا**﴾؟ نزَّل فرعون موسى عليه السلام منزلة المنكر لتربيته فى أرض مصر قبل فراره إلى مدين، لذلك استفهم بالهمزة لنفى تنكر موسى الذى بناه فرعون على ظاهر حال موسى ومطالبته فرعون بخلاص بنى اسرائيل من الاضطهاد ونفى النفى إثبات كما هو معروف.

وفى قوله (فينا) مبالغة فى التقرير بالتربية، حيث حذف من الكلام مدخول حرف الجر (فى) أى فى بلدنا أو منازلنا، وبهذا الحذف تحققت المبالغة، أى ربيناك بين جوانحنا وفى سويداوات قلوبنا.

* ﴿**ولبثت فينا من عمرك سنين**﴾ كرر الجار والمجرور ﴿**فينا**﴾ لنفس الغرض منها فى الأولى.

(١، ٢) روح المعانى (١٩/ ٦٨) والتحرير والتنوير (١٨/ ١١١).

أما تنكير ﴿سنين﴾ فالمراد منه الكثرة. وهذا ما جعل الإمام الألوسى يحمله على الامتنان.

* * *

٣ - ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ، وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٣].

الدراسة والتحليل:

وهذه الآية حلقة ثانية من الحوار الذى دار بين موسى عليه السلام وفرعون عليه اللعنة؛ لأن موسى وهارون كانا قد قالا له:

﴿إنا رسول رب العالمين﴾ فاستفهم فرعون قائلا: **﴿وما رب العالمين﴾**؟.

وفى هذا الاستفهام يقول الإمام جار الله الزمخشرى:

﴿وما رب العالمين﴾: يريد: أى شىء رب العالمين. وهذا السؤال لا يخلو: إما أن يريد به أى شىء من الأشياء التى شوهدت وعرفت أجناسها، فأجاب بما يُستَدَل به عليه من أفعاله الخاصة ليُعَرِّفَهُ - أى ليعرف موسى فرعون - أنه ليس بشىء مما شوهد وعُرِف من الأجرام والأعراض. وأنه شىء مخالف لجميع الأشياء ليس كمثله شىء.

وإما أن يريد به - أى يريد فرعون بهذا السؤال - أى شىء هو على الإطلاق تفتيشا عن حقيقته الخاصة ما هى؟ فأجابه بأن الذى إليه سبيل، وهو الكافى فى معرفته معرفة ثباته بصفاته استدلالا بصفاته الخاصة على ذلك.

وأما التفتيش عن حقيقته الخاصة التى هى فوق فِطَرِ العقول فتفتيش عما لا سبيل إليه. والسائل عنه متعنت غير طالب للحق والذى يليق بحال فرعون ويدل عليه الكلام أن يكون سؤاله هذا إنكارًا لأن يكون للعالمين رب سواه لادعائه الألوهية)[1].

هذا كلام الإمام جار الله، نقلناه بطوله، لنفاسته وجدته وهو - وحده - كافٍ شاف فى بيان المراد من هذا الاستفهام من ناحية المعنى العام للجملة. ومن ناحية المراد من الاستفهام بوجه خاص.

---

(١) الكشاف: (٣/ ١٠٩).

وخلاصة معنى الجملة عنده: أن السؤال يصح أن يحمل على واحد من معنيين:

(أ) أى شيء يكون رب العالمين هذا من الموجودات التى يعرفها الناس ويشاهدونها؟.

(ب) أو أى شيء تكون حقيقة رب العالمين هذا؟.

وكان الجواب على الأول: أن رب العالمين ليس شيئًا من الأشياء التى يشاهدها الناس.

وكان الجواب على الثانى: أن رب العالمين يعرف بآثاره وصفاته لا بحقيقة ذاته.

وجواب موسى عليه السلام واحد، وهو ما حكاه الله عنه:

﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾.

لكنه صالح لأن يكون جوابا حكيما عن كل شق من شِقَّىْ السؤال اللذين فصلهما الإمام رحمه الله.

أما من حيث المعنى الخاص المراد من الاستفهام فقد رَجَّح الإمام أنه للإنكار. أى لإنكار أن يكون للعالمين رب غير فرعون الذى أدعى الألوهية.

وكلام الإمام - هنا - يغنينا عن تتبع ما قاله الأئمة. فقد رأينا بعضهم يذهب إلى ما يصلح أن يكون اعتذاراً من فرعون. فقد نقل الألوسى قولا عن السكاكى ذهب فيه إلى أن سؤال فرعون عن الجنس: أى: أبشر هو أم ملك أم جنى؟[1].

والخلاصة: أن مآل هذا الاستفهام إما للتجاهل الموطئ للإنكار، وإما للإنكار مباشرة دفعة واحدة. وهذا هو الذى رحجة الإمام الزمخشرى من قبل. فأن لفرعون مواقف أخرى يُجزَم من النظر فيها أنه منكر لله عز وجل، مدعٍ أنه وحده هو رب العالمين. ولا رب للعالمين سواه.

أسرار النظم وبلاغياته

* **﴿قال فرعون..﴾** من البديه أن فصل هذه الجملة عما قبلها كان لما بينا من قبل من الاستئناف البيانى. حيث وقعت هذه الجملة جوابا عن سؤال مقدر.

أما وضع المظهر (فرعون) موضع المضمر (قال) لذكر فرعون قبلا فكان الظاهر عود الضمير عليه لا ذكر اسمه الصريح لكن لما أعيد اسمه الصريح كان ذلك إخراجا

---

(١) روح المعانى (١٩/ ١٨).

للكلام على خلاف ما يقتضيه الظاهر. وبعض المفسرين علل هذا الإخراج بطول الفصل بين ذكر اسمه هنا وبين وروده لأول مرة فى قوله عز وجل:

﴿فأتيا فرعون﴾ [الشعراء: ١٦].

والذى لاح لنا أن سراً بلاغيا آخر اقتضى هذا الإظهار وهو التسجيل على فرعون بجريمة تجاهل رب العالمين أو جريمة إنكار أن يكون للعالمين رب سواه. فإذا لم يكن هذا الغرض وحيدا فى اقتضاء التعبير باسمه الصريح الظاهر، فهو أقوى فى هذا الاقتضاء من طول الفصل إذا قلنا باجتماع السببين:

طول الفصل، وإرادة التسجيل وقوة الإسناد، ولم يأت فى النظم: قال: ما رب العالمين؟ بل جئ بواو العطف هكذا: **﴿.. وما رب العالمين﴾** لأن هذا الكلام جرى فى المحاورة والمقاولة التى جمعت بين موسى عليه السلام، وبين فرعون عليه اللعنة. فحرص النظم الحكيم على ربط جرائم فرعون بعضها ببعض عن طريق العطف بالواو. ولأن الواو هنا - وقد خلت منها أقوال فرعون فيما ورد بعد هذا الموضع - عطفت أفحش مقولة لفرعون نطق بها فى حق الله تعالى. وهى تجاهله المؤدى إلى إنكار وجوده وإفراد الخطاب من فرعون لموسى فى هذه المحاورات مع أن أخاه هارون كان معه، لأن مدخل الحديث كان من فرعون مقصوداً به الامتنان على موسى بالتربية، ثم تذكيره بقتل المصرى. ولم يكن لهارون صلة بهذه الوقائع. ويبدو بالإضافة إلى هذين أن موسى - عليه السلام - كان أكثر تصديا لفرعون من هارون عليه السلام.

* **﴿وما رب العالمين﴾** للعلماء توجيهات فى التعبير بـ (ما) هنا للسؤال عن رب العالمين، وهى لغير العاقل، فكان لا يليق السؤال بها.

وقد أجابوا أن السؤال عن الحقيقة. وهى يُسأل عنها بـ (ما).

والذى نراه أن التعبير القرآنى هنا، يحكى المعانى التى كان يقصدها فرعون بألفاظ غير عربية. فعبَّر القرآن بألفاظ عربية تعبيراً دقيقا عن تلك المعانى والمقام يوحى بأن فرعون قصد هذا المعنى - لغير العاقل - عامداً متعمداً. لأن إنكاره أن يكون للعالمين

رب سواه هو يحمله على الانتقاص مـن جلال الله، وما يجب له من تقدير فلا داعى للاعتذار عن فرعون وجهله وكفره وعناده.

أما الإنكار المتبادر من ظاهر عبارته ﴿وما رب العالمين﴾ فقد اتخذ فرعون من السؤال نفسه كناية عن عدم وجود المستفهم عنه؛ لأن الموجود لا يُسأل عنه.

وهكذا يتـضح من تركيب الجـملة وخصائصـها أن فـرعون إنما سـأل سؤال إنكار وكفر. عليه لعنة رب العالمين.

* * *

٤ - ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٥].

الدراسة والتحليل:

بعد أن استـفهم فرعون منكرًا وجود رب للعـالمين فى الآية السابقة، وهى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ورد عليه موسى عليه السلام:

﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ استهول فرعون هذا الرد من مـوسى، فالتفـت إلى من حوله من قـومه، وكأن مـوسى تكلم بالعـجائب والغرائب من الخرافات والأباطيل، فقال لمن معه من قومه: ﴿.. **ألا تستمعون**﴾؟.

فماذا أراد فرعون عليـه اللعنة من هذا الاستفهام؟ الأئمة جميعـا مجمعون على أن المراد لفرعون من هذا الاستفهام هو تعجيب قومه وسدنة مملكته من إجابة موسى عليه السلام على سؤاله عن رب العالمين[1]. ولبعضهم لمحات طيبة حول هذا التعجيب.

ومع هذا فأننا نرى غرضا آخر يعلن عن نفـسه يوحى به مقام الكلام. هذا الغرض هو أن فرعون لما هاله جـواب موسى عليه أراد فرعون أن يستعـدى على موسى رجال حاشيته. فـأملت عليه نفسه أن يقررهم بأنهم استمعوا كـلام موسى، وكأنه يحرضهم عليه ليتخـذوا منه موقفا صارما وتكون ألسنتهم عليه حـتى لا يتأثر بما قاله أحد منهم ولا من غيرهم، كما أراد به عدم الاعتداد بما قاله موسى عليه السلام.

---

(١) انظر - مـثلا الكشـاف (٣/ ١١٠) وأبو السعـود (٦/ ٢٣٩)، وروح المعانى (١٩/ ٧٣) والنسـفى (٣/ ١٨١)، والتحرير والتنوير (١٨/ ١١٨).

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿قال لمن حوله..﴾ هذه الجملة مفصولة عما قبلها لما تقدم فى مواضع كثيرة، من أنها جواب عن سؤال مقدر نشأ عن الجملة الأولى.

أما ﴿لمن حوله﴾ فلها دلالات بلاغية تشع منها، منها الإشارة إلى أن فرعون أشاح بوجهه - كما أشاح بقلبه - عن موسى عليه السلام، حين نزلت إجابة موسى عليه كالصواعق الحارقة، فأراد أن يُرى جلساءه أن هذا الكلام الذى صدر عن موسى كلام مُطَّرَح لا يستحق أن يعيره هو أدنى اهتمام.

ومنها أنه أراد أن يسخر من موسى ومما قال، وأن قوله هذا مما يثير فى النفوس الامتعاض، ويُتَعجَّبُ منه كما يُتَعجَّبُ من كلام البله والسفهاء.

ومنها أنه خشى مقاولة موسى حتى لا يقرع أسماعه مرة بما يزلزل الأرض تحت قدميه.

* ﴿ألا تستمعون﴾ هذا تقرير لاستماع قومه لكلام موسى. وكأنه يقول لهم: أتستمعون هذا الكلام وأنتم صامتون، وتتركون موسى يهذى هذا الهذيان ولا يكون منكم إنكار أو اعتراض، أو حتى بطش به.

وإنما سلك فرعون هذا المسلك لهول ما سمع من موسى من إدعائه أن للعالمين ربا غير فرعون، فلجأ إلى هذا الهروب الفاضح. وهذا هو شأن الباطل وأهله عندما يتصدى لهم الحق وأهله.

* * *

٥ - ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ٣٠].

الدراسة والتحليل:

على إثْر المحاورة التى جرت بين موسى عليه السلام، وفرعون عليه اللعنة، ورمى فرعون فيها موسى بالجنون حين قال لمن حوله بعد أن قال موسى مواصلا الحديث عن رب العالمين:

﴿.. رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ فقال فرعون ملتفتا إلى رجال حاشيته:

﴿. . إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ فلم يغضب موسى عليه السلام، ولكن لاحقه بما يعكّر صفوه فقال مادحا رب العالمين:

﴿. . رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

فاشتد غضب فرعون واضطر أن يحول الخطاب فى هذه المرة إلى موسى فقال:

﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِى لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ عندئذ قال له موسى عليه السلام:

﴿.. أو لو جئتك بشىء مبين﴾؟.

وقد صدرت هذه الآية بهذا الاستفهام كما ترى، وقد أوجز الإمام الزمخشرى القول فى الاستفهام فى العبارة الآتية:

﴿أو لو جئتك﴾: الواو واو الحال دخلت عليها همزة الاستفهام، ومعناه: أتفعل بى ذلك ولو جئتك بشىء مبين. أى جائيا بالمعجزة)[1].

الإمام جار الله يطبق مذهبه الذى عرفناه من قبل فيجعل الهمزة داخلة على محذوف قدره بقوله: أتفعل بى ذلك ولو جئتك بشىء مبين.

ونحا الإمام أبو السعود منحى الإمام جار الله لكنه خالفه فى جعل الواو للحال، وجزم بأنها للعطف. وهذا قول سديد، ثم بيَّن أن (لو) فى (أو لو جئتك) ليست لانتفاء الشىء فى الزمان الماضى لانتفاء غيره فيه. . . بل هى لبيان تحقق ما يفيده الكلام السابق من الحكم الموجب أو المنفى على كل حال مفروض من الأحوال المقارنة له على الإجمال بادخالها - أى إدخال لو - على أبعدها منه وأشدها منافاة له ليظهر بثبوته أو انتفائه معه ثبوته أو انتفاؤه مع ما عداه من الأحوال بطريق الأولوية. .)[2].

هذا كلام رائع ودقيق. حاصلة أن (لو) هنا بالذات تفيد أن موسى عليه السلام قصد من قوله هذا لفرعون أن يقول له:

أيكون منك سجن لى سواء جئتك بمعجزة أو لم أجئك بها أى أتسجننى على أى حال، ليتبين من فرعون ماذا يصنع إذا آراه معجزة تدل على صدقه.

---

(١) الكشاف: (٣/ ١١٠).

(٢) تفسير أبى السعود (٦/ ٢٤١).

وهذه الفقرة جـديدة تحسب للإمام أبى السـعود واقتبس الإمام الألوسى بـعضا من كلام أبى السعود وانتهى إلى ما انتهى إليه فى إيجاز[1].

ويختصر الإمام الطاهر الكلام وينعت (لو) بأنها: (لو) الوصلية، وهى التى تدخل على أقصى الحالات المفروضة، مثل: فلان يعطى ولو كان فقيراً.

أما الاستفهام فهو - كما يقول - حقيقى مشوب بالإنكار والاستغراب[2].

والخلاصة: أن الاستفهام يحتمل أن يكون حقيقـيا مشوبا بالإنكار والاستغراب كما قال الإمام الطاهر كما يحتمل أن يكون مـجازيا المراد منه الحجاج وإثارة الخصم ليعلن أقصى مـا عنده؛ لأن موسى علـيه السلام مـدرك تماما أن فـرعون لن يمتـثل لعقـيدة التوحيد بعد الحوار الذى دار بينهما.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**قال..**﴾ مفصولة عما قبلها للاستئناف البيانى؛ لأن المقاولة التى جرت بين الطرفين مثيرة للتساؤل عند السامع إثر قول كل طرف.

* ﴿**أو لو جئتك**﴾ شـروع من موسى عليـه السلام فـى تمهيـد طريق الإلزام بالحجـة لفرعـون، لأنه إذا قال: إن جئت بما تقـول سلمت لك لزمه الانقيـاد له. وإن قال أسجنك جئت أو لم تجئ بالمعجزة لزمه أن يعـترف بالعناد والتحكم. ولكن فرعون سلك مسلكا وسطا بين الغرضين يسمح له بالخروج من المأزق حين قال:

﴿فَأْتِ بِهِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ٣١].

* ﴿**بشىء مبين**﴾ عَّبر مـوسى عليه السلام عن المعجـزة بكلمة ﴿**شىء**﴾ لإرادة تهويل أمرها، تخويفا لفرعون عله يحدث نفـسه ويراجعها فى الضلال الذى هو عليه وقد نجح موسى فى كسر حدة فرعون كما بدا من جوابه.

﴿**فأت به إن كنت من الصادقين**﴾، ولكن الشيطان لاحق فرعون فلجَّ فى العناد رغم مشاهدته المعجزات.

* * *

---

(١) روح المعانى (١٩/ ٧٤٢).

(٢) التحرير والتنوير: (١٨/ ١٢٢).

٦ - ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الشعراء: ٣٥].

الدراسة والتحليل:

بعد أن انتهى الحوار بين موسى عليه السلام، وفرعون عليه اللعنة وأرى موسى فرعون آيتين عظيمتين أجراهما الله على يد موسى عليه السلام، وهما:

(أ) انقلاب العصى حية أو ثعبانا يتحرك حركات مذهلة.

(ب) ثم إخراج يده بيضاء ناصعة وكانت قبل الإدخال سوداء.

شاهد فرعون ما لم يكن يجرى له على بال، وبدل أن يؤمن بالحق امتطى الباطل ووصف ما رآه على يد موسى بأنه سحر، ووصف موسى بأنه ساحر. وهو رسول كريم. وأتهم موسى بأنه جاء ليخرج أهل مصر من مصر بسحره. ثم توجه إلى رجال حاشيته وكبار رجال مملكته، وحكى عنه القرآن ما يأتى:

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾.

وقد ورد فى عجز الآية الثانية - وهى موضوع الدراسة - هذا الاستفهام:

﴿فماذا تأمرون﴾؟.

وهذا الاستفهام حقيقى لا خلاف بين أهل العلم فى تصور المعنى المراد منه؛ لأن الحقيقة هى الأصل. وما جاء على أصله لا يُسْأل عنه.

والمراد منه - حقيقة - أن فرعون يستطلع مستشاريه عن خطة المواجهة والتصدى لموسى، بعد أن هوَّل لهم خطورة ما يريده موسى عليه السلام.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره﴾** أتى بالفعل المضارع **﴿يريد﴾** والمصدر المؤول **﴿أن يخرجكم﴾** لتشويه الرسالة السامية التى جاءهم بها موسى عليه السلام. وأن مراد موسى خطة وضعها هو ليعمل على تحقيقها فى المستقبل وقصده من هذا تأليب قومه على موسى، والتصدى له قبل أن يستفحل أمره، وينفذ خطته.

* **﴿بسحره﴾** وصف فرعون الرسالة بأنها سحر، بعد أن وصف الرسول - موسى -

بأنه ساحر. وقد أراد بهذين الوصفين تهوين شأن الرسالة والرسول، حتى لا يتسرب صدق الحق إلى قلوب أحد منهم.

* ﴿من أرضكم..﴾ من دهاء فرعون أراد أن ينقل الخصومة التى بينه وبين موسى إلى خصومة عامة تشمل أهل مصر جميعًا. واستخدم فى هذا الدهاء الماكر وسائل تعبيرية مؤثرة فى قلوب سامعيها.

فأوقع الإخراج عليهم ﴿**يخرجكم**﴾ ليصور لهم أنهم هم - لا هو - المستهدفون لموسى عليه السلام.

ثم أضاف الأرض - أرض مصر - إليهم ﴿ **من أرضكم**﴾ لم يقل لهم: أراد تكذيبى فى إدعاء الألوهية، وهدد مملكتى وسلطانى عليكم. وهذه وسائل يتوشح بها الطغاة حين يشعرون بالخطر يستهدفهم، ليحتموا بشعوبهم حتى لو كانوا يلهبون ظهورهم بالسياط؟.

* ﴿**فماذا تأمرون**﴾ أسلوب تودد وتليين لقلوب قومه ليضمن التفافهم حوله فى مواجهة موسى، وليحموا عرشه الشيطانى من السقوط، كما يفعل الطغاة فى كل زمان ومكان.

* * *

٧ - ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾؟ [الشعراء: ٣٩].

الدراسة والتحليل:

لما طلب فرعون المشورة من قومه، واقتراح ما يرونه مناسبًا لمواجهة موسى عليه السلام، وأشار عليه قومه بما حكاه عنهم القرآن الأمين:

﴿**قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين * يأتوك بكل سحار عليم * فَجمع السحرة لميقات يوم معلوم**﴾ [الشعراء: ٣٦، ٣٨].

نفذ فرعون ما أشار به عليه أصفياؤه ورجال بلاطه، ثم توقع أن حزبه هو المنتصر، فحشد الناس ليشاهدوا مصرع الحق الذى بعث الله به موسى. وبث دعاته فى المدن والقرى ليشاهدوا تلك المباراة. وحكى القرآن الأمين ما كان ينادى به دعاته الناس:

﴿وقيل للناس هل أنتم مجتمعون﴾.

وهذا الاستفهام حقيقى - كذلك - وإن كان مشوبا بشيء من الترغيب فى الاجتماع.

أسرار النظم وبلاغياته:

الأسرار والبلاغيات التى نريد الاشارة إليها فى هذه الآية هى:

* بناء الفعل للمجهول فى ﴿قيل﴾ وسره البلاغى تعذُّر النص على القائلين لأنهم كثرة قد بثهم فرعون فى كل مكان. هذه واحدة، والثانية أن الغرض لا يتوقف على ذكر الفاعل بل على الفعل نفسه. وقد كان. أى حدث القول للناس. وبلغت الدعوة أسماعهم.

* ﴿هل﴾ الاستفهام كما تقدم حقيقى. والخصوصية البلاغية فيه ملحوظة فى إيثار (هل) من بين أدوات الاستفهام فلم يُقَلْ: أأنتم مثلا، مع أن الهمزة هى أم أدوات الاستفهام فلماذا آثروا ﴿هل﴾ عليها؟.

الجواب معروف. لأن الهمزة فى باب الاستفهام مثل إنْ فى باب الشرط، كلتاهما تفيدان الاحتمال، وإن كان معنى الاحتمال فيهما مختلفا. فالهمزة تفيد تصور الشيء دون الحكم عليه، وإن تفيد احتمال وقوع جواب الشرط وعدم وقوعه وهل فى باب الاستفهام مثل إذا فى باب الشرط. فإذا تفيد تحقق جواب الشرط. وهل تفيد تحقق وقوع المستفهم عنه.

لذلك أوثرت (هل) فى الآية ليكشف لنا النظم سرا من أسرار التاريخ. فدعاة فرعون كانوا يحرصون كل الحرص حين يدعون الناس على أن يلبى الناس الدعوة. ولكن كيف كانوا يرغبونهم فى الاجتماع، ربما كان لكل داع منهم طريقة خاصة. ولكن (هل) هنا تفيد أنهم كانوا شديدى الحرص على استجابة الناس لهم، وإن اختلفت وسائل الترغيب والتأكيد من داعية إلى داعية.

* ﴿أنتم مجتمعون﴾ هذا التعبير يؤكد ما تقدم من دلالة (هل) لأن هذه الجملة ﴿أنتم مجتمعون﴾ اسمية، والجمل الاسمية - أثبت دلالة على معانيها من الجمل الفعلية،

فإيثارها - هنا - شديد التناسب مع المعنى الذى دلت عليه (هل)، ثم إن الخبر جئ به اسما - كذلك - فقالوا ﴿**مجتمعون**﴾ ولم يقولوا: هل أنتم تجتمعون. لما فى الاسم (**مجتمعون**) من الايذان بوقوع الاجتماع بدرجة قوية تتناسب مع دلالتى (**هل**) واسمية الجملة. وهكذا يصور النظم الحكيم معانى فرعون وآله أدق تصوير.

* * *

٨ - ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّ لَنَا لأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١].

الدراسة والتحليل

قبل أن يبدأ السحرة لعبتهم فى ساحة المباراة استوثقوا من فرعون الذى كان شديد الرغبة فى الغلب على موسى عليه السلام. استوثقوا منه عن المكافأة التى يستحقونها إذا كان لهم الغلب على موسى. فوجهوا إليه هذا الاستفهام:

﴿**أإنَّ لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين**﴾ ولم يكن فرعون ليبخل عليهم بشيٍ يطلبونه؛ لأن المهم عنده هو إزاحة موسى وما جاء به من طريقه.

فوعد السحرة بأكثر مما رجوه. ففوق ماطلبوا من مال وعدهم فرعون أنه سيجعلهم من خاصته ورجال بلاطه، ومجالسيه والسامرين معه. وقد حكى القرآن الأمين هذا السخاء من فرعون حين قال:

﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إذاً لَّمِن الْمُقَرَّبِينَ ﴾.

وهذا الاستفهام حقيقى المراد منه التثبت، ولهذا لم يقف الأئمة حوله لوضوح معناه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* (**أإنَّ لنا لأجراً**) أصل الكلام: إنَّ أجراً لنا. ولتحويل هذه الجملة من الخبرية إلى الطلبية أدخلوا عليها همزة الاستفهام فصارت: أإن أجراً لنا، ثم قدموا الخبر (لنا) على المبتدأ (أجراً) فصارت: (أإن لنا لأجراً) وتقديم الخبر (لنا) لأنه الأهم عندهم، ولأنه محط الاستفهام.

وقد حرصوا على توكيد الإسناد لرغبتهم الشديدة فى الحصول على الأجر ثم نكَّروا الخبر لإرادة التعظيم والتكثير معاً. يعنى أجراً كثيراً من نفائس المقتنيات كالذهب ومايجرى مجراه من كريم المعادن.

فإذا سألت: لماذا لم يؤثروا (هل) المقيدة لتحقيق المطلوب على الهمزة التى لم تفد الا مجرد التصور؟ فالجواب: لو آثروا (هل) لامتنع توكيد الخبر (بأنَّ) والتوكيد بها أقوى من إرادة التحقيق بهل؛ لأنه صريح مع (إن).

* * *

٩ - ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ، إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ، لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء: ٤٩].

الدراسة والتحليل:

هذه الواقعة واقعة تعقيب فرعون على إيمان السحرة برسالة موسى - عليه السلام - وردت فى القرآن ثلاث مرات فى ثلاث سور هى: الأعراف- طه - الشعراء، ومما هو جدير بالاشارة أن هذه السور الثلاث قد روعى وضعها فى المصحف الشريف حسب وضعها فى ترتيب النزول، السابق فى النزول سابق فى المصحف واللاحق فى النزول لاحق فى المصحف. لأن الأعراف كانت أول السور الثلاث نزولاً. ثم طه. ثم الشعراء. وليس معنى هذا أنها نزلت متتابعة بلا فواصل. بل الذى نريده أن الأعراف كانت من السور التى نزلت قبل طه والشعراء، ونزل بين الأعراف وطه خمس سور هى: الجن - يس - الفرقان - فاطر - ثم مريم.

ونزل بين طه والشعراء سورة واحدة هى: الواقعة- وكلهن مكيات[١] وكان نص الواقعة فى الأعراف [١٢٣- ١٢٤]:

﴿قال فرعون ءامنتم به قبل أن آذن لكم، إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها

---

(١) مصدرنا فى هذا الترتيب النزولى كتاب: البرهان فى علوم القرآن للإمام بدر الدين بن محمد بن عبد الله الزركشى (١/ ١٩٣) عيسى البابى الحلبى.

أهلها فسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف، ثم لأصلبنكم أجمعين﴾
وكان نصها فى طه: [٧١]:

﴿قال ءآمنتم له قبل أن آذن لكم، إنه لكبيركم الذى علمكم السحر، فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف، ولأصلبنكم فى جذوع النخل، ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى﴾

وعلى هذا، فإن أصل الواقعة حُكِى فى الأعراف أولاً، ثم أعيد فى طه، ثم كُرِّرَ فى الشعراء لآخر مرة، والمواضع الثلاثة، اشتركت فى تصوير أصل الواقعة، وهو يتكون من هذه العناصر:

* إنكار فرعون على السحرة أن يؤمنوا بما جاء به موسى ويتابعوه.
* تعليل فرعون لإيمان السحرة من وجهة نظره.
* تهديدهم وتوعدهم بالتنكيل بهم. والتمثيل بجثثهم.

ثم انفرد كل موضع بخصائص لم ترد فى نظيريه الآخرين. وللقراء السبعة اختلاف فى (ءَامنتم) فى المواضع الثلاثة هل هو بهمزة واحدة على لفظ الخبر، أم بهمزتين على الاستفهام[1].

وقد جرينا فى هذه الدراسة على الاستفهام سواء قُدرِّتْ إحدى الهمزتين أو أظهرت، وقد تقدم فى هذه الدراسة مذاهب الآئمة، فى هذا الاستفهام فى مباحث سورتى: الأعراف وطه. وخلاصة ما قيل فيه أنه استفهام إنكار مصحوبا بالتهديد والوعيد الشديد فلا ضرورة لإعادة ماقيل فيه من قبل.

أسرار النظم وبلاغياته:

نكتفى -هنا- بالفروق بين المواضع الثلاثة، ودواعيها البلاغية. أما النظم فقد تقدم بحث أسراره وبلاغياته قبلا فى سورتى الأعراف وطه.

ومن هذه الفروق:

---

(١) انظر تفصيله فى كتاب «السبعة فى القراءات» لابن مجاهد ت. د شوقى ضيف- ط: دار المعارف(ص٢٩٠) وما بعدها.

* فى الأعراف جاء اسم فرعون صريحا على أنـه فاعل (قال) كما جاء الفعل (ءامن) متعديا بالباء؛ هكذا:

﴿قال فرعون ءآمنتم به قبل أن آذن لكم..﴾.

أما فى طه والشعـراء فقد جاء فاعل (قـال) ضميرا عائدا على فـرعون. ولـم يذكر اسمه صريحا. كما عدى فيهما الفعل (ءامن) باللام هكذا:

﴿قال ءآمنتم له قبل أن آذن لكم..﴾.

والذى يلوح لنا أن السر البلاغى فى هذا الاختلاف بين ماورد فى سورة الأعراف، وماورد فى سورتى طه والشعراء أن ما ورد فى سورة الأعراف لما كان أول مرة ترد فى القرآن حكاية تعقيب فرعون على إيمان السحرة ناسب المقام أن يذكر اسم فرعون فاعلا للفعل (قال) للتسـجيل عليه بهذه الحماقة، ولدفع إيهـام أن القائل غيره، ثم أُوثر أن يكون الفاعل الضمير العائد عليه فى طه والشعراء بعد إسناد الفعل إلى اسمه الصريح فى الأعراف الآسبق نزولاً وترتيباً فى المصحف الشريف والإضمار رتبته بعد الإظهار.

أما تعدية الفعل (ءآمن) بالباء (بـه) فى الأعراف، وباللام (له) فى طه والشـعراء: فالذى هدينا إليه فى سر هذا الاختلاف أن فرعون أنكر على السحرة الايمان بالله الذى عبَّر عنه السحرة بـ(رب العالمين) ثم بـ(رب موسى وهارون).

كمـا أنكر عليهم الانقيـاد لموسى عليه السلام، هذا مـا كان يعتمَل فى نفـسه حين فوجىء بإيمان السحرة، وعند حكاية هذه الواقـعة قدَّم النظم الحكيم الاشارة إلى إنكار فرعون على السـحرة إيمانهم بالله فحكى عنه القرآن مايصور جـزء معناه فى الأعراف وهو إنكاره الإيمان بالله على إنكاره الانـقيـاد لموسى؛ لأن إنكار الايمان بالله هو الأهم عند فرعون لما فى هذا الايمان من سلب الآلوهية عن فرعون التى ظل يدعيها لنفسه.

لذلك عُدِّى الفـعل (ءَامن) بالباء (به) فى الأعراف؛ لأن الحكاية وردت فـيها لأَول مرة نزولا وترتيبا.

* أما فى سورتى طه والشعراء، فلما كـانت الحكاية فيهما تكراراً لما ورد فى الأعراف فآثر النظم الحكيم ذكـر المراد الثانى لفرعـون من إنكاره عل يالسحرة وهو الانقـياد لموسى، لذلك عُـدِّى الفعل (ءَامن) باللام: (له) باعـتبـار تضمين (ءَامن) مـعنى: انقاد.

والمعنى على الاعتبارين:

أما الأول فهو: آآمنتم برب العالمين قبل أن آذن لكم؟

واما الثانى فهو: أأنقدتم لموسى فى الايمان برب العالمين وتابعتموه قبل أن آذن لكم، وفى هذا لطيفة بلاغية أخرى حاصلها أن الإيمان برب العالمين سبب فى الانقياد لموسى، وتقديم السبب على المسبب هو الأصل.

وأما سر تكرار إنكار الانقياد مرتين. والإيمان مرة واحدة فقد ظهرت لنا فيه خاطرة نسجلها - هنا - كما خطرت، لعلها تجد موقعا من القبول والرضا.

إن الداعى لهذا التكرار قد يكون تصويراً آخر دقيقا لتطور فكرة الانكار عند فرعون نفسه، بمعنى أنه وازن بين إنكاره الايمان برب العالمين، وإنكاره على السحرة انقيادهم لموسى فرأى أن إنكار الانقياد لموسى يستلزم إنكار الايمان برب العالمين، أما الاقتصار على إنكار الإيمان برب العالمين فلا يستلزم إنكار الانقياد لموسى بنفس الدرجة من القوة التى تلحظ فى انكار الانقياد لموسى.

هذا، وليس ببعيد أن يكون فرعون قد كرَّر مرات الإنكار على السحرة: فصوَّر النظم القرآنى ما اختلج فى صدر فرعون من معان خبيثة أدق تصوير.

وآيا كان فالاختلاف بين المواضع الثلاثة وارد فى الحكاية دون المحكى.

أما الصورة الثانية من الاختلاف، فقد جاء فى الأعراف حكاية عن فرعون قوله تعالى:

﴿إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون﴾

وجاء فى سورتى طه والشعراء:

﴿إنه لكبيركم الذى علمكم السحر..﴾ [طه].

﴿إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون﴾ [الشعراء].

انفردت الأعراف بوصف فرعون لأمر السحرة مع موسى بعد إعلانهم الإيمان بالله بأنه مكر مكروه فى المدينة - مصر - ليخرجوا منها أهلها، أما طه والشعراء فقد اقتصرتا على قول فرعون للسحرة وموسى:

﴿إنه لكبيركم الذى علمكم السحر..﴾.

وما جـاء فى طه والشعراء بيـان وتفصيل لما جاء مـجملاً فى الأعـراف لأن جملة ﴿لمكر مكرتموه فى المدينة﴾ معناه أن رابطة ماتربط بين السحرة وموسى ولكن فرعون لم يحدد تلك الرابطة ولأنواعها فتكفلت سورتا طه والشعراء ببيان ما أُبْهِمَ فى الأعراف، وحددتا العلاقة ونوعها بين السحرة وموسى. فهو أستاذ لهم، وهم تلاميذ وأوثر إيراد المكر فى الأعراف، لأن المكر هو التدبيـر السرى السيىء الذى يُتَّخذُ وسيلة لـعمل غير شـريف، وقد ورد هذا فى الأعـراف، وهو **(لتخرجـوا منها أهلها)** فـبين هذا المكر - المدَّعَى- وبين الاعداد لإخراج أهل مصر من مصر تناسب بديع.

أما سورتا طه والشعراء فلما خلتا من النص على إخراج أهل مصر ناسب أن يرد فيهما: **(إنه لكبـيركم الذى علمكم السـحر)** ومن الفـروق خلو سـورة طه من حـرف التنفيس (سـوف) مع وروده فى كل من الأعراف والشعراء، وربما كـان السر فى ذلك أن سورة طه حـكت العزم الناجـز لفرعـون على تنفيـذ ما هدد به، فـعطفت تقطيع الأيدى والأرجل عطفا مباشراً على قوله للسحرة:

(إنه لكبيركم الذى علمكم السحر..).

بدليل أنه ذكر كيفـية التقطيع والتصليب فى جذوع النخل وقـد خلا حرف التنفيس من اللام فى الأعـراف **(فسوف تعلمون)** واقتـرن بها فى الشـعراء **(فلسوف تعلمون)** للتفنن فى التـعبيـر ولتصوير مـا كان يدور بخلد فرعـون من تذبذب الإرادة بين الهم والعزم.

وإن هول المفاجـأة عليه لما خر الـسحرة سجـداً ليسمـح لنا بتصور حـالة من عدم الاتزان اعترت فرعون فاضطرب تفكيره وهاج انفعاله وكادت تتضارب أقواله.

أما قوله تـعالى حاكيا عـن فرعون: **(فى جـذوع النخل)** فـهى تفصـيل لما ورد فى الأعراف من إجمال **(ولأصلبنكم أجمعين)**.

وتكرر هذا القـول المجـمل فى آخـر مـواضع الحكاية وهـى سـورة الشـعـراء: **(ولأصلبنكم أجمعين)** كما ورد فى أول مواضعها: الأعـراف اعتمادا على التفصيل في وسطى مواضعها (طه).

والخلاصة: أن المواضع الثلاثة صورت المحكى عن فرعون أبلغ تصوير، وذكرت فى كل موضع من الثلاثة بعد العناصر الرئيسة معانى إضافية تناسب المقام، ومن البديه أن القرآن إذا حكى أقوالاً فإنه يحكى المعانى دون الالفاظ إذا كانت اللغة التى يحكى عنها غير اللغة العربيـة، وإن المعانى التى يحكيها القرآن بحكيها بكل أمانة وصـدق حسبما كان مراد قائليها منها.

وتمتـاز الحكاية فى النظم الـقرآنى إذا تكـررت بأن كل مـوضع من المواضع المكررة يحتوى على جـديد لم يرد فى غيره، واختلاف الغـرض من النظم القرآنى يرجع إلى اختلاف الحكاية - أعنى أسلوب ادائها - لا إلى المحكى.

فالمحكى واحـد، والحكاية عنه تختلف حسب مايقـتضيه المقـام، اللهم الا إذا كان المحكى باللغة العربية فإن الحكاية عنه حينئذ حكاية ألفاظ ومعان لاحكاية معان فقط. وهذا الموضوع فى حاجـة إلى إفراده بالدرس والبحث الموسع، لأنه جـدير بكل جهد يبذل فيه.

* * *

١٠ - ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيه وَقَوْمه مَاتَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكفينَ* قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إذْ تَدْعُونَ * أوْ يَنفعُونكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذلكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُـمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدَوٌلِّى إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٠-٧٧].

الدراسة والتحليل

الآية الأولى من هذه الآيات مـعمول الفـعل الأمر (أتل) فى الآية السـابقة عليـها وهى: (واْتلُ) أما هذه الآية والآيات التى بعـدها فتصور حـواراً دار بين إبراهيم عليه السلام وبين أبيه وقومه، بدأه إبراهيم بسؤالهم عن حقـيقة مايعبدون، وهم يعلم بها. فأجابوه بأنهم يعكفون على أصنام يخصونها بالعبادة.

فرد عليهم إبراهـيم وسألهم هل هى تسمع دعاءهم إذا دعوا، أو يحـصل منها نفع لهم أو ضر. فدفعوا عن أنفـسهم لما عجزوا عن الجواب، بأنهم يقلدون أباءهم الذين

ورثوا عنهم هذه العادة. فوبخهم إبراهيم وحقَّر آلهتهم وأعلن لهم بأن كل ما يعبدونه من دون الله فهو عدو لإبراهيم. الا الله رب العالمين مفزعه وملجؤه وولى نعمته ونعم الناس أجمعين.

وقد وردت فى هذه الآيات ثلاثة استفهامات، وهى:

* **(ماتعبدون)؟**
* **(هل يسمعونكم إذ تدعون)؟**
* **(أفرأيتم ما كنتم تعبدون)؟**

ومذهب الأئمة فى هذه الاستفهامات الثلاثة واحد، وكادت عباراتهم تكون فيها واحدة[1].

فالاستفهام الأول: (ما تعبدون) للاستدراج ليجيبوا بما أجابوا فيكر عليهم بما بعده ليريهم بطلان عقيدتهم.

والاستفهام الثانى: (هل يسمعونكم) للإنكار والتوبيخ والتسفيه.

أما الاستفهام الثالث: فهو ليتصوروا حقيقة أصنامهم فى الذهن ثم يسمعوا حُكْمَ إبراهيم عليه السلام عليها، وهى حاضرة فاشلة فى أذهانهم.

وهذه خلاصة ما قيل وما يمكن قوله فى هذه الاستفهامات الثلاثة وابن عاشور يسمى الاستفهام الأول: **(ما تعبدون)** استفهاما صوريا يعنى: شكليا، بمعنى أنه استدراج - كما قلنا آنفا - أو ليفتح به باب المجادلة كما قال الآئمة الآخرون.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون)** تقديم (أبيه) وهو فرد على (قومه) وهم جماعة إشارة إلى صدوع إبراهيم عليه السلام بالحق غير خائف فيه لومة لائم، فواجه أباه كما واجه قومه بالنهى عن عبادة الأصنام.

وفى التعبير عن الأصنام بـ(ما) تحقير لها وسلخ لمعنى الألوهية عنها، والاستفهام

---

(١) انظر الكشاف (٣/١١٦) وتفسير أبى السعود (٦/٢٤٨) وروح المعانى (١٩/٩٣) والتفسير الكبير (٢٥/١٤١) وابن عاشور (١٩/١٣٧).

الذى واجه به قومه من الفن البديعى المسمى (تجاهل العارف) لأن إبراهيم كان يعلم حقيقة ما استفهم عنه، ولكنه تجاهل ليجر قومه إلى جدل يوضح لهم فيه الحق، ويُزهق فيه الباطل وإيثاره المضارع (**تعبدون**) لتصوير الحاضر فى أذهانهم مع الاشارة إلى أنهم متلبسون بهذه المقابح التى لاتليق بالعقلاء.

* (**قالوا: نعبد أصناما فنظل لها عاكفين**): فصلت جملة (قالوا) عما قبلها للاستئناف البيانى إن لوحظ تطلع السامع إلى ماذا قالوا رداً على إبراهيم عليه السلام. أو جواب السؤال الصريح إن لم يلاحظ ذلك التطلع.

(**نعبد أصناما**) أعادوا الفعل الوارد فى السؤال: (نعبد) وكان يكفيهم أن يقولوا: (**أصناما**) إظهاراً لرضاهم النفسى بتلك العبادة. وأنهم يعبدون الأصنام عن حرص ومعرفة.

* (**فنظل لها عاكفين**) كناية عن دوام عبادتهم لها ومواظبتهم عليها، وفى هذا إطناب زائد عن الجواب كأنهم فرحون بما هم عليه ويريدون إغاظة إبراهيم عليه السلام بما هم عليه من باطل، وتعدية العكوف باللام وكان حقه أن يُعدَّى بـ(على) لإنهم ضمنوا (**عاكفين**) معنى عابدين، والسر البلاغى فى هذا التضمين الاشارة إلى أن عبادتهم للأصنام دائمة، لا تنقطع دوام العكوف الذى هو الملازمة.

وفى هذا توكيد لمعنى (**نظل**) بمعنى: نستمر ونلازم.

* (**قال: هل يسمعونكم إذ تدعون**): فصلت جملة (قال) للاستئناف البيانى، والاستفهام بـ(هل) إنكارى تجهيلى وايثار (هل) على الهمزة؛ لأن المراد: هل تحققتم من سماعها دعاءكم حين تدعوها. أو هل: سمعت دعاءكم فاستجابت لكم بما ترجونه منها. والمعنى: لا تسمعكم ولا تستجيب لكم، لأنها جمادات لا روح فيها فضلا عن أن تكون آلهة. والمراد بيان أن هذه الأصنام ليست أهلاً للعبادة لو كنتم تعقلون حقائق الآمور.

* (**أو ينفعونكم أو يضرون**) انتقال من إنكار سماعهم الدعاء إلى إنكار أن يكون لهم نفع ما أو ضر ما. وهذا ترقى من إبراهيم عليه السلام فى تحقير الاصنام وتجهيل

أبيه وقـومه والجمع بين النفـع والضر طباق إيجـابى من مقتـضيات الحـال وحذف مفعول (**يضرون**) للعلم به من ذكـر نظيره فى الفـعل (**ينفعونكم**) ولتناسب رءوس الآيات.

* وإيثار المضارع فيهما (**ينفعون- يضرون**) ليعم الإنكار جميع الأزمان.

ونفى سماع الدعاء كناية عن نفى الاستجـابة، أو مجاز مرسل حيث أطلق السبب (**السماع**) وأراد المسبب (**الاستجابة**).

* (**قالوا: بل وجدنا آباءنـا كذلك يفعلون**) خبر أريد به الاعتـذار، ولجوؤهم إلى إظهار التقليد لآبائهم كناية عن الإجـابة عن السؤال، فعدلوا عنها لعـجزهم. ويتولد عن هذه الكناية معنى كنائى آخر، هو اعترافهم أن أصنامهم لاتسمع ولاتنفع ولاتضر.

* (**كذلك يفعلون**) هذا هو مناط الاعتذار أو التقليد وفى العبارة تشبيه:

المشبه به هو عبادتهم للأصنام والمشبه هو عبادة آبائهم ووجه الشبه هو الاشتراك فى تعظيم الأصنام.

وإيثارهم (أباءهم) على: أجدادهم لأن الآباء هم أقرب عهداً بهم. وفى هذا توطئة لتوكيـد وجدانهم لهم حالة كانوا يعبـدونها. أرادوا بهذا ترشيح عـذرهم للقبول عند إبراهيم عليه السلام، أو الانتصار عليه فى مقام المحاجة حسبما أملى عليهم الشيطان.

* (**قال: أفرايـتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقـدمون**) أراد من الرؤية أن يستـحضروا حقيـقة أصنامهم فى أذهانهم ليكر عليـها ناسفا لها. وتخطى إبراهيـم عليه السلام الوقوف عند آبائهم إلى أسلافهم القدماء ليـقطع عليهم تسلل التقليد وإشارة إلى أن الباطل يظل باطلا مهما قدم، والحق هو الحق متى ظهر.

وآثر المضارع بعد (كنتم) ليجمع عبادة الأقدمين والأدنين والمخاطبين.

* (**فإنهم عـدو لى الا رب العالمين**) أكد الخبـر بـ(إن) واسمية الجمـلة لإظهار الجزم فى عقـيدة التوحـيد وإبطال عقـيدة الشرك والاسـتثناء منقطع وسر ذكـر رب العالمين، لإعلان عقيـدة التوحيد بعد إبطال عقيدة الشـرك، وإفراد (عدو) دون أعداء مع أن الموصوف متعدد، لأن سبب العداوة الجامع بينهم واحد.

* * *

١١ - ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٢، ٩٣].

الدراسة والتحليل:

هاتان الآيتان خطاب لأهل النار قبيل دخولهم النار لأن قبلهما وردت هذه الآية: ﴿وبُرِّزَت الْجَحِيمُ للْغَاوِينَ﴾ وبعدهما قوله تعالى: ﴿وَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ، وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾.

وقد ورد فى كل آية منهما استفهام، وهما:

* **(أين ما كنتم تعبدون)؟**

* **(هل ينصرونكم..)؟**

الإمام الزمخشرى فسَّرهما - معاً - بما يُفهم من كلامه أنهما للتحسير، والتغميم (الإصابة بالغموم) قال:

(يجمع عليهم الغموم والحسرات كلها، فتُجْعَل النار بمرأى منهم فيهلكون غما فى كل لحظة ويوبخون على إشراكهم فيقال لهم: أين الهتكم؟ هل ينفعونكم بنصرتهم لكم، أو هل ينفعون بانتصارهم. .)[١].

واختصر الإمام أبو السعود بيان المراد منهما فقال: (وهذا سؤال تقريع وتبكيت لايتوقع له جواب. .)[٢] وردد الإمام الآلوسى عبارة الإمام أبى السعود، ولم يضف اليها شيئاً[٣].

أما الطاهر بن عاشور فخلاصة رأيه أن الاستفهام الأول للتهكم والتوبيخ. . والثانى للإنكار مع التهكم[٤].

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(وقيل لهم أينما كنتم تعبدون)** حذف فاعل القول لتعلق الغرض بالقول نفسه دون الفاعل، أى: وقيل لهم هذا الكلام. والفاعل إما الله، وإما الملائكة.

---

(١) الكشاف (٣/١١٨-١١٩)
(٢) تفسير أبى السعود (٦/٢٥١)
(٣) روح المعانى (١٩/١٠٢)
(٤) التحرير والتنوير (١٩/١٥١)

وفى **(أين ماكنتم تعبدون)** كناية فى مجموع التركيب عن أصنامهم التى كانوا يعبدونها فى الدنيا من دون الله وقد سُلِّط الاستفهام على مكان الأصنام دون الأصنام نفسها، والمراد نفى أن يكون لهم مكان، ونفى المكان يستلزم نفى الكائن فيه. وهذه كناية أخرى ولكن عن عدم وجود الأصنام، فضلا عن عدم وجود نفعها لمن كانوا عابديها فى الدنيا.

ففى التركيب كنايتان: قريبة، وهى عن الأصنام، وبعيدة وهى عن نفى وجودها المترتب عليه نفى نفعها. ولامشاحة فى دلالة التركيب على اجتماع الكنايتين معا باعتبارين مختلفين.

* **(هل ينصرونكم أو ينتصرون)** زيادة فى التحسير والتوبيخ والتسفيه.

فقد علموا من الاستفهام الأول أن ما كانوا يعبدونه من الأصنام إنما هو وَهْمٌ كاذب، ثم زيدوا - هنا - غموما بعد غموم. وحسرات فوق حسرات فلا آلهة لهم تنصرهم فتزحزحهم عن النار، وتدخلهم الجنة.

بل ولا هى ناصرة لأنفسها. ومن عجز عن نصرة نفسه أو نفعها كان بالنسبة لغيره أشد عجزا.

وإيثار (هل) فى الاستفهام الثانى **(هل ينصرونكم أو ينتصرون)** لتحقق الانكار أما إيثار المضارع على الماضى، لأن هذا الكلام يخاطب به المشركون، وهم فى أشد الحاجة إلى من يدفع عنهم حالاً ومستقبلاً.

* * *

١٢ - ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء: ١٠٦].

الدراسة والتحليل:

كثير من سور القرآن الكريم، ترى لها خصائص تعبيرية تتميز بها، وتلك الخصائص عبارة عن كلمة، واحدة أو آية قصيرة تتكرر فى السورة تكراراً ملحوظاً، مثل كلمة **(المجرمون)** فى سورة يونس، أما الجمل والآيات القصيرة التى هى فى حكم الجمل فمنها ﴿**ولقد يسرنا القرآن للذكر، فهل من مدكر**﴾ فى سورة القمر وفى المرسلات

﴿**ويـل يومئـذ للمكذبين**﴾ وفى الرحمـن (**فبأى آلاء ربكـما تكذبـان**) وسـورة الشـعراء - موضوع الدراسة - انفردت بخصائص تعبيرية جد ظاهرة. . ومن تلك الخصائص:

* (**إن فى ذلك لآيات، وما كان أكثرهم مؤمنين**).

* (**وإن ربك لهو العزيز الرحيم**).

وقد اتخذ النظم القـرآنى من هاتين الآيتين ختاما لكل قصة نبـوية وردت فيها. ثم تمهيدا للقصــة التى وردت بعدها. وإن شئت فقل: اتخذ منها فـاصلا بين كل قصتين نبويتين.

* (... **ألا تتقون**) وهذه العبارة كـررها النظم القرآنى فى بداية كل قصــة نبوية ذكرت فيها. فمثلا فى بداية قصة نوح كان المطلع هكذا:

(**كذبت قوم نوح المرسلين، إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون**) ثم كررت بعد ذلك فى مطالع القصص النبوية التى وردت بعدها.

ولهذا فإننا - توخيا للإيجاز - نشـير إلى مواضع ورودها كلها - هنا - ثم نكتفى بالحديث عنهـا فى قصة نوح، لئـلا نكرر الحديث عنهـا فى كل المواضـع، مع أن ما يقال عنها فى موضع واحد هو بيـان لها فى كل المواضع، ومن البديه أن أول مرة ترد فيهـا كانت فى قصة نوح مع قـومه، وهى الآية التى أثبتناها فى رأس الصـفحة، منذ قليل.

وفيما يلى آيات ورودها فى بقية السورة:

* فى قصة هود عليه السلام:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾

[الشعراء: ١٢٣، ١٢٤].

* فى قصة صالح عليه السلام:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلاَتَتَّقُونَ﴾

[الشعراء: ١٤١، ١٤٢].

* فى قصة لوط عليه السلام:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرسَلِينَ * إِذ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلاَ تَتَّقُونَ﴾

[الشعراء: ١٦٠، ١٦١].

* فى قضة شعيب عليه السلام:

﴿كَذَّبَ أصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلاَ تَتَّقُونَ﴾

[الشعراء: ١٧٦، ١٧٧].

أسرار النظم وبلاغياته

* **(كذبت قوم نوح المرسلين)** هذه الآية فى مطلع قصة نوح هنا عليه السلام، وفى مطلع القصص الأربع بعدها:

هود - صالح - لوط - شعيب. إجمال لما يأتى بعدها وما بعدها تفصيل له، والاجمال فيه تشويق وإثارة للنفوس، لأنه بمثابة قرع بالعصى لتنبيه الغافلين، وتذكير الناسين، والتفات المعرضين وهذا أسلوب من أساليب البلاغة يهىء المشاعر لحسن الاستماع فإذا ذُكِر التفصيل بعد الإجمال استقرت المعانى فى النفس وتمكنت، وبلغ المتكلم غايته من الكلام.

أما **(المرسلين)** فقد جاء جمعا فى مطالع القصص الخمس: نوح - هود - صالح - لوط - شعيب، مع أن القصة الواحدة قصة رسول واحد، فكيف أطلق على الرسول أنه **(المرسلين)** وما سر هذا بلاغيا؟

والجواب: فى هذا التعبير إشارة إلى وحدة شأن الرسل، وأنهم مهما تعددوا إنما يبلغون للناس حقائق واحدة: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وما من رسول بعث الا وكانت هذه الحقائق محمولة على كاهله، لاهجا بها لسانه صباح مساء.

إذاً فمن كذب رسولاً واحداً منهم فقد كذَّب جميع الرسل. لهذا قيل فى قوم نوح أنهم كذبوا المرسلين، وإن لم يعرفوا من الرسل إلا نوحا عليه السلام.

وكذلك قيل فى من بعده من الرسل: هود وصالح ولوط وشعيب وفى إيقاع

التكذيب - فى القصص الخمس - على (المرسلين) تبشيع لذلك التكذيب، وتشنيع على المكذبين، وأن تكذيبهم قد بلغ من البشاعة والفظاعة غايتها.

* (**إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون**): شروع فى التفصيل الذى مَّهد له ذلك الاجمال.

وفصل جملة (**إذ قال**) عن جملة (**كذبت**) لأن بين الجملتين كمال الاتصال، **لأن** الجملة الثانية إما جملة تفسيرية لما قبلها - والمفسَّر والمفسِّر شىء واحد.

وإما بدل. والأول أصوب.

وفى التعبير بـ(**أخوهم**) زيادة تبشيع لتكذيبهم، لأنهم كذبوا أخالهم يعرفونه تمام المعرفة. يتحدث بلسانهم، ويخلص النصح لهم، لأن الأخوة تجعل الأخ محبا لأخيه، يريد له الخير، ويكره له الشر. فلا عذر لهم فى عصيانه والارتياب فيه.

وفى (**أخوهم**) كذلك إشارة لطيفة إلى تحقيق سنة من سنن الله فى رسالاته إلى عباده، وهى قوله تعالى:

﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم..﴾ [إبراهيم: ٤].

لأن الأخ لايتكلم الا بلغة أخيه وفى تقديم الوصف (**أخوهم**) على الاسم العلم (نوح) مسارعة إلى تحقيق المعانى التى أشرنا إليها فى (**أخوهم**) من قبل.

وفى (**أخوهم**) استعارة تصريحية أصلية، لأن نوحا ليس أخا لهم من أب وأم، أو من أب فقط، أو من أم فقط، ولكنه لما كان من قبيلتهم وبلدهم، نشأ بينهم فعرفُوه وعرفهم، وقويت علاقته بهم وعلاقتهم به نُزِّلت قوة العلاقة بينه وبينهم منزلة علاقة الأخ بإخوانه، والإخوان بأخيهم.

ومن محسنات هذه الاستعارة ما رواه أصحاب السير من أن نوحا عرف بينهم بالصدق والأمانة، والإلف لهم.

* (**ألا تتقون**) الهمزة للاستفهام وإن احتملت أن تكون للتحضيض مع (لا) بعدها و(لا) نافية، فلما دخلت عليها همزه الاستفهام صار النفى إثباتا.

فنوح - عليه السلام - يُنكر عليهم فجورهم وتركهم تقوى الله ويحثهم على

التقوى وترك عبادة غير الله من معبودات قومه الوثنية، بدليل قوله تعالى حاكيا عن نوح عليه السلام بعد هذه الآية:

﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ، فاتَّقُوا الله وأَطِيعُونِ﴾.

وفى حذف معمول (تتقون) إيجاز، والتقدير: ألا تتقون الله خالقكم ورازقكم؟

وفى إيثار المضارع (**تتقون**) لمناسبة الحث على التقوى بعد الإقلاع عن الشرك، وهذا لا يكون إلا فى الزمن الآتى. فناسب ذلك أن يكون الفعل مضارعاً، ثم أكّد بالأمر فى (**فاتقوا الله وأطيعون**).

وفى التقوى - هنا - كناية عن (**الإيمان**) بالله ورسالاته لأن القوم لم يكونوا مؤمنين عصاة حتى يُذكَّروا بالتقوى ولكن كانوا كفاراً يُطالَبون بتحقيق أصل الإيمان.

وسرها البلاغى طلب المسارعة بالإيمان، حتى لكأنهم آمنوا، ثم حُثُّوا على خشية الله بعد أن حصَّلوا فضيلة الإيمان فى قلوبهم.

* * *

١٣ - ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ ٱلأَرْذَلُونَ * قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١، ١١٢].

الدراسة والتحليل:

الآية الأولى كانت أول رد من قوم نوح على دعوة نوح لهم إلى الإيمان بالله، جعلوا من أتبع نوحا عن عاديِّى الناس سببا فى عدم إيمانهم به؛ لأنهم سادة أغنياء، وغيرهم سفلة فقراء؟

وهكذا يقف المترفون أمام دعوات الإصلاح عقَبة كَؤوداً فى كل زمان ومكان، لاغترارهم بجاههم وسلطانهم وأموالهم وأولادهم.

وكان رد نوح عليهم هو ما حكاه القرآن الأمين عنه:

﴿قال وما علمى بما كانوا يعملون * إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون * وما أنا بطارد المؤمنين﴾ [الشعراء: ١١٢ - ١١٤].

وهذا ما صنعه مشركو العرب مع صـاحب الرسالة الخاتمة وما صنعه هو معهم ﷺ فالكافرون هم الكافرون. والمرسلون هم المرسلون.

وقد ورد فى هاتين الآيتين هذان الاستفهامان:

* **(أنؤمن لك..)** وهو قول قوم نوح لنوح عليه السلام.
* **(وما علمى..)** وهو قول نوح لقومه.

ولا خـلاف بين الآئمـة أن الاسـتفـهـام الأول **(أنؤمـن لك)** للإنكار والاستـبعاد المشروط: أى لانؤمن لك وأتباعك السفلة أما الثانى **(وما علمى..)** فهو للنفى: أى لا علم لى بما كـان منـهم، وأمـرهـم إلى الله وحـده، وليس لى لـو كـان عندكم علم بحـقائق الأمـور، وبصر بشـئون الله فى خلقـه تلك هى خلاصـة مايقـال فى هذين الاستفهامين.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(قالوا..)** فصلت هذه الجملة عما قبلها للاستئناف البيانى
* **(أنؤمن لك)** إيثار المضـارع لإيقاع الإنكار على الحـال والاستقـبال: أى لايكون منا إيمان لك مادام أتبـاعك ومخالطوك هم أراذل الناس، حـتى تطردهم من مجلسك. والرذالة كناية عن الخسة والوضاعة.
* وتعدية **(نؤمن)** باللام (لك) لتضمين (نؤمن) معنى ننقـاد لك، وفائدة هذا التضمين المبـالغة فى تصـوير الايمان الذى أنكروه، يعنى أنؤمن لك وننقـاد لكل ما تأمـر به وتنهى عنه والحـال أن كل من صدقك وأطاعك فـيمـا تدعو إليـه من أخس الناس وأدناهم منازل، أو أدنأهم طباعاً؟
* وفـى **(اتبعك)** اسـتـعارة تصريحيـة تبعيـة ، استعارة مـحسوس، وهو السـير على الأقدام، لمعقول، وهو التصديق والإيمان، وسرها البلاغى شدة الظهور والملازمة.
* **(قال: وما علمى بما كانوا يعملون)** فصلت جملة (قال) عما قبلها للاستئناف البيانى. والمعنى لا علم لى ببواطن الناس وإنما أحكم بالظواهر، وظواهرهم الإيمان.

❋ ❋ ❋

١٤ - ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴾ [الشعراء: ١٢٨].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية من مواجهة هود لقومه. وقوم هود كانوا مُنْعما عليهم من الله فاهتموا بالحياة الدنيا، وما يتصل بها من نهضة حضارية مادية، ويبدو من مواجهة هود لهم أنهم كانوا مسرفين غارقين فى المتع والملذات الرخيصة الزائلة، مثل الحضارة الأوروبية المعاصرة، لامكان فيها للعمل للآخرة.

يؤكد ذلك أن هوداً عليه السلام بادر - بعد دعوة قومه إلى تقوى الله وطاعته - بادر ينكر عليهم ضروبا من عبادة الحضارة المادية ويظهر ذلك من عرض الآيات الآتية:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلاَ تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء ١٢٣ - ١٢٧].

هذه هى الدعوى إلى تقوى الله وطاعته، أما مواجهته لانغماسهم في الحضارة المادية فتعرضه هذه الآيات:

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * واتَّقُوا الَّذى أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء:١٢٨ -١٣٤].

والاستفهام الذى فى الآية - موضوع الدراسة - لم يتعرض له سادتنا الأئمة.

وخلاصة مايقال فيه: إنه للإنكار، لأن هوداً أنكر على قومه أن يتخذوا من حضارتهم المادية وسائل للهو والعبث فعمارة الأرض مرغوب فيها، لكن بشرط أن تسخر للمنافع العفيفة والمصالح الشريفة.

أما أن تتخذ مطية للفساد والافساد، على غرار مايجرى الآن فى الحضارات الحديثة، فهذا ما أنكره هود على قومه، ثم دعاهم إلى تسخير النعم فيما يرضى الله عز وجل.

والريع هو المكان المرتفع من الأرض. وكان قوم هود يبنون على تلك الأماكن

العالية قصوراً شاهقة، ومنارات عالية، ومقار للهو والعبث، ويمدونها بالمياه التى عبَّر عنها القرآن بالمصانع ونسوا الله وعمرَّوا دنياهم وخرَّبُوا أخراهم، حتى لكأنهم اعتقدوا أنهم فى الحياة خالدون، فلا موت ولابعث ولانشور.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(أتبنون..)** فصلت هذه الجملة - عما قبلها: ﴿**وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى الا على رب العالمين**﴾ لأن بين الجملتين كمال الانقطاع.

فالجملة الأولى خبرية لفظا ومعنى.. أما الثانية فانشائية لفظا ومعنى.

وإيثار الفعل المضارع **(أتبنون)** للدلالة على أن هذا العمل ديدنهم وعادتهم، لا يتوقفون عنه الا ريثما يعودون إليه مرة أخرى، هذه من جهة.

ومن جهة أخرى للدلالة على استحضار الصورة فى أذهانهم ليقع عليها الانكار وهى ماثلة، فيها، ينظرون إليها نظر العين **(بكل ريع)** تعبير مشع كاشف عن حقيقة مهمة فى هذا المجال وهى انتشار البناء الذى كانوا يقيمونه فى عصرهم، بحيث كان لم يخل منه مكان من القمم العالية، وهذا - بدوره - كناية عن الرفاهية التى كان فيها قوم هود، وتمكنهم فى حضاراتهم المادية الفاتنة.

* **(آية تعبثون)** الآية من معانيها العلامة الظاهرة، والدليل الباهر، والمعجزة المذهلة، والفقرة من القرآن والمعنى المناسب من هذه المعانى فى وصف أبنية قوم هود هى روعة البناء بما فيه من فن العمارة هندسة وزخرفة، حتى لكأنه معجزة من المعجزات الباهرة، والصنائع الماهرة وهذه الأوصاف كنايات عن اشتغال قوم هود بالحضارة المادية اللاهية عن الإيمان بالله والعمل الصالح ومصداق هذا كله قوله تعالى فى شأن هذه الحضارة:

﴿**ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التى لم يخلق مثلها فى البلاد**﴾ [الفجر: ٨-١١].

ولكن أين هى تلك الحضارة العاتية؟ وأين الذين شادوها قلاعا عملاقة؟

إنهم كفروا بالله وكذبوا رسله فما أغنت عنهم قوتهم ولا حضارتهم فأهلكهم الله فيمن أهلك فأصبحوا فى دارهم جاثمين. وما ذلك من الظالمين ببعيد.

* * *

١٥ - ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَا هُنَا آمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٦][(١)].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية من مخاطبة صالح عليه السلام لثمود قومه. وإن الشبه لكبير بين قوله هذا، وبين قول هود عليه السلام لعاد من قبل، ويتضح هذا الشبه فى أن صالحا بعد أن دعا قومه إلى الإيمان بالله، وإلي طاعته لأنه رسول الله اليهم اتجه كما اتجه هو بعد الدعوة إلى التوحيد مباشرة فأنكر عليهم إسرافهم وافتتانهم بالحضارة المادية، والركون إلى الدنيا، وكانت هذه الآية - موضوع الدراسة - مدخلا إلى ذلك الإنكار، فقد جاء بعدها مباشرة الآيات الآتية:

﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٧ - ١٤٩].

ثم دعاهم مرة أخرى إلى تقوى الله، وحذَّرهم من الإسراف والمسرفين.

وقد تبين لنا من عرض القرآن لقصتى هود وصالح أن هلاك قوميهما كان وراءه سببان:

السبب الأول: هو الكفر ومعاندة الرسل.

السبب الثانى: هو ولوعهم بالحضارة المادية، وإسرافهم فى المتع والملذات.

وهما أسوأ آفتين فى حياة الأمم. ولهما عواقب وخيمة فى التاريخ القديم والحديث.

وفى الاستفهام: **(أتتركون فى ماها هنا..)** يقول الإمام جار الله الزمخشرى:

(يجوز أن يكون إنكاراً لأن يتركوا مخلدين فى نعيمهم لايزالون عنه. وأن يكون تذكيراً بالنعمة فى تخلية الله إياهم وما يتنعمون فيه من الجنات وغير ذلك مع الأمن والدعة»[(٢)].

فالاستفهام عنده يحتمل الإنكار والتقرير كما تقدم، والأول هو الأظهر.

وقد جاراه الإمام أبو السعود فقال:

---

(١) نلفت نظر القارئ إلى أن الآية [١٣٦] من سورة الشعراء لم نعرض لها هنا لأننا درسناها عند أول استفهام فى سورة البقرة هى ونظائرها.

(٢) الكشاف (٣/ ١٢٢ -١٢٣).

(إنكار ونفى لأن يتركوا فيما هم فيه من النعمة، أو تذكير بالنعمة. .)[1].

أما الإمام الآلوسى فقد حاول التحرر مما قـاله الإمام الزمخشرى وتابعه عليه الإمام أبو السعود، قال:

﴿أتتركـون فى ما ها هنا آمنين﴾ إنكار لأن يتركـوا فى ماهم فيـه من عذاب يوم عظيم. فـالاستـفهـام مثله فى الاسـتفـهام السـابق (أتبنون) وقـوله تعـالى اللاحق ﴿أتأتون﴾[2].

ثم قال: (وجُوِّز ان يكون الاستفهام للتقـرير تذكيراً بالنعمة فى تخليته تعالى إيّاهم وأسباب نفعهم آمنين من العدو ونحوه، واستدعاء لشكر ذلك بالإيمان)[3].

وخالفهم الإمام الرازى فحمل الاستفهام على الانكار قولاً واحداً قال:

﴿أى: أتظنون أنكم تتركون فى دياركم آمنين. . وألا دار للمجازاة﴾[4].

وكذلك ذهب الإمام الطاهر حيث قال:

﴿نُزِّل حالهـم منزلة حال من يظن الخلود، ودوام النعـمة فخـاطبهم بالاسـتفـهام الإنكارى التوبيخى، وهو فى المـعنى إنكار على ظنهم ذلك. وسلط الإنكار على فعل الترك لأن تركهم على تلك النعم لايكون﴾[5].

والخلاصة: هذا عرض واف لما قاله خـمسة من الأئمة كلهم مجـمعون على أن هذا الاستفهام للانكار، وجوز واحد منهم، وهو الـزمخشرى، أن يكون للتقرير بترك الله لهم فارهين فى تلك النعمة، وتابعه - كما تقدم - كل من أبى السعود والآلوسى.

والذى نراه أن إرادة التقرير من هذا الاستفهام لايساعد عليـها المقام، ولا يستسيغها الذوق البلاغى لأن دلالة الإنكار فيه تنادى على نفسها بأعلى صوت. وانغماس القوم فى المتع والملذات وغفلتهم عن الحياة الآخرة تقـتضى أن يذكرهم رسولهم صالح عليه السلام بأن هذا النـعيم الذى هم فيـه لايدوم وأنهم - أعنى قومـه - إما مفـارقون له

---

(١) تفسير أبى السعود (٦/ ٢٥٨).

(٢) يشير إلى ما سيأتى فى قصة قوم لوط.

(٣) روح المعانى (١٩/ ١١٢).

(٤) التفسير الكبير (٢٤/ ١٥٩).

(٥) التحرير والتنوير (١٩/ ١٦٤).

بالموت، أو هو مفارقهم بالجوائح والكوارث، فحرى بهم أن يفيقوا من غفلتهم، ويستعدوا للقاء الله بالإيمان به، وبشكر نعمه، لذلك فإننا نجزم بأن هذا الاستفهام للإنكار.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(أتُتركون..)** فصلت هذه الجملة عن الجملة التى قبلها، وهى : **(وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى الا على رب العالمين)** لأن بين الجملتين كمال الانقطاع فالأولى خبرية لفظا ومعنى، والثانية إنشائية لفظا ومعنى.

وبناء الفعل فيها: **(أتتركون)** لما لم يسم فاعله لأن الغرض حاصل بالحدث نفسه **(الترك)** غير متوقف على معرفة الفاعل، ثم إن الفاعل - مع حذفه - معلوم، وهو الله عز وجل.

* **(فى ما ها هنا)** كناية عن قرية قوم صالح عليه السلام والسر فى إيثار اسم الإشارة **(ها هنا)** لفت أنظارهم لفتا قويا لمظاهر النعم التى كانوا غارقين فيها، ليكون عدم تركهم فى الدنيا مستدعياً للاقبال على ما هو بديل دائم عنها، وهو الخلود فى نعيم الآخرة الذى لاينال الا بالإيمان والعمل الصالح، وهذا هو مهمة الرسل التى من أجلها بعثهم الله إلى أقوامهم.

* **(آمنين)** حال من نائب الفاعل - واو الجماعة - وهو قسيم الترك فى الإنكار، إذ ليس ما سُلِّط عليه الانكار هو الترك وحده، بل الترك المقرون بالآمن من كل المخاوف والآفات المكدرة لصفو الحياة الدنيا. وما فيها من ملذات، وهذا لم يشر إليه أحد من الأئمة إشارة واضحة سوى الإمام جار الله.

* * *

١٦ - ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦٥].

الدراسة والتحليل:

خطاب من لوط عليه السلام، وجهه إلى قومه عقب دعوتهم إلى الايمان بالله وتقواه، ثم طاعتهم له، لأنه رسول الله إليهم ويبدو أن (اللواطة) كانت فاشية بين قوم لوط، لذلك بادر لوط عليه السلام فوجه إلى قومه هذا الاستفهام الغاضب؛ لأنهم انتكسوا عن فطرة الله العفيفة التى فطر الله عليها الناس.

وما واجه رسول ما قومه بمثل ما واجه به لوط قومه. فقد انحطَّت أذواقهم، ودنُؤت طباعهم، وخاضوا فى لجج من الأقذار والدناءات. وصاروا مضرب الأمثال عبر جميع الأجيال فى الخسة والوضاعة.

وللأسف، فإن عملهم الخسيس عُرِف فى الاستعمال اللغوى العام وفى أسفار الفقه الإسلامى منسوبا إلى اسم النبى الطاهر العفيف الشريف - لوط عليه السلام - فيقال فى المعنى المصدرى (اللواطة) ويقال فى وصف فاعلها (لوطى) وهذا عار وظلم:

عار أن ندسى أسم هذا النبى الكريم بما هو بارىء منه براءة اللبن من لون السواد.

وظلم نُلحقِهُ بنبى الله - لوط عليه السلام - ينبغى أن ننصفه منه. فهل من سبيل إلى عزل هذه الخساسة عن اسم هذا النبى الطاهر العفيف الشريف؟

إن المهمة تقع على (مجامع اللغة العربية) فى بلادنا، فتحدد مصطلحا جديداً لهذا الفعل المنحط، كأن تنسبه إلى القرية «سدوم» التى كان يقع فيها وأن يوصى باستعمال المصطلح الجديد الذى يتم التوصل إليه ويهجر المصطلح القديم فى الدراسات الفقهية فى المعاهد والجامعات، وفى المؤلفات التى تجد فى البحوث الفقهية على جميع المستويات.

هذه خاطرة بدت لنا. وها نحن قد سجلناها هنا، راجين أن تؤخذ فى اعتبار أهل العلم، وفقنا الله وإياهم لما يرضيه ويرضى رسله وصالحى المؤمنين.

أما الاستفهام الذى ورد فى الآية - وهو مقصودنا منها - فقد أجمع الأئمة على معنى أصيل يراد منه، هو الإنكار: إنكار الواقع وإنكار الوقوع معاً - وهذه إضافة

لنا - فلوط عليه السلام أنكر عليهم الواقع الفعلى منهم، وأنكر عليهم أن يقع ذلك منهم بعد النهى والتحذير، وهذا الإنكار - لقوة موجباته - يرقى إلى درجة النهى الغاضب: أى: لا تأتوا الذكران من العالمين.

ثم أضف إليه ماشئت من معانٍ ثوانٍ يوحى بها المقام مثل: التوبيخ - التهويل - التفظيع - التحقير.. الخ وهذه خلاصة لمايقال فى هذا الاستفهام.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(أتاتون..)** فصلت هذه الجملة عن الجملة التى قبلها، وهى: **(وما أسألكم عليه من أجر، إن أجرى الا على رب العالمين)** لما بين الجملتين من كمال الانقطاع فالأولى خبرية لفظا ومعنى والثانية انشائية لفظا ومعنى.

* **(الذكران)** كناية عما يستقذر ويستقبح ذكره.

* **(الذكران من العالمين)** هذا محط الانكار بعد إيقاع الاتيان على الفاحشة، والألف واللام فيها للعهد، والجمع فى (الذكران) كناية عن أنتشار فعلتهم الدنيئة، فى بيئتهم

* **(من العالمين)** من بيانية. والعبارة تهويل وتشنيع لعملهم الخسيس.

* * *

١٧ - ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِى إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء: ١٩٧].

الدراسة والتحليل:

لما كان مشركو العرب مكذبين بالقرآن، وهم يعلمون أن هذا الكتاب فوق مقدرة البشر، أنزل الله آيات جاءت هذه الآية - موضوع الدراسة - بعدها. وتلك الآيات هى:

﴿وإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالمينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمينُ * عَلَىَ قَلْبِكَ لِتكُونَ مِنَ الْمُنْذرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ * وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٦].

وقد مهدت هذه الآيات لمعنى الآية التى معنا: فقطعت الأعذار عن مشركى مكة فى تكذيبهم بالقرآن، لأنه نزل بلغتهم، وعرفوا تماما فصاحته وبلاغته وعلو طبقته،

فكان حريابهم أن يؤمنوا لا أن يكذبوا به ثم جاءت آيتنا تقيم عليهم الحجة، من وجه آخر، وهو أن بعضا من علماء بنى إسرائيل علموا حقيقة هذا القرآن، وأن كتبهم بشَّرت به فلم يبق لمشركى العرب شبهة واحدة تدعوهم إلى الارتياب فى نزول القرآن من عند الله وقد تصدَّر الآية هذا الاستفهام:

﴿أو لم يكن لهم آية..﴾.

وقد تعودنا أن هذا التركيب الاستفهامى، وهو ما توسطت أداة العطف فيه بين همزة الاستفهام وأداة النفى، تعودنا أن الأئمة كثيرا ما يحملونه على الإنكار إذا أجروه على مذهب الإمام الزمخشرى من جواز أن تكون أداة العطف، وهى هنا الواو، عاطفة على محذوف هو مدخول همزة الاستفهام. ويكون الذى سُلِّط عليه الإنكار هو ذلك المعطوف عليه المحذوف.

وقد قدره الإمام أبو السعود هنا بقوله:

(الهمزة للإنكار والنفى، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام. كأنه قيل: أغفلوا عن ذلك ولم يكن لهم آية دالة على أنه تنزيل رب العالمين، وأنه فى زبر الأولين)[1].

فالإنكار مسلط على غفلتهم لا على كون علم علماء بنى إسرائيل به هو العلامة على صدق نزوله من عند الله.

هذه هى طريقة من حمل هذا الاستفهام على الإنكار أما إذا أجرينا الاستفهام على مذهب الجمهور، الذى يقضى بأن الهمزة مقدمة من تأخير لما للاستفهام من وجوب الصدارة. وأن الأصل:

وألم يكن لهم آية. فإن المراد من الاستفهام يكون هو التقرير. لأن الهمزة باشرت أداة النفى (لم) فنفت النفى المفاد منها. فعاد المعنى إثباتا.

وهذا الذى نميل إليه بدلالة المقام؛ لأن الله عز وجل يقرر مشركى العرب بأن شهادة

---

(١) تفسير أبى السعود: (٦/ ٢٦٤).

علماءُ بنى إسرائيل به ملزم لهم بالتصديق لا التكذيب، والمقام عند النظر يقضى بهذا المعنى لأول وهلة.

أما الإنكار - وقد عرفنا منشأه هنا - فثمرة تركيب صناعى لا ينهض دليلاً قاطعاً على التسليم به.

وبعد هذا كله نقول: إن الاستفهام فى الآية استفهام تقرير وإلزام. وأن هذا المعنى هو الذى ينطق به نظم الآية. فلسنا فى حاجة إلى تقدير محذوف، ليس لدينا ضرورة تلجئنا إليه. وما لا يحتاج إلى تقدير أولى بالقبول.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**أو لم يكن لهم آية..**﴾ الواو عطفت هذه الجملة على الجملة التى قبلها، وهى: (**وإنه لفى زُبُر الأولين**) والسبب فى هذا العطف أن هذه الجملة والتى قبلها مشتركان من حيث المعنى فى كونهما دليلين على أن القرآن من عند الله. وأن العلم بذلك مستمر من عصر نزول التوراة على موسى عليه السلام، إلى شهادة بعض علماء بنى إسرائيل المعاصرين لنزول القرآن على خاتم النبيين ﷺ وتقديم الجار والمجرور (لهم) أى لمشركى المعرب، على (آية) للاهتمام بالمقدم؛ لأنهم هم المقصودون بالتقرير والإلزام.

﴿**أن يعلمه علماؤ بنى إسرائيل**﴾ إيثار المصدر المؤول - أن يعلمه - على الصريح - عِلْمُ - للدلالة على أن ذلك العلم كان قائما وقت أنكر المشركون أن القرآن من عند الله وهذا أقوى فى الاحتجاج عليهم - لاستمراره - من المصدر الصريح.

وفى إسناد العلم بالقرآن إلى ﴿**علماء بنى إسرائيل**﴾ دون عامتهم ترشيح لقوة دلالة ذلك العلم على صدق النزول من عند الله؛ لأنه شهادة من الخاصة أو من أهل الذكر الذين يعتد بقولهم فى هذا المقام. وأهل الذكر فى كل مجال هم الموثوق بهم دون غيرهم من عامة الناس.

وبهذا قطع القرآن جميع الأعذار، وأزال كل الشبهات وألزم الخصم بالحجة القاطعة، وألزمهم بموجبات الإيمان.

* * *

١٨ - ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ * أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ * أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٣ - ٢٠٧].

الدراسة والتحليل:

هذه الآيات الخمس معناها مترابط بها جميعا. بل لابد من ملاحظة الآيات التى قبلها بدءًا من ﴿**وإنه لتنزيل رب العالمين**﴾ إلى ﴿**لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم. فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون**﴾.

والآية الأولى من الآيات الخمس ﴿**فيقولوا هل نحن منظرون**﴾ معطوفة على ما قبلها (**فيأتيهم**) وما قبلها معطوف على الفعل المضارع المنصوب بـ(حتى) فى قوله تعالى: ﴿**لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم**﴾، لذلك حذف النون للنصب فى ﴿**فيقولوا**﴾:

أى يأتيهم العذاب الأليم بغتة فيقولوا هل نحن منظرون متمنين تأخير العذاب النازل بهم بعد وقوعه وهذا كله حديث عن مشركى العرب، الذين كفروا بالقرآن وبصاحب الرسالة الخاتمة ﷺ.

ومن أجل هذا الارتباط آثرنا ذكر الآيات الخمس مع خلو الآيتين [٢٠٦، ٢٠٧] من الاستفهام؛ لأن كمال المعنى متوقف عليهما كما يرى القارىء من النظر فى مجموع هذه الآيات، من الآية: [١٩٢] إلى الآية: [٢٠٧].

وقد اختلفت وجهات نظر المفسرين فى معنى هذه الآيات وكان الإمام الزمخشرى هو الذى بدأ، حيث تصور إشكالاً فى تنسيق معناها، وبخاصة الآيات الثلاث الأُوَل من الآيات الخمس المذكورة فى صدر هذا المبحث. ومنشأ هذا الإشكال الذى تصوره الإمام جار الله، التعقيبات بـ(الفاء) فى:

(**أفبعذابنا..**) بعد التعقيب فى (فيأتيهم) ثم التعقيب الذى بعد هما فى (**فيقولوا**) وأضاف الإمام أبو السعود ترددًا فى المعنى المراد من العذاب، بين عذاب فى الدنيا أو عذاب الآخرة.

وتابعهما الإمام الألوسى وكذلك الإمام الطاهر وكاد يقصر معنى العذاب على القتل الذى وقع فى غزوة بدر أو العذاب الذى ينزل بمن مات منهم عقب الموت مباشرة[1].

ولما كان الإمام الزمخشرى هو الذى سبقهم فى تصور الإشكال فقد أورد أكثر من ثلاثة آراء فى إزالته، ولم يجزم بواحد منها. والحق أننا وصفنا ما قالوه بأنه اختلاف وجهات نظر، ولكنه فى الواقع اضطراب، كان الإمام أبو السعود أخفهم حملا منه.

وإذا أمعنا النظر فيما قالوه أمكننا رصد المعنى مُنَسَّقًا لا إشكال فيه، فنقول ومن الله التوفيق إن معنى الآيات هو النص على أن هؤلاء المشركين إنما كفروا بالقرآن جحداً مع قيام أقطع البراهين على صدق نزوله من عند الله، وأن ليس للنبى فيه سوى أمانة التبليغ والبيان. وأن هؤلاء المشركين لن يؤمنوا بالقرآن طوعا، وإنما سيؤمنون قَسْرًا وإلجاءً حين يبعثهم الله ليوم الحساب. وهو إيمان لا ينفعهم. وقوله تعالى: ﴿**فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون**﴾ أمارة قوية على أن المراد بالعذاب هو عذاب الآخرة. وأنهم حين يرونه يتمنون لو أهملوا ويعودون إلى الحياة الدنيا ليؤمنوا من جديد، وليس هذا بغريب، فقد حكاه عنهم القرآن أكثر من مرة. من ذلك على سبيل المثال قوله تعالى:

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٧].

وبعد هذا انتقل القرآن يُعَجِّب من حالهم التى كانوا عليها فى عصر نزول القرآن من استعجالهم عذاب الله أمارة ودليلاً على أن القرآن هو الحق النازل من عنده. فى قولهم:

﴿.. **اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، أو ائتنا بعذاب أليم**﴾ [الأنفال: ٣٢].

وهذا السؤال لا يصدر عن عاقل إذْ جعلوا إهلاكهم شاهدا على صدق الرسالة.

---

(١) الكشاف: (٣/ ١٣٠)، تفسير أبى السعود: (٦/٢٦٦)، روح المعانى: (١٩/ ١٣٠)، التحرير والتنوير: (١٨/ ٧٠).

أى أنهم دعوا على أنفسهم بالشقاء الأبدى؛ لأن صدق الرسالة حين يثبت عندهم بصب العذاب الأليم عليهم يكونون قد حرموا أنفسهم من الإيمان بها، وليس بعد ذلك حماقة وطيش.

ولما اقتضت حكمة الله إرجاء العذاب إلى يوم الحساب التفت النظم الحكيم من الحديث عنهم إلى مخاطبة رسوله الكريم - والمقصود بهذا الخطاب هم - فقال عز وجل:

﴿أفرأيت إن متعناهم سنين * ثم جاءهم ما كانوا يوعدون * ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾.

وهذا من إخلاص النصح لهم، وإعلامهم بأن طول السلامة لن يحميهم من حلول العذاب حين يأتى أجله المحتوم هذا ما يتعين فهمه فى هذه الآيات، ولا نزعم أننا أبو عذرة هذا الفهم، بل أشار إليه بعض الأئمة ولكن فى لمحات غير شافية ولا وافية، ولا مزيلة للإشكال الذى حام حوله الإمام جار الله رحمه الله.

أما المراد من الاستفهامات الثلاثة فخلاصة ما قيل فيها هو الآتى:

إن الاستفهام الأول: (هل نحن منظرون) للتمنى، لأن البلاغيين جوَّزوا أن يُتَمنَّى بـ(هل). ولو لم يقل البلاغيون هذا لتعين أن تكون (هل) هنا للتمنى؛ لأنهم عرفوه بأنه: طلب المستحيل أو ما فيه عسر، وقول المشركين يوم القيامة: **(هل نحن منظرون)** ينطبق عليه هذا التعريف؛ لأن إنظارهم وإرجاعهم إلى الحياة الدنيا بعد البعث مستحيل شرعا. وقد أصاب الأئمة المحزحين حملوا هذا الاستفهام على التمنى.

أما الاستفهام الثانى: (أفبعذابنا يستعجلون)؟ فهو - كما قالوا - للإنكار والتبكيت والترهيب، لأن عذاب الله - وهو واقع بهم - أليم شديد. فكيف يستعجل به من هو لا طاقة له على احتماله.

ومن المعانى المشعة من هذا الاستفهام التعجيب من حال هؤلاء الحمقى، الذين يستعجلون إهلاكهم الأبدى وينادون عليه.

أما الثالث: (أفرأيت..) وما عُقِّب به، فهو لتصوير أوضاعهم ومصائرهم فى الذهن ليُحكم عليها وهى حاضرة ماثلة فيه.

ولسنا مع من فسره منهم - أبى السعود والألوسى - بأنه بمعنى أخبرنى (أبو السعود) أو (أخبِرْ) الألوسى.

فما أبعد هذا المعنى عن هذا الاستفهام هنا. وإنما السائغ فيه ما قدمناه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(هل نحن منظرون)** هذا أسلوب تمنٍ. والأصل فيه أن يكون بـ(ليت). كما فى قولهم ﴿**ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين**﴾ [الأنعام: ٢٧]، فما سر العدول - ياترى - من (ليت) إلى (هل)؟

الذى بدأ لنا فى الجواب أن التمنى بـ(ليت) مجرد تمنٍ لا يفيد أكثر من إظهار التحسر والتفجع. أما إذا كان بـ (هل) فإنه يتضمن نوعا من الرغبة والرجاء، مع توقع أن يجاب ما أخرجوه مخرج الاستفهام وهو الإنظار.

كما تفيد (هل) شدة طمعهم فى تحقيق الإنظار والإعادة إلى الحياة الدنيا ليحصلوا شرف الإيمان الذى صفرت منه عيابهم فى المحشر.

وبناء اسم المفعول (مُنْظَرُونَ) من الفعل المبنى للمجهول: (نُنْظَر) دليل على شدة تلهفهم على الإنقاذ مما هم فيه، أيًّا كان المنقذ؟ وأن الإنقاذ هو غرضهم على يد مَنْ يقع؟

* ﴿**أفبعذابنا يستعجلون**﴾؟: تقديم الجار والمجرور **(عذابنا)** على **(يستعجلون)** ليلى همزة الإنكار؛ لأنه أعرق فى الإنكار من الاستعجال. فاستعجال العذاب - أى عذاب - شئ تأباه الطباع؛ لأن العاقل ىءدفع عن نفسه العذاب إذا وقع، والأشد إنكاراً من مجرد استعجال أى عذاب هو عذاب الله لفظاعته وشدة وقعه على النفوس.

لذلك قُدِّم فى الآية **(عذابنا)** على الاستعجال، لأنه محط الإنكار والتعجيب.

وإضافة العذاب إلى نون العظمة للتهويل والتفظيع.

* ﴿**أفرأيت إن متعناهم سنين**﴾؟ هذا خطاب من الله لرسوله الكريم. والمقصود به المشركون. ففيه دعوة لهم أن يتصوروا أنفسهم متروكين سالمين فى هذه الحياة مدة طويلة. مع إدخار العذاب لهم فهل هذا بنافع لهم لما يقع عليهم عذاب الله؟ أو يستطيعون أن يصحبوا شيئا معهم من استمتاعهم هنا يخفف عنهم وطأة العذاب فى الآخرة. إن اللذات الحسية لا تُختَزَن ولا تبقى زمانين. ولحظة قصيرة من العذاب الشديد تُنْسِى كل تنعُّمٍ كان قبلها وإن طال.

* وإيثار (إن) على (إذا) فى قوله تعالى: ﴿**إن متعناهم سنين**﴾ إيذان بجواز حلول الشقاء بهم، لما فى (إن) من ورود الشك فى شرطها.

وتنكير (سنين) للكثرة. أى مهما طال إمتاعنا لهم فلن يدفع عنهم العذاب، ولا هو بنافعهم حين يُعذَّبون.

* ﴿**ثم جاءهم ما كانوا يوعدون**﴾ يرى الإمام جار الله أن (ثم) هنا لا للترتيب الزمنى، بل لترتيب رتبة على رتبة للتفاوت بين الرتبتين فى الشدة، لأن مجىء العذاب أشد من إمهالهم معرضين للعذاب. ومع تقديرنا لما قال فإننا نرجح بقاء معنى العطف بـ (ثم) هنا على التراخى الزمنى لأن بين تمنيهم الإنظار وتمتيعهم، وبين حلول ما يوعدون من العذاب فارق زمنى - طال أو قَصُر.

وإسناد (جاء) إلى العذاب مجاز عقلى؛ لأن الله هو الذى يوقع عليهم العذاب. وسره البلاغى التخييل بأن العذاب - من شدة غضب الله عليهم - يسعى هو بنفسه طالبا للثأر منهم.

وفى ﴿**ما كانوا يوعدون**﴾ كناية عن العذاب، وأوثرت الكناية لتؤدى ثلاثة، أغراض بلاغية:

الأول: قَرْنُ الدعوى فيها بالدليل. وهو الوعد. والله لا يخلف الميعاد.

الثانى: التهويل والتفظيع من شأن العذاب النازل بهم.

الثالث: الإيذان بسوء مصير قوم كان العذاب وعداً لهم.

وفى بناء الفعل (**يوعدون**) لما لم يسم فاعله، إيذان بأن كل شىء فى الوجود، كأنه قد وعدهم بذلك المصير المؤلم. لشدة مقت الله لهم.

* ﴿**ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون**﴾ بعض الأئمة (الألوسى) جوَّز أن تكون (ما) هنا فى صدر الآية استفهامية المراد منها النفى، أى:

أى شىء أغنى عنهم متاعهم لما جاءهم العذاب.. ولكننا ملنا عن هذا الرأى، ولم نعتد به، لأن ظاهر الكلام يدل دلالة قاطعة على أن (ما) هنا نافية. وأن هذه الآية هى جواب الاستفهام فى (**أفرأيت**) والتقدير:

إن أمهلناهم ومتعناهم طويلا، فلن ينفعهم إمهالنا إياهم يوم يأتيهم العذاب وما يغنى عنهم من عذاب الله من شىء.

فإذا كان النفى هو المراد من (ما) حتى عند مَنْ قال إنها للاستفهام فلماذا نعدل عن المعنى اللغوى للكلمة، إلى المعنى المجازى (الاستفهامى) ولم تدع إلى ذلك ضرورة: وعلى هذا فإن إيثار الماضى فى (**ما أغنى عنهم**) على المضارع: ما يغنى لتحقق الوقوع، حتى لكأنه قد وقع فعلا.

وإسناد الإغناء - وإن كان منفيا - إلى الموصول وصلته ﴿**ما كانوا يمتعون**﴾ مجاز عقلى علاقته السببية: أى ما أغنى الله عنهم شيئا من عذابه بسبب ما كان يمتعهم به فى الحياة الدنيا.

وفى مجىء الفواصل: (**منظرون - سنين - يوعدون - يمتعون**) على حرفى المد والنون تحقيق التناسق الصوتى فى رؤوس الآى ولا بتناء المعانى عليها.

* * *

١٩ - ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴾ [الشعراء: ٢٢١].

الدراسة والتحليل:

فى مواجـهة الله عز وجل لمن كذَّبوا نسـبة نزول القرآن من الله على محـمد ﷺ، ذكر فى بعض المواضع من النـظم الحكيم نفى أن يكون القرآن من أقوال الشـياطين أو من أقوال الكهان. ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وما هو بقول شيطان رجيم﴾ [التكوير: ٢٥].

وهنا فى هذه السـورة قال: **﴿وَمَا تَنزَّلَـتْ بِهِ الشَّيَّاطِيـنُ * وَمَا يَنْبَغِي لَـهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهم عَنِ السَّمْعِ لَمَعزُولُونَ﴾**.

ثم عاد ليـخطوا بهم فى الحجاج والإفـحام خطوة أخـرى ليبين لهم أن الشـياطين تتنزَّل على غير محمد ﷺ، فوجَّه إليهم هذا الاستفهام:

﴿هل أنبئكم على من تنزل الشـياطين﴾؟ ولـم نر أحداً من الأئمـة، قال أن المراد من هذا الاستفهام كذا. ولهذا فإننا ندلى بدلونا فيه فنقول:

إن هذا الاستفهام أريد منه التهيئة والإثارة نحو الإجابة التى ذكرت بعده مباشرة:

﴿تَنَزَّلُ عَلَ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيم﴾ [الشعراء: ٢٢٢].

مع الإيماء إلى بـراءة ساحة التنزيل من الخطأ والـتخليط والتعـريض بهم أنهم هم الذين تتنزل عليهم الشياطين بالكفر والكذب والأوهام.

بيد أن الإمام الطاهر أورد فيه جملة نذكرها - الآن - مع التعقيب عليها. قال:

(القى الكلام اليهم فى صورة استفهامـهم عن أن يعرفهم بمن تنزل عليه الشياطين. استفهاما فيه تعريض بأن المستفهم عنه مما يسوؤهم لذلك يحتاج إلى إذنهم فيه؟!

وهذا الاستفـهام صورى، .مستعـمل كناية عن كون الخبر مما يستـأذن فى الإخبار به. . .

والمعنى (أنبئكم إنباءً ثابتا محققا. .)[1].

هذا ما قاله الإمام الطاهر، فالاستفـهام - عنده - المراد منه الاستئذان على نحو ما

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٠٥).

تقدم. ولا نرى لما قاله وجهًا. ولو كان الأمر كما قال لتريث النظم فى الجواب حتى يصدر منهم ذلك الإذن؟

بل الذين يليق بالمقام وبلاغة النظم أن الاستفهام إنما ذكر توطئة لإثارة انتباههم والتفاتهم وتشويقهم إلى الجواب، وتفريغ أذهانهم من الشواغل التى من شأنها أن تُلهى عن حسن الإقبال. وكمال التلقى. فهو على حد قول الإمام الطيبى فى نظائره: قرع بالعصى لتنبيه الغافل وإقبال المعرض، وإيقاظ النائم، وتنشيط الأذهان هذه خلاصة ما ينبغى قوله فى هذا الاستفهام، وله فى القرآن نظائر لا تُحصى.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**هل أنبئكم..**﴾ هل استفهامية بنفسها، ولا تحتاج إلى تقدير الهمزة قبلها كما ذهب بعضهم، إذ لو احتاجت إلى هذا لكان الاستفهام بالهمزة لابها. وإيثارها على الهمزة لا لتحقيق الإذن بالانباء، كما يفهم من كلام الإمام الطاهر ولكن لتحقق الأوصاف المستدعية لتنزل الشياطين فى من تتنزل عليه، وهما: الإفك والإثم.

وهذا ما يدل عليه المقام فى النظم الحكيم.

* ﴿**على من تنزل الشياطين**﴾؟ هذا هو موضوع الإنباء و(مَنْ) فيه موصولة لا استفهامية كما ذهب بعض المفسرين والذى محَّضها للموصولية الاستفهام بـ (هل) قبلها والمعنى:

(هل أنبئكم بالذى تتنزل عليه الشياطين)؟ وحُذِفَ الجار والمجرور، وهو الضمير فى (عليه) الرابط بين الصلة والموصول لدلالة ما ذكر قبله عليه - اعنى قوله تعالى (**على من**).

ولو جعلت (من) هنا استفهامية لما اسقام المعنى وكفى دليلا على ذلك قول الإمام أبى السعود:

(ودخول حرف الجر على (من) الاستفهامية، لما أنها ليست موضوعة للاستفهام.

بل الأصل: أمَنْ؟ فحذف حرف الاستفهام واستمر الاستعمال على حذفه كما حذف من (هل) والأصل أهل..؟![1].

الذى يبدو من هذا الكلام أنه بحث لغوى فى أصل (مَنْ) و(هَلْ) وليس بيانا للاستفهام هنا. وكذلك إذا نظرنا فى كلام الزمخشرى[2].

ولو كان النظم قد خلا من (هل) هنا - فقيل على من تنزل الشياطين لكان (مَنْ) استفهاما حقا. أما وقد ذكرت (هل) فتعين أن يكون (مَنْ)موصولاً ويُسْلَبُ عنها معنى الاستفهام.

ولا يشفع فى جَعْل (مَنْ) استفهاما تقدير (هل) بمعنى (قد) إذ ما المعنى إذا قيل: قد أخبرك أمن تنزل عليه الشياطين.

وصفوة القول أن (مَنْ) هنا موصولة، وهى وصلتها معمول الإنباء. وحمل الكلام على غير الموصولية تأباه بلاغة النظم وجزالته فيما نرى.

* ﴿**تنزل الشياطين**﴾ صيغة التضعيف فى (تنزَّلُ) لإفادة الكثرة كثرة وساوس الشياطين لأوليائهم المشركين الظانين ظن السوء.

وإيثار المضارع (تنزَّل) للإيذان بأن وسوسة الشياطين لأوليائهم هى ديدنها وعادتها التى لا تنتهى فهى تتنزل الآن، وبعد الآن، ما دام فى الدنيا شياطين وأفَّاكون.

وفى (تنزل) مشاكلة تقديرية. لأن المراد من تنزُّل الشياطين وسوستهم وخذلانهم لأوليائهم فعُبِّر عن الوسوسة بالتنزُّل لوقوعها فى صحبته تقديراً ولا يجوز اجراء الاستعارة فى التنزل؛ لأن الاستعارة مبناها التشبيه. فلو أجريت - هنا - للزم من ذلك تشبيه وسوسة الشياطين بالوحى النازل من لدن حكيم عليم. وهذا مقطوع بحظره وفساده.

* وفى بناء الفعل (تنزَّل) لما لم يسم فاعله لما علمنا أن التنزل - هذا - لا حقيقة له فى الوجود إلا الوسوسة. فخلا المقام من فاعل يُنَزِّل الشياطين على الأفاكين الآثمين.

---

(١) تفسير أبى السعود: (٦/ ٢٦٨).

(٢) الكشاف (٣/ ١٣٢).

ولا يصح جَعْلُ الشياطين هم الفاعل للتنزُّل؛ لأن الشياطين لا رفعة لهم ينزلون أو يتنزَّلون منها بل خالدون الأرض. كما قال أصدق القائلين ﴿واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

* * *

٢٠ - ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٢٥].

الدراسة والتحليل :

هذه الآية نزلت فى وصف الشعراء. وقبلها أية هى ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ وبعدها آية هى: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ﴾.

وبالآيات الثلاث كمل وصف الشعراء الغواة؛ وهذا الوصف تحوَّل الآن إلى «الفن والفنانون» بعد الشعر والشعراء:

جماعات من الناس يشترون لهو الحديث ليصرفوا الناس عن الأعمال الجادة للدنيا والدين. يعبدون «الجماهير» وتعبدهم «الجماهير» فكلهم عابد معبود أو معبود عابد.

وقد ورد فى آيتنا هذا الاستفهام:

﴿ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون﴾؟

وهو استفهام تقرير وقدح. تقرير للرؤية وأنها ظاهرة فاشٍ أمرها. وقدح فى وصف الشعراء، وسوء طبعهم(١) وإنما كان الاستفهام تقريرًا لدخول همزته على فعل منفى فنفت النفى فعاد المعنى إثباتا.

وهذه خلاصة ما يقال فى هذا الاستفهام.

أسرار النظم وبلاغياته :

* **﴿ألم تر..﴾** هذه الرؤية علمية؛ لأن موضوع الرؤيا أحوال لا ذوات الشعراء.

---

(١) هذا بالنظر إلى شعراء السوء الذين يخوضون فى أعراض الناس ويمدحون ويذمون تبعا لأهوائهم ومقاصدهم الدنيئة. أما شعراء الصدق فقد استثناهم القرآن فى قوله تعالى: ﴿إلا الذين آمنو وعملوا الصالحات﴾ [٢٢٧].

وأحوالهم المقرر بهـا لا تدرك بحاسة البصر، بـل بعضها يدرك بالسمع. وبعـضها بالعـقل فـغلب ما يدرك بالـفكر على ما يدرك عـن طريق السمع وهـو عبـاراتهم وألفاظهم وجمعهم بين فنون القول.

* ﴿فى كل وادٍ﴾ ليس المراد من الأودية الأماكن كـما قد يتـبادر إلى الذهن، بل المراد فنون القول وضروب الكلام. وفى هذا يقول الإمام جار الله:

(ذكر الوادى والهيوم فـيه تمثيل ذهابهم فى كل شعب من القول، واعـتسافهم وقلة مبالاتهم من المنطق، ومجاوزة حد القصد فيه، حتى يفضلوا أجبن الناس على عنترة؟ وأشحهم على حاتم، وأن يبهِّتوا البرئ، ويفسقوا التقى»[1].

ففى (وادٍ) استعارة تصـريحية أصلية، شبهت فيها أفـانين القول بالأودية لا تساعها وتعرض السائرين فيها للضلال والهلاك.

* **(يهيمون)** من معانى (الهيم) اخـتلاط العقل والجنون وهى استعارة تصريحيـة تبعية شُبِّه فيها تخبط الشعـراء بين الفنون القولية وضروب المعانى الكاذبة بالهيام من لوثة العقل واضطراب المجنون. وكل من هاتين الاستعارتين ترشيح للأخرى.

وفى إيثار المضارع **(يهيمون)** تصوير لحـال الشعراء وأخذهم القـول فى كل اتجاه، دون وازع من دين أو عاصم من خلق.

والتركـيب كله كناية عن سلامة مـتلقى القرآن من لدن حكيم عليم، وهو محـمد ﷺ من صفات النقص والاتهام بالتخليط والتلبس بالباطل.

وهذا وارد فى مقام تـكذيب المشركين بالقرآن، ونسـبته إلى قول شـاعر أو مجنون وإلزام للمشركين بالحجة الناصعة، ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة.

* * *

(١) الكشاف : (٣/ ١٣٣).

سورة النمل

١ - ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾

[النمل: ٢٠].

الدراسة والتحليل:

سورة النمل مكية، نزلت بعد الشعراء وقبل القصص. فهذه السور الثلاث جارات فى النزول[١]. وفى ترتيب المصحف وقد ورد فى سورة النمل هذه بعض القصص النبوى، حيث ذكرت طرفا من قصة موسى عليه السلام، وقصتى صالح ولوط، وإشارة إلى قصة داود، ثم عرضت بالتفصيل قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ.

وأول استفهام ورد فى هذه السورة كان قول سليمان عليه السلام، حين تفقد الطيور ولم يبصر الهدهد بينها:

﴿ما لى لا أرى الهدهد، أم كان من الغائبين﴾؟.

وقد عرض الأئمة للمراد من هذا الاستفهام فقال الإمام جار الله الزمخشرى:

(أم هى المنقطعة): نظر إلى مكان الهدهد فلم يبصره فقال:

﴿ما لى لا أرى..﴾ على معنى أنه لا يراه وهو حاضر لساتر ستره، أو غير ذلك. ثم لاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول: أهو غائب. كأنه يسأل عن صحة ما لاح له - ونحوه قولهم - أى قول العرب - إنها لابل أم شاء)[٢].

تلقف عبارة الزمخشرى هذه الإمامان أبو السعود والألوسى وذكراها فى شىء من الإيجاز[٣].

وعزا الإمام الألوسى قولا للإمام ابن عطية يفهم منه أن ﴿أم﴾ فى الآية متصلة،

---

(١) البرهان فى علوم القرآن (١/ ١٩٣).

(٢) الكشاف (٣/ ١٤٢).

(٣) تفسير أبى السعود (٦/ ٧٩)، وروح المعانى (١٩/ ١٨٢).

ورده. والحق أن ابن عطية لم يذكر صراحة أن ﴿أم﴾ متصلة، ولكن الألوسى جعل هذا لازم قول ابن عطية، حيث قال بعد فراغه من ذكر كلامه:

«وظاهره أن (أم) متصلة، والهمزة قائمة مقام همزة الاستفهام، فالمعنى عنده: أغاب عنى الآن فلم أره حال التفقد أم كان ممن غاب قبل، ولم أشعر بغيبته) ثم قال معقبا عليه: (والحق ما تقدم) يعنى أن (أم) منقطعة لا متصلة[1].

كما ذكر الإمام أبو حيان عبارة الزمخشرى، ثم عقب عليها فقال:

(والصحيح أن (أم) فى هذه الآية هى المنقطعة؛ لأن شرط المتصلة تقدم همزة الاستفهام. فلو تقدمها أداة استفهام غير الهمزة كانت (أم) منقطعة. وهنا تقدم ما فات شرط المتصلة)[2].

والإمام فخر الدين الرازى لم يزد على قوله: (فأم هى المنقطعة نظر إلى مكان الهدهد فلم يبصره، فقال ما لى لا أرى الهدهد. . . .)[3].

وهى عبارة الإمام جار الله كما تقدم.

كما تابع الإمام البيضاوى الإمام الزمخشرى ونحا نحوه فى أن (أم) منقطعة[4].

والخلاصة: أن الأئمة قد أجمعوا على أن (أم) فى هذه الصورة الاستفهامية منقطعة لما فيها من معنى الإضراب فقد انتقل سليمان إلى احتمال غيبة الهدهد حين لم يره، ومع هذا فأن حمل: (أم) هنا على الاتصال مما يسفر عنه المقام، إذلا مانع أن يكون سليمان عليه السلام يتوقع الإجابة بتعيين أحد الاحتمالين: عدم الرؤية مع الوجود أو الغياب.

وما ذكره الإمام أبو حيان من أن تقدم غير الهمزة (مالى) على (أم) يمنع من حمل (أم) على الاتصال، فهذا لا يكفى لأنه مانع صناعى. والأولى النظر إلى المقام، وهو هنا لا يمنع من حمل (أم) على الاتصال كما قدمنا.

---

(١) تفسير ابن عطية (١٢/ ١٠٥)، وروح المعانى (١٩/ ١٩٢).

(٢) البحر المحيط: (١٧/ ٦٥).

(٣) التفسير الكبير (٢٤/ ١٨٩).

(٤) تفسير البيضاوى (٢/ ١٧٢).

ثم ما الذى يمنع من قيام (مالى) مقام الهمزة؟ أليست الهمزة هى الأم فى باب الاستفهام؟ وما عداها من أدوات الاستفهام - مع ما لكل أداة من خصوصية لا توجد فى غيرها - قائم مقامها، ونائب عنها.

وعلى هذا فإننا - مع مجاراة الأئمة على القول بالانقطاع - لا نرى مانعا قويا من جواز حملها على الاتصال - هنا - لأنه سائغ بدلالة المقام.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**وتفقد الطير**﴾ التفقد التطلب والتفحص، وهو إجالة النظر بدقة فى الأشياء لغرض يقصده المتفقد. والغرض الذى قصده سليمان عليه السلام من الطير هو التأكد من حضور الحاضر منها وغياب الغائب.

ومفعول التفقد هو أنواع الطير أو أفرادها، وتفقد الأفراد - هنا - هو ما يفهم من المقام، بدليل قوله تعالى ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧].

والظاهر أن الغائب من الطير هو فرد من أفراد الهدهد اسمه (يعفور) كما ورد فى كتب التفسير، لا نوع الهداهد كله. ولا يمنع من ذلك أن السؤال وقع على النوع (الهدهد) عموما. إذ لا مانع أن يكون هذا من إطلاق العام وإرادة الخاص لقرينة مخصصة كانت معلومة عند جنود سليمان عليه السلام.

وصيغة (التَّفعّل) فى (تَفَقَّدَ) للدلالة على أن سليمان عليه السلام كان ينظر ويفحص بعناية شديدة كشفت له حضور الحاضر وغياب الغائب.

وفى إفراد (الطير) - هنا بالذكر، بعد الإعلام بأن الجن والإنس حُشَروا لسليمان دليل كاشف عن معنى دقيق لم يذكر لفظه الدال عليه فى الآيات. وهو أن سليمان عليه السلام خصص لكل نوع من الأنواع الثلاثة، وهى الجن، والإنس، والطير، مكانا للاجتماع. فتفقد الجن فلم يجد أحدًا منهم غائبًا، وتفقد الإنس فلم يجد أحداً منهم غائبا، ثم لما تفقد الطير فلم ير الهدد من بينها.

وهذه المعانى - كلها - مدلول عليها بذكر (الطير) وهذا من الايجاز البديع الذى

يوحى به النظم المعجز، لا نجد له مثيلا خارج دائرة القرآن الحكيم.

ولا يقال: إن هذه المعانى مدفوعة، لجواز أن يكون سليمان عليه السلام تفقد الطير قبل تفقد الجن والإنس لانا نقول:

المدفوع هو هذا الاعتراض المذكور، لأن النظم الحكيم لما أخبر بحشر جنود سليمان رتبهم فى ثلاث مراحل:

الجن أولاً: والإنس ثانيا، والطير ثالثا: وهذا إيماء بليغ إلى أن تفقد سليمان لجنوده جرى على وفق ترتيب الحشر فاندفع الاعتراض.

* ﴿**فقال ما لى لا أرى الهدهد**﴾؟ الفاء عاطفة على محذوف ينسحب عليه الكلام، والتقدير: فلم ير الهدهد بين الطير ﴿**فقال ما لى لا أرى الهدهد**﴾؟ ودلت الفاء على معنييها اللغويين:

* ترتيب القول (مالى) على عدم الرؤية.

* فورية هذا القول ومسارعة سليمان عليه السلام بإعلانه لإنكار أن يغيب من جنوده أحد.

وفى ﴿**فقال ما لى لا أرى الهدهد**﴾ كناية لطيفة حافل بأمثالها النظم الحكيم، وقد مرَّ لنا أمثالها كثيراً قبل هذا الموضع لأن أسلوب الاستفهام (ما لى) يستفهم به استفهام نفى أو إنكار عن السبب. ويكون المراد من نفى السبب أو إنكاره نفى المسبب أو إنكاره، فكأنه قيل: لا سبب عندى يمنع من رؤية الهدهد لو كان موجوداً. فالنفى أو الإنكار مسلطان على الوجود. يعنى أن الهدهد ليس موجوداً وهذا هو المعنى الكنائى الذى تُوُصِّل إليه بنفى السبب المانع من نفى الرؤية أو المانع من إنكارها.

ولما كان سليمان رسولاً عليه السلام، والرسل من أعدل الناس وأنصفهم:

فقد ردَّد عدم رؤيته للهدهد بين احتمالين: وجوده مع ساتر يستره عن الرؤية، ثم غيبته. ولذلك فإنه لما رجَّح احتمال الغيبة وتوعده عليها، أفسح له مجال العذر فقال: ﴿أو ليأتينى بسلطان مبين﴾ [النمل: ٢١].

وإيثار المضارع (**لا أرى**) إشارة إلى حضور عدم الرؤية موصولاً بزمن التكلم. وهو محط السؤال سواء كان للنفى أو الإنكار.

* ﴿**أم كان من الغائبين**﴾ انتقال من السبب المانع من رؤية الهدهد إن كان موجوداً، إلى التساؤل عنه أو ترجيح كونه من الغائبين. وتحتمل (أم) الانقطاع والاتصال.

فإن كانت متصلة كان المعنى: أنا لا أراه ألمانع يمنع من رؤيته؟ أم هو غائب؟

وإن كانت منقطعة: أى سبب يمنع من رؤيته، بل أغائب هو؟

وقد رجَّح الأئمة الانقطاع كما تقدم أو كادوا يجزمون به. والمقام يجوز الاتصال وإن كان مرجوحاً.

* ﴿**من الغائبين**﴾ مفهوم هذه العبارة أن أفراداً أخرى من الطير ثبت غيابها. وهذا المفهوم مدفوع، لأن من سمات النظم القرآنى فى مثل هذا المقام أن لا يذكر صاحب الوصف مفرداً. بل يدرجه فى الحقيقة الكلية الشاملة له ولغيره. كما قال فى شأن امرأة عزيز مصر:

﴿**إنك كنت من الخاطئين**﴾ [يوسف: ٢٩] وفى شأن مريم رضى الله عنها: ﴿**وكانت من القانتين**﴾ [التحريم: ١٢]، والمراد هنا: أم كان ممن يندرج تحت حقيقة: الغائبين.

* * *

٢ - ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَم كُنتَ مِنَ الكَاذِبِينَ ﴾ [النمل: ٢٧].

الدراسة والتحليل:

لما توعد سليمان - عليه السلام - الهدهد إذا ثبت غيابه ولم يكن له عذر وجيه حال بينه وبين الحضور لما حشر لسليمان جنوده. وكان الهدهد حاضرا لا غائبا. فتقدم نحو سليمان وقص عليه قصته، وما شاهده فى مملكة سبأ، من أن امرأة تحكم أهل سبأ ولها عرش عظيم، وأنها وقومها وثنيون يعبدون الشمس من دون الله. وأن الشيطان زين لهم الكفر والعصيان[1].

---

(١) انظر الآيات من آية [٢٢] إلى آية [٢٦] من سورة النمل.

عندئذ أرجأ سليمان عليه السلام عقاب الهدهد، حتى يتبين له صدقه أو كذبه فى القصة التى قصها عليه:

﴿قال: سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين﴾؟

وهذا هو الموقف المحمود من أنبياء الله ورسله، ومن العقلاء جميعا. إنه التثبت واستقصاء الحقائق، ثم اتخاذ ما يناسب الوقائع بعد وضوحها.

ونلحظ فى قول سليمان عليه السلام صورتى استفهام فى قوة الصورة الواحدة:

* **إحداهما: ﴿أصدقت﴾؟**
* **والثانية: ﴿أم كنت من الكاذبين﴾؟**

والواقع أن هاتين الصورتين، وإن جاءا على لفظ الاستفهام فالاستفهام فيهما صورى؛ لأنه شرح للنظر الوارد فى قول سليمان عليه السلام: **(سننظر)** يعنى سنتبين إن كان قولك صادقا أو كاذبا.

ولذلك لا يراد من هذين الاستفهامين تقرير ولا إنكار. وإنما هما سيكونان ثمرة البحث والنظر.

ولما كان طرفا الترديد هنا، وهما الصدق والكذب، مجهولين قبل النظر والتثبت شبها بالمستفهم عنه استفهاما حقيقيا فاستعمل فى تعيين الثابت منهما أداتى الاستفهام: الهمزة وأم المتصلة، المستعملتين فى طلب تعيين أحد الأمرين.

فأشبه هذا الاستعمال المجاز المرسل المركب. والمعنى سننظر فيما قلت نظرا يتضح بسببه صدقك أو كذبك.

وهذا هو السر وراء سكوت السادة المفسرين أمام هاتين الصورتين. فلم نرهم قالوا شيئا عن المراد من الاستفهام فيهما كما هو الشأن فى غيره من صور الاستفهام الأخرى. فلم يبق علينا إلا المبحث الأخير، وهو:

أسرار النظم وبلاغياته:

* **﴿قال سننظر﴾**: فصلت هذه الجملة للاستئناف البيانى لأن النفس بعد أن سمعت ما قاله الهدهد لسليمان عليه السَّلام تتطلع إلى موقف سليمان من هذه القصة التى

قصها عليه الهدهد. فجاءت جملة ﴿قال سننظر﴾ جوابا شافيا للنفوس المتطلعة إلى ذلك الموقف.. فبين الجملتين شبه كمال الاتصال.

* وفى ﴿سننظر﴾ استعارة تصريحية تبعية، لأن المعنى سنتأمل ونتصفح الحقائق. وهما أمران ذهنيان فشبه التأمل بالنظر بالعين الباصرة، إشارة إلى عمق التأمل وقوته حتى لكأنه يرى رؤية إبصار، والجامع بين الطرفين قوة التحقق.

* ﴿أصدقت أم كنت من الكاذبين﴾ هذه الجملة تفصيل بعد الإجمال فى ﴿سننظر﴾ وتقديم الصدق على الكذب لأنه الأهم، ولشرفه وابتهاج سليمان به، لأنه كشف ذو خطر الذى قصه عليه الهدهد. ونعمة جليلة الشأن يمن الله بها عليه. وثمرة حلوة المذاق من فخامة الملك الذى جعله الله لسليمان.

وإيثار الماضى: ﴿أصدقت﴾ بيان مترجم عما فى نفس سليمان من تحقق ما قصه عليه الهدهد من بشريات.

* ﴿أم كنت من الكاذبين﴾؟ عُدِل عن: أم كذبت، لنكات بلاغية فى المعدول إليه لم توجد فى المعدول عنه من حيث اللفظ ومن حيث المعنى.

فمن حيث اللفظ توافق رءوس الآيات، وبناء الفواصل على حرف المد من الياء والواو. وهو سمة بيانية من سمات النظم القرآنى الحكيم، يجعل لسماع القرآن شنفا فى الآذان، ويهز أوتار النفس بعذوبته وحسن جرسه، فيقود السامع إلى الإقبال عليه والتأمل فى معانيه.

ومن حيث المعنى فإن القرآن -كما تقدم لا يثبت الوصف فى الفواصل بحسب من جرى الوصف عليه بل يذكر الحقيقة الكلية لينـدرج تحتها المحدَّثُ عنه والحقيقة الكلية - هنا - هى ﴿الكاذبين﴾ أى الذين استقر وصفهم بالكذب وصار سجية فيهم وعرفوا به.

وإنما نعت سليمان عليه السلام - الهدهد بهذا الوصف الراسخ على تقدير أنه سيكون غير صادق. لأن الأمر الذى أبلغه به خبر خطير، لا يجرؤ أحد على الإخبار به كذبا إلا من تأصل الكذب فى طباعه وصار سجية فيه.

لذلك عبـرّ عنه بالفعل ﴿كنت﴾ أمـا ﴿من﴾ فى ﴿من الكاذبين﴾ فتحتـمل البيانية والبعضـية أى أم كنت منتميا إلى حقـيقة الكاذبين، أو كنت بعض المنتمى إلى حقـيقة الكاذبين.

* * *

٣ – ﴿. . . فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل: ٢٨].

٤ – ﴿. . . فَانْظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: ٣٣].

٥ – ﴿. . . فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٥].

الدراسة والتحليل:

آثرنا الجمع فى الحديث عن هذه الآيات الثلاث فى مبـحث واحد لأنها تشترك فى استعمـال (النظر) متلوًّا بأداة استفهـام يتلوها فعل مضارع له وظيفة واحـدة بيانية فى الآيات الثلاث.

فالآية الأولى هى قـول سليمان عليه السـلام للهدهد بعد أن قص عليـه نبأ مملكة سبأ، فكتب سليمان كتابا لأهلها وأمر الهدهد بحمله إليهم، والآية بتمامها:

﴿اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم، ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون﴾، والآية الثانية هى قـول الملأ من مملكة سبـأ للمـرأة التى كانـت تحكمهم، حين أطلعـتـهم على كتـاب سليمان:

﴿قـالت: يا أيها الملأ إنى ألقى إلى كـتاب كـريم، إنه من سليـمان وإنه بسم الله الرحـمن الرحيم، ألا تعلوا على وأتونى مـسلمين. قالت يا أيها الملأ أفـتونى فى أمرى ما كنت قـاطعة أمراً حتى تشهدون﴾ [النمل: ٢٩ – ٣٢]، فكان رد قومها عليها:

﴿قالوا نحن أولوا قوة، وأو لوا بأسٍ شديد، والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين﴾ [النمل: ٣٣].

أما الآية الثالثة فهو قول ملكة سبأ لقومها بعد أن فوضوا الأمر إليها:

﴿قالت إن الملوك إذا دخلوا قـرية أفسدوها، وجـعلوا أعزة أهلها أذلة، وكـذلك يفعلون. وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون﴾ [النمل: ٣٤، ٣٥].

والتوجيه البلاغى لهذه الصور الثلاث:

* ﴿ماذا يرجعون﴾؟

* ﴿ماذا تأمرين﴾؟

* ﴿ بم يرجع المرسلون﴾؟

توجيه واحد يشملها كلها، وما كان على شاكلتها أين وكيفما ورد، وخلاصة ما يقال فيها وفى نظائرها بلاغياً ما يأتى: إن الاستفهام فيها ليس استفهاماً اصطلاحياً وإن جاء على صيغ الاستفهام، بل هو بيان وكشف وتفصيل للفعل الذى قبله.

(فانظر - فانظرى) أو ما فيه رائحة الفعل، وهو اسم الفاعل فى (فناظرة).

الأول: بُيِّن بـ**(ماذا يرجعون)** أى ماذا سيكون من ملكة سبأ وقومها بعد أن يصلهم كتاب سليمان - عليه السلام.

والثانى: بُيِّن بـ**(ماذا تأمرين)** أى نحن نفوضك فى اتخاذ القرار.

والثالث: بُيِّن بـ**(بم يرجع المرسلون)** يعنى ليعلمونا بموقف سليمان بعد الرد على كتابه وإرسال الهدية إليه.

وإن شئت قلت:

إن هذه الاستفهامات استفهام صورى شكلى دلالته ترقب رد فعل على فعل آخر، فالأول ترقب رد فعل سليمان، وهو إرسال الكتاب إلى ملكة سبأ، والثانى رد فعل الملأ بعد تفويض الملكة فى اتخاذ القرار، والثالث رد فعل الملكة من إرسال هدية إلى سليمان، **وقد كانت ردود الأفعال على الترتيب على النحو الآتى:**

* جمعت الملكة قومها وأعلمتهم بكتاب سليمان ثم طلبت المشورة من رجال بلاطها.

* قررت الملكة إرسال وفد إلى سليمان مصحوباً بهدية مع الرد على كتابه.

* رفض سليمان قبول الهدية وهدَّد المملكة بالغزو، ومن المناسب أن نشير إلى الآية التى تقدمت وهى قول سليمان للهدهد:

﴿سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين﴾ فحكمها حكم هذه الآيات فى أن الاستفهام الذى ورد بها ليس استفهاماً اصطلاحياً، بل هو استفهام شكلى، إما من حيث المعنى

فليس باستفهام وإنما استعمل كهذه الاستفهامات الثلاثة (الصورية) فى ترقب رد الفعل، وسيأتى لها نظير فى هذه السورة بعد قليل.

هذه الأساليب - بالضوابط التى شرحناها - محال أن تكون استفهاماً اصطلاحياً؛ لأن الاستفهام الاصطلاحى له عناصر يتكون منها لا وجود لها فى هذه الصور.

وعناصر الاستفهام الاصطلاحى - كما هو مقرر - هى:

أولاً: لابد فيه من طرفين، وهما:

* المستفهم - اسم فاعل - وهو السائل.

* المستفهم منه - اسم مفعول - وهو المسئول.

ثانياً: المستفهم عنه، وهو المعنى الذى يراد معرفته فى الاستفهام الحقيقى، أو نفيه وإنكاره أو تقريره وإثباته فى الاستفهام المجازى.

ثالثاً: السؤال، وهو عمدة كل استفهام اصطلاحى سواء كان حقيقياً أم مجازياً.

ولا نخال أن ينازعنا أحد من أهل العلم فى هذه البدائه أو المسلمات؛ لأنها معلومة من البلاغة بالضرورة إن جاز لنا هذا التعبير على سبيل الاستعارة من علماء أصول الفقه، حيث يطلقون هذا الوصف على الثوابت الدينية اعتقاداً وعملاً.

إذا تمهد هذا فإننا إذا فحصنا هذه الأساليب لا نعثر فيها على شئ من عناصر الأساليب الاستفهامية الاصطلاحية اللهم إلا المعنى الذى يقابل المستفهم عنه فى الاستفهام الاصطلاحى، ولكن وجود هذا المعنى فى هذه الصور الاستفهامية الصورية يختلف عن وجوده فى الاستفهام الاصطلاحى اختلافاً جوهرياً.

لأن وجوده فى الاستفهام الاصطلاحى إما أن يكون مسئولاً عنه فى الاستفهام الحقيقى، وإما أن يكون مقرراً به أو مُنْكراً فى الاستفهام المجازى.

أما وجوده فى هذه الصور الشكلية فهو - دائماً - مترقب يدور بين الوقوع وعدم الوقوع، فمثلاً سليمان عليه السلام لم يكن على يقين من صدق الهدهد أو كذبه حين قال له:

﴿**سننظر: أصدقت أم كنت من الكاذبين**﴾ وهو لم يسأله أأنت صادق أم كاذب، وإنما

ترقب تعيين أحدهما من ردود الأفعال، وبلقيس لما أرسلت إلى سليمان بهدية لم تسأله أتقبلها أم تردها؟ وإنما ترقبت تعيين أحدهما من ردود الأفعال.

فظهر لنا - بهذا - بكل وضوح أن ما ورد فى هذه الآيات ليس استفهاماً وإن جاء على صيغ الاستفهام، وإنما أطلنا فى هذا التوضيح لأن هذه المسائل لم تبحث من قبل، لا عند البلاغيين، ولا عند المفسرين. والأئمة الذين نرجع إليهم فى هذه الدراسة لم نرهم قد بينوا حقيقة هذه الصور فى هذه الآيات ولا فى غيرها مما كان مثلها، بل أغفلوا الحديث عنها مع تسميتهم لها استفهاماً.

وبما هدانا الله إليه وقدمناه هنا نرجو أن تكون فيه إضافة جديدة للدرس البلاغى، وبخاصة فى درس آيات الذكر الحكيم، فإن كان ما قلناه صواباً يرضاه أهل العلم، فالفضل فيه من الله وله الحمد وإن كان غير ذلك فقد اجتهدنا ما وسعنا الجهد وكان حسن النية وسلامة القصد هو الباعث وهذا وحده كاف فى البراءة أمام الله العلى العليم.

أسرار النظم وبلاغياته:

نتناول تحت هذا المبحث بعض الخصائص البيانية لهذه الأساليب التى وردت فى صيغ الاستفهام فى غير مقامات الاستفهام، فيما يعمها جميعاً أولاً، ثم فيما يتصل بنظم كل آية منها.

أما فيما يعمها جميعاً فنحدد أولاً ضوابطها النظمية وثانياً ما سر ورودها على صيغ الاستفهام؟ ثم تحديد نوع هذا الاستعمال من الفنون البلاغية.

أولاً: ما يعمها جميعاً:

١ - الخصائص النظمية:

تشترك هذه الصور نظمياً فى الخصائص الآتية:

ينضبط هذا النوع من الاستفهام الصورى بالضوابط الآتية:

أولا: خلوه من السؤال الذى هو عمدة الاستفهام بنوعيه - الحقيقى والمجازى -

ومن طرفى الاستفهام وهما: المستفهم - اسم الفاعل - والمستفهم منه - اسم المفعول - وهما لازمان فى الاستفهام الاصطلاحى.

ثانياً: أن يتقدم عليه فعل صريح أو ما فيه رائحة الفعل من المشتقات.

ثالثا: أن يكون فى هذا الفعل أو ما فيه رائحة الفعل إجمال فى المعنى أو عموم صالح للتفصيل أو التخصيص.

رابعاً: أن يكون ما بعده مفصلاً لما قبله أو مخصصاً أو معيناً لعموم أو ترديد فيه.

والأمثلة التى تقدمت أدلة قوية على صحة ما أثبتناه من هذه الضوابط.

فقول النبى سليمان - عليه السلام - للهدهد: **﴿سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين﴾** تقدم على الاستفهام فيه فعل هو **(سننظر)**، وفى هذا الفعل إجمال صلح للتفصيل، وكان التفصيل هو قوله: **﴿أصدقت أم كنت من الكاذبين﴾**؟ وقوله - عليه السلام - للهدهد مرة ثانية: **﴿فانظر ماذا يرجعون﴾** تقدم فيه على الاستفهام الفعل **فانظر)** وتأخر فيه عنه الفعل **(يرجعون)**، وفى (انظر) عموم، أما (يرجعون) ففيه تخصيص باعتبار ما سيسفر عنه النظر، وقد كان ذلك التخصيص وهو رد فعل الكتاب الذى أشخصه سليمان - عليه السلام - لملكة سبأ وبعثها إليه وفداً يحمل الهدايا بقصد الاختبار إن كان سليمان ملكاً يفرح بالهدية أو رسولاً يعزف عنها وقول ملكة سبأ:

* (.. **فناظرة بم يرجع المرسلون)** تقدم فيه على الاستفهام ما فيه رائحة الفعل، وهو اسم الفاعل (ناظرة) وفيه عموم كما فى قول سليمان السابق، أما ما بعد الاستفهام **(يرجع المرسلون)** ففيه تخصيص لذلك العموم باعتبار ما أسفر عنه موقف سليمان من رد الهدية، والتهديد بالغزو كما سيأتى.

ومما يتصل بالخصائص النظمية لهذا النوع من الاستفهام الصورى ضابط نظمى آخر هو:

خامساً: أن يكون ما قبل أداة الاستفهام مثبتاً لا منفياً، فإذا كان منفياً فهو استفهام اصطلاحى حقيقى، ومن أبرز أمثلته فى القرآن الكريم قول الحق تبارك وتعالى:

﴿وإن أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون﴾ [الأنبياء: ١٠٩]، وهو - كما تقدم فى موضعه - للمساواة بين الطرفين - القرب - والبعد - فى عدم الدراية.

ب - الخصائص الدلالية:

أما الخصائص الدلالية التى تعم صور هذا الاستفهام الصورى (غير الاصطلاحى) فهى جميعاً تشترك فى: ترقب ردود الأفعال، وبهذا - كله - فارق الاستفهام الاصطلاحى صور الاستفهام الصورى.

ثانياً: ما يختص به موضع دون موضع:

ومن المستحسن أن نذكر كل آية قبل النظر لطول العهد بذكرها أولاً:

﴿اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون﴾؟

عدل عن: مكتوبى، إلى (كتابى) لما فى المعدول إليه من القوة والثبات، لأنه فى الأصل (مصدر) ومكتوبى اسم فاعل مشتق، والمصدر أصل المشتقات، وإضافة (كتاب) - إلى ضميره - سليمان هكذا (كتابى) للتعظيم، لأنه كتاب رسول كريم.

وإبدال اسم الإشارة (هذا) من (كتابى) فيه تقرير وتثبيت للمعنى، وللدلالة على الاهتمام به، وأن سليمان هو الذى سلم الهدهد الكتاب وعطف (ألقه) بالفاء إشارة إلى تكليف الهدهد بسرعة القيام بما كُلِّف به.

وعُدِّى الفعل (ألقه) بحرف الجر (إلى) دون (على) لتضمين (ألقه) معنى: وَصِّلْه.

وجَمْعُ الضمير (إليهم) ولم يقل: إليها لأن الكتاب كان دعوة عامة لأهل سبأ بالدخول فى الإيمان بالله وطاعة رسوله الكريم - عليه السلام.

وعطف الفعل (تول) بـ(ثم) المفيدة للتراخى الزمنى فى التولى لما فيه من الأدب فى الأداء، وحسن الانصراف فى مقام الملوك، أى تول عنهم فى لطف وهدوء.

* **(فانظر ماذا يرجعون)** وعطف: (انظر) بالفاء إشارة إلى سرعة حصول الترقب لما يترتب عليه من أحداث جسام.

وفى **(يرجعون)** استعارة تصريحية تبعية، لأن الرجوع فى الأصل العود إلى جهة غير الجهة المقصودة بالسير، فهو أمر حسى بمعنى الانتقال من مكان إلى مكان، وقد

استعير - هنا - لعكس الاتجاه الفكرى الـذى كانوا فيه، والجامع بين الطرفين كون كل منهما انتقال من حال إلى حال أخرى مع ترتب هذا الانتقال على سبب خاص.

الآية الثانية:

﴿قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد، والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين﴾؟

فصلت جـملة (قالوا) إما لأنهـا جواب الطلب (**أفتـونى فى أمرى**) أو جـواب عن سؤال مقدر نشأ عما قبلها تـقديره: ماذا قالوا لها؟ وعلى هذا يكون بين الجملتين شبه كمال الاتصال، ونحن نميل إلى الأول، ونقر بأن للثانى مكاناً - هنا - من البلاغة.

وفى تقـدم القوة على البـأس الشديـد إلماح إلى أهميـة القوة لأنهـا سبب البـأس الشديد، والأسـباب مقـدمة فى الوجود على المسـببات، وتقديمـها فى الكلام يناسب تقديمها فى الوجود الخارجى.

والجملة (**نحن أولوا قوة ...**) خبر استعمل فى إبهـاج الملكة (بلقيس) وطمأنتها لكى تقرر ما تراه من حرب أو سلم، ووصف البأس بالشدة للمـبالغة فى الاعتداد بأنفسهم وأنهم جاهزون لخوض غمار الحرب إذا قررت الملكة.

الآية الثالثة:

﴿وإنى مرسلة إليهم بهدية، فناظرة بم يرجع المرسلون﴾.

الواو عاطفة لهذه الجملة على جملة (**إن الملوك...**) لإعطاء الثانية حكم الأولى فى أنهما معاً مقول القول وتوكـيد الخبر فى: (وإنىِّ. .) لما فى الإقدام على إرسال الهدية إلى (ملك) من غرابة، مع ما يترتب عليه من تطور فى الأحداث.

وإيثار الاسم (**مرسلة**) على الفعل: أُرسل، توكيد للتـوكيد الذى صدَّرت به الجملة (**إنى..**) لما فى دلالة الاسم على قوة الوقوع واستمراره.

وعطف (**ناظرة**) بالفاء مع إفادته التـرتيب والتعقيب للدلالة على الاهتـمام النفسى عندها بالترقب وما سـتسفر عنه محـاولاتها الجريئة مع سليمـان عليه السلام، وآثرت اسم الفاعل (**فناظرة**) على الفعل: فـأنظر للدلالة على عمق الترقب واسـتمراره، وأن كتاب سليمان وقع من نفسها موقعا ذا خطر.

والنظر فى الآيات الثلاث كناية عن الترقب، وسرها كمال العناية بردود الأفعال التى سيسفر عنها المقام.

* * *

٦ - ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ، بَلْ أَنتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٦].

الدراسة والتحليل:

كان هذا هو رد سليمان عليه السلام على ملكة سبأ لما جاءه رسولها. ومعه الهدية التى بعثت بها إليه الملكة بقصد الاختبار أيقبلها أم يردها. ولما كان عليه السلام ينتظر الرد على كتابه بالإيجاب، وهو ترك التعالى والإقدام عليه مسلمين طائعين، أغضبه أن تفهم الملكة أنه يريد ثمنا من حطام الدنيا، مالاً أوْ غير مال.

ذلك سر الغضب الذى ترجم عنه قوله لرسولها، ودعاه إلى تغليظ القول ورميهم بالطيش.

وقد ورد فى هذه الآية هذا الاستفهام: ﴿أتمدونن بمال﴾؟!

وقد حمل الإمام الزمخشرى هذا الاستفهام على الإنكار عند تفسيره لمعنى الاضراب فى بل، فقال:

(لما أنكر عليهم الامداد وعلل إنكاره أضرب عن ذلك إلى بيان السبب الذى حملهم عليه، وهو أنهم لا يعرفون سبب رضا ولا فرح، إلا أن يُهدى إليهم حظ من الدنيا التى لا يعلمون غيرها. .[1]).

وتابعه الإمام البيضاوى مع اختصار عبارته[2].

وحمله الإمام الألوسى على الإنكار والاستبعاد والتوبيخ، وعقب على هذا بقوله: «كما قيل»[3].

---

(١) الكشاف (٣/ ١٤٨).

(٢) تفسير البيضاوى (٢/ ١٧٦).

(٣) روح المعانى (١٩/ ٢٠٠).

وقال الإمام أبو حيان: «الاستفهام إنكار واستقلال»[1]؟ أما الإمام الطاهر فمع قوله بالإنكار ذكر سبب بعث الهدية كما فهمه سليمان عليه السلام فقال»:

«والاستفهام إنكارى؛ لأن حال إرسال الهدية والسكوت عن الجواب يقتضى محاولة صرف ما طلبه بما بُذل من المال فيقتضى أنهم يحسبونه محتاجا إلى مثل ذلك المال»[2].

والخلاصة: أن الاجماع قائم على أن هذا الاستفهام للإنكار. وهذا صحيح، ولكنه صالح لفهم معان أخرى تردف عليه بمعونة المقام، وهى - فيما نرى - التعجب من فعلهم هذا معه؛ لأن منزلته النبوية - حتى لو كان فقيرا - ترفعه فوق هذه الوسائل الحقيرة. كما يضاف إلى الإنكار التوبيخ والتعريض بسفاهتهم. أما ما ذكره الإمام أبو حيان من المعانى المردوفة، وهو الاستقلال فلا وجه له حتى وإن كان المراد منه تحقير الهدية؛ لأن هذا القول يوهم أن سليمان كان سيرضى لو كانت الهدية فوق ما رأى.

أسرار النظم وبلاغياته :

* ﴿**فلما جاء سليمان**﴾ العطف بالفاء يفيد تعقيب تقديم الهدية فور وصوله لا تعقيب المجىء على الإخبار بالإرسال لعبد ما بين سبأ والشام.

وعبَّر هنا بالمفرد، وهو الضمير المستكن فى (جاء) بعد التعبير بالجمع فى قول بلقيس (**المرسلين**) لاحتمال أن يكون الذى قدَّم الهدية واحد منهم هو عريفهم. وهذا أولى من محاولات التوفيق التى ذكرها المفسرون، ولم يذكروا معها هذا الاحتمال.

* ﴿**قال: أتمدونن بمال**﴾؟ ظاهر النظم أن قول سليمان هذا كان تعقيبا على نفس المجىء دون تقديم الهدية وهذا لا يصح. ففى النظم إيجاز بديع بالحذف والتقدير: فلما جاء الرسل وقدَّم بعضهم الهدية والرد من بلقيس إلى سليمان غضب سليمان من هذه الوسيلة الخسيسة.

وإنما حذف من النظم هذا الكلام لأن المعنى الذى يدل عليه مفهوم من قول بلقيس من قبل:

---

(١) البحر المحيط (٧/ ٧٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٦٨).

﴿وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرةبم يرجع المرسلون﴾ فحذف من الآية - موضوع الدراسة - ما يدل على هذا المعنى المعلوم بالضرورة للتعويل على أقوى الدليلين وهو العقل. ولما فى هذا من تنشيط الذهن وإعمال الفكر. وبعض البيانيين يسمى هذا بدلالة الإيحاء والإشارة. والنظم القرآنى حافل بهذه الإيجازات البديعة. فيجدر بالباحثين فى بلاغة القرآن، وبخاصة فى مرحلتى الماجستير والدكتوراه، أن يولوا هذا الفرع عناية خاصة.

ويسميه الإمام الشهيد سيد قطب بـ «الفجوات أو قص المناظر» المتروكة لعمل العقل أو الخيال. متأثرا بالنقد المسرحى الحديث[1].

﴿قال: أتمدونن بمال﴾ فى الامداد استعارة تصريحية تبعية، من أمد الماء زاده، وأصل المد والإمداد الزيادة والجامع بين إمداد الماء وإعطاء المال هو الزيادة، وإيثار الإمداد على الإعطاء للدلالة على غنى سليمان بما عنده من فضل الله العاجل والآجل، أما لو قيل: أتعطوننى مالاً لا حتمل أن يكون صفر اليدين من المال.

وإيثار المضارع (**أتمدونن**) تصوير للحالة الحاضرة ودلالة على أن هذا المال لن يدخل فى حوزته، بخلاف الماضى وتنكير (**مال**) للدلالة على احتقار جنس المال لا هدية سبأ بخصوصها.

والإنكار بالهمزة مسلط على الواقع بالنظر لما أقدمت عليه ملكة سبأ، وما أنفذت به رسلها إلى سليمان.

ومسلط على الوقوع بالنظر إلى عزوف سليمان عليه السلام عنه.

* ﴿**فما آتانى الله..**﴾ التمس الإمام جار **الله** سرًا بلاغيًا للعطف بالفاء دون الواو، فقال ما معناه:

إن العطف بالواو يقتضى أن المُمَدَّ يعلم بغنى المُمَدِّ. وأن العطف بالواو يقتضى جهل المُمُدِّ بغنى المُمَدِّ - أى جهل ملكة سبأ بغنى سليمان عليه السلام، وأن سليمان أعلمهم بغناه الذى جهلوه.

---

(١) انظر كتابه: (التصوير الفنى فى القرآن).

هذا معنى وجُل ألفاظ عبارة الإمام جار الله، ولكنه لم يوجِّه منشأ الفرق بين دلالتي الأداتين لغويا. والذي خطر لنا أن الواو لما كانت لمطلق الجمع وخلو دلالتها من الترتيب والتعقيب فإن احتمال ذلك العلم معها قائم أما الفاء وهي للتعقيب والترتيب والسببية فإن احتمال جهل المخاطب بالمعطوف معها قائم. فأعلمهم عليه السلام بأن سبب رده لهديتهم الذي يجهلونه هو إغناء الله له بنعم الدنيا والدين. فلله در الإمام رحمه الله.

* ﴿**بل أنتم بهديتكم تفرحون**﴾ في هذه العبارة قصران الأول إضافي: أي أنت لا أنا يفرح بالمال. والثاني حقيقي وهو قصر فرحهم بجنس هديتهم المرموز بها إلى متاع الحياة الدنيا.

والاضراب المستفاد من بل اضراب انتقالي لا إبطالي من الإنكار عليهم امداده بالمال إلى رميهم بالجهل بحقائق الأمور، وانخداعهم بالدنيا وإعراضهم عن عمل الباقيات الصالحات.

وإضافة (**هدية**) إلى ضميرهم للاختصاص بهم وإيثار المضارع إشارة إلى تجدد فرحهم كلما حصل لهم مغنم من حطام الحياة الدنيا، وإن ذلك الفرح الخادع ديدنهم وعادتهم في الحياة، وتلويح إلى غبائهم وجهلهم الذي لا ينفك عنهم.

وجرى الضمائر على صيغة الجمع في:

(**يرجعون - تعلوا - ائتوني - اليهم - تمدونن - آتاكم - تفرحون**) مع أن المراسلات تمت بين فردين هما سليمان عليه السلام وبلقيس، لأن سليمان كان يخاطب معها قومها - وهي كانت تخاطب معه اتباعه وفي ﴿**ما آتاني الله..**﴾ كناية عن النبوة وما من الله عليه من نعم الدنيا.

* وفي (**مما آتاكم**) كناية عن نعم الدنيا الزائل بالنظر إلى بلقيس وقومها. وعن الملك والسلطان بالنظر إلى بلقيس وحدها.

* * *

٧ - ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾

[النمل: ٣٨].

الدراسة والتحليل:

صدر هذا الكلام من سليمان عليه السلام، بعد أن رجع من عنده رسل بلقيس مهزومين خائبى الأمل وبعد أن سمعوا من سليمان هذا التحدى الغاضب والإنذار المشئوم:

﴿أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لاَ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا، وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً، وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٧].

تقدم سليمان إلى ملئه، وهم علية قومه ورجال بلاطه وكان واثقًا من فلاح تهديده وانقياد المملكة السبئية، إليه وهى صاغرة. فأعلن لقومه أنه يريد اقتلاع عرش الملكة بلقيس وإحضاره إلى بلده وهم فى الطريق إليه حتى لا يشاهدوا خلعه وحمله. وإنما أقدم على ذلك ليكون هذا معجزة له يؤيد بها صحة رسالته أمام أهل سبأ فى أول مقدمهم إليه.

وكما كان واثقا من استسلام مملكة سبأ كان واثقا أن من جنوده من يستطيع أن يخلع عرش الملكة - بما فيه من هندسة وذوق وفن وأثاث، وأن يحمله عبر الفضاء لكن الذى كان يشغل باله:

مَنْ من جنوده يمكنه القيام بهذه المهمة (المعجزة) فى أقصر زمن.

فتقدم له اثنان بعرضين: أولهما: تعهد فيه أول الرجلين بأن يأتيه بالعرش قبل أن ينصرف سليمان عليه السلام من مجلسه الذى هو فيه؟.

وثانيهما تقدم به ثانيهما: وهو تعهُّد بأن يأتيه بالعرش إذا وقع الاختيار النبوى عليه قبل أن يرتد إليه طرف عينه وهو يرفٌ به؟! وكان لسيمان ما أراد فى المملكة التى وهبها الله إياها. لأن الله على كل شىء قدير.

والاستفهام الذى فى هذه الآية: ﴿**أيكم يأتينى بعرشها**﴾ استفهام حقيقى يحمل

المعنى المراد منه فى لفظه. إنه أن يتقدم إليه من يستطيع أن ينفذ هذه المهمة بشرطها المعلن: ﴿**قبل أن يأتونى مسلمين**﴾.

وأداة الاستفهام (أى) يُسْأَل بها عن الذوات المطلقة أو المقيدة. وقد وقع السؤال هنا عن ذات مقيدة بالشرط المعلن، وهى الذات القادرة على القيام بالمطلوب. ومن البديه أن الأئمة لا عمل لهم فى بيان المراد من الاستفهام الحقيقى لظهور معناه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(قال)** هذه الجملة لم تعطف على شئ قبلها، لأنها لو كانت عطفت لما كان عطفها إلا على جملة **(أرجع إليهم)** وهى جملة إنشائية، وهذه جملة خبرية، وهذا لا يصح لأن بين الجملتين كمال الانقطاع لاختلافهما فى الإنشائية والخبرية لفظاً ومعنى، لذلك جاءت فى النظم الحكيم استئنافاً غير بيانى مسوق لبيان ما ترتب على رفض سياسة مملكة سبأ والعزم على غزوها إذا استمرت فى وثنيتها وعبادة غير الله.

* ﴿**يا أيها الملأ**﴾ أوثر النداء بهذا الأسلوب **(يا أيها الملأ)** لتعظيم المنادى والغرض المنادى من أجله، والملأ كناية عن علية القوم والنابهين فيهم.

والهاء المضاف إليه فى **(عرشها)** كناية عن ملكة سبأ وإن لم يجر لها ذكر قريب، حملاً على وصف الهدهد لها، ولأنها ملكة البلاد.

* * *

٨ - ﴿**قَالَ الَّذى عندَهُ علْمٌ مِّنَ الكتَاب أَنَا آتيكَ به قَبْلَ أَنَ يرْتَدَّ إلَيْكَ طَرْفُكَ، فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقراً عندَهُ قَالَ هَذَا من فَضْل رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ، وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ**﴾ [النمل: ٤٠].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية قد مهدنا لها من قبل عند الحديث عن الآية السابقة عليها آنفاً، عند الحديث عن العرضين اللذين عُرضا على سليمان - عليه السلام - والذى عنده علم من الكتاب هو صاحب العرض الثانى هناك، وهو الذى ورد ذكره فى هذه الآية،

وهو الذى أمضاه نبى الله سليمان - عليه السَّلام - لما فيه من سرعة الإنجاز.

وقد تصدر هذه الآية قول الله عز وجل: ﴿**قال الذى عنده علم من الكتاب**﴾ وليس بين أيدينا تحديد جازم لهذا الذى عنده علم من الكتاب، ولا تحديد الكتاب نفسه الذى كان العلم منه، وكل ما ذكره المفسرون وغيرهم نُقُولٌ ليس لها سند قوى، ورأينا بعض المفسرين المحدثين، بعد عرضهم لكثير من الروايات فى هذا الشأن لا يجزمون بشئ منها، ثم لم يسعهم إلا تفويض الأمر لله فى حقيقة هذا الكتاب، وفى الذى كان عنده علم منه، مع الإيمان الجازم بما ورد فى القرآن عنهما.

وهذا مسلك جميل، نحن نقتدى بهم فيه ولا نطيل على القارئ بذكر روايات لم تصح منها أية رواية من طريق نقلى يفيد العلم أو حتى الظن القوى، والذى يجب أن يعتقده المؤمن - هنا - هو أن الله عز وجل أيد رسوله سليمان - عليه السلام - بهذه المعجزة الباهرة القاهرة، والله على كل شئ قدير، وأن هذه الواقعة (الإيمانية) فاقت وتفوق كل ما أنجزه العلم الحديث من وقائع وروائع وستظل إلى يوم الحساب مثالاً يتحدى - بكل قوة - ما تبتكره الحضارات البشرية مهما اخترعت وأبدعت. أن نقل عرش ملكة مع ما لعروش الملوك والرؤساء والسلاطين من فخامة وضخامة من مأرب فى أقصى جنوب شبه الجزيرة العربية إلى أقصى شمالها قد تم فى طرفة عين من أسفل إلى أعلى دون أن يصاب بخدش ولو بمقدار ثقب إبرة معجزة، وأى معجزة من معجزات الإيمان.

ذلك العرش الفخم الضخم تم نقله خارج نطاق الزمان فسبحان رب السموات والأرض رب العرش العظيم.

هذا ما ينبغى الإيمان به، وما هو على الله بعزيز، أما اللف والدوران حول معرفة ما هو ذلك الكتاب ومن هو الذى كان عنده علم منه أمكنه أن ينقل عرش بلقيس من جنوب اليمن إلى الشام فى أقل من طرفة عين ترف، فهذا لا يدخل فى حسابنا فى هذه الدراسة للأسباب التى تقدم ذكرها، وحسبنا من القلادة ما أحاط بالعنق كما قال المثل العربى القديم.

وما أحكم الشاعر الذى قال فى مثل موضوعنا هذا:

خـذ مــا رأيت ودَعْ شـيــئـاً ســمــعت به

فى طلـعـة الشــمس مــا يغنيـك عن زُحَلِ

أسرار النظم وبلاغياته:

فى هذه الآية الحكيمة دقائق وأسرار وبلاغيات تخرج عن حد الاعتدال إذا تتبعناها جميعها فلنقف منها موقف القصد فى الأسطر الآتية:

* أول ما نلاحظه فى نظم الآية فصل جملة **(قال)** وهى أول جملة فيها عما قبلها من جمل بدءاً مـن جملة **(قال عـفريت من الجن..)** فى أول الآية التى تقـدمت عليهـا مباشرة إلى جملة **(وإنى عليه لقوى أمين)** فى فاصلة الآية قبلها.

وهذه الجمل الثلاث جمل خبـرية فى اللفظ والمعنى؛ والآية التى تقدمت عليها كل جملهـا خبرية فى الـلفظ والمعنى وليس جمل البدأ والخـتام فحـسب، ومع هذا فلم تعطف جملة **(قال الذى عنده علم من الكتاب)** على شئ من الجمل التى قبلها رغم أن بينها وبين ما تقدم عليها من الجمل المشار إليهـا التوسط بين الكمالين، لاتفاقها جميعاً فى الخبـرية لفظاً ومعنى، وكان الظـاهر يقتضى عطفـها لا فصلهـا، فَلِمَ خولف هذا الظاهر، فجاءت هذه الجملة مفصولة لا موصولة؟

إن أصوب مـا يقال فى تعليل هذا الفـصل إن هذه الجملة **(قـال الذى عنده علم من الكتاب)** مثل الجملة التى فى صــدر الآية قبلها **(قال عفريت من الجن)** كلتاهما جواب على الاستـفهام الذى وجهـه سليمان - عليـه السلام -: **(أيكم يأتينى بعرشـها)** وكل منهـما صالحـة لأن تكون جواباً مـستـقلاً عن الأخرى علـى تقدير أنها وحـدها هى الجواب، لذلك لم تراع فيها علاقة التوسط بين الكمالين، فتعين فصلها دون وصلها.

ولا يصح - هنا - أن تقـدر الثانيـة جواباً على سؤال نـشأ عن الأولى، لأن ورود هذا السؤال فى الذهن ليس فى النظم ما يستدعيه؛ لأن الجملة الأولى **(قال عفريت من الجن)** يحسن السكوت عليها دون آية إشارة إلى تساؤل فى ذهن السامع.

* **﴿الذى عنده علم من الكتاب﴾** عُدِل عن الاسم الصريح إلى الصلة والموصول لما فى

الصلة من مرشحات ومؤهلات هى المنوط بها تحقيق الأمر المطلوب، ولأن من سمات النظم القرآنى التعويل على مواطن الاعتبار فى دلالات الألفاظ وإطراح كل ما ليس لها صلة بالمعنى المراد.

لذلك أوثر الموصول والصلة دون الاسم العلم لصاحب هذا العرض، كما لم يذكر هل هو من الإنس أو من الجن، لأن وصفه بـ(علمية) الكتاب هو المعوَّل عليه فى هذا المقام **(قبل أن يرتد إليك طرفك)** الطرف هو غطاء العين وله حركتان: حركة يهبط فيها من أعلى العين إلى أسفلها وحركة يصعد فيها من أسفل العين إلى أعلاها، ويستقر إلى أعلى قليلاً، ثم يهبط وسرعان ما يصعد ليؤدى بهذه العمليات الهبوط والصعود دوراً فى حماية عدسة العين وتنظيفها وتليين سطحها.

وارتداد الطرف هو عودته إلى أعلى بعد إنزلاقه إلى أسفل فى مقدار من الزمن لا يكاد أن يكون له وجوده، وكل إنسان منا يدرك هذه الحقيقة ويعايشها فى حياته.

وقد اختلفت وجهات نظر الأئمة حول ارتداد الطرف فى هذه الآية.

هل المراد حقيقة الزمن الذى نطرف فيه العين فعلاً؟

أم المراد قصر المدة التى تم فيها نقل عرش بلقيس من اليمن إلى الشام؟

فإذا كان الأول فالعبارة حقيقة لغوية لا محالة، وإن كان الثانى فالعبارة كناية عن قصر المدة، ولا يلزم من ذلك أن يكون الزمن - هنا - أقل أو أكثر، أو مساوياً لمعنى العبارة، أنه زمن قصير وكفى.

والذى نرجحه بمعونة المقام هو الأول، وهو حقيقة الزمن المحدد فى العبارة، لأن المقام مقام إعجاز، وهو الذى يناسب تحقيق المعجزة.

وإسناد الارتداد إلى الطرف حقيقة لغوية بما ركبَّه الله فيه من قوة تجعله دائم الحركة بلا إرادة من صاحبه إلا فى حالة تغميض العين ثم فتحها، وهذا غير مراد هنا، وإضافة الطرف إلى ضمير المخاطب **(قبل أن يرتد إليك طرفك)** ولم يقل: (الطرف) كان سبَبُهَا أمرين فيما نرى:

(أ) محاكاة القول الأول: **(قبل أن تقوم من مقامك)**.

(ب) توقيف نبى الله سليمان على بلوغ النهاية فى القصر بما يحسه هو من نفسه.

وأوثر المصدر المؤول: **(قبل أن يرتد)** على المصدر الصريح: قبل ارتداد لما فى المصدر المؤول من تحديد الزمن بهذا القصر فى الوقت الذى جرى الحديث فيه، فدلالة المصدر المؤول دلالة خاصة، ودلالة المصدر الصريح دلالة عامة.

* **(فلما رآه مستقراً عنده)** الفاء عاطفة على محذوف ينسحب عليه الكلام؛ لأن ما قبلها لا يصلح أن يعطف عليه ما بعدها، فما قبلها كان عرضاً أبداه أحد جنود سليمان، ولكن النظم الحكيم لم يذكر موقف سليمان منه أقبله وأمضاه أم رده وأعرض عنه.

وما بعد الفاء كان ثمرة لذلك العرض، وهو رؤية سليمان عرش بلقيس ماثلاً أمامه، هذان الطرفان يمليان على عقل السامع - بكل قوة - أن سليمان قبل العرض وأمضاه، وأن الذى عنده علم من الكتاب أنجز ما وعد، وبهذا يتعين المحذوف الذى عطفت عليه الفاء ما بعدها.

وهذا مثال آخر للإيجاز البديع فى نظم القرآن، وبخاصة فى مجال القصة القرآنية، يترك النظم الحكيم فراغات هائلة بين أطراف الحديث، وتكون الأطراف المذكورة منارات هادية للعقل، أو الخيال للقيام بملء تلك الفراغات أو الفجوات وتلوينها، فتصبح - بفضل هذا البيان المعجز - الجملة جملتين أو ثلاثاً أو أربعاً، أو ما شاء الله أن تصبح، فإن كان المقام للعقل اهتدى العقل إلى القيام بدوره بكل دقة ووضوح، فيقنع ويمتع.

وإن كان المقام متروكاً لعمل الخيال سبح الخيال فى آفاق رحيبة يصوِّر ويلوِّن فيمتع ويقنع.

وحَذْفُ ما حُذِفَ هنا هو مقتضى الحال؛ لأن المقام - كما رأيت - تجرى الأحداث فيه خارج دائرة الزمان، إذ يكاد العنصر الزمنى أن يكون معدوماً فى هذا الحدث الضخم العظيم تلك هى بلاغة القرآن، أنها بلاغة، هى فى نفسها معجزة مثل إعجاز النظم القرآنى الحكيم، الذى يهدى للتى هى أقوم فى كل شئ، حتى فى مجال صناعة

القول، وصناعة البيان لأنه أُنْزِلَ بعلم الله، وحُفِظَ برعاية الله، فليمت بغيظه كل حاقد على هذا الكتاب (النُّدْرَة).

* **(عنده)** جرت عادة النحاة على أن يطلقوا على كل ماعدا ركنى الجملة، وهما المسند إليه والمسند فى الجملة الإسمية والفعل والفاعل فى الجملة الفعلية، جرت عادتهم على أن يطلقوا على كل ماعدا هذين الركنين: مصطلح فضلة، والفضلة فى اللغة تجمع على (الفضلات)، ومعناها فى المعاجم اللغوية ما لا يُحتاج إليه احتياجاً ضرورياً، وهذا المعنى إذا طبقناه على لواحق الإسناد فى الجمل القرآنية فإن فى هذا حيفاً عليها، وانتقاصاً لدورها فى بلاغة الكلام وكلام البلاغة.

ولنأخذ مثلاً لبيان هذا الحيف، فالظرف - عنده - المذكور فى نظم الآية موضوع الدراسة - يؤدى معنى دقيقاً ولطيفاً فى بيان المقصود، لولا وروده فى النظم لعطب المعنى واختل:

* **(فلما رآه مستقراً..)** هذه العبارة لا تفيد أكثر من أن سليمان - عليه السلام - رآى عرش بلقيس مستقراً ولكن أين رآه؟

لا مانع من أن يكون رآه مستقراً فى موضعه حيث هو فى مأرب، أليس هو رسولاً لله، ومعجزات الرسل التى يجريها الله لا يحول دونها حائل.

وإذا كان هذا محتملاً فى واقعيات الرسل فإن رؤيته إيَّاه مستقراً، حيث هو تنافى أو تعرقل إنفاذ الوعد الذى وعده **(الذى عنده علم من الكتاب)** ولكن لما ضم **(عنده)** فى النظم إلى عناصر العبارة فكانت: **(فلما رآه مستقراً عنده)** زال ذلك الاحتمال أو حتى (الوهم) وتحققت المعجزة رائعة كالشمس فى كبد السماء الصافية، فكيف يجوز وصف الفضلة على كلمة حمت المعنى من العطب والاختلال ليسمها النحاة فضلات أو ما هو أقل شأناً منها، أما فى بلاغة القرآن فإنَّا نقترح أن نسميها لواحق الإسناد، لنحتفظ لها بمنزلتها الرفيعة فى خدمة المعانى وإحكام التراكيب.

* **(قال هذا من فضل ربى)**: هذه الجملة من القول والمقول جواب (لما) والمشار إليه

بـ(**هذا**) هو معجزة نقل العرش مـن اليمن إلى الشام فى زمن يكاد يكون كالنقطة لا طول لها ولا عرض ولا امتداد فى أى جهة.

ولما كان المشار إليه فـضلاً ونعمة، وكان كمال الفضل والنعـمة فى قربها من المُنْعَم عليه ليـتمكن من التَّنَعُّمِ بها أوثر اسم الإشـارة الموضوع للمشار إليـه القريب تحقيـقاً لذلك الغرض.

ومن إحكام النظم القـرآنى توسط حـرف الجر (من) بين اسم الإشـارة (هذا) وبين المشار إليه، وهو: (**فضل ربى**) لأن فضل الله أوسع مما منَّ به على رسـوله سليمان - عليه السلام - فـجاءت (من) المفيدة للبعـضية فاصلة بين المشـار إليه والإشارة ليطابق المقال الحال.

وإضافة الفضل إلى (رب) للتعظيم، وإضافة (رب) إلى ضمير المتكلم - سليمان - هكذا (ربى) للثناء والشكر على المنعم المتفضل.

* (**ليبلونى أأشكر أم أكفر**) اللام تعليلية دالة على أن ما بعدها، وهو الاختبار علة فيما قبلها وهو تفضل الله على سليمان - عليه السلام - وخص سليمان نفسه بالإبتلاء، فأوقع فعله (ليـبلو) على ضميره هو منفـرداً، ولم يجمع معه قـومه: ليبلونا، لأن الفضل المتحدَّث عنه معجزة باهرة قاهرة، فهو تأييد من الله لسليمان - عليه السلام - لا يشركه فيها أحد وفى هذا الفعل (ليبلو) إجمال جاء تفصيله فى قوله: (**أأشكر أم أكفـر**)، وهذا اسـتـفـهـام صـورى تقـدم له نظائر فى هذه الـسـورة لفظه لفظ الاستفهـام، ومعناه معنى التفصيل بعـد الإجمال، أو التخصيص بعـد التعميم، أو الترديد بين احتمالين.

هذا، وقد سبق أن أشرنا إلى هذا النوع من الاستفهام فى هذه الدراسة مرتين:

الأولى: فى السفر الثانى [٢٠٠] وما بعدها، ذكرنا فيها بعض ضوابطه التى لاحت حتى ذلك القدر من الدراسة.

والثانية: فى هذا السفر فى آيات هذه السـورة أضفنا فيها ضـوابـط جديـدة فـوق ما ذكـرناه فى المرة **الأولى:**، وسنقـول كل مـا يعـرض لنـا خـصائص بيـانيـة - إذا

جدَّت - حتى آخر صورة من صوره إذا شاء الله، وذلك لأن هذا الفرع من الاستفهام مهـمل فى الدرس البلاغى، وهو جـدير بالعناية والضـبط، وبخاصة مـا ورد منه فى النظم القرآنى الحكيم[1].

وتقـديم الشكر على الكفر - أى شكر النعـمة على كـفرها - فـى قول سليـمان المحكى عنه فى هذا النظم، لشرف الشكر وخسـة الكفر وللإيحاء بأن الشكر ينبغى أن يكون ديدن الصالحين من عباد الله، وللتعريض بالكافرين بنعم الله عليهم.

وفى حذف مفعولى الشكر والكفر إيجاز سره البلاغى فى الأول هو الإشارة إلى أن فضل الله كثير لا يمكن عده، وفى الثانى كراهية وقبح إيقاع الكفر على فضل الله لفظاً كما قبح معنى وواقعاً.

* **(ومن شكر فإنما يشكر لنفسه)** الواو للاستئناف غير البيانى والجملة مسوقة لبيان فضل الشكر وأثره على الشاكرين.

وفى **(إنما يشكر لنفسه)** قصر صـفة على موصوف، الصفـة المقصورة هى الشكر، والموصوف المقـصور عليه هو نـفس الشاكر، والأداة هى (إنما) وهو قـصر حقـيقى، ويحتمل الأوجه الثلاثة: الإفراد والقلب والتعيين باعتبار حال المخاطب.

فإن كان المخاطب يعتقد إشراك غير الشاكر فى ثواب الشكر فهو قصر إفراد.

وإن كان يعتقد أن شكر الشاكر أجره لغيره فهو قصر قلب.

وإن كان متردداً بين الشـاكر وغيره فهو قصـر تعيين، وإن لم يراعَ حال المخاطب، بل كان هذا من سليـمان لبيان سنة الله العامـة فى أجزية عباده فـحرى أن يسمى هذا القصر للتـرغيب والتهييج والإلهاب والحث على الـشكر، وإن لم ينص علماء المعانى على هذا النوع، وفـى تعديـة الشكر باللام (لنفسـه) لأن أجـر الشكر من مـصالح الشاكرين.

* **﴿ومن كفـر فإن ربى غنـى كريم﴾** لما كان وعـد الله عبـاده على عمل الخـير، ومنه

---

(١) نوصى القارئ الكريم أن يعود للإطلاع على المرتين المشار إليهما، ويحاول تطبيق الضوابط التى فيهما على هذه الآية هنا.

الشكر، ألزم الله نفسه الوفاء به، ولما كان وعيده على عمل الشر، ومنه كفر النعم - ليس حتمى الوقوع، بل قد يعفو الله عنه بكرمه، عُدِل فى فاصلة الآية عن: فإنما كفره على نفسه، إلى ما عليه النظم الحكيم ﴿**فإن ربى غنى كريم**﴾: أى غنى عن شكر من كفر، كريم يعفو عن السيئات.

وتوكيد الخبر بـ(أن + اسمية الجملة) لدفع إيهام من يتوهم أن الله فى حاجة إلى طاعات عباده، ولأن مضمون الخبر حقيقة عظيمة لأنها ثناء على الله عز وجل ومن حق الحقائق العظيمة أن يُعبَّر عنها بأسلوب فخم عظيم مثلها.

وهذه الجملة - فوق ما تقدم - خبر مستعمل فى ذم كفر النعم والكافرين بها.

وعطفت جملة (**ومن كفر**) على جملة (**ومن شكر**) لما بين الجملتين من التوسط بين الكمالين، لاتفاقهما فى الخبرية لفظاً ومعنى.

* وبين (**أأشكر أم أكفر**) طباق إيجاب من مقتضيات الحال، وكذلك بين (**ومن يشكر - ومن يكفر**) هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن كلاً من الجملتين نثر مرتب: فـ(**يشكر**) اختص بـ(**أأشكر**)، و(**يكفر**) اختص بـ(**أم أكفر**) ومن البديهى أن هذه الفنون البديعية سارية فى النظم سريان النسيم فى الحدائق الفوَّاحة بالشذا، بعيدة كل البعد عن التكلف والاستكراه والنبو، وهذه سمة بيانية ملحوظة فى النظم القرآنى الحكيم.

* * *

٩ - ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِى أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لاَ يَهْتَدُونَ* فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ، قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ، وَأُوتِينَا الْعِلْمَ من قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٤١، ٤٢].

الدراسة والتحليل:

أمر سليمان - عليه السلام - أهل الخبرة فى فن العمارة وهندستها أن يغيروا بعض ملامح عرش ملكة سبأ تغييراً طفيفاً، وكان المقصود من هذا الأمر النبوى اختبار ذكاء هذه (المرأة) التى حكمت رجال ونساء قومها، ولعل سليمان - عليه السلام - لما

أخبـره الهدهد بشـأن هذه (المرأة) أثار فى ذهنه أسـئلة حول: بم استطـاعت امرأة أن تسيطـر هذه السيطرة على قـومها؟ أهو ذكـاء نفس، وفطنة عقـل، أم أن الذى جعل الرقاب تخضع لها وتنقاد سر آخر غير قوة الشخصية الذاتية؟

هذه التساؤلات والـهواجس ليس بمنكر أن تكون هى التى ألجأت سليمـان - عليه السلام - إلى هذه الحيلة ليسبر أغوار شخصيتها وتكوينها الفطرى، وبادر عليه السلام إلى استـكشاف هذه الخـصائص فى أولى اللحظات التى وطئت قـدماها بلاط مملـكته النبوية، فـسليمان نبى، والأنبيـاء أذكياء فطناء حكمـاء، لا يخلو سلوكهم من باعث نزيه، وغاية نبيلة.

وكـانت إجابة الملكـة تنم عن فطنة وذكـاء، إذ قالت لما سـئلت: **(أهكذا عرشك)** قالت: **(كأنه هو)** لم تجزم بأنه **(هو)** ولم تقطع بأنه ليس **(هو)** لماذا؟ لأن التغيير الذى أمر به سليـمان لملامح عـرشها أوقع فى نفـسها شكاً أن يـكون ما تراه هو عرشـها، فأفـصحت عن هذا الشك بأداة التـشبيه (كـأن)، وفى هذا الجواب انكشف لسليـمان ذكاؤها وفطنتها، بل وحكمتها، أما لو كانت قالت: هوهو؟ أو قالت: ليس هو هو، لحكم عليها سليمان بالغباء، ولكانت فعلاً من الأغبياء.

وقد ورد فى هاتين الآيتين استفهامان: أولهما فى الأولى وهو:

﴿.. **أتهتدى أم تكون مـن الذين لا يهتدون**﴾ وهذا استفهام صورى، مثل نظائره التى تقدمت فى هذه السورة وفى غيرها، فلا كلام لنا - هنا - فيه.

أما الاستفهام الثانى فى الآية الثانية فهو:

﴿**أهكذا عرشك**﴾؟ وهو استفهام اصطلاحى لأن خصـائص الاستفهام الاصطلاحى ظاهرة فيه فالطرفان: هما السائل - سليمان فى الغالب - والمسئول وهو ملكة سبأ.

والسؤال: وهو: ما وُجِّه إلـيها عن العرش الذى رأته وهو استفـهام مجازى؛ لأن السائل عالم بحقيقة ما سأله عنه.

أما المراد منه إجماعاً فهو الاختبـار، وقد أومأ إلى هذا المعنى قول سليمان نفسه - عليه السلام - **(نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون)**.

أسرار النظم وبلاغياته:

* (**قال نكروا لها عرشها ننظر**) هذه الجملة استئناف مسوق لبيان ما أشار به سليمان - عليه السلام - استعداداً وتمهيداً لعرض عرش بلقيس عليها عقب قدومها، ولم تعطف على جملتى القول قبلها وهما: (**قال الذى عنده علم..**) و(**قال هذا من فضل ربى**) لما بينها وبينهما من كمال الانقطاع لعدم المناسبة بينهما.

والمراد من (**نكروا**) جهِّلوا من استعمال المسبب وإرادة السبب وفى العرش كناية عن مجلس الملك، والقدماء يدعونه: سرير الملك، وهى تسمية غير واقعية؛ لأن السرير مكان النوم، أما المجلس فهو مكان الجلوس للإدارة وتصريف الأمور، وتسمية مجلس الملك أو كرسى الملك عرشاً إلماح إلى القوة والرفعة، الى تدل عليها مادة (ع - ر - ش) كما جاء فى معاجم اللغة[1].

* (**أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون**) تفصيل للإجمال فى (ننظر) وبين (تهتدى) و(لا يهتدون) طباق سلبى.

وإيثار (**من الذين لا يهتدون**) على: أم لم تهتد، لما فى ما عليه النظم من أبلغية، أى من الراسخين فى عدم الهداية، وهذا منهج قرآنى كثير الورود فى جمل فواصل الآيات كما تقدم مرات.

* (**أهكذا عرشك**)؟ لم يُقَلْ: أهذا عرشك، وإنما قيل (**أهكذا**) للزيادة فى التمويه عليها بجعل العرش المشار إليه غير عرشها ولكنه قد يشبهه، ولو قيل: أهذا عرشك لكان فى هذه العبارة إيحاء لها بأنه عرشها، ولفات المقصود لسليمان - عليه السلام - من اختبار ذكائها وفطنتها، وبناء الفعل (قيل) للمفعول لعدم توقف الغرض على ذكر الفاعل.

* (**كأنه هو**) فى هذه الصياغة تشبيه بين ضميرين أحدهما منصوب، وهو الهاء فى (كأن) وهو المشبه، والثانى مرفوع وهو (هو)، وإيثار أداة التشبيه (كأن) للدلالة على ما وقع فى نفسها من تردد وشك، وأن العرش المشار إليه يحمل ملامح المماثلة

---

(١) انظر: لسان العرب - القاموس المحيط - صحاح الجوهرى مادة: ع - ر - ش.

والمغايرة معاً بين المشار إليه وبين المسئول عنه، ووجه الشبه الاشتراك بين الطرفين فى أكثر الخصائص والصفات.

* **(وأوتينا العلم من قبلها)** لم يسند النظم الحكيم هذه العبارة لقائل معين، وبناؤها لما لم يسم فاعله زادها غموضاً، وهذا من المواضع التى يترك النظم الحكيم لعمل الفكروالعقل فيها مجالاً، وأظهر ما قاله المفسرون أن قائلها هو سليمان - عليه السلام - ضاماً إليه اتباعه فى الإسلام والطاعة، وأن المراد منها الثناء على الله لما أفاض به من علمه عليه وهو رسوله، أى أن الله علمنا من علمه قبل أن يعلم أهل سبأ، وأن ما علمه الله بسبب الرسالة والوحى أعظم مما وصل إليه أهل سبأ باجتهادهم.

ونضيف: أن هذه العبارة جاءت ابتهاجاً بفضل الله عقب الانتصار العظيم لحضارة السماء على حضارة الأرض، وفى العبارة من إيجاز الحذف ما لا يخفى أثره فى الفخامة والإحكام.

* **(وكنا مسلمين)** هذه الجملة تذييل مقرر لما تقدم من نسبة الفضل لله عز وجل، وعراقة سليمان وقومه فى الإسلام والطاعة، وفيه إيماء إلى انتصار العلم الهادى إليه الله على حضارة البشر - مهما بلغت - إذا قامت على الباطل، وهذه سنة الله فى الحياة، فكم عرض علينا القرآن من مصارع الأمم رغم قوتها وازدهار حضاراتها المادية الجاهلة.

* * *

١٠ - ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ، لَوْلاَ تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل: ٤٦].

الدراسة والتحليل:

قبل هذه الآية كان قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنْ اعْبُدُوا اللهَ، فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ فلما لم يستجيبوا له، وقالوا نَظل على ما نحن عليه حتى إذا حل بنا ما يهددنا به صالح آمنا به ساعئذ وتبنا إلى الله، فقال لهم سليمان:

ما الذى يدعوكم إلى البقاء على عمل السيئات وفى مقدمتها الكفر بالله وترجئون التوبة منها إلى أن يأتيكم العذاب.

فالسيئة التى يستعجلون بها هى استمرارهم على الكفر، والحسنة التى زهدوا فيها هى الإيمان والطاعة.

والاستفهام الذى فى الآية:

﴿**لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة**﴾ قد مضى له نظائر كثيرة فيما تقدم، وقد عرفنا قول الأئمة فيها، فهو استفهام مجازى، أما المعنى الذى أريد منه فهو - أصالة - الإنكار، أى إنكار الواقع الذى هم عليه وهو إيثارهم الكفر على الإيمان.

ويردف على هذا المعنى معانٍ أخرى تناسب المقام، سواء ذكرها الأئمة أم لم يذكروها، وأبرز تلك المعانى - كما نرى - اثنان:

الأول: التعجيب من حالهم تلك الغريبة الشنيعة.

والثانى: التجهيل، لأن الجاهل هو الذى يظل على ما يضره ويزهد فيما ينفعه، ومن يضف إلى هذين المعنيين كلاً من التوبيخ والتقريع أصاب ولم يخطئْ، فالمقام يتسع لكل هذه المعانى، ولا ضرورة تدعو إلى ذكر قول الأئمة فيه لتكرار ما قالوه فى نظائره.

أسرار النظم وبلاغياته:

* (**قال يا قوم**) فصلت للاستئناف البيانى؛ لأن الجملة التى قبلها تستدعى إثارة سؤال فى النفس عن انقسام ثمود فريقين، بعد أن دعاهم صالح - عليه السلام - إلى عبادة الله، ونداء صالح ثمود بـ(يا قومِ) مضافين إلى ضميره ترقيق وتليين فى الخطاب عساهم يستميلون إلى ما يدعوهم إليه وحذف ياء المتكلم المضاف إليه، حيث قال (يا قوم) ولم يقل يا قومى، لكثرة هذا النداء فى القرآن، وللتخفيف فى النطق للعلم - ضرورة - بالمحذوف.

* (**لِمَ تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة**) الإنكار الذى فى هذا الاستفهام مسلط على إيثار السيئة على الحسنة، فهو إنكار باعتبار القيد (السيئة) والمقيد (الاستعجال)، فهذا فى

نفسه منكر فى حكم العقل والشـرع، وقد توصل بإنكار السبب إلى إنكار المسبب، أما قـوله (**قبل الحسنة**) فقـيد زائد للمـبالغـة فى الإنكار ومفـهوم هذه العـبارة أن استعجال السيئة بعد الحسنة مُسَلَّمٌ به، وهذا المفهوم غير مراد، لأن المراد هوالتشنيع عليهم بزهدهم فى الحسنة ومسارعتهم إلى السيئة.

وفى الجمع بين السيئة والحسنة طباق إيجاب اقتضاه المقام.

* (**لولا تستغفرون الله**)؟ أسلوب ترغيب وتحبيب فى التـوبة، لما تفيده (**ألا**) من التودد والتحضـيض وإيثار المضارع (تستغـفرون) توطئة لاستحداث الـتوبة منهم والتحلى بهـا، والاستـغفـار كناية عن الإيمان من إطلاق المسـبب، وهو الاستـغفـار وإرادة السبب، وهو الإيمان (**لعلكم ترحمون**) تعليل لطلب الاسـتغفـار بمعنى الإيمان لأنه مناط الرحمة والرضوان من الله.

* * *

١١ - ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

[النمل: ٥١].

الدراسة والتحليل:

جرى الحديث فى هذه الآية عن ثمود قوم صـالح، لأن ما قصه النظم القرآنى عن ثمود - هنا - فصل جديد من إجرامهم لم يذكره فى غير سورة النمل.

فكان منهم مكر دبروه فى الخفاء فدمَّرهم الله، وجعل تدميرهم مثلاً سائراً.

والاستفهام الذى فى هذه الآية استفهام صورى لفظى لا استفهام اصطلاحى، وقد مـرَّ له نظائر منها مـا تجـاوزناه ومنها مـا أشرنا إلـى خروجـه عن دائرة الاسـتـفهـام الاصطلاحى ولكننا - هنا - أفـردناه بمبـحث لفكرة عنَّت لنا، **وهى أن الاستفـهام فى النظم القرآنى نوعان:**

الأول: استفهام اصطلاحى وهو الذى قصدناه بوضع هذه الدراسة لاستفاضة وروده فى نظم القرآن.

والثانى: غير اصطلاحى، وقد أسميناه «الاستفهام الصورى»، وهى حتى الآن ثلاثة أضرب:

* الاستفهام بـ(كم) الخبرية.
* الاستفهام بالهمزة وأم بعد فعل يفيد الترقب.
* الاستفهام بـ(كيف) بعد فعل يفيد التوقيف أو لفت الأذهان للتعجب أو التعجيب.

وكنا قد رصدنا الخصائص النظمية للضرب الأول، وسوف نتابع - فيما بقى لنا من صور الاستفهام فى نظم القرآن - ما يتصل بكل من هذه الأضرب الثلاثة، ونرصد خصائص كل ضرب بعون الله.

والصورة التى معنا: (**فانظر كيف كان عاقبة مكرهم..**) المراد من الفعل (**انظر**) هو التوقيف على كيفية عاقبة مكر ثمود قوم صالح.

ومغايرة هذا الضرب للاستفهام الاصطلاحى يكفى أن نذكر فيه الآن أنه يخلو من السؤال، الذى هو عمدة الاستفهام الاصطلاحى، فضلاً عن خلوه من طرفى ذلك الاستفهام.

أسرار النظم وبلاغياته:

* (**فانظر..**) الأمر - هنا - بمعنى فكِّر وتأمل واستحضر كيفية ما صنعه الله بثمود لما همت طائفة منهم أن يقتلوا نبى الله صالحاً فرد الله عليهم مكرهم فأبادهم وهم فى غفلة عما أُريد بهم.
* (**عاقبة مكرهم**) كناية عما حلَّ بهم من عذاب الاستئصال وإضافة العاقبة إلى المكر، وكان الأصل أن يقال فانظر إلى عاقبتهم بسبب مكرهم للإيذان بأن مكرهم هو السبب فى هلاكهم.
* (**أنَّا دمرنا هم**) عطف بيان على جملة (**فانظر كيف كان عاقبة مكرهم**) فلما كان فى هذه الجملة إجمال فى المعنى فسِّرتْ وبيِّنَتْ بجملة (**أنَّا دمرناهم**) وتوكيدها بـ(أن) واسمية الجملة لتحقيق ما حلَّ بهم.

* (وقومهم أجمعين) عطفت على (الهاء) فى (دمرناهم) المراد به الطائفة أو الرهط المفسدون فى الأرض، لأنهم مكروا وقومهم رضوا بمكرهم فأهلكهم الله جميعاً.

* * *

١٢ - ﴿ولُوطاً إذْ قَالَ لقَوْمه أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ، بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٤، ٥٥].

الدراسة والتحليل:

قصة لوط مع قومه من القصص المكررة فى نظم القرآن الحكيم، وكان آخر عهد لنا بها ما ورد فى سورة الشعراء قبل هذه السورة مباشرة ووردت قبلهما فى سورة الأعراف والحجر، **وفى هاتين الآيتين استفهامان هما:**

﴿أتأتون الفاحشة..﴾؟

﴿أئنكم لتأتون الرجال شهوة..﴾؟

وقد عرفنا من قبل مرات أن الاستفهام الأول للإنكار وهو إنكار شديد للواقع، لأن قوم لوط كانوا حين وجَّه لهم لوط - عليه السلام - هذا الكلام مدنَّسين بهذه الجريمة السافلة.

ويتبع الإنكار فيه التوبيخ والتقريع الشديدان، لأنهم كانوا أوحديين فى هذا الوسخ والدناءة.

والاستفهام الثانى توكيد للأول وتبيين لما فيه من إبهام فالفاحشة فى الأول تحتمل أن تكون الزنا، بل هو المتبادر إلى الذهن منها.

فجاء هذا الاستفام مؤكداً للأول بما فيه من عنصرى التوكيد: إن + اسمية الجملة، وبهذا أكَّد إتيانهم الفاحشة ثم بيَّن نوعها وهى إتيان الرجال دون النساء، ثم تضمن هذا الاستفهام إنكار ذلك عليهم، وما يردف على الإنكار من معانٍ تناسب المقام ويومئ المقام إليها.

ثم انتقل إلى زيادة الإنكار عليهم، بأنهم يأتون الفاحشة مع الرجل علانية، يبصر

بعضهم بعضاً، أو يأتونها وهم يعلمون قذارتها ومجافاتها للفطرة السليمة التى فطر الله الناس عليها، أو يبصرون سوء المصير فيها.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(ولوطاً إذ قال لقومه)** معطوف على ما قبله، أو: وأرسلنا لوطاً فالعامل محذوف لدلالة المقام عليه، فالعطف على **(أخاهم صالحاً)** والعامل فيهما واحد، أو يقدر مع العطف (أرسلنا) فيكون العامل متعدداً.
* وفى **(أتأتون)** كناية عن اقتراف تلك الجريمة البشعة والفاحشة مشتقة من الفحش وهو القبح، والمراد به هنا القبح الحسى المستقذر حقيقة.
* **(وأنتم تبصرون)** جملة حالية مسوقة لتشديد الإنكار أى تجاهرون بها بعضكم بعضاً، أو تعلمون قبحها، أو سوء المصير فيها.

وقد أكدت نسبة الإبصار إليهم فى هذه الجملة الحالية، حيث إن الجملة قيد فى الإتيان، ثم جاءت الجملة نفسها اسمية أُسْنِدَ فيها الخبر إلى المبتدأ مرتين:

الأولى: إسناد الفعل (تبصر) إلى واو الجماعة العائد على قومه.

والثانية: إسناد الجملة بفعلها وفاعلها إلى **(أنتم)** وفى هذا كله توقيف من لوط - عليه السلام - لقومه على شناعة جريمتهم.

* **(أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء)** فصلت هذه الجملة عن التى قبلها وهى: **(أتأتون)** مع أن الجملتين هما معاً مقول القول (قال لقومه) لأن المراد أنه قال لهم مجموع هذا الكلام المذكور فى الجملتين بلا فاصل يفصل بينهما.

وأكد إتيانهم الرجال شهوة من دون النساء بثلاثة مؤكدات:

إن + اسمية الجملة + لام التوكيد للإيحاء بتشديد الإنكار عليهم، وبيان قبح جريمتهم التى لم يعملها أحد من قبلهم، والإنكار فى هذه الجملة: **(أئنكم)** موجه إلى إتيانهم الرجال شهوة لأنه عمل شاذ صالح لأن يواجه بالإنكار والتغليظ فيه.

أما زيادة **(من دون النساء)** فمع أن الإنكار لا يتوقف عليه، فإن ذكره مفيد لزيادة

الإنكار وتغليظه، وللنعى على قوم لوط بأنهم انتكسوا عن سلامة الفطرة التى فطرهم الله عليها، وصاروا أحط منزلة من العجماوات.

* (**بل أنتم قوم تجهلون**) بل للإضراب من إنكاره عليهم سوء ما عملوا إلى النعى عليهم بالجهل والطيش، وقد أكد نسبة الجهل إليهم باسمية الجملة وتخصيصهم بالظاهر (**قوم**) بعد الضمير (**أنتم**) وتكرار نسبة الجهل إليهم بإسناد الفعل (**تجهل**) إلى ضميرهم مرة، ثم إسناد الجملة برمتها إلى المبتدأ (**أنتم**) مرة أخرى، وإيثار المضارع (**تجهلون**) على الماضى للإيذان بأن ما ترتب على جهلهم هذا يتكرر منهم حيناً إثر حين.

وحذف معمول الفعل (**تجهلون**) أفاد نكتتين بلاغيتين، إحداهما تناسق النغم الصوتى فى رؤوس الآيات: (**تبصرون - تجهلون - يتطهرون**) ثم تفخيم المعنى بأنهم يجهلون كل شئ، وسوء مغبة هذه الفاحشة فرد من أفراد جهلهم.

* * *

١٣ - ﴿قُلِ الْحَمْدُ لله، وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى، آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية الحكيمة مفتتح فصل جديد من النظم المعجز، فقد حفلت سورة النمل من أولها إلى ما قبل هذه الآية بذكر قصص بعض الأنبياء والرسل مع أقوامهم:

موسى - داود وسليمان - صالح - لوط عليهم السلام، ولما فرغ النظم من سرد تلك القصص، ومواطن العبرة فيها، ومدى ضلال أولئك الأقوام الذين اتخذوا الأصنام آلهة من دون الله فعبدوها، أو أعرضوا عن الرسل وانغمسوا فى الشهوات والرذائل لما فرغ النظم الحكيم من هذا شرع فى بيان وتفصيل صفات الله الكبير المتعال، ولفت الأنظار إلى آثار قدرته ورحمته وهيمنته على جميع الكائنات عاليها وسافلها وما بين العلو والسفل، وكان فى هذا الفصل البديع ردود حاسمة على عبدة الأصنام أو

الأوهام، وتثبيت للمؤمنين، وإخلاص واستقصاء فى النصح ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيى عن بينة.

وبدأ هذا الفصل بأمر الله رسوله بحمد الله، ثم السلام على عباده الذين اصطفاهم من المرسلين وتابعيهم فى الإيمان والحق، وفى عجز هذه الآية جاء هذا الاستفهام:

﴿آلله خير أما يشركون﴾؟

ويفهم من كلام طويل للإمام الزمخشرى أن الاستفهام هنا للإنكار، وأن (أم) متصلة[١].

ويقول الإمام أبو حيان:

(استفهام فيه تبكيت وتوبيخ وتهكم بحالهم، وتنبيه على مواضع التباين بين الله تعالى، وبين الأوثان التى يُعَبَّر عنها بـ(ما) التى هى لما لا يعقل[٢]، وكذلك الرازى[٣]، وكذلك سلك الإمام الألوسى فحمل الاستفهام على التوبيخ والتبكيت والتهكم من حالهم، معتمداً نفس العلة التى اعتمد عليها الآخرون فى تقرير هذا المعنى، وهى أن العاقل لا يقع فيما وقعوا فيه[٤]).

أما الإمام البيضاوى فيقول فى الاستفهام بشقيه:

(إلزام لهم وتهكم بهم، وتسفيه لرأيهم، إذ من المعلوم أنه لا خير فيما أشركوه رأساً حتى يوازن بينه وبين من هو مبدأ كل خير[٥]).

والخلاصة: أن الاستفهام فى هذه الآية للإنكار أصالة وتردف عليه ما ذكره الأئمة من معانٍ ثانية كالإلزام والتوبيخ والتهكم.

أما (أم) فقليل منهم من أشار إلى نوعها من الاتصال والانفصال، وقد أشرنا من قبل أن الإمام الزمخشرى قال بأنها متصلة، يعنى أنها رددت الخيرية بين أمرين ليتوصل المخاطب - بعد التفكر - إلى تعيين أحد الطرفين وهو الله - عز وجل - إذا صفت النفوس من الهوى، والعقول من العناد، والقلوب من الفساد، والملاحظ أن

---

(١) الكشاف: (٣/ ١٥٤).

(٢) الدر على هامش البحر المحيط (٧/ ٨٧).

(٣) التفسير الكبير (٢٤/ ٢٠٥).

(٤) روح المعانى: (٢٠/ ٣).

(٥) تفسير البيضاوى: (٢/ ١٨٠).

كثيراً منهم نصوا على المعانى الثانية ولم يذكروا الأصل، وهو الإنكار باعتبار أنه يؤول إلى هذه المعانى التى ذكروها.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(قل الحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى)** فصلت هذه الجملة عما قبلها لكمال الانقطاع، لأن ما قبلها خبرية لفظاً ومعنى وهى إنشائية لفظاً ومعنى، ولعدم التناسب بين الجملتين، فالأولى نهاية مؤلمة لقوم لوط، والثانية ثناء على الله وعلى الصالحين من عباده، وهذا وحده كافٍ فى إيجاب الفصل بين الجملتين حتى ولو اتفقتا خبراً أو إنشاء فى اللفظ والمعنى.

والافتتاح بالحمد لله للتيمن والتبرك المناسب لما تلاه من جلال الله وكماله وجماله فى الكون، وآيات قدرته الباهرة القاهرة، وقد كتب الإمام جار الله الزمخشرى كلاماً نفيساً فى بلاغة هذا الافتتاح ونقله عنه الإمام الألوسى نوصى بالرجوع إليه فى تفسير الآية موضوع الدراسة.

* **(آلله خير أمَّا يشركون)**: ولى اسم الجلالة (الله) أداة الاستفهام لتقرير خيريته عز وجل، وإنكار خيرية الأوثان والأصنام.

والضمير المتصل فى (**يشركون**) يعود على عبدة الأصنام فى أمة كل رسول، وفيهم مشركو العرب، وإيثار المضارع (**يشركون**) إشارة إلى إشراكهم المتتابع فى جميع الأزمان، أما إيثار اسم الجلالة (**الله**) والياً حرف الاستفهام، على من سواه من الأسماء الحسنى، فلجمعه كل الخصائص القدسية التى يدل عليها كل اسم من أسمائه الحسنى الثمانية والتسعين، والمقام عام هنا لأنه فى مواجهة ماعدا الله من المعبودات الوثنية، لذلك اقتضى المقام ذكر اسم الجلالة لدلالته على كل المحامد والأفضال.

* * *

١٤ - ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَـوات وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاء مَاءً فَـأَنبتْنَا به حَدَائِقَ ذَاتَ بَـهْجَةٍ مَّـا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْـبِتُوا شَـجَرَهَا، أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ، بَـلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠].

الدراسة والتحليل:

وهذه الآيات شروع - بعد شـروع - فى تفضيل خيرية الله على جمـيع ما عداه، وبخاصة معبودات أهل الشرك والوثنيـة، فقد لفتت الآية الأنظار إلى خالق السموات والأرض، ذلك الخلق العظيم، ثم إلى إنـزال الماء من السمـاء، وهو أصل الحيـاة وبه يكون نموها واستمرارها وتجددها على مدى الدهور.

ثم لفتت الأنظار للنبات بشتى صوره وأشكاله وأحجامه وطعومه ومنافعه، نافية أن يكون لغير الله - أصناماً أو غـير أصنام - قدرة على إنباتها وترعرعـها وإثمارها وبعد عرض هذه الآيات التى جـمعت بين آثار قـدرة الله عُلُواً وسُفْلاً جـاء هذا الاستفـهام واقعاً موقعه من البلاغة والحكمة:

﴿آإله مع الله﴾؟

أما فى صدر الآية فقد سبق قوله تعالى:

﴿أمن خلق السموات والأرض﴾؟

وفى هذين الاستفهامين وردت شروحات الأئمة على الوجوه الآتية:

فالإمام جار الله الزمخشرى يبدأ بطرح سؤال ثم يجيب عليه هكذا:

فإن قلت: ما الفرق بين (أم) و(أم) فى:

(**أم ما تشركون**) و(**أم من خلق**)؟ قلت: تلك متصلة؛ لأن المعنى أيهما خير، وهذه منقطعة بمعنى بل والهمـزة لما قال الله تعالى: (**آلله خير**) أم الآلهة؟ قال بل (**أمَّن خلق السموات والأرض**) خير تقـرير لهم بأن من قدر على خلق العالم خيـر من جماد لا يقدر على شئ[1].

هذا ما قاله فى الأول، والاستفام فيه للتقرير كما نص هو على ذلك.

---

(١) الكشاف (٣/ ١٥٤، ١٥٥).

أما الثانى فقد قال فيه: (**أإله مع الله**)؟ أغيره يقرن به ويجعل شريكاً له[1].

يعنى أن الاستفهام الثانى للإنكار، إنكار أن يكون مع الله عز وجل شريك فى الخلق والحكم والتدبير، ويورد الإمام الألوسى كلاماً طويلاً فى بيان المراد من الاستفهام الأول، وأن (أم) منقطعة، ثم يقدر المعادل المحذوف فاصلاً بين (أم) ومعادلها بشروح معانى الآية، والمعادل عنده هكذا.

(**أمن خلق السموات والأرض..**)، (**أم ما يشركون**) والمراد من هذا الاستفهام - كما قال - التبكيت والإلزام، أما الاستفهام الثانى فقد حمله على نفى الألوهية عن غير الله تعالى[2].

والأصوب أنه للإنكار كما قال الإمام الزمخشرى لا لمجرد النفى، لأن المشركين ادعوا أن مع الله آلهة والإدعاء يكافح بالإنكار - لشدته - لا بمجرد النفى.

ومعلوم أن الإنكار أعم من النفى، لأنه يشمل النفى والنفى لا يشمله.

والخلاصة: أن الاستفهام الأول للتقرير والإلزام مع سوق ما يلزم بالحجة، من الدلائل التى لا سبيل لدفعها، أما الاستفهام الثانى (**أإله مع الله**)؟ فهو للإنكار وتكذيب من يتخذ مع الله، ومن دونه آلها أو آلهة.

أسرار النظم وبلاغياته:

نلاحظ أن هذه الآية، والآيات الخمس التى بعدها تبدأ باستفهام يمهد للاستفهام الثانى الذى يأتى قبيل فاصلة الآية، وأن ما يذكر بعد الاستفهام الأول إنما هو مقدمات صادقة للإنكار الذى جئ بالاستفهام الثانى من أجله، وهذه طريقة بارعة رائعة حكيمة فى إفحام الخصوم، هذا من حيث النظر العام فى بناء ونظم الآيات الست، أما من حيث أسرار النظم وبلاغياته فى كل آية منها على حدة فهو كما سيأتى:

* إيثار الماضى (**خلق**) لأن الله تعالى خلق السموات والأرض مرة واحدة، فلا يصلح

---

(١) الكشاف: (٣/ ١٥٤، ١٥٥).

(٢) روح المعانى: (٢٠/ ٤).

معهما إلا الماضى وتقديم السموات على الأرض لشرفها ولرفعها بلا عمد فموضع العبرة فيها أعجب وأغرب.

* (**وأنزل لكم من السماء ماء**) جئ بالماضى مع أن إنزال الماء متجدد، إشارة إلى ما هو موجود ساعة نزول هذه الآية، بل وساعة تتلى فى كل وقت؛ لأن الماء موجود فى الأرض دائماً لا تخلو منه لحظة من الثانية الواحدة.

فهذا الخبر (**وأنزل لكم من السماء ماءً**) يشير الفعل (أنزل) فيه إلى حقيقة واقعة دائماً مثل الفعل الذى قبله: (**خلق السموات والأرض**).

أما تنكير (**ما**) فله دلالتان بلاغيتان هما الكثرة والتعظيم، أما الكثرة فأمرها ظاهر، وأما التعظيم فأمره أظهر لأن الماء هو فيض الحياة.

(**فأنبتنا به حدائق ذات بهجة**) الفاء للترتيب، أى ترتيب الإنبات على الإنزال، وفيها إشعار بالسببية لأن الإنبات مسبب على حصول الماء.

وفى (**أنبتنا**) التفات من الغيبة (**خلق..**) إلى التكلم، وسره إظهار الامتنان على العباد.

وتنكير (**حدائق**) له دلالتان بلاغيتان - كذلك - هما: الكثرة والتنوع، وهما أمران ملحوظان فى الحياة وفى (**ذات بهجة**) وصف كاشف لمكان الإنعام الإلهى على الناس، فيه إيماء إلى الجانب الجمالى بعد الجانب النفعى فى إنبات تلك الحدائق التى تبهج الناظرين وتملأ أنفسهم سروراً ورَوْحاً.

* (**ما كان لكم أن تنبتوا شجرها**) هذا النفى يُفسَّرُ بلاغيا تفسيرين على وجه التبادل لا التقارن:

فأحياناً يكون معناه: ليس لكم قدرة عليه، فأنتم عاجزون كل العجز عن فعله. وهذا المعنى هو المراد هنا.

وأحياناً يكون معناه: لا يليق منكم أو منه أو منى أن يُفْعَلَ مع القدرة على فعله، ومن ذلك قول عيسى - عليه السلام - المحكى عنه فى القرآن الأمين لما قال الله له: (**أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله..**) فقال عليه السلام:

﴿سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق﴾ [المائدة: ١١٦]، والفرق بين المعنيين:

أن الأول يكون المتحدث عنه فاقد القدرة - تماماً - عما نفى عنه، أما الثانى فيكون المتحدث عنه قادراً على فعل ما سُلِّط عليه النفى؛ لكن لا ينبغى أن يفعله إما لأنه محظور أو ينافى الوقار وهكذا.

* **(آإله مع الله)** قُدِّم (إله) وولى همزة الاستفهام لأنه محط الإنكار، أما تنكير (إله) فللإيذان بأنه معدوم لا وجود له.

* **(بل هم قوم يعدلون)**: بل للإضراب الانتقالى من تقريرهم بتفرد الله بالخلق والإنعام، والإنكار عليهم اتخاذهم آلهة من دون الله إلى التسجيل عليهم بالزيغ والانحراف عن الحق وفساد قلوبهم، وضلال عقولهم وذكر **(قوم)** وكان يكفى أن يقال: بل هم يعدلون لتأكيد نسبة الزيغ إليهم.

وفى إيثار المضارع **(يعدلون)** إشارة إلى تماديهم فى الزيغ، وأنه لم يحدث منهم مرة واحدة ثم ارعووا بل هذا حالهم فى كل وقت.

* * *

١٥ - ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلأَرْضَ قَرَاراً، وَجَعَلَ خلاَلَهَا أَنْهَاراً، وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِىَ، وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً، أإلهٌ مَّعَ اللهِ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١].

الدراسة والتحليل:

جمعت الآية التى تقدمت هذه الآية بين السماويات والأرضيات.

أما هذه الآية فكانت وقفاً على الأرضيات من آثار قدرة الله الباهرة القاهرة.

اكتفت الآية الأولى على نسبة خلق الأرض لله، وبدأت هذه الآية بلفت الأنظار إلى قرارية الأرض وتهيئتها للمقام عليها والانتفاع بها وجرى الأنهار خلالها، وفى هذين زيادة تفصيل وتوضيح لمكان النعمة فى الأرض التى تقدمت الإشارة إلى خلقها، وفى الماء الذى تقدمت الإشارة إلى إنزاله من السماء، لأن خلق الأرض لا يكفى حتى تكون قراراً.

وإنزال الماء لا يكفى حتى يخزن فى الأرض ويجرى خلالها ولما كان الحديث فى هذه الآية مسوقاً لما أودعه الله فيه من أسباب المعاش، عاد النظم مرة أخرى إلى الأرض، لافتاً الأنظار إلى تثبيتها بالرواسى إشارة بليغة إلى استمرار استقرارها وحمايتها من الميد والاضطراب، ثم عاد النظم إلى الماء - كما عاد إلى الأرض - ولفت الأنظار إلى أثر عجيب من آثار قدرة الله ورحمته وهو جعل حاجز بين البحرين العذب والمالح ليؤدى كل منهما وظيفته فى الحياة فى نظام عجيب وبديع.

وعقب على كل ذلك بما سيق من أجله الكلام: **(أإله مع الله)** لإلزام المشركين بالحجة وتكذيبهم فيما يدعون ورميهم بالجهل والجهالة معاً.

أسرار النظم وبلاغياته:

نكتفى فى هذا المبحث بالإشارة الآتية:

* تقديم خلق الأرض على جعلها قراراً، لأن الخلق هو الأصل أو الجوهر، والقرار هو الفرع أو العَرَض القائم بغيره.

وتقديم جعل الأنهار على جَعْل الرواسى المثبتة للأرض لشدة حاجة الأحياء إلى الماء، وتأخير الرواسى لأنها تأكيد للقرار المذكور فى الآية نفسها، فدلالة جَعْلِ الأنهار فى الأرض موزعة توزيعاً حكيماً على سطحها دلالة تأسيسية، أما دلالة الرواسى فدلالة توكيدية، والتأسيس مقدم على التوكيد.

وجاء الحاجز بين البحرين فى ختام آلاء الله ونعمه فى الآية لما تقدم من أولوية المقدم عليه، أما تنكير: **(قراراً)** فلتفخيم شأنه، و**(أنهاراً)** للكثرة فى نفسها وفى ما تجود به من خيرات لا تكاد تحصى وتنكير **(رواسى)** و**(حاجزاً)** للتعظيم والتفخيم، وتكرار الفعل **(جعل)** للامتنان وللإشارة إلى أن كل جَعْل منها نعمة جليلة الشأن فى نفسها دون توقفها على نعمة أخرى، وإيثار الماضى **(جعل)** لتحقق الوقوع وهو مقتضى الحال فى مقام الامتنان.

* * *

١٦ - ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ، أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ، قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

الدراسة والتحليل:

بعد أن فرغ النظم القرآنى الحكيم من التطواف بنا إلى آيات الله الكونية عُلْوِيِّها وسُفْلِيِّهَا اتجه اتجاهاً نحو الآيات النفسيَّات الذى يحسها الإنسان ويراها؛ من تفريج الكروب الجسام وإزالة الغموم والهموم والأمراض، وتنظيم الناس على درجات واحتياج كل منا إلى مواهب الآخر وعمله وصناعته وإخلاف جيل بعد جيل، وتسيير عجلة الحياة لتستمر وتنمو وتتصاعد حتى يأتى أمر الله.

هذه التصرفات الحكيمة، والآثار العظيمة من صنع الله الذى أتقن كل شئ، أبعد ذلك يظن ظان أو يتوهم متوهم أن مع الله شريكاً فى خلقه وأمره؟

(أإله مع الله) إنها قنبلة حارقة ناسفة لكل الأوهام والظنون التى يبثها الشيطان.

وهذه الآيات لظهورها يدركها الإنسان ببديهة النظر لأنها لا تجْهَل، وإنما يغفل عنها من غفل، ويتذكرها من تذكر.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه)**؟ لم تعطف هذه الجملة على ما قبلها **(أمن جعل الأرض قراراً)** ولم تعطف جملة **(أمَّن جعل الأرض قراراً)** على ما قبلها، **(أمَّن خلق السموات والأرض)** ولا هذه الجملة على ما قبلها **(آلله خير أمَّا يشركون)** لم تعطف واحدة من هذه الجمل على أخرى مع أنها كلها متفقة فى الإنشائية لفظاً ومعنى، أى بينها جميعها التوسط بين الكمالين، وهى علاقة تقتضى عطفها على بعضها لا فصلها عن بعضها، وليس فى النظم سبب صناعى يقتضى الفصل بين عامة الجمل، فما سره من حيث المعنى؟

الذى لاح لنا: أن هذه الآيات تتحدث عن صفات الله الواحد الأحد، وأنها سيقت فى مقام الرد على الذين ادعوا آلهة من دون الله، فتوحدَّت الآيات وكأنها آية واحدة، وعَدَل النظم عن عطفها بعضها على بعض الذى تقتضيه القواعد البلاغية، لأن

العطف بالواو - كما يقول النحاة يقتضى المغايرة، ولا مغايرة فى هذه الآيات لأنها صفات لموصوف واحد هو الله عز وجل، وهذا من لطائف ودقائق بلاغة النظم القرآنى المعجز فى ألفاظه ومعانيه وتراكيبه.

وتقديم إجابة الله المضطر؛ لأن المضطر هو الذى وقع فى كرب عظيم وعجز كل العجز عن إزالة كربه، وفقد كل معين على تفريج كربه من البشر، هذا المضطر إذا أقبل على الله فدعاه ورجاه لتفريج كربه سارع الله إليه فأنجاه فأزال كربه وأذهب همه وغمه.

وإيثار (إذا) فى **(إذا دعاه)** إيذان بأن تفريج الله كروب المضطرين مشروط فيه الإيمان به والتضرع إليه فإذا أعرض عن الله أعرض الله عنه.

* **(ويكشف السوء)** من عطف العام على الخاص، لأن السوء يشمل الكروب وغير الكروب.

وفى **(يكشف)** استعارة تصريحية تبعية ليُزيل، والجامع بين الطرفين ما يترتب على كل من الكشف والإزالة من تبدل الأحوال، ولهذه الاستعارة لطيفة يحسن الإشارة إليها، وهى أن فيها إلماحاً إلى أن السوء الذى يكشفه هو كل ما غم أمره وطم حتى يحيل حياة من نزل به إلى حجاب كثيف يكاد يُخفى من نزل به عن الوجود تماماً فلا يراه أحد ولا يرى هو أحداً.

* **(ويجعلكم خلفاء الأرض)** كناية لطيفة عن التوالد والتكاثر جيلاً إثر جيل، كل جيل يخلف الآخر فى الزمن لا فى المكان وحده هذا صُنع الله، أفيقع فى وهم واهم أن مع الله آلهة أو إله آخر فى تصريف أمور الحياة على هذا النسق الحكيم؟ وفى جَعْل الفاصلة هنا هى: التذكر إلماح إلى أن هذه الحقائق الإلهية يكفى فى اللفت إليها مجرد التذكر، وفى هذا تعريض بعبدة الأوثان، ورمى لهم بالجهل والجهالة.

أما إيثار المضارع فى المواضع الآتية:

(يجيب المضطَّر)، **(يكشف السوء)**، **(يجعلكم خلفاء الأرض)** لأن متعلقات هذه الأفعال لما كانت غير مختصة بوقت دون وقت، بل هى سنن لله فى الحياة لا تتوقف

وإن تخللتها فترات، فإن الفعل المضارع وحده هو المتعين فى الدلالة عليها، وإذا ورد بعضها ماضياً كما فى قوله تعالى:

﴿وهو الذى جعلكم خلائف الأرض..﴾ [الأنعام: ١٦٥].

فإنه يكون - أى الماضى - إشارة إلى ما فى معنى المضارع لأن هذا الجعل منه ما كان، وما هو كائن وما سيكون، أو تكون دلالة الماضى دلالة تقدير وقضاء، أى قدَّر الله وقضى جَعْلَكم خلفاء الأرض، أما إضافة خلفاء أو خلائف إلى الأرض، فهو إضافة تمكين واختصاص.

* * *

١٧ - ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِه، أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ، تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣].

الدراسة والتحليل:

وهذه الآية تلفت أنظارنا إلى آثار قدرة الله فى الحركة بعد آثار قدرته فى السكون، فهداية الله لعباده فى ظلمات البر ومتاهاته، وفى ظلمات البحر وأمواجه وضبابه آيات ناطقة على آلائه ونعمه وتدبيره العظيم، وفى حركة الرياح وما تحمله من بشريات فى النبات والملاحة ولطافة الأحوال المناخية، وسوق السحب نعم هائلة لو نقدرها حق قدرها.

أهذا عمل يجعل الأصنام فى مستوى واحد مع الله الخالق البارئ المصور، حقاً: لقد تعالى الله وتعاظم عما يدعونه آلهة ويشركونها مع الله فى الخلق والصنع والإنعام والتدبير.

أسرار النظم وبلاغياته:

* (يهديكم) استعارة للإلهام وتبصير الله تعالى لعباده فى شئون الحياة، وما ركب فيهم من ملكات الإدراك والتمييز بين النافع والضار، نُزِّلت هذه الملكات منزلة الهداية الحسية كما يسير التابع وراء المتبوع، والجامع بين الطرفين هو ما يترتب على كل منهما من الوضوح.

* و(**ظلمات البر والبحر**) استعارة لاختلاط الأمور وتشابهها وامتزاج المنافع بالمضار فيها، وهى استعارة تصريحية تبعية الجامع بين طرفيها عدم التمييز بين حقائق الأشياء وعواقب الأمور.

وحرف الجر (فى) الداخل على الظلمات لتهويل أمرها حتى لكأن تلك الظلمات تلف الناس وتحيط بهم من كل جهة من الجهات الست.

وتقديم (**البر**) على (**البحر**) لأهميته وكثرة سير الناس فيه فى معاشهم.

* و(**بين يدى رحمته**) تمثيل يرقى إلى درجة الاستعارة المكنية، حيث شبه الرحمة بأم رءوم تحنو على بنيها ثم حذف المشبه ورمز له ببعض لوازمه الخاصة به، وهى (اليدين) وإنما قلنا أن المشبه به المحذوف: أم رءوم لأن الأم هى مصدر الحنان والعطف، وسر هذه الاستعارة إظهار الرحمة - وهى إرادة معنوية لله - بصورة الحسى المدرك بحاسة البصر.

وإضافة الرحمة إلى ضمير اسم الجلالة لتفخيم شأنها والإلماح إلى شرفها وكثرة منافعها.

* ومجئ (**الرياح**) هكذا - جمعا - لا مفرداً، لأن فى اللحظة الواحدة قد يرسل الله ريحاً هنا، وريحاً هناك، وريحاً فى الشمال أو الجنوب، وريحاً فى الشرق أو الغرب، وتكون تلك الرياح مختلفة الوجهة والسير حسبما فيه مصالح العباد، فالجمع لا الإفراد هو المطابق للواقع، فسبحان من أنزل هذا الكلام الذى لا يأتيه باطل قط، إنه معجزة البيان فى كل عصر ومكان، وإيثار المضارع فى: (**يهديكم - يرسل**) لما تقدم فى نظائره، وهو تجدد متعلقات هذه الأفعال فى كل الأوقات، فتعين أن يكون المضارع هو الأداة للتعبير عنها.

* (**تعالى الله عما يشركون**) هذه الجملة وإن جاءت فى فاصلة هذه الآية، فإن منشأها ينتظم كل ما ذكر فى أخواتها الأربع قبلها، لأن مدلولها - وهو علو الله فوق كل شئ - عام ينتزع من معانى الآيات الخمس، فما أثبت لله فيها مسلوب عمن عداه، وعما عداه، فيشمل الأصنام شمولاً أولياً؛ لأنها محط الإنكار فى جميع الآيات

هنا، وإيثار التعبير بـ(ما) التى هى لغير العاقل منظور فيه إلى الأصنام - أصالة - وإلى ما عبدوه من الأحياء تبعاً، بتنزيلهم منزلة مالا يعقل لسلب أن تكون لهم قدرة على فعل شئ مما عددته الآيات وفى هذا تبكيت وتحسير لعبدة الأصنام، وتسفيه لعقولهم وأحلامهم المريضة.

* * *

١٨ - ﴿أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤].

الدراسة والتحليل:

هذه خاتمة هذه الرحلة الكونية، وتلك اللوحة المجلوة التى رسمتها هذه الآيات بصورة ليس لها مثيل فى عمقها وطولها فى سور القرآن الكريم، ولو لم يكن فى القرآن من دلائل قدرة الله ووحدانيته ونقض وإبطال عقيدة الوثنية وعبادة غير الله، لو لم يكن فى القرآن إلا هذا المشهد العظيم، لكفى هذا المؤمنين إيقاناً وثباتاً، ولما بقيت شبهة واحدة يتذرع بها المشركون.

وإضافة إلى ما تقدم من دلائل التوحيد والقدرة الإلهية فإن هذه الآية تضفى على تلك اللوحة بريقاً وتألقاً، فقد جمعت فأحكمت، وأعادت فأكدت، وأوجزت فأعجزت إنها فى الاستفهام الأول تقرر فى لمحة سريعة ما بدأه النظم من قبل فى خلق السموات والأرض، فالذى بدأ الخلق هو الذى يعيد ما فنى منه، فيحيى الأموات ويقفهم بين يديه للحساب، فريق فى الجنة وفريق فى السعير، وفى هذا تمهيد لتكذيب منكرى البعث.

ثم تقرر أن الله عز وجل هو الرزاق من الأرض ومن السماء لا يشرك فى حكمه أحداً.

ثم تواجه الآية المشركين بهذا السؤال المفحم: **(أإله مع الله)** لإنكار دعواهم آلهة مع الله، وإظهار جهلهم وحماقتهم وعماهم عن الحق، وهو متأنق أبلج ويضاعف تبكيتهم وأحزانهم بهذا الإلجام المحكم **(قل هاتوا برهانكم)**؟ وليس لهم برهان حتى

يطالَبوا بإعــلانه، ولكنها الضربة القاضــية الماضية، ثم يتــشدد فى إفحامــهم وكشف عورهم فيــقول لهم بكل وضوح **(إن كنتم صادقين)** يلهبهم ويهيجــهم ليقولوا ما هو برهانهم، فإن نطقوا افتضحوا، وإن سكتوا فقد انكشفوا، وماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى يصرفون.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **﴿أَمَّنْ يبدؤا الخلق ثم يعـيده﴾** استفــهام تقرير كما تقــدم فى نظائره، وهو فى معناه إجمال لما سبق تفصيله فى خلق الســماوات والأرض وما بث فيهما من دابة ويلوح لنا أن الإعادة فى السموات والأرض تبديلهما كما ورد فى قوله تعالى:

﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات...﴾ [إبراهيم: ٤٨].

والإعادة فى الإنســان بعثه بعد الموت، والإعــادة فى غير الإنسان هو التــجديد فى المنعم به على العبــاد، فالماء يتجدد والـرياح تتجدد، والجمع بين البـدء والإعادة كناية عن التصرف الحكيم وصيرورة نسبة جميع الأشياء فى جميع أطوارها لله **(ومن يرزقكم من السماء والأرض)** فذلكة جامـعة لما ذكر فى الآيات بعد خـلق السموات والأرض، كما كان ما قبلها فذلكة لشئون الخلق.

وتقديم **(السماء)** على **(الأرض)** لأنها مـصدر الرزق بسـبب نزول المطر، وحذف متعلق **(يرزق)** الثانى للدلالة على كثرته وعجز الاحصاء لأفراده.

* **(قل هاتوا بـرهانكم)**: الأمـر فى **(هاتوا)** للتعجـيز والإفحام، وإضــافة البرهان إلى ضمير المخاطبين للسخرية منهم، والتهكم عليهم، **لأنه لا** برهان لهم حتى يأتوا به.
* **(إن كنتم صـادقين)** إلهاب وتهييج لتـوقيفهم على كذب مدعيــاتهم تمهيداً لإلزامهم بالحجة وفضحهم عند أنفسهم.

ثم إلزامهم بالكذب الذى جُعِل شرطاً فى النكوص عن إعلان برهانهم، وهم - لا مـحالة - ناكـصون هذا كله إقـامة لحـجة الله، وإخـلاص فى النـصـح لهم لينقـذوا أنفســهم من سوء المصـير، فإن اسـتمروا على إعـراضهم عن الإيمان فـسيكونون هم الظالمين لأنفـسهم، وما الله يريد ظلـماً للعالمين، ومـا لأحد عليـه حجة بـعد الرسل والتبليغ.

وقد ورد فى هذه الآيات الست اثنا عشر استفهاماً، ستة منها للتقرير، وستة منها للإنكار، ونظامها فى النظم القرآنى الحكيم هكذا:

الاستفهام	معناه	البيان
آلله خيرٌ	التقرير	تقرير خيرية الله
أمَّا يشركون	الإنكار	إنكار خيرية الأصنام
أمَّن خلق السموات والأرض	التقرير	تقرير خلق الله للسموات والأرض
أإلهٌ مع الله	الإنكار	إنكار ألوهية غير الله
أمَّن جعل الأرض قراراً	التقرير	تقرير جَعْلِ الله الأرض قراراً
آإله مع الله	الإنكار	إنكار ألوهية غير الله
أمَّن يجيب المضطر	التقرير	تقرير إجابة الله الدعاء
أإله مع الله	الإنكار	إنكار ألوهية غير الله
أمَّن يهديكم	التقرير	تقرير هداية الله لخلقه
إإله مع الله	الإنكار	إنكار ألوهية غير الله
أمَّن يبدؤا الخلق	التقرير	تقرير بداية الله الخلق وإعادته
أإله مع الله	الإنكار	إنكار ألوهية غير الله

نظرة سريعة فى هذا الجدول تبرز أمامك حقيقة عظيمة الشأن، فقد بدأت هذه الآيات الست بالاستفهام التقريرى الإثباتى، ثم ثنَّت بنفى أن يكون فى الكون إله أو آلهة إلا هو عز وجل، **ومعنى هذا بكل وضوح نوجزه فى أمرين:**

أولاً: أن وجود الله العلى العظيم سابق على أوهام الشرك وتعدد الآلهة عند المشركين.

ثانياً: أن وجود الله أزلاً يُغنى عن وجود أية آلهة معه أو دونه، وأن ذلك مجرد وهم عند من يدعيه.

* * *

١٩ - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾

[النمل: ٦٧].

الدراسة والتحليل:

بعد تلك الدلائل التى تقدمت فى الآيات [٦٠ : ٦٤] من هذه السورة عاد النظم يذكر دعواهم فى إنكار البعث، وشبهتهم التى رددوها فى بعض الآيات، وكان النظم قد فندها من قبل، فبعد أن قال مضيفاً تمام قولهم: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ، إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [النمل: ٦٨].

ثم لقَّن رسوله الكريم أن يوجز الرد عليهم هكذا: ﴿قُلْ سِيرُوا فِى الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩].

ولما كان القرآن قد ذكر هذه الشبهات من قبل مرات، ورد عليها رداً مفحماً معتمداً على شهادة الواقع والبراهين العقلية القاطعة - كما مرَّ فى سورة الإسراء وغيرها، فقد اكتفى هنا بأن يقول لهم الرسول سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة أمثالكم من المجرمين المكذبين.

وقد ورد فى هذه الآية استفهامان فى قوة الاستفهام الواحد: ﴿أئِذا كنا تراباً. . . أئِنا لمخرجون﴾.

وقد عرفنا مذاهب الأئمة فى هذا الاستفهام ونظائره، فالاستفهام الثانى بدل أو توكيد للأول، وهو لإنكار البعث وقت الصيرورة تراباً، لذلك دخلت همزة الاستفهام على (**إذا**) أما دخولها على (**إن**) فلأن مرادهم إنكار البعث الذى جاء به الوعد مؤكداً به فى لسان الشرع، فـ(**إذا**) فى الصورة الأولى من قولى منكرى البعث، أى: أوقت نصير تراباً. . نخرج من الأرض؟

أما (**إن**) فى (**أئنا لمخرجون**) فهى من قولهم لحكاية التوكيد الذى سمعوه من الوحى.

أما ما جاء فى الرد عليهم (**فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين**) فهو استفهام صورى

- كمـا تقدم - لخلوه من السـؤال الذى هو عمدة الاسـتفهـام الاصطلاحى والمعنى: فكروا وتأملوا كيفية عقاب الله للمجرمين من قبلكم.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(أئذا - أئنا)** قلنا فى مبحث الدراسة إن (أئذا) من مـقول الذين كفروا لفظاً ومعنى، قالوا هذا فى الحـياة الدنيا وهم أحيـاء، أى أوقت أن نموت ونصير تراباً كـما مات أباؤنا وصاروا تراباً..

أما **(أئنا لمخرجون)** فإن (إن) وإن كانت من قولهم فمـعناها، وهو التوكيد ليس من معانيهم التى أنشأوها، بل أرادوا بها الحكاية عن لسان الشرع، ومعنى هذه الحكاية أن الشرع أخبرهم - كما أخبر غيـرهم - أن البعث أمر حتمى مؤكد، وقد نزلت الآيات الدالة عليـه مـشتـملة على أدوات التـوكـيـد، ومن ذلك على سـبـيل التـمثـيل لا الاستقصاء:

﴿وأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا، وأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِى الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧].

ثم قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُـمْ مَيِّتُـونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامـةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠، ٣١].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَأْتِينَا السَّاعةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ..﴾ [سبأ: ٣].

ففى آية الحج أكد البعث بـ(إن + اسمية الجملة)، وفى آية الزمر أُكد الاختصام بين يدى الله يوم القيامة بـ(إن) وفى آية سبأ أكـد مجئ الساعة بالقسم بالله وبناء على هذا نقـول - بكل ثقة - إن الـتوكـيد فى قـوله تعـالى المحكى عن منكرى البـعث: **(أئنا لمخرجون)** إنما هو حكاية للتـوكيد الوارد فـى الآيات التى قررت البعـث بعد الموت، ويكون مراد منكرى البـعث هو إنكار حتمـية إحياء الناس من قـبورهم، والمعنى على هذا:

أوقت صيرورتنا تراباً يؤكد محمد ﷺ إخراجنا من قبورنا[1]؟

---

(١) ويضاف إلى التوكيد بـ(إن) التوكيد باللام بعدها فى قولهم (لمخرجون).

وقـد أطلنا فى توضـيح هذا المـعنى، لأن بعض المفـسـرين قـد ذهب إلى أنَّ هذا التوكيد للمبالغة والتشديد فى الإنكار قال:

وتكرير الهمزة فى (أئنا) للمبالغـة والتشديد فى الإنكار وتحلية الجملة بـ(إن) واللام لتأكيد الإنكار لا لإنكار التأكيد[1]).

وإنما قيل هذا لغرابة تأكيد المنكر، والذى لاح لنا وأثبتناه هنا وفى سورة (المؤمنون) من قبل نراه أحرى وأليق بالمقام، وهو: أنهم أرادوا تأكيد ما أنكروه كما بلغهم مؤكداً لا أنهم أنشأوا هم هذا التأكيد من عند أنفسهم؛ لأن المقام لا يساعد عليه.

وبقيت ملاحظة أخـرى، فقد رأينا بعض سادتنا المفـسرين يذهبون إلى أن فى الآية استفهامين كلاهما للإنكار قال: (وتكرير حـرف الاستفهام - يعنى الهمزة - وإدخاله على (إذا) و(إن) جميعاً إنكار على إنكار، وجحود عقيب جحود[2]).

والذى لاح لنا ونثبته بعد تفكُّر طويل أن الآية الكريمة ليس فيـها إلا استفهام واحد وهو (**أئذا كنا تراباً..**)، أما الثانى (**أئنا لمخرجون**) فهو إمـا بدل من الأول، أو توكيد له وليس فى الآية إنـكاران، بل إنكار واحـد حـصل بـ(أئذا) دليلـنا على هذا أن الأول وحده - إذا وُقِفَ عليه كـان البيان ناقصاً لا يفـهم منه إنكار قط، فإذا قلنا: (**أئذا كنا تراباً وآباؤنا**) ووقفنا عند هذا المقـدار من الآية فمن أين يُفهَمُ منهـا الإنكار حتى نطلق عليه الإنكار الأول؟

وإنما يظهر الإنكار بضميمة (**أئنا لمخرجون**)؟ ودليل ثان:

إذا قدرنا أنَّ (إنَّ) لم تسبق عليها همزة الاستفهام هكذا (**إنَّا لمخرجون**) لكان الكلام وافيـاً ودلالته على الإنكار أظهر من الشـمس فى رائعة النهـار، وخلو (إن) فى قوله تعالى: (**أئنا**) من همزة الاستفهام هى قراءة ابن عامر والكسائى.

وهكذا نرى أن ما أثبتناه من كـون الآية ليس فيها إلا استفـهام واحد وإنكار واحد مؤكدان فَهْمٌ نرجو أن يكون صواباً وله قبول عند أهل العلم[3].

---

(١) روح المعانى: (٢٠/١٥). (٢) الكشاف: (٣/١٥٧).

(٣) بعض الأئمة أشار إلى هذا الذى أثبتناه إشارة عابرة منهم الطاهر بن عاشور وغيره من القدماء.

وبعد هذا التوضيح نقول:

إن إيثار الموصول وصلته (**الذين كفروا**) بدل الضمير لتقدم ذكرهم فى الكلام فكان مقتضى الظاهر أن يقال: وقالوا، لكن البلاغة اقتضت إيثار الموصول وصلته لما فيه من التسجيل عليهم بأقبح الأوصاف وهو الكفر، وفيه لطيفة بلاغية أخرى، وهى أن المتَحدَّثَ عنهم لم يُعْرَفُوا بشئٍ يميزهم إلا بالكفر، وفى هذا زيادة تشنيع وذم عليهم ولهم.

* (**أئذا كنا تراباً وآباؤنا**) ولى الظرف (إذا) همزة الاستفهام لأنه باعتبار ما أضيف إليه (**كنا تراباً**) سبب إنكار الإخراج من القبور، أى أن استبعاد إخراجهم يبدأ من وقت صيرورتهم تراباً.

والاكتفاء بقولهم (تراباً) هنا، وفى بعض المواضع قرنوا بها العظام كناية عن المبالغة فى فنائهم ترشيحاً لإنكار الإخراج وتقديم ضميرهم فى (**كنا**) على آبائهم للترقى - حسب زعمهم - فى الاستدلال على إنكار البعث، وفى التعبير إيجاز بالحذف، والتقدير وآباؤنا كانوا كذلك.

* (**أإنا لمخرجون**) إيثار بناء اسم المفعول (**مخرجون**) من الفعل الذى لم يسمَّ فاعله، كناية عن أن ذلك الإخراج محال، لأنه ليس له فاعل فى الوجود، فقد توصلوا بنفى الفاعل إلى نفى الفعل، وهو: الإخراج، وهذا النوع من الكنايات حفل به النظم القرآنى الحكيم، وقد تقدم مرات أن ما يحكيه القرآن عن غير الله يصاغ فى النظم القرآنى حسب المعانى التى أرادها المحكى عنهم، ولا يلزم أن تكون الحكاية فيه بالألفاظ والتراكيب البلاغية دائماً.

* * *

٢٠ - ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [النمل: ٧١].

الدراسة والتحليل:

هذا الاستفهام صدر عن منكرى البعث مرات، وفى صور قولية مختلفة، فمرة يقولون: (متى هو)؟ ومرة يقولون: **(أيان مرساها)** أو **(أيان يوم القيامة)**؟ وهنا قالوا **(متى هذا الوعد)**؟ العبارات مختلفة والمعنى واحد، وهذا الاستفهام كيف وأين كان، استفهام مجازى، وقد أجمع الأئمة على أن المراد به: هو الاستبعاد والإنكار أى: إنكار وقوعه وأنه لن يكون؟

أسرار النظم وبلاغياته:

* إيثار المضارع **(يقولون)** للإعلام بأن هذا القول يتكرر منهم مرات، مرة تلو مرة، وفى كل مرة - بعد الأولى - يؤكدون الإنكار ويستبعدونه، غير مكترثين بالردود المفحمة التى واجه بها النظم الحكيم هذه الدعوى الفارغة.

* **(متى هذا الوعد)** فى هذه العبارة كنايتان، أولاهما كنوا فيها بـ(متى) عن انعدام وقت تقوم فيه الساعة لأن انعدام الوقت يستلزم انعدام وقوع حدث فيه لأن كل حدث لابد له من زمان يقع فيه، فنفى الزمان كناية عن نفى البعث.

أما الكناية الثانية فهى **(هذا الوعد)** فقد كنوا به عن البعث.

* **(إن كنتم صادقين)**؟ تهييج وإلهاب للمخاطبين، وفيه إيجاز بالحذف لأن التقدير إن كنتم صادقين فقولوا لنا متى يكون؟

* * *

٢١ - ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمَّاذَا كُنتُم تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٨٤].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية حديث عن المكذبين بالرسالات السماوية، وخطاب لهم سيسمعونه من الله عز وجل يوم القيامة، فقوله تعالى **(حتى إذا جاءوا)** هو الحديث عنهم.

وقوله: (.. **أكـذبتم بـآياتى ولـم تحيطـوا بـهـا علمـاً أمـاذا كنتم تعـملـون**)؟ هـو الخطاب.

وقد حرر الإمام الزمخشرى كلاماً نفيساً حول معنى هذه الآية قال رحمه الله:

الواو للحال، كـأنه قال: أكذبتم بها بادئ الرأى من غـير فكر ولا نظر يؤدى إلى إحاطة العلم بكنهها، وأنها حقيقة بالتصديق أو بالتكذيب. .[1].

(**أمَّاذا كنتم تعملون**)؟ بها للتبكيت لا غير. . أو أراد: أمـا كان لكم عمل فى الدنيا إلا الكفر والتكذيب بآيات الله، أماذا كنتم تعـملون من غير ذلك؟ يعنى: أنه لم يكن لهم عمل غيره[2].

لم يبيِّن صـراحة المقصود مـــن الاستفهام الأول، أمـا الثانى فقـد جـوَّز فيـــه أن تكون (أم) في (أمـاذا) لها مـعادل مـحذوف قـدره بقـوله: أمـا كان لكم عـمل فى الدنيا. .

ويتابع الإمـامُ الطاهر بن عاشور الإمام الزمـخشرى بيد أنه يقـدر المعادل المحذوف (لأم) هو الثاني لا الأول كما تقدم عند الإمام الزمـخشرى، أما الطاهر فقدره هكذا: (أهو ما عهد منكم مـن التكذيب أم حدث حادث آخر[3])؟ حدثت هذه المخالفة منه عمداً لأنه أطلع على كلام الزمخشرى كما صرح هو.

والخلاصة: أن مـا يمكن قوله - بلا نزاع - هـنا أن الاستـفهـام الأول: (**أكذبتهم**) للتقرير والتوبيخ، أما الاستفهام الثانى فـهو للتوقيف والإفحام المترتب على الاستفهام الأول، ولا داعى لتقدير مـعادل محذوف لأم لا بعدها ولا قـبلها، فالمعنى تام بدون تقدير معادل، وهو:

أكذبتم بآياتى دون النظر فـيها أم ماذا كنتم تعملون بهـا إن لم تكونوا مكذبين بها؟ والمراد تطويقهم من كل جهة وتوقيـفهم على أنهم مكذبون لا غير، هذا هو الأصل، وما ذكروه من معان ثانية كالتبكيت لا يأباه المقام.

(١، ٢) الكشاف (٣/ ١٦١). (٣) التحرير والتنوير (٢٠/ ٤١).

أسرار النظم وبلاغياته:

* (**أكذبتم بآياتى..**) ولى التكذيب همزة الاستـفهام لأنه محط التقـرير، وهذا التقرير يتولد عنه الإنكار عليهم مع التوبيخ.

وإيثار الماضى للدلالة على أن ذلك التكذيب كان فى الحياة الـدنيا، أما يوم القيامة فقد صدَّقوا ما كذَّبوا به لما رأوه حاصلاً، ولكنه بعد فوات الآوان.

* (**ولم تحيطوا بهـا علماً**) ليس هذا اعتذاراً لـهم، بل ذماً وتسجيلاً عليـهم لإهمالهم النظر فى تلك الآيات، وبناء تكذيبهم بها على تقصيرهم فى حق أنفسهم.

* (**أماذا كنتم تعملون**) للتبكيت كما قال الزمخشرى؛ لأن فيه تصويرا لما كانوا عليه من عمل واعتـقاد باطل.. ولو كانوا قد فحـصوا دلائل الإيمان لكانوا من الناجين من سوء المصير الذى صاروا إليه.

* * *

٢٢ - ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيـه، وَالنَّهَارَ مُبْصِراً، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٦].

الدراسة والتحليل:

فى هذه الآية زيادة تجهيل للمكذبين بآيات الله، لأن مصيرهم السئ الذى حاق بهم فكانوا من أصحـاب النار لم يكن له سبب إلا إعراضـهم عن التأمل فى ملكوت الله تأملاً يملأ قلوبهم بـالإيمان والخشية، فكـم فى ملكوت الله وفى أنفسهم من عـجائب الخلق، وطلاقة قدرة الله التى عمـوا وصموا عنها، ومنها آيتا الليل والنهار وتعـاقبهما فى نظام بديع مـحكم: ظلام الليل يدعـوهم إلى الراحـة والسكون، وضـياء النهـار يحثـهم على العمل والكسب، ولذلك سـاق النظم الحكيم هذا الاستفـهام لتسـجيل غفـلتهم عن هاتين الآيتين البـاهرتين: ﴿**ألم يروا أنا جـعلنا الليل ليـسكنوا فـيه والنهـار مبصراً..**﴾ وهذا الاستـفهام لتـقريرهم بهـذه الرؤية التى لم ينتفعـوا بها، وتوبيـخهم وتحسيرهم، لأنهم كانوا هم الظالمين لأنفسهم، وظلم الإنسان نفسه أقبح أنواع الظلم، وهذه هى الخلاصة فى هذا الاستفهام.

أسرار النظم وبلاغياته:

* (**ألم يروا**) أى قد رأوا؛ لأن همزة النفى نفت نفى لم فعاد المعنى إثباتاً.

والرؤية مزيج من البصرية والعلمية وإن كان الغالب فيها جانب الحس، (**أنا جعلنا**) توكيد الخبر هنا لأن مضمونه حقيقة عظيمة والحقائق العظيمة تصاغ - بلاغة - فى أساليب عظيمة مثلها.

ويجوز أن يؤخذ فى الاعتبار أن من أسباب التوكيد تنزيل المتحدث عنهم منزلة من ينكر أن الله جعل الليل سكناً، والنهار معاشاً لجريهم على ما ينافى الإقرار بهذا الجعل، ولا مانع من اجتماع السببين فى هذا التوكيد بلاغة.

* وإيثار الماضى (**جعلنا**) لتضمنه معنى قَدَّرنا وقضينا فى سنننا فى الكون؛ الليل للسكون، والنهار للحركة، وهذا الجعل كان فى علم الله أزلاً، فالفعل الماضى - هنا - على أصل دلالته.

* (**ليسكنوا فيه**) كلمة السكون جامعة لمعان كثيرة، منها الإيواء إلى المنازل، ومنها النوم، ومنها تضييق مجال الحركة، ومنها الاطمئنان والراحة..

* (**والنهار مبصراً**) أى: وجعلَنا النهار، ففيه إيجاز بحذف العامل النصب فى (النهار) والجمع بين الليل والنهار طباق إيجاب من مقتضيات الحال، وليس حلية لمجرد اللفظ أو المعنى.

والألف واللام فى الليل والنهار لتعريف الجنس، فمعناهما يشمل كل ليل وكل نهار.

وفى (**مبصراً**) مجاز عقلى أسند فيه الإبصار إلى ضمير النهار وهو لمن يُبْصرُ فيه لا له، والعلاقة هى الزمانية، وحقيقة هذا المجاز هى: وجعلنا النهار مُبْصَراً فيه، أى يبصر فيه كل ذى نظر من الإنسان والحيوان على اختلاف فصائله.

* وفى (**الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً**) إيجاز بالحذف يسميه علماء المعانى: الاحتباك، وهو كل حذف مزدوج فى كلام واحد له جزءان تامَّا المعنى.

فيحذف من الجزء الأول ما يدل المذكور فى الجزء الثانى عليه، ويحذف من الجزء الثانى ما يدل المذكور فى الجزء الأول عليه.

وفى هذه الآية: حذف من الأول **(مظلماً)** لدلالة **(مبصراً)** عليه فى الجزء الثانى، وحذف من الثانى: لتتحركوا فيه لدلالة **(لتسكنوا فيه)** عليه من الأول.

وهذا من بديع المحذوفات فى النظم القرآنى البديع.

* **(إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون)** هذه الجملة بطولها استئناف مسوق لتقرير معنى ما قبله والإشادة بفخامة شأنه.

وقد أكدت بهذه المؤكدات:

إن + اسمية الجملة + لام التوكيد، لأن مضمون الخبر حقيقة عظيمة فأُخرج فى أسلوب فخم مثله.

* وتنكير **(آيات)** للتعظيم قطعاً بدلالة السياق والتعبير بـ**(ذلك)** لتعظيم شأن المشار إليه قبلاً، وهو جَعْل الليل سكناً والنهار معاشاً، وتقديم الجار والمجرور **(فى ذلك)** لما فى اسم الإشارة من معنى التلويح إلى نعمتى الليل والنهار، ولا يصح حمل التقديم على القصر، لأن لله آيات أُخرى باهرة غير الليل والنهار.

* * *

٢٣ - ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠].

الدراسة والتحليل:

قبل هذه الآية قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنهَا وَهُمْ مِن فزعٍ يومَئذٍ آمِنُونَ﴾ والآيتان معاً تصور كل منهما مصير فريق من الناس يوم القيامة. فالذين آمنوا وعملوا الصالحات يؤتيهم خيراً مما عملوا، ويبعثون آمنين من كل فزع.

أما الذّين اجترحوا السيئات وكفروا بالله ورسله فليس لهم إلا النّار. وفى هذه الآية جاء هذا الاستفهام:

﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وهذا الاستفهام لم يقف أمامه الأئمة طويلا، ولم يشيروا إلى معناه مع إشارة بعضهم إلى أنه استفهام مجازى والطاهر بن عاشور عزاه إلى النفى[1].

والخلاصة: أن هذا الاستفهام عند التحقيق استفهام تقرير لا إنكار ولا نفى، وهذا بالنظر إلى ما يؤول إليه معنى الجملة، وهو تقرير المخاطبين بأن جزاءهم مقصور على ما قدَّموه فى الحياة الدنيا من عمل. وأن هذه سنة الله فى عباده، وعدله وقضاؤه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(ومن جاء بالسيئة)**: الواو للعطف على جملة: **(من جاء بالحسنة)** و(مَنْ) اسم موصول لفظه لفظ المفرد، ومعناه صالح للإِفراد والجمع. وقرائن الأحوال تخصصه لأحد المعنيين. وهو -هنا- المراد منه الجمع لا الإِفراد بدلالة المقام، أما (السيئة) فهى اسم جنس يشمل جميع السيئات، ومنها معاصى أهل الإيمان. ولكن المقام -هنا- يخصصها بـ(أم المعاصى) وهو: الكفر. واستعمال العام مراداً منه الخاص من المجاز المرسل وسره -هنا- تبشيع شأن الخاص، لأن الكفر أبشع المعاصى.
* **(فَكُبَّتْ وجوههم فى النار)**: العطف بالفاء، أفاد هنا ثلاثة أغراض بلاغية، هى:
* تسبُّبُ ما قبلها فيما بعدها.
* فورية كبِّهم فى النار فور مجيئهم يوم القيامة.
* ترتيب ما بعد الفاء على ما قبلها فى الوجود الزمنى.

وبناء الفعل (كُبَّ) لما لم يسم فاعله لأن الغرض لا يتعلق بتعيين الفاعل، بل يحصول الحدث (الفعل) فى نفسه.

والمراد بالوجوه إما حقيقتها بجعل وجوههم منكسة إلى أسفل (مقلوبة) أو المراد ذواتهم فيكون فى الكلام مجاز مرسل علاقته الجزئية، حيث أطلق الجزء وأريد الكل.

وسر الدلالة على الذوات بالوجوه لأن للوجوه مزيد خصوصية بالمعنى المراد، لأن الوجه موضع الاعتزاز والعناية ورمز على الإنسان بين الناس.

وفى **(الكب)** استعارة، لأن أكثر ما يستعمل الكب فى صب الماء على الأرض

---

(١) الكشاف (٣/ ١٦٣)، وروح المعانى (٢٠/ ٣٨)، والتحرير والتنوير (٢١/ ٤٣).

فيكون أعلاه أسفلهُ مع سهولة اندلاعه وكذلك هؤلاء يطرحون فى النار ولا حول ولا قوة لهم كما يصب الماء على الأرض فى سرعة ويسر.

* **(هل تجـزون إلا مـا كنتـم تعـملون)** جملة قـصرية طريقـها النفى والاسـتثناء قـصر موصوف، هو جزاؤهم، على صفة، هى: أعمالهم.

والعدول من الغـيبة **(ومن جاء...)** إلى الخـطاب **(هل تجزون)** إما التـفات لزيادة التبكيت والتحسير والتنديم.

وإما حكاية لقول سـيقال لهم يوم القيـامة صدره محذوف والتـقدير: ويقال لهم: هل تجزون. وعلى هذا -وهو الأظهر- ففى العبارة إيجاز بالحذف. نكتته البلاغية هى المسارعة إلى ما فيه تحسيرهم. أما دليل الحذف فلأن المقام يقتضيه والعقل يهتدى إليه.

وإيثار **(هل)** إشارة إلى أن هذا المصـير مـحقق لهؤلاء الذين كـفروا بالله وعـصوا رسله.

* * *

سورة القصص

١ - ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ، فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢].

الدراسة والتحليل:

سورة القصص مثل جارتها سورة النمل، فهما مكيتان وعدد آياتهما متقارب، النمل [٩٣] آية، والقصص [٨٨] آية. ويغلب عليهما الجانب القصصى، ومنهج العرض فيما ورد فيهما من قصص. بين الإيجاز والبسط، فقصة سليمان مع بلقيس ملكة سبأ بُسط عرضها فى النمل، أما قصة موسى عليه السلام مع فرعون فقد أوجزت فى النمل، ثم بسطت فى القصص بسطا ملحوظا، حيث بدأت من الآية الثالثة إلى الآية الثالثة والأربعين.

كما بسطت قصة قارون فى نهايات سورة القصص. ولم تخل السورتان من لفت الأنظار إلى الآيات الكونية، ودلائل التوحيد ومشاهد القيامة، وتثبيت النبى ﷺ والإلماح إلى مصارع الأمم التى حادت عن الحق.

وكان أول استفهام ورد فيها - القصص - هو فى قوله تعالى يحكى قول أخت موسى عليه السلام:

(.. هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم)؟

وهذا الاستفهام حقيقى لا مجازى، لذلك لا نظر لنا فيه عند الأئمة؛ لأن الاستفهام الحقيقى ظاهر الدلالة على المراد منه، وقد مرَّ مثله فى سورة طه عليه السلام ونصصنا على المقصود منه، وهو مجرد الطلب أو الإذن لها بأن تدلهم على كافلة لموسى عليه السلام.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(وحرَّمنا عليه المراضع من قبل)**: المراد من (حرَّمنا) هنا المنع، أى: منعناه أن يرضع

من غير أمه من النساء. وكان لهذا المنع سبب، وهو النفور النفسى الذى كان يشعر به موسى وهو وليد حديث الولادة إذا ألقمته إمرأة ثديها ليرتضع لبنها. فشُبِّه امتناع موسى عن رَضْع ألبان المرضعات بامتناع المكلف عن الانتفاع بما حرَّم الله عليه. والجامع بين الطرفين هو الكف مع شدة الحاجة إلى المعزوف عنه.

وفى **(المراضع)** وضع للعام موضع الخاص، لأن المراد حرمنا عليه ألبان المراضع. وسره الإشارة إلى أن موسى لم يعزف عن الألبان فحسب، بل كان ينفر من أن تحمله المراضع فى أحضانهن.

وفى هذا تهويل للقلق الذى كان يشعر به بيت فرعون من أجل توفير الراحة لموسى، الذى ألقى الله محبته فى قلوبهم.

* **(هل أدلكم على أهل بيت..)**: خطاب فيه رقة ولطف ولين لما تشعر به نحو أخيها من إشفاق ورأفة.

وتنكير كلمتى: أهل، وبيت. تبهيم وتجهيل لصلتها به حتى لا ينكشف أمرها وأمر أمها وأخيها، وإخراج للكلام مُخْرَجَ النصح العام.

والظاهر أن مسألة القلق على موسى فى بيت فرعون كانت قد سرى أمرها فى المدينة، وأن أهل بيت فرعون طلبوا النصيحة من الناس، فدخلت أخت موسى مع الداخلين، وأبدت نصيحتها كما أبدى غيرها نصائحهم وإلا لما جرؤت، وهى من بنى إسرائيل، أن تدخل ذلك الحصن الحصين.

* **(يكفلونه لكم، وهم له ناصحون)** الجملة الأولى **(يكفلونه)** فى موضع جر صفة لـ**(أهل بيت)** والثانية **(وهم له ناصحون)** فى موضع نصب حال من **(أهل)** أو من الواو فى **(يكفلونه)** وتقديم الجملة الوصفية على الجملة الحالية، لأن الأولى تتعلق بالمقصود الأهم لآل فرعون، وهو كفالة موسى. أما الثانية فهى تتعلق بوصف (الكفالة) نفسها.

وإيثار **(يكفلونه)** على: يُرضعونه؛ لأن الكفالة أعم من مجرد الإرضاع، فهى تشمل القيام بكل شئونه ورعايته، بخلاف الإرضاع فليس فيه إلا مجرد الإطعام وهذا

يدل على لطف أخت موسى فى العرض والطلب وترغيب آل فرعون فى الأخذ برأيها، مع ما يدل عليه المضارع (**يكفلونه**) من تجدد الرعاية فى حال ومستقبل (**الطفل**) والجار والمجرور (**لكم**) لترقيق قلوب آل فرعون وقبول ما تعرضه عليهم لتأمين مستقبل أخيها وهم لا يشعرون.

* (**وهم له ناصحون**) تلَطُّف بعد تلَطُّف، وتليين بعد تليين فى الخطاب لتمكين عرضها عند آل فرعون، لإنقاذ أخيها وتوفير الأمن والراحة له.

وإيثار الجملة الأسمية، (**وهم له ناصحون**) على الفعلية إشارة إلى شدة رغبتها فى قبول عرضها، وإشعار آل فرعون بالاطمئنان على راحة (الطفل) وقد كان من الله ما أرادت.

* * *

٢ - ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذى هُوَ عدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ، إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِى الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِن الْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: ١٩].

الدراسة والتحليل:

كان الرجل الإسرائيلى قد استغاث بموسى حين وجده موسى يقتتل مع رجل مصرى. فأغاث موسى الرجل الإسرائيلى ووكز المصرى بيده ليدفعه فوقع ميتا، ولم يكن موسى يريد قتله فاستغفر ربه فغفر له ما كان منه من خطأ غير مقصود(١).

وفى اليوم الثانى وجد الرجل الذى استغاثه بالأمس يستغيثه للمرة الثانية ليدفع عنه مصريا آخر اشتبك معه فهم موسى ليدفع المصرى فبادر المصرى يحذر موسى، ويذكره بما حدث منه بالأمس، ويقول له:

أتريد قتلى كما قتلت رجلاً بالأمس. وتريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض وما تريد أن تكون مصلحاً.

هذا هو إيجاز كان لابد منه لنقف على مكان هذا الاستفهام (**أتريد أن تقتلنى..؟**)

---

(١) أرجع إلى الآيات [١٥ - ١٨] من سورة القصص.

من النظم، لأنه حلقة من حلقات قصة موسى قبل أن يكون نبيا.

والاستفـهام مجازى المـراد منه أصلا: الإنكار والتعجـيب ولوضوح المراد من هذا الاستفهام فقد مر عليه المفسرون مروراً عابراً ولم يذكروا شيئا عن المراد منه. وخلاصة ما يقال فيـه أنه للإنكار والتعجيب والزجر واستدفـاع الضرر، لأن المصرى أراد -بعد تلك المعانى- أن يكف موسى يده عنه فلا يقتله كما قتل نفسا بريئة من قبل.

أسرار النظم وبلاغياته:

* (**فلما أن أراد أن يـبطش بالذى هو عدولهـما..**): مجىء (أن) هذه بين (لمـا) والفعل (أراد) غير مطرد، ولا هو من عناصر الجـملة، لذلك يوصف بالزيادة عند المفسرين والنحاة. ومرادهم من وصف أحـرف أو أدوات بالزيادة فى النظم الحكيم أنها زيادة فى اللفظ دون المعنى.

وكنا قد عرضنا لمثله فى سورة يوسف عليه السلام الآية [٩٦]: (**فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا**) واقترحنا هناك، ونعيد الاقتراح مرة ثانية -هنا- أن مجىء (أن) بعد (لما) فى الموضـعين مزيدة لفظا من حيث أن (لما) لا تحتـاج لها فى الأصل. ولكنها غير زائدة فى المعنى، وحاش أن يكون فى القرآن ما هو زائد فى اللفظ والمعنى معاً بل إن هذا اللفظ زيدهنا من أجل خصوصية فى المعنى يؤديها، وهى -فيما نرى- التمكن. فالبشير لما تمكن من القرب من يعقوب عليه السلام ألقى قميص يوسف على وجهه لأنه لا يمكن أن يلقيه على وجهه وهو بعيد عنه.

وكذلك نقول -هـنا- لما هم موسى هماً قويا بالبطش بالرجل القـبطى وتأكد ذلك بادر القبطى ينكر عليه ما أراد ولا معنى لـ(أن) هنا غير ذلك. والدليل: أن القبطى لو لم يظهر له همُّ موسى بقتله ما ساغ له أن يعترض عليه. لأن اعتراض القبطى لم يكن على مجرد إرادة مـوسى البطش فالإرادة عمل قلبى لا يطلع عليه أحد إلاَّ إذا صـحبه فعل ظاهر هذا ما لاح لنا فأثبتناه وإن لم يقل به أحد من قبل.

* (**بالذى هو عدو لهما**): إيثار الموصول وصلتـه إشارة إلى سبب الاشتـجار الذى كان يحتدم ويتكرر بين الإسرائيليين والمصريين (الأقباط)؛ لا فى الصلة.

* **(هو عدو لهما)**: إظهار لتلك العداوة. وكأن هذا كان بمثابة الاعتذار عن موسى من تسرعه إلى إغاثة الإسرائيلى.
* **(قال يا موسى)**: جملة **(قال يا موسى)** جواب (لَمَّا) وإيثار ذكر الاسم العلم (موسى) لما فيه من توقيف له على ما حدث منه بالأمس. أو لزيادة ذلك التوقيف من المصرى لموسى.
* **(أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس)** ولى الفعل (تريد) الهمزة لأنه محط الإنكار، وإيثار المضارع لأنه المتعين للدلالة على تصوير ما يدور فى نفس موسى ويهم به لحظة قيل له هذا الكلام.

وإيثار المصدر المؤول: (أن تقتلنى) على الصريح: وهو قتلى، للدلالة على تلبس الحدث بالزمن فى الحال وقت هم موسى بالبطش به.

وفى **(كما قتلت نفسا بالأمس)** تشبيه: المشبه هو قتل المتكلم، والمشبه به هو قتل الذى وكزه موسى فقضى عليه. ووجه الشبه هو الظلم.

وأوثر ذكر هذه الصورة التشبيهية للمبالغة فى توجيه الإنكار لموسى وتبصيره بقبح ما وقع منه بسبب استغاثة ذلك الإسرائيلى به.

والعدول عن الاسم الصريح لمن قتله موسى إلى التعبير عنه بـ**(نفسا)** لتهويل القتل، لأن قتل النفس يعادل قتل الناس جميعا، ولأن قبح القتل لا يتوقف على تحديد المقتول.

* **(إن تريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض)** جملة قصرية: قصر صفة، هى إرادة موسى، على موصوف هو: جبار، وطريقه النفى بـ(إن) التى هى بمعنى (ما) النافية.

وهذه الجملة من مقول القول فى **(قال يا موسى)** وهى توكيد معنوى لمعنى الجملة التى قبلها **(أتريد أن تقتلنى)** ومعناها أعم من معنى ما قبلها.

وإنما ساق القبطى هذه الجملة للمبالغة فى زجر موسى وكفِّه عما همَّ به من البطش والانتقام.

* وفى قوله **(فى الأرض)** كناية عن أرض مصر، وعُدِل إلى هذا التعبير **(فى الأرض)** لإرادة التهويل، والتخييل بأن جبروت موسى يعم الأرض كلها لا أرض مصر وحدها.

* **(وما تريد أن تكون من المصلحين)** محاصرة لموسى من كل جهة:

فمن جهة الإثبات أثبت له إرادة الجبروت والظلم ومن جهة النفى نفى عنه إرادة الإصلاح. زيادة فى الزجر والتحذير.

ولم يقل فى الفاصلة: مصلحاً، كما قال قبلها (جباراً) لإفادة معنيين بلاغيين يشيعان فى فواصل آيات النظم الحكيم:

المعنى الأول: تناسق الإيقاع الصوتى بين الفواصل وهذا من جهة اللفظ. فقبلها (مبين) وبعدها: (الناصحين).

والمعنى الثانى: تفخيم المعنى؛ أى: من الذين استقر وثبت كونهم صالحين، وعُرِفُوا بالصلاح كأنه علم لهم بين الناس. وصار الصلاح سجية فيهم وطبعاً.

* * *

٣ - ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ، قَالَ مَا خَطْبُكُمَا، قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ، وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣].

الدراسة والتحليل:

لما شاع فى المدينة قتلُ موسى للرجل القبطى، وعَرَف فرعون أن موسى هو القاتل اجتمعوا وتشاروا فاتفقوا على قتل موسى، هذا ما كان من أمرهم. وكان أمر الله غير أمرهم، كان أمر الله أن موسى سيبعث رسولاً إلى فرعون وقومه، ثم إلى بنى إسرائيل. فوراء موسى دور من أهم الأدوار فى التاريخ النبوى. والله لطيف لما يشاء أمره النافذه، وإرادته هى الغالبة.

لذلك رقق قلب رجل منهم كان مؤتمرا معهم على موسى فتسلل إليه، وأعلمه بما يمكر به فرعون وقومه، فقد حكى القرآن عن هذا الموقف الإيمانى النبيل:

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى، قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ، فَاخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠].

استجاب موسى لهذه النصيحة وعمل بها على الفور، وهداه الله إلى أن يخرج من

مصر إلى أرض مدين، داعيا الله تعالى أن ينجيه من القوم الظالمين. وحين وصل ماءً لمدين كان الناس يردونه لسقى ماشيتهم، ويتزاحمون حوله، وكلهم رجال، فى هذه الأثناء أبصر امرأتين تجلسان بعيداً من الزحام حول الماء، فسألهما عن شأنهما فأخبرتاه -وكان موسى قويا صلبا، فزاحم وسقى لهما. كما ورد فى هذه الآية.

وقد ورد فيها هذا الاستفهام:

(ما خطبكما) أى: ما شأنكما؟ وهو استفهام حقيقى للسؤال عما يجهله المتكلم. أراد منه موسى أن يعرف السبب فى اعتزال المرأتين الماء وما عليه من زحام ولما عرف تطوع وسقى لهما ماكانتا تريدان أن تسقيا وليس للأئمة وجهات نظر مختلفة حول الاستفهام الحقيقى كيفما ورد. لذلك فلم يبق لنا فى هذا الوضع إلا مبحث:

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(ولما ورد ماء مدين)** فى (ورد) هنا استعارة لأن المراد وصل. والورود تستعمله العرب فى وصول خاص هو وصول طالب الماءِ الماءً؛ ليستقى أو يحمل من الماء ما يحتاج أو يسقى ما شيته. وسر هذه الاستعارة - فيما نرى - أن النظم الحكيم شبه مجرد الوصول بالورود على الماء بجامع ما يترتب على كل منهما من عظيم النفع. لأن رحلة موسى إلى مدين كانت فضلا عليه من الله، حقق له فيها الأمن، وتزوج وعاد منها رسولاً كريما.

* **(وجد عليه أمة من الناس يسقون)** جواب لما. وفى **(من الناس)** احتراس بديع؛ لأن (مِنْ) هنا بيانية، والأمة تطلق على الجماعة من الناس ومن غير الناس، فلما قيل **(من الناس)** زال الإبهام وامتنع أن يراد به (أمة) أى معنى آخر غير معنى جماعة الناس.

وإيثار المضارع **(يسقون)** تصوير للحالة التى كانت حاضرة، فإن السقى كان يجرى بانتظام بين أغنام الرعاة.

وحُذِف مفعول يسقون للعلم به، ولأن المقصود حصول السقى من الرعاة من غير غرض تعلق السقى بمفعول خاص سواء كان غنما أو إبلاً أو غيرهما من الدواب.

ومن الأغراض البلاغية فى هذا الحذف -هنا- توفير العناية بالفعل، وإبعاد كل الشواغل عن تركيز النظر إلى الفعل نفسه دون لواحقه[1].

* **(ووجد من دونهم امرأتين تزودان)** الذود: الدفع والمنع، أى تدفعان وتمنعان غنمهما من السقى.

وفى **(من دونهم)** عبارة موحية بمعنى دقيق، حيث أفادت أن المرأتين كانتا منعزلتين فى مكان اخفض من المكان الذى يتجمع فيه الرعاة للسقى. وهذا -بدوره- يوحى بأن هاتين المرأتين كانتا على خلق نبيل، وثمرة تربية فاضلة وهذا ما كشفت عنه الأحداث فى قصة موسى.

* **(قال: ما خطبكما)** فصلت هذه الجملة للاستئناف البيانى حيث نزلت هذه الجملة منزلة جواب على تساؤل يثور فى النفس بعد سماع ما قبلها. حاصله: وماذا كان من موسى حين رأى المرأتين فى تلك الحالة، فكان الجواب: قال ما خطبكما؟

* **(قالتا: لا نسقى حتى يُصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير)** فَصْلُ هذه الجملة، وترك عطفها على ما قبلها له تفسيران:

الأول: أن يكون السبب فى فصلها أنها جواب السؤال المذكور **(ما خطبكما)**؟

والثانى: أن يكون السبب هو تقدير سؤال ثار فى النفس من قوله لهما: **(ما خطبكما)**؟ فيكون بين الجملتين شبه كمال الاتصال. ونحن نرجح الأول؛ لأن ما لا يحتاج إلى تقدير أولى مما يحتاج إلى تقدير.

* وفى **(يصدر الرعاء)** كناية عن انصرافهم بعد سقى أغنامهم والصدور هو الرجوع من مكان الماء بعد وروده أو استعارة وترشيح للاستعارة فى (ورد).

* **(وأبونا شيخ كبير)** زيادة تفصيل وبيان، حيث أوضحتا فى هذه العبارة أن سبب مجيئهما للسقى أن أباهما قد أصابه الكبر.

وفى هذه الآية من إيجاز الحذف ما فيها، لأن التقدير:

وجد عليه أمة من الناس يسقون أنعامهم من الماء ووجد من دونهم امرأتين لا تسقيان أغنامهما فسألهما لماذا لا تسقيان أغنامكما قالتا لا نسقى أغنامنا حتى يسقى

---

(١) انظر دلائل الإعجاز، (١٢٤) ط: دار المعرفة - بيروت - لبنان.

الرعاة أغنامهم وينصرفوا لئلا نزاحمهم ونحن نساء وهم رجال وليس لنا رجل إلا أبونا وهو شيخ طاعن فى السن.

* * *

٤ - ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلاَ أُوتِىَ مِثْلَ مَا أُوتِىَ مُوسَىٰ، أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ، قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ [القصص: ٤٨][1].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية وما قبلها وما بعدها حديث عن المشركين من العرب، وقبلها كان قوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ أَن تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وبعدها قوله تعالى: **(قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين).**

وتحرير القول فى هذه الآيات أن مشركى العرب لما ارتابوا فى أمرالرسالة الخاتمة سألوا اليهود عنها فأعلمهم بعض اليهود أن شأن هذه الرسالة مذكور فى التوراة التى أنزلها الله على موسى عليه السلام فحملهم العناد على الكفر بالتوراة والقرآن معا وسموهما سحرين. ثم نسوا كفرهم بموسى والتوراة وقالوا فى الاحتجاج على محمد ﷺ فى مرحلة تالية: لولا يؤتى مثل ما أوتى موسى من المعجزات. ونسوا أنهم كفروا بالتوراة من قبل قولهم هذا. فاحتج القرآن عليهم وقال لهم: ألم تكفروا بما أوتى موسى من قبل من التوراة والمعجزات فلماذا تحتجون بهما الآن.

وخلاصة المعنى: إن هؤلاء المشركين لا يشمر فيهم رسالة ولا رسول، ولولا أن يقولوا - إذا أهلكناهم بكفرهم - لم - لَمْ، ترسل إلينا رسولا يا ربنا فنؤمن بك لما أرسلناك اليهم. ولكنا أرسلناك لقطع الأعذار عنهم فإذا كفروا بالقرآن والتوراة - كما

---

(١) تجاوزنا الآية [٤٠] من سورة القصص وهى: (فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين)، لسبق التعرض لمثلها من قبل، ولأن كيف فيها للاستفهام الصورى، وقد بينا معناها فى سورة النمل من قبل.

أنزلها الله على موسى - فقل لهم هاتوا كتابًا آخر من عند الله هو أهدى من التوراة والقرآن إن كنتم صادقين. وأنا اتبع ما تأتون به والأمر هنا للتعجيز ومجاراة الخصم لقطع الحيل عليه، وقد ورد فى هذه الآية هذا الاستفهام:

﴿أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل﴾؟

ولم نر للأئمة أى توجيه فى المراد من الاستفهام فى الآية وهذا يكاد يكون مطردًا فى كثير من المواضع؛ لأنهم قد بينوا فى السور الأولى من القرآن المراد من الاستفهام فى مثل هذه الصورة فكان تركهم لبيان معناه إحالة منهم إلى ما سبق من نظائره.

أما نحن فإننا نقف أمام كل صورة مهما تكرر ورودها فنرصد المراد منها فى إيجاز. لأن هذه الدراسة موضوعة خصيصًا للتفسير البلاغى فى القرآن الحكيم. إذا تمهد هذا فنقول: إن هذا الاستفهام: **﴿أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل﴾** استفهام تقرير وإفحام وتكذيب.

تقرير؛ لأن الله يقررهم بسبق هذا القول ليبطل احتجاجهم على رسول الله ﷺ فى مطالبتهم إياه أن يأتيهم مثل ما أتى موسى قومه من المعجزات كمعجزة العصى.

وإفحام لأن شهر هذا السلاح فى وجوههم يرد كيدهم فى نحورهم ويلقمهم الأحجار فى أفواههم ويحيل نارهم إلى رماد.

وتكذيب؛ لأنهم لم يريدوا بقولهم هذا التوصل إلى الإيمان وإنما قالوه عنادًا ومكابرة.

وقد عرفنا مما تقدم عن بعض الأئمة أنهم يحملون هذا الاستفهام وأمثاله على الإنكار. وكنا قد خالفناهم فيه فى كثير من المواضع والإنكار لا يتأتى فيه إلا على مذهب الزمخشرى الذى جوَّز أن تكون همزة الاستفهام قارة فى مكانها داخلة على محذوف هو المعطوف عليه بالواو. ويمكن تقديره هكذا: أيقولون هذا: ولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل (فيكون الإنكار بالهمزة مسلطا على ذلك القول المحذوف. هذا هو وجه القول بالإنكار عند من يقول به من الأئمة. ونحن لا نزعم أن ما قالوه خطأ - لا قدر الله - وإنما نرى ما ذهبنا إليه أولى منه لعدم احتياجه إلى تقدير محذوف، ولأن المقام يقتضيه هو لا غيره. فتقريرهم بكفرهم بموسى هو المعول عليه فى الاحتجاج عليهم. فما حاجتنا إلى ذلك التقدير يا ترى؟

أسرار النظم وبلاغياته :

* ﴿**فلما جاءهم الحق من عندنا**﴾ مجىء الحق كناية عن الإسلام وإسناد المجىء إليه مجاز عقلى للمبالغة فى تحققه كأنه الجائى بنفسه، وحقيقة هذا المجاز: أتاهم رسولنا بالحق الذى بعثناه به، وهو الإسلام.
* ﴿**لولا أوتى مثل ما أوتى موسى**﴾ لولا للحث والتحضيض على سبيل التملص من قبوله والعمل به. وبناء الفعل (أوتى) لما لم يسم فاعله ترجمة عما فى أنفسهم من كراهية إسناد الفعل لله وفى (**مثل ما أوتى موسى**) كناية عن المعجزات، بتشبيه ما اقترحوه من معجزات بمعجزتى اليد والعصى عند موسى، ووجه الشَّبَه - على زعمهم - المماثلة فى (ألحقية) وكأن معجزة محمد ﷺ وهى القرآن - أقل شأنا من معجزتى موسى، وكذلك ما رأوه من معجزات مادية كانشقاق القمر ورجم الشياطين بالشهب.
* ﴿**أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل**﴾؟ سلك معهم النظم الحكيم أقصر طريق فى إفحامهم وتكذيبهم، حيث لم يُطل ببيان فوقية معجزة الإسلام الخالدة على معجزات جميع الرسل - بله موسى - بل ألزمهم بالحجة، فقال: أنتم كفرتم بما أوتى موسى من قبل، فكيف تطلبون أن يأتى رسولنا إليكم بمعجزة تساوى معجزة موسى فى الحقية والمشبه به عندكم مكفور به لديكم.
* ﴿**قالوا سحران تظاهرا**﴾ تفصيل وبيان بعد إجمال وإبهام لأن هذه الجملة فصلت كفرهم بما أوتى موسى. وكفرهم بما أوتى محمد ﷺ: وتشبيه للتوراة والقرآن بالسحر ووجه الشبه أو الجامع إن قلنا إن فى السحر استعارة هو الغرابة وقوة التأثير. وفى ﴿**تظاهرا**﴾ استعارة حيث شبهوا توافق الكتابين فى الدعوة إلى الله بالتعاون بينهما.
* ﴿**وقالوا إنا بكل كافرون**﴾ وصلت جملة ﴿**قالوا إنا..**﴾ بما قبلها بالواو للتوسط بين الكمالين. وأوثر ذكر ﴿**وقالوا..**﴾ الثانية وكان يمكن الاكتفاء بالأولى ﴿**قالوا سحران**﴾ مبالغة فى التشنيع عليهم بتكرار إسناد القول إليهم.

* * *

٥ - ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا، أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧].

الدراسة والتحليل:

وهذه الآية تحكى ما قاله مشركو مكة يعتذرون للنبى ﷺ عن تركهم الدخول فى الإسلام. فقد قال لهم بعض منهم إنك لصادق وعلى حق، ونحن قلة إذا اتبعناك وخالفنا العرب فسيخرجوننا من أرضنا، أرادوا بهذا القول أن يخدعوا رسول الله ﷺ، ولكن إذا جاز هذا بالنسبة للرسول فلا يجوز فى حق الله تعالى، الذى يعلم ما يكنونه فى أنفسهم، لذلك نزلت هذه الآية تكشف ما كتموه، وترد عليهم ردًا حكيمًا.

وخلاصة هذا الرد أن الله تعالى جعل المكان الذى يعيشون فيه، وهو مكة، مكان أمن واستقرار، بينما يعيش العرب من حولهم فى حروب وغارات، أما هم فآمنون فى بلدهم، وقد وفَّر الله لهم أمر معاشهم فتأتيهم الثمرات من كل مكان رزقًا لهم من عند الله تعالى. فالله الذى صنع معهم هذا وهم كفار كيف يُسلمهم إلى عدو إذا آمنوا واتقوا؟

وقد ورد فى الآية هذا الاستفهام:

﴿أولم نمكن لهم حرما آمنا﴾؟

وقد رجعنا إلى الأئمة، فلم نجد لهم أى توجيه للمراد من الاستفهام هنا. بل أغفلوه إغفالاً تامًا. إلا الطاهر ابن عاشور فقد حمله على الإنكار(١).

وخلاصة ما يقال فى الاستفهام الذى تقدم أنه للتقرير والإفحام والتكذيب:

* يقررهم ويمتن عليهم بأن جعل حرمهم آمنا مستقرا.
* ويفحمهم بهذا التقرير بإبطال عذرهم الذى أبدوه.
* ويكذبهم فى دعواهم التى أعلنوها.

---

(١) التحرير والتنوير: (٢٠/١٤٩).

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا**﴾؟ الواو لعطف قولهم هذا على قولهم فى الآية [٤٨] وهو: (**قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى**).

وفى (نتبع) استعارة تصريحية تبعية، شبهوا فيها الإيمان بالإسلام كتابا ورسولاً والعمل بما فيه بسير التابع خلف المتبوع والجامع بين الطرفين كمال الانقياد.

وفى (**الهدى**) كناية عن موصوف هو الإسلام وفى (**نتخطف**) استعارة تصريحية تبعية، حيث شبهوا الإخراج بالتخطف بجامع الإزالة فى كل. وفى إيثارهم (**التخطف**) غرضان بلاغيان لهم:

الأول: سرعة الإخراج من أرضهم، وهذا المعنى دُلَّ عليه بمعنى الفعل: خطف يخطف خطفا، أى اختلس بسرعة.

والثانى: كثرة الإخراج، وقد دُلَّ عليه بصيغة الفعل: نتخطَّف، حيث ضعَّفوا عينه للدلالة على كثرة الحدث وهو الإخراج.

وفى بناء (**نتخطف**) لما لم يسم فاعله إشارة إلى عموم الفاعل. أى يطمع فيهم كل الناس. وذلك كله للمبالغة فى الاعتذار والخداع.

* ﴿**أولم نمكن لهم حرما آمنا**﴾ الهمزة مقدمة من تأخير والأصل: وألم نمكن لهم. ولا ضرورة تقتضى تقدير محذوف هو مدخول الهمزة والواو عاطفة عليه إذ لا مانع من عطفه على قولهم (**وقالوا..**) أى: ونقول: ألم نمكن لهم حرما آمنا.

وقد استعير التمكين للجعل، لما فى معنى التمكين من معنى ليس فى الجعل، لأن الجعل لا يناسب الأمن وإنما الذى يناسبه التمكين؛ لأن التمكين فى نفسه أمن وقرار وفى إسناد الأمن إلى ضمير الحرم مجاز عقلى علاقته المكانية، وحقيقة هذا المجاز: حرما آمنا أهله فيه.

وتنكير (**حرما**) للتعظيم بدلالة المقام.

* ﴿**يجبى إليه ثمرات كل شىء**﴾ بناء الفعل (**يجبى**) لما لم يسم فاعله لإفادة العموم

والكثرة فى الفاعل، وهو المناسب لقوله تعالى: (**كل شىء**) والحصر بـ (كل) هنا إضافى أى كل شىء هم محتاجون إليه فى معاشهم حسب العرف الجارى فى الحياة.

* ﴿**رزقا من لدنا**﴾ الظاهر أن (رزقا) مفعول مطلق لفعل محذوف، أى نرزقهم - به - رزقا من عندنا وتنكيره لإفادة الكثرة والتعظيم بدلالة المقام.

* (**ولكن أكثرهم لا يعلمون**) هذا إنصاف وعدل من الله، حيث لم يقل: ولكنهم لا يعلمون. لأن بعضهم كان يعلم أن هذا الفضل من الله. فأنصفهم الله بإسناد عدم العلم لأكثرهم لا لجميعهم، وهم فى ألد الخصومة مع الله ورسوله.

* * *

٦ - **﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَىءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا، وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى، أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾** [القصص: ٦٠].

الدراسة والتحليل:

بعد أن أمتن الله على مشركى مكة، بالعيش الرغد، والأمن الوفير، عاد فخاطبهم - هنا - بأن كل ما هم فيه من خير، وما فيه غيرهم، هو متاع الدنيا، وأن متاع الدنيا زائل:

إما أن يفارق أهله، وإما أن يفارقه أهله بالموت أما الخير الذى رصده الله لعباده المؤمنين المتقين فهو النعيم الحق الخالد.

وفى فاصلة الآية جاء هذا الاستفهام:

﴿أفلا تعقلون﴾.

وهو استفهام فى صورته اللفظية المذهبان المتقدمان: مذهب الجمهور القاضى بأن الهمزة مقدمة من تأخير لأن الاستفهام له الصدارة فى الكلام، وأن الأصل: فألأ تعقلون، فلما قدمت الهمزة صار: أفلا تعقلون، والثانى مذهب الزمخشرى القاضى بجواز أن تكون الهمزة فى موضعها ومدخولها مخذوف. وقدره الإمام أبو السعود هنا بقوله:

(ألا تتفكرون فلا تعقلون هذا الأمر الواضح فتستبدلون الذى هو أدنى - أى متاع الدنيا - بالذى هو خير - أى نعيم الآخرة[1]). وقد تابعه الإمام الألوسى[2].

فعلى مذهب الجمهور يكون الاستفهام لتقريرهم بعدم التعقل ثم توبيخهم عليه مع الحث على إعمال العقل، وعلى مذهب الزمخشرى يكون الاستفهام للإنكار أى: أتغفلون عن هذه الفروق الواضحة بين المتاعين فلا تعقلون؟[3].

والخلاصة أن هذا الاستفهام صالح بالاعتبارين المذكورين أن يكون تقريرا أو إنكاراً. ويتبع كل منهما معنى التوبيخ ثم الحث على إعمال العقل المفضى إلى التمييز بين متاعى الحياتين الدنيا والآخرة.

أسرار النظم وبلاغياته :

* **﴿وما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا﴾** بناء الفعل لما لم يسم فاعله **(أوتيتم)** لتحقير مُتَع الدنيا، ودخول (من) على (شىء) لاستغراق أفراد المتاع العاجل، أى مهما تجمع لديكم حطام الدنيا وكثر فهو قليل الجدوى، و(ما) نكرة موصوفة تفيد العموم، أى: أى شىء أوتيتموه فهو متاع الدنيا الذى تحقق لكم قصره وزواله. وفى تسميته متاعا إشارة إلى نفاده واستهلاكه. سواء كان من ضرورات الحياة أو من زينتها الأسرع زوالاً.

* **﴿وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون﴾** فى **﴿وما عند الله﴾** كناية عن نعيم الآخرة، ووصفه بالخيرية والبقاء للحث على طلبه والرغبة فيه، ليقابل التزهيد فى متاع الحياة الدنيا وتهوين شأنه، وفى **(أفلا تعقلون)** تهييج وإلهاب على التعقل وحسن النظر.

* * *

(١) تفسير أبى السعود (٧/ ٢٠).
(٢) روح المعانى (٢٠/ ٩٩).
(٣) عدلنا عن التقدير الذى قدره الإمام أبو السعود وتابعه عليه الألوسى لأن فيه سهواً ظاهراً حيث جمع بين الهمزة ولا. فصارت العبارة تحضيضا لا استفهاما.

٧ - ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦١].

الدراسة والتحليل :

ما يزال النظم الحكيم يحط من شأن الحياة الدنيا ويزهد فيها، ويرفع من شأن الحياة الآخرة ويرغب فيها. وفى هذه الآية يحرص النظم الحكيم على نفى المساواة بين أصحاب الآخرة وأصحاب الدنيا. فأصحاب الآخرة هم أهل الوعد الحسن عند الله، والله لا يخلف وعده.

أما أصحاب الدنيا فليس لهم عند الله شيء إلا إلقاؤهم فى نار جهنم.

وقد استعان النظم الحكيم على تصوير هذه الفروق بين عبيد الدنيا وطلاب الآخرة بهذا الاستفهام **﴿أفمن وعدناه وعداً حسنا فهو لاقيه﴾**

﴿كمن متعناه متاع الحياة الدنيا..﴾؟

وللإمام الزمخشرى كلام جيد فى هذا الاستفهام نجتزىء منه الآتى:

(هذه الآية تقرير وإيضاح للتى قبلها، والوعد الحسن الثواب؛ لأنه منافع دائمة على وجه التعظيم والاستحقاق.. فإن قلت فسِّرْ لى الفاءين وثم وأخبرنى عن مواقعها: قلت: قد ذكر فى الآية التى قبلها متاع الحياة الدنيا، وما عند الله، وتفاوتهما، ثم عقبه بقوله: أفمن وعدناه، على معنى: أبعد هذا التفاوت الظاهر يسوَّى بين أبناء الآخرة وأبناء الدنيا. فهذا معنى الفاء الأولى، وبيان موقعها. وأما الثانية فللتسبيب، لأن لقاء الموعود مسبب عن الوعد الذى هو الضمان فى الخير. وأما ثم فلتراخى حال الإحضار عن حال التمتيع، لا لتراخى وقته عن وقته»[1].

وخلاصة هذا الكلام:

* إن الاستفهام فى هذه الآية للإنكار، أى إنكار مساواة طلاب الآخرة بطلاب الدنيا وعبيدها.

* أن الفاء فى (أفمن) للتعقيب، وفى (فهو لاقيه) للسببية.

---

(١) الكشاف (٣/ ١٨٧).

وأما (ثم) فلتـراخى حال الإحضـار عن حال التمـتيع والمراد من هذه العبـارة بيان التفـاوت بين الحالين فالحال الأولى - اعنـى حال الإحضار حـسب ترتيب ذكرها فى كلام الزمخشـرى - أنزل وأحط من حال التمتيع، لأنها عـذاب دائم، بينما كانوا فى الدنيا يروحون ويغدون فى الملذات والشهوات.

ولذلك قـال الإمام: لا لتـراخى وقـته عن وقـتـه، أى وقت الإحضـار عن وقت التمتيع.

وهذه لمحة عبـقرية نادرة عند الإمام جـار الله لم يقلها أحد قبله، وقـد تناقلها عنه جُلُّ من جاءوا بعده.

أما الإمام أبو السعود فيقول:

(ومعنى الفاء الأولى ترتيب إنكار التشابه بين أهل الدنيا وأهل الآخرة على ما قبلها من ظهور الـتفاوت بين مـتاع الحـياة الدنيا وبـين ما عند الله تعالـى. أى: أبعد هذا التفاوت الظاهر يسوَّى بين الفريقين»[1].

وتابعهما الإمام الألوسى[2]. وكذلك قال الإمام الطاهر بن عاشور[3].

والخلاصة أن هذا الاستفـهام للإنكار - كما قال الأئمـة. ولكنه ليس لإنكار مجرد المساواة، بل لإنكار أن يكون بين الفريقين أى شبه كان.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿أفمن وعدناه وعدًا حسنا فهو لاقيه﴾ (من) كناية عن المؤمن التقى العامل بكتاب الله وسنة رسوله، وهو وإن كان مـفردًا فى اللفظ فهو عام فـى المعنى. والوعد الحسن كناية عن الجنة.

  وإيثار الجملة الاسمية ﴿فهو لاقيه﴾ للدلالة على ثبوت الوفاء بالوعد وتحققه.

* ﴿كمن متعناه مـتاع الحياة الدنيا، ثم هو يوم القيـامة من المحضرين﴾ تشبيه سلبى المشبه هو أهل الآخرة والمشبه به هو أهل الدنيا. ووجه الشبه - المنفى - هو المساواة.

---

(١) تفسير أبى السعود (٧/ ٢١).
(٢) روح المعانى (٢٠/ ٩٩).
(٣) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٥٥).

والتشبيه السلبى - كما تقدم بيـانه مرات - هو أن يكون الشبه معقودًا بين الطرفين خـارج دائرة القرآن والذى فى القـرآن هو إبطال ذلك التـشبيـه، ونفى أن يكون بين الطرفين صلة ما.

وإضافة (متاع) إلى الحياة الدنيا للتحضير والتقليل بدلالة المقام.

* و(**من المحضرين**) كناية عن أهل النار الخالدين فيها.

* * *

٨ - ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِىَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢].

الدراسة والتحليل:

هذا مشهد آخر من مشاهد القيامة عما سيحدث للمشركين يناديهم الله على رءوس الأشهاد. ويسألهم هذا السؤال الأثقل عليهـم من كل جبال الدنيا: أين شركائى الذين كنتم تزعمون؟

وهذا استفـهام مجازى قطعا. والمراد منه: التـعجيز والافحـام والتنديم والتبكيت. هذا خلاصة ما يقال فيه، وبعض الأئمة قصره على التوبيخ والتقريع[1].

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**ويوم يناديهم**﴾ إضافة (يوم) إلى جملة (يناديهم) فيها تهويل وتقريع، إذ تفيد هذه الإضافة كأن هذا اليوم الذى يفصل الله فيه فى كل شئون الخلق، كأنه كان خصيصًا لحساب الذين أشركوا، وكأنْ لا شأن ينظره الله فيه إلا شأنهم هذا.

* ﴿**فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون**﴾؟ تفصيل بعد إجمال فقد أجمل الدنيا، ثم فصله بما بعده.

والسؤال عن مكان الشركاء كناية توصل بها إلى إنكار وجودهم، وهذه الكناية ترد كثيرا فى النظم الحكيم، وقد مرَّ كثير من أمثلتها.

---

(١) البحر المحيط (٧/١٢٧) هامش الدر.

وإضافة شركاء إلى ضمير اسم الجلالة للتهكم بهم والسخرية بمن دعوهم لله شركاء.

* ﴿الذين كنتم تزعمون﴾: إيثار الموصول وصلته للتوصل إلى النعى على الزعم الذى كانوا يزعمونه فى الحياة الدنيا أما فى ذلك اليوم فقد أيقنوا أنهم كانوا كاذبين.

* * *

٩ - ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥].

الدراسة والتحليل :

لن يقتصر الحال على سؤالهم أين شركاؤهم. بل يستطرد النظم ويذكر أنهم بعد أن يتضح لهم (انعدام الشركاء) يؤمرون بالنداء عليهم فينادونهم فلم يجب عليهم مجيب. وهل العدم يجيب من ناداه؟ وفى هذا انتقال بهم من النظر الذهنى إلى التطبيق تبكيتا لهم بعد تبكيت:

﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ [القصص: ٦٤].

ثم يُسألون فيقال لهم: ﴿.. **ماذا أجبتم المرسلين**﴾ تذكيراً لهم بضلالهم الذى كانوا عليه فى الحياة الدنيا، ليبين لهم مبدأ ضلالهم ويصور لهم احتقارهم للرسل والاعتداء عليهم فتمتلىء أنفسهم حسرة وندما. ولكن بعد فوات الأوان.

وهذا الاستفهام:

﴿**ماذا أجبتم المرسلين**﴾ استفهام تقرير لهم بموقفهم من دعوات الرسل، تحسيرا لهم بعد تحسير. وهذه خلاصة ما يقال فيه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿ويوم يناديهم﴾ فيه ما فى الأول من التهويل والتفظيع والتقريع.

* ﴿**ماذا أجبتم المرسلين**﴾ فيه ما فى الأول من التفصيل بعد الإجمال، ثم التبكيت والتنديم.

* وفى ﴿يوم بناديهم﴾ هنا، ومن قبل، وحيث ورد كناية عن يوم القيامة. كناية عن موصوف.

* * *

١٠ - ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إلى يَوْمِ القِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ، أفَلاَ تَسْمَعُونَ﴾ [القصص: ٧١].

الدراسة والتحليل:

بعد أن ساق النظم الحكيم صوراً من مشاهد القيامة مما سيواجه به المشركون عاد إلى استئناف الحديث عن دلائل التوحيد، متخذا من صفحات الكون كتابا ناطقا بتلك الدلائل، لافتا أنظار العباد - بقوة - إلى النظر والتأمل فيما فوقهم وما بين أيديهم وما خلفهم من آيات الله البينات التى تغرس الإيمان بالله العظيم فى القلوب غرسًا. وتملأ كل النفوس روعة وهيبة وجمالاً:

فهذا الليل إذا أقبل وخيم بظلامه على الكون من الذى يستطيع - غير الله - أن يزيله بالضياء ليبتغ الناس من فضل ربهم، وليعلموا عدد السنين. والحساب، وتنتظم حركة الحياة فى كل مكان، وتملأ الشمس الوجود ضياء غامرًا، وتتفجر طاقاتها الخلاقة فى الحقول والمزارع والآفاق.

وليتفكر الناس ماذا كان سيكون حالهم إذا توارت الشمس إلى الأبد وراء الأفق. وليسألوا أنفسهم من الذى يملك إدارة الأفلاك فى مداراتها البديعة؟ من غير الله يملك هذا؟

وفى هذه الآية وردت ثلاثة استفهامات:

* **﴿قل أرأيتم﴾؟** * **﴿من إله غير الله﴾؟** * **﴿أفلا تسمعون﴾؟**

وقد عالجنا من قبل كثيرا من صور هذه الاستفهامات فى ضوء الأصول البلاغية، وما قاله السادة المفسرون مع ما أبديناه فى بعضها من إضافات استدعاها مقام الحديث. ونوجز - فيما يأتى - المراد من كل من هذه الاستفهامات الثلاثة:

* **الاستفهام الأول:** (أرأيتم) من المعروف أن الأئمة والبلاغيين والنحاة يرون أن هذا

الاستفهام وما كان على شاكلته هو بمعنى: أخبرونى.

وكنا قد ناقشنا هذا من قبل، ورجحّنا أن هذه الصيغة يكون المراد منها: استحضار صورة المستفهم عنه فى الذهن لـيُحْكَم عليها وهى حاضرة ماثلة فيه، كأنها يُنظر إليهـا بالعين سواء كانت الرؤية بصـرية أو علمية. ولـم نعدم مواقـفًا لنا فى هذا الرأى من الأئمة، كما تقدم.

* **أما الاستفهام الثانى ﴿من إله غير الله﴾** ؟ فهو للإنكار: إنكار أن يكون فى الوجود إله غير الله يأتى بضياء مكان ظلام الليل.

* **والاستفهام الثالث (أفلا تسمعون)** هو على مذهب الجـمهور المتقدم شـرحه مرات للتقرير بعدم السمع، والتوبيخ عليه، ثم الحث على تحصيله.

أما على مذهب الزمخشـرى فهو للإنكار. والمنكر هو المحذوف المقدر الذى دخلت عليه الهمزة. ومآل المذهبين واحد من حيث المعنى فى النهاية.

أسرار النظم وبلاغياته :

* **﴿قل أرأيتم إن جـعل الله عليكم الليل سـرمدًا﴾** تصدير هذه العبـارة بفعل الأمر (قل) للإيذان بأهمية المقول وكونه رسـالة خاصة يجب تبليغها فور تلقيـها، ومواجهة من أنزلت فى شأنهم.

والرؤية - هنا - علمية. أى تصوروا فى أنفسكم هذا كائنا.

وإيثار اداة الشرط (إن) على: إذا، لأن المشـروط فرضى تخييلى غـير كائن فى أى وقت من الأوقـات، والألف واللام فى (الليل) إمـا لتـعـريف الجنس أو للمـاهيـة. والسرمد الدائم الذى لا يزول.

* **﴿من إله غير الله يأتـيكم بضياء﴾** ولى (إله) أداة الاستفـهام (مَنْ) لأنه محط الإنكار، وأوثر ذكر (إله) وكان يمكن أن يقال: من يأتيكم؟ لأن حركة الأفلاك التى نشأ عنها الليل ليس فى مقدور أحد إلا أن يكون إلهًا، ولا إله إلا الله، وأوثر (ضياء) على: نور، لأن الضياء ما كان مصدره مباشرًا، وهو الشمس - هنا - أما النور فلا يكون إلا انعكاسًا لجسم مضىء بذاته.

وفى (ضياء) مجاز مرسل حيث أطلق المسبب، وأريد السبب، وهو الشمس. وسره البلاغى أن السبب - عامة - قد يكون ولا يكون المسبب، أما إذا كان المسبب فيلزم من كينونته وجود السبب وتنكير (**ضياء**) للتعظيم والتفخيم والامتداد والبسط وسعة الانتشار.

* (**أفلا تسمعون**) كانت الفاصلة - هنا - (تسمعون) لأن الحديث عن الليل، وفى الليل تضعف الرؤية أو تنعدم، وتشتد حدة السمع.

وإيثار ذكر اسم الجلالة (الله) فى ﴿**إن جعل الله عليكم الليل سرمدًا**﴾ وفى ﴿**من إله غير الله يأتيكم بضياء**﴾ لتربية المهابة فى النفوس، ولبيان فضله ومكان نعمته على عباده.

وفى مجىء الفاصلة مضارعا من الأفعال الخمسة غرضان بلاغيان:

الأول: تناسق الإيقاع الصوتى فى الفواصل، (**ترجعون - تسمعون - تبصرون**).

والثانى: تجدد المعنى وحدوثه بتجدد دواعيه وتكرارها وحدوثها.

* * *

١١ - ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَدًا إلَى يَوْمِ الْقِيامَةِ، مَنْ إلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ، أَفَلاَ تُبْصِرُونَ**﴾ [القصص: ٧٢].

الدراسة والتحليل:

ما قيل فى الآية الأولى يقال فى هذه الآية، من حيث الغرض العام، ومواضع الاستفهام والمراد من كلٍ من صوره الثلاث:

* (**أرأيتم**) - (**من إله**) · (**أفلا تبصرون**) ومن حيث أسرار النظم وبلاغياته فيها. لأن هاتين الآيتين بمثابة آية واحدة فى مفرداتها وتراكيبها، ولم يتباينا إلا فى مواضع يسيرة، هى:

* ذكر النهار فى الثانية مكان الليل فى الأولى.

* أفلا تبصرون فى الثانية مكان أفلا تسمعون فى الأولى.

* (ذكر تسكنون فيه) فى الثانية. وقد خلت منه الأولى والاستفهام الأول فيهما

(أرأيتم) لاستحضار صوره المستفهم عنه فى الذهن ليُحْكم عليه وهو ماثل فيه.

أما الثانى فيها (من إله) فهو للإنكار كما تقدم.

والثالث فيهما يحتمل - على مابينا فى الأولى - التقرير بعدم الرؤية وما يترتب عليه من معان ثانية.

والإنكار على الوجه الذى تقدم ذكره من قبل كثيرًا، وكان آخره ما ذكرناه فى الآية السابقة.

أسرار النظم وبلاغياته:

نقتصر فى هذا المبحث على ما لم نقله فى الأولى مما انفردت به هذه الآية، أو ورد فى الآيتين معًا، وأرجأنا الحديث عنه إلى هنا، ليتسنَّى لنا النظر فيما تكرر فيهما مع اتحاد الدلالة أو اختلافها.

والذى تتكرر فيهما مع اتحاد دلالة المكرر وكنا قد أرجأنا الحديث عنه هو شىء واحد. هو فعل الأمر (قل) فى صَدْرَى الآيتين:

* ﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدًا﴾؟

* ﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدًا﴾؟

هاتان الجملتان:

(قل) - (قل) اتحدتا فى الانشائية لفظا ومعنى والعلاقة بينهما - بهذا الاعتبار - هى التوسط بين الكمالين. وهى تقتضى عطف الجملة الثانية على الجملة الأولى بالواو.

ولكن النظم أتى بهما مفصولتين، وهنا يرد سؤال: لماذا لم تعطف الجملة الثانية على الجملة الأولى؟

فى بعض المواضع المتقدمة الشبيهة بهذا الموضع رأينا بعض الأئمة، يحمل الجملة الثانية على التوكيد اللفظى للجملة الأولى. وعلى هذا يكون بين الجملتين كمال الاتصال، وهو يقتضى الفصل دون الوصل.

وهذا - فيما نرى - توجيه سديد، لأن الآيتين كما تقدم بمثابة الآية الواحدة، فيكون ذكر (قل) مع مقولها توكيدا للأولى اقتضاه طول الفصل بين الموضعين فإن لم

تكن الثانية توكيدًا للأولى فهى بدل منها مشوب برائحة التوكيد.

ويجوز أن يكون بين الجملتين كمال الانقطاع، باعتبار أن موضع كل آية منهما مستقل بذاته. وعبرة عظيمة تستحق أن يُنظر إليها نظرا قائما برأسه لا يحتاج إلى غيره مما ذكر قبله أو بعده.

وكل توجيه من هذه التوجيهات صالح لبيان ترك الوصل بين الجملتين أما ما ذكر فيهما مع اختلاف الدلالة فهما:

(أفلا تسمعون) فى الأولى، **(أفلا تبصرون)** فى الثانية وقد عرفنا مناسبة **(أفلا تسمعون)** للمقام الذى ذكرت فيه أما **(أفلا تبصرون)** فإنها ناسبت المقام الذى ذكرت فيه من حيث أن الحديث مسوق لجعل النهار سرمدًا. ومعنى هذا أن الليل - هنا - ممْحُوٌّ غير موجود، والموجود هو النهار. فناسب أن يقال: **(أفلا تبصرون)** ليلائم الإبصار النهار وضوؤه مبسوط على الوجود كله.

وأما ما انفرد به الليل فهو **(تسكنون فيه)** حيث لم يُكْتَفَ بكلمة (ليل) الموحى بالاظلام، بل قال **(تسكنون)** واكتُفِىَ فى الأول بكلمة **(ضياء)** والسر البلاغى - فيما لاح لنا - أن الضياء فى نفسه نعمة، يحسن الاكتفاء بذكره، أما الليل ففى حاجة للنص على وجه الإنعام فيه وهى الركون إلى الراحة والنوم.

هذا، ونلحظ سرًا بديعًا فى التقابل بين الضياء فى الأولى، والسكون فى الثانية:

ففى الأولى لوَّح النظم بالضياء على الحركة الدءوب التى تقع فى النهار. وفى الثانية لوَّح بالسكون فى الليل بالظلام الداعى إلى وقف الحركة؛ أى: أن النظم فى الأولى ذكر السبب **(الضياء)** وأراد المسبب وهو الحركة، للابتغاء من فضل الله. وفى الثانى ذكر المسبب وهو السكون للراحة. وأراد السبب، وهو الظلام.

فتأمل هذا النظم البديع، والمعانى الرائعة، التى لوَّح بها أليست هذه سمات إعجاز مذهلة، وأدلة وبراهين قاطعة على أن القرآن ما نزل إلا بعلم الله، ومحال أن يكون له مصدر سوى الله عزَّ وجل.

* وفى **(لتسكنوا فيه)** مجاز مرسل بإطلاق السبب وهو السكون، وإرادة المسبب، وهو

الراحة والنوم لتجديد النشاط، وحفظ القوى الذهنية والبدنية من التلف.

أما تقديم الليل على النهار، والسكون الذى يكون فيه على النهار والحركة. فلإن الأصل هو الظلام، والسكون. أما الضياء والحركة، فهما تاليان فى الوجود للظلام والسكون بعد أن خلق الله الشمس والكواكب المشعة.

ومن البديه أن تنكير (ليل) للتكثير والتعظيم باعتبار ما فيه من نعم.

والآيتان - معا - مسوقتان لغرضين جليلين.

أحدهما: لفت الأنظار إلى مواطن الاعتبار فى ملكوت الله العلى العظيم.

والثانى: التخويف والتحذير من الكفر بالله واهب المنن، ومانح الرحمات.

وقد عقب على هذين الغرضين: ديمومة الليل، وديمومة النهار بقوله عز وجل:

﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه، ولتبتغوا من فضله، ولعلكم تشكرون﴾ [القصص: ٧٣] أى زاوج بينهما رحمة بكم لتشكروه.

* * *

١٢ - ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِى، أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا، وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾(١) [القصص: ٧٨].

الدراسة والتحليل:

قائل هذا الكلام هو قارون، وكان قوله هذا ردًا على الناصحين له بأن يبتغى فيما آتاه الله الدار الآخرة، وأن يحسن كما أحسن الله إليه، وألا يفسد فى الأرض.

فأخذته العزة بالإثم وركب جهله أو ركبه جهله فأنكر أن يكون لله فضل عليه. وعزا غناه إلى مهارته وعلمه. فهدده الله بالانتقام كما انتقم ممن قبله من هو أقوى وأكثر جمعا منه وأن الله إذا أخذ المجرمين فلا يرحمهم منه أحد، ولا يواسيهم أحد.

وقد ورد فى الآية هذا الاستفهام:

﴿أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعًا﴾؟

(١) تجاوزنا الآية [٧٤] وهي: «ويوم يناديهم فيقول اين شركائى الذين كنتم تزعمون» لانها تكرار للآية [٦٢] التى درسناها من قبل.

وفى هذا الاستفهام يقول الإمام الزمخشرى:

(يجوز أن يكون اثباتا - يعنى: تقريرا - لعلمه بأن الله قد أهلك من القرون قبله من هو أقوى وأغنى؛ لأنه قرأه فى التوراه، وأخبر به موسى، وسمعه من حفاظ التواريخ والأيام، كأنه قيل (أولم يعلم) فى جملة ما عنده من العلم هذا حتى لا يغتر بكثرة ماله وقوته).

ويجوز أن يكون نفيًا - إنكارًا - لعلمه بذلك، لأنه لما قال (**أوتيته على علم عندى**) فتنفج بالعلم وتعظم به، قيل: أعنده علم مثل ذلك العلم الذى ادَّعاه، ورأى نفسه به مستوجبة لكل نعمة، ولم يعلم هذا العلم النافع حتى يقى به نفسه مصارع الهالكين)[1].

ردَّد الإمام الزمخشرى المراد من الاستفهام المجازى هنا بين أن يكون للتقرير، وأن يكون للإنكار، وقد ذكر لكل منهما ما يناصره.

ونهج الإمام أبو السعود نهج الإمام الزمخشرى مع اختلاف العبارات - فى الغالب - واتحاد المعنى، فقال فى توجيه التقرير:

﴿**أو لم يعلم..**﴾: توبيخ له من جهة الله تعالى على اغتراره بقوته وكثرة ما له مع علمه بذلك قراءة فى التوراة وتلقيا من موسى عليه السلام، وسماعا من حفاظ التواريخ وتعجب منه فالمعنى: ألم يقرأ التوراة، ولم يعلم ما فعل الله بأضرا به من أهل القرون السابقة حتى لا يغتر بما اغتروا به)[2] وقال فى توجيه الإنكار:

(أو ردٌّ لادعائه العلم وتعظمه به بنفى هذا العلم عنه فالمعنى: أعَلِمَ ما ادعاه ولم يعلم هذا حتى يقى به نفسه مصارع الهالكين)[3].

ونحا نحوهما الإمام الألوسى فردد الاستفهام بين التقرير والإنكار.

وابن عاشور - كعادته - قال أن الاستفهام فى ﴿**أو لم يعلم**﴾ استفهام إنكار، ثم فسره تفسير استفهام التقرير حيث قال:

---

(١) الكشاف (٣/ ١٩١).

(٢) تفسير أبى السعود: (٧/ ٢٥).

(٣) روح المعانى (٢٠/ ١٩).

(والهمزة فى (أو لم يعلم) للاستفهام الانكارى التعجيبى تعجبًا من عدم جريه على موجب علمه)؟[1].

والخلاصة: أن المعانى التى رددها الأئمة فى المراد من هذا الاستفهام هى:

إما التقرير، وإما الإنكار أما المعانى الثانية فهى التوبيخ والتعجيب، والذى يلوح لنا أنه للتقرير لا للإنكار، وهو المعنى الذى حرص الأئمة على ذكره قبل الإنكار ما عدا ابن عاشور. والقول بالإنكار لا يتأتى إلا على مذهب الزمخشرى، أما مذهب الجمهور القاضى بتقديم الهمزة من تأخير فلا يترتب عليه إلا التقرير، لما تقدم من أن نفى النفى إثبات. والهمزة الداخلة على (لم) نفت النفى الحاصل بها فعاد الكلام اثباتًا.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**قال إنَّما أوتيته على علم عندى**﴾ فصلت هذه الجملة عما قبلها للاستئناف البيانى؛ لإنه جواب عن سؤال نشأ من قول الناصحين له المذكور قبل هذه الجملة مباشرة.

وفى ﴿**إنَّما أوتيته على علم عندى**﴾ قصر صفة الإيتاء على العلم الذى ادعاه وتوكيد الخبر إشارة إلى تحققه فى زعمه ونكران فضل الله عليه وتنكير (**علم**) للتعظيم بدلالة المقام. أى علم ذو شأن عظيم.

* (**أولم يعلم أن الله قد أهلك..**) الاستفهام للتقرير لأنه باعتباره استحق قارون السخط من الله.

وقد أكد الإخبار بإهلاك الله القرون الظالمة بـ أن - وقد واسمية الجملة.

وفى القرون مجاز مرسل علاقته الزمانية؛ لأنه أطلق الزمن وأراد من فيه من الأجيال التى عتت عن أمر ربها. وفى (**جمعا**) ما يشبه الفن البديعى المسمى بـ(التوجيه) فى الدلالة على معنيين دون ترجيح أحدهما على الآخر، لأن معنى (**جمعا**) يحتمل أن يكون من جمع المال يجمعه جمعا. أو يكون معناها كثرة العشيرة،

---

(١) التحرير والتنوير: (٢٠/ ١٨٢).

كقوله تعالى: ﴿**سيهزم الجمع ويولون الدبر**﴾ [القمر: ٤٥] لأن من كان فى ثراء قارون التف الناس حوله.

فإن كان الأول فالعبارة كناية عن الغنى، وإن كان الثانى فالعبارة كناية عن كثرة الأعوان.

* ﴿**ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون**﴾ السؤال المنفى هو سؤال التناصر لا التخذيل والتأنيب. أو المنفى سؤال الشفقة: وبناء الفعل لما لم يسمه فاعله إيحاء إلى أن هذا السؤال المنفى ليس له فاعل فى الوجود. فيكون الحذف كناية تُوصّل بعدم الفاعل فيها إلى انعدام الفعل نفسه. وهو سؤال التناصر والاشفاق.

* * *

سورة العنكبوت

١ - ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا، وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾

[العنكبوت: ٢].

الدراسة والتحليل:

سورة العنكبوت من السور المكيـة على المشهور عند أهل العلم، بل هى من أواخر ما نزل بمكة، إذ لم ينزل بعدها بمكة، إلا سورة (المطففين)، ومن أبرز موضوعات هذه السورة تقرير أن الابتلاء سنة من سنن الله فى عبـاده، ثم عرض قصص بعض الأنبياء عرضاً سـريعاً، مع الاهتمام بـلفت الأنظار إلى دلائل الإيمان وحتميـة البعث والتنويه بفضل القرآن والنعى على الشرك.

وأول استفهام ورد فى هذه السورة كان فى الآية الثانية وهو:

﴿أحسب الناس أن يتـركوا أن يقولوا أمـنا وهم لا يفتنون﴾ وهى تقرر سـنة ابتلاء الله عباده، وينعى عليهم حسبانهم أن الإيمان ينافى الابتلاء والاختبار.

وسبب نزول هذه الآيات أن بعـض المؤمنين ظنوا أن من نطق بالشهـادتين ينبغى أن يعيش آمنا موسعاً عليـه فى الرزق وفى وقاية من ضروب الابتلاء، والذى ولَّد عندهم هذا الاحساس الأذى الذى كانت تلحقه قريش بمن بادر إلى الدخول فى الإسلام.

فنزلت أوائل سـورة العنكبوت تصـوب هذا الخطأ عند من ساورته هذه الـهواجس وتثبت قلوبهم على الإيمان والصبر على البلاء.

فى المعنى المراد من هذا الاستفهام يقول الإمام جار الله الزمخشرى:

(أحسب الذين أجـروا كلمة الشهـادة على ألسنتهم، وأظهـروا القول بالإيمان أنهم يتركون بذلك غير ممتحنين)[1].

معنى كلامه أن الاستفهام إنكارى، بيد أنه لم يصرح به.

---

(١) الكشاف (٣/ ١٩٥).

ولما تناول الإمام أبو السعود هذا الاستفهام بالحديث صرّح فى عقب كلامه بالإنكار، فقال:

(أحسبوا أنفسهم متروكين بلا فتنة بمجرد أن يقولون أمناً).

(أو أحسبوا تركهم غير مفتونين بقولهم آمنًّا حاصلاً متحققاً)، والمعنى إنكار الحسبان المذكور واستبعاده وتحقيق أنه تعالى يمتحنهم بمشاق التكاليف، ليتميز المخلص من المنافق والراسخ فى الدين من المتزلزل فيه، ويجازيهم حسب مراتب أعمالهم[1].

وبدأ الإمام الألوسى الحديث ببيان الاستفهام للإنكار ثم أفاض فى المباحث اللغوية وساق - فيما ساق - عبارة الإمام أبى السعود فى تقدير مفعولى الحسبان لفظاً ومعنى[2]، واقتفى الإمام البيضاوى خطى الإمامين الزمخشرى وأبى السعود، جامعاً فى النقل بين عباراتهما[3].

وكذلك ذهب الإمام الطاهر إلى القول بالإنكار مضيفاً إليه التعجيب، وقال: إن فاعل الفتنة هم الكفار وهذا وَهْمٌ منه، لأن الله أسند الفتنة إلى نفسه فى الآية التى بعدها، وهى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾.

والخلاصة: أن هذا الاستفهام للإنكار الذى أجمع عليه الأئمة، ولا نرى وجهاً لإضافة التعجيب إليه كما ذهب الإمام الطاهر.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **﴿أحسب الناس﴾** إيثار الماضى لأن الحسبان الذى سلط عليه الإنكار واقع متحقق، فناسب ذلك التعبير عنه بالماضى.

وفى (الناس) مجاز مرسل، حيث أطلق العام المنتظم لجميع أفراد الناس، ثم أريد الخاص، وهم الذين حسبوا هذا الحسبان من المؤمنين.

* **﴿أن يتركوا أن يقولوا آمنَّا﴾** أوثر المصدر المؤول على المصدر الصريح: قولهم، لأن

---

(١) تفسير أبى السعود (٧/ ٢٩).

(٢) روح المعانى (٢٠/ ١٣٣).

(٣) تفسير البيضاوى (٢/ ٢٠٣).

الفعل المضارع قبله، وهو (**يتركوا**) يستلزم مجئ المـصدر المؤول (أن يقولوا)، إذ لا معنى لو كان قيل: أن يُتركوا قولهم، لأن (**يتركوا**) يفيد معنى الاستقبال، والمصدر الصريح لخلوه من الدلالة على الزمن لا يناسب هذا المعنى.

وبناء (**يتركوا**) لما لم يسم فاعله لأن الغرض لا يتوقف على تعيين الفاعل، بل على حدوث الفعل فى نفسه وتصوره واقعاً.

* ﴿**وهم لا يُفتنون**﴾ الواو للحال، أى أحسبوا أن دخولهم فى الإيمان يجعلهم متروكين حالة كونهم معافين من ضروب الفتن.

وقد أكد تركهم بلا فتنة حسب ما كانوا يظنون بثلاثة مؤكدات:

الأول: إسناد فعل الفتنة - منفياً - إلى ضميرهم وهو الواو النائب عن الفاعل.

والثانى: إسناد الجملة برمتها إلى (هم) وهو ضميرهم كذلك.

والثالث: اسمية الجـملة، يعنى أن حسبان الناس هذا الذى حسبـوه كان قوياً، وقد تقدم أن النظم الحكيم يعبِّر عن المعانى تعبيراً دقيقاً على حسب ما كان المحكّى عنهم أو المتحدث عنهم يفكرون وإن لم يظهروا تفكيرهم فى أقوال.

وفى الفتنة استعـارة تصريحية تبعية، لأن معنى الفَـتْن فى اللغة صَهر الذهب بالنار لصقله وتنقيته من الشوائب.

فاستعيرت الفتنة للابتـلاءات، التى يمحص الله بها عباده، فتقوى إرادتهم، ويعظم صـبرهم، ويوطنون أنفـسهم علـى تحمل المشـاق، ومواجـهة المحن، والثـبات أمـام الملمات.

وقد تحقق هذا الغرض للمسلمين فى مكة قـبل الهجرة، حيث ظلوا أكثر من ثلاث عشرة سنة، يصمدون أمام عـنت قريش وصنوف آذاها، فلم تستطع إخراج مسلم من إسلامه، ولا استطاعت أن تكف الناس عن الدخول فى الإسلام، على رغم ما أنزلت بهم من أذى، وما لاحقتهم به من اضطهادات، وكفى بـعزلهم ومقاطعتهم للمسلمين ثلاث سنوات، منعوا عنهم خلالها الزاد والمـاء والرواحل، وخرج المسلمون فى النهاية منتصرين.

* * *

٢ - ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤].

الدراسة والتحليل:

الآية السابقة واجهت خطأ وقع فيه بعض المؤمنين وهو ظنهم أن الإيمان يكسب المؤمن حصانة من إجراء أحكام الله عليه فى الابتلاء والاختبار، وأنه بمقتضى إيمانه ناجٍ من الشرور.

وهذه الآية تواجه خطأ آخر أشد شناعة، وأكبر إثماً لكن فى معسكر الكافرين دون المؤمنين، وذلك الخطأ هو تمادى مشركى مكة فى تعذيب المؤمنين ومطاردتهم وإلحاق السوء بهم.

وقد حملهم ضعف المؤمنين وعدم تصديهم ومهاجرتهم إلى الحبشة مرتين، حملهم هذا الواقع على أن يظنوا أنهم سبقوا المؤمنين إلى العزة والانتصار، فسجَّل الله هذا عليهم، ثم هدد هم عليه ووصف عملهم وظنهم بالسوء وأنهم فى النهاية مغلوبون وإن طالت هدنتهم.

وقد ورد فى هذه الآية هذا الاستفهام:

﴿أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا﴾؟ وهو استفهام إنكار ووعيد باتفاق أهل العلم، لأن الله وإن أهملهم فلن يفلتوا من بطشه ونقمته، ولكل أجل عنده كتاب.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **﴿أم حسب﴾** أم منقطعة بمعنى بل والهمزة: بل للإضراب الانتقالى من تثبيت المؤمنين إلى تهديد ووعيد الكافرين، أما الهمزة فهى لإنكار حسبان الكافرين أنهم ناجون من عقاب الله لهم على تكذيب رسوله الكريم، وتعذيب أوليائه الصالحين.
* **﴿الذين يعملون السيئات﴾** أوثر الموصول وصلته على الاسم الصريح - مشركى مكة - للتسجيل عليهم بعمل السيئات، وهى الاعتداء المتعمد على الذين سارعوا إلى الدخول فى الإسلام، حيث لم يكتف هؤلاء المجرمون برفضهم ما أنزل الله على

رسوله ﷺ بل امعنوا فى الصد عن سبيله واضطهاد الداخلين فيه وإيثار المضارع (**يعملون**) للدلالة على تلبسهم بعمل السيئات ومعاودتهم لها حيناً بعد حين.

وفى التعبير بـ(**السيئات**) تقبيح لأعمالهم وتبشيع لها، لأنها اعتداء على حرمات أهلها الأبرياء.

* (**أن يسبقونا**) استعارة تصريحية تبعية شبه فيها استمرارهم على تعذيب المؤمنين، وظنهم النجاة من أى عقاب يقع بهم بالمسارعة والسبق، والجامع عدم اللحاق فى كل منهما.

* (**ساء ما يحكمون**) استئناف مقرر لمعنى ما قبله وفى (**يحكمون**) استعارة تهكمية، حيث شبه إصرارهم على العداء والتنكيل بالمؤمنين بالحكم الذى يصدره قاض له قوة وسلطان، بجامع نفاذ الأمر فى كل منهما، مع أن الذى يعملونه صادر عن أوهام وفساد عقولهم وقلوبهم، وهم مؤاخذون بما يعملون. والجملة، وإن كانت خبرية فهى مسوقة للذم والوعيد والتهديد وسوء المصير.

* * *

٣ - ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ، فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ، وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ، أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠].

الدراسة والتحليل:

تتحدث الآية عن طائفة من المنافقين دخلوا فى الإسلام بألسنتهم ولم يتمكن الإيمان فى قلوبهم، وحين وقع عليهم أدنى أذى من خصوم الدعوة عادوا بقلوبهم إلى الكفر وظلوا فى الظاهر يتدثرون بوشاح الإسلام، كفروا مخافة أذى الناس وآمنوا مخافة عذاب الله، فجعلوا أذى الناس مخوفا كعذاب الله.

وحين يغنم المسلمون غنيمة يسارعون إليهم مطالبين بنصيبهم قائلين إنا كنا معكم، يخادعون بذلك الله ورسوله، وقد أنساهم جهلهم أن الله محيط علماً بكل شئ.

وقد ورد فى هذه الآية هذا الاستفهام:

﴿أوليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين﴾؟

وتعقيبات الأئمة القدماء تومئ إلى أن المراد من الاستفهام هنا هو التقرير وإن لم يصرحوا به.

والطاهر بن عاشور ردده بين الإنكار والتقرير مقدماً الإنكار على التقرير.

والخلاصة: أن الاستفهام فى الآية استفهام تقرير، لأن همزة النفى دخلت على (ليس) فنفت النفى الحاصل بها فصار الكلام إثباتاً، والمقام يقتضى هذا المعنى لأن الكلام مسوق للرد على المنافقين الذين أبطنوا الكفر وأظهروا الإيمان فهددهم الله بأنه يعلم ما فى الصدور.

أما الإنكار عند من جوَّزه فلا وجه له لا من حيث النظم والتركيب، ولا من حيث دلالة المقام.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿.. من يقول آمنَّا بالله﴾ أوثر (أن يقول) على: يؤمن إشارة إلى أن هذا الفريق مدعى إيمان وليس مؤمناً حقيقياً بل إيمانه قول باللسان فحسب ولو قيل من «يؤمن» لكان إيمانه حقاً.

* ﴿جعل فتنة الناس كعذاب الله﴾ صورة تشبيهية المشبه فيها هو فتنة الناس، والمشبه به هو عذاب الله، ووجه الشبه - كما أومأ إليه الإمام الزمخشرى - هو المساواة فى التأثير، فكما أن عذاب الله يصرف المؤمن عن الكفر إلى الإيمان خشية التعرض له، فإن أذى الكافرين يصرف عن الإيمان بالله إلى الكفر[1].

﴿ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم﴾ اللام موطئة للقسم، و(إن) شرطية، و(ليقولن) جواب القسم سد مسد جواب الشرط، يقسم الله عز وجل أن سلوك المنافقين فى مثل هذه المواقف هو هذا السلوك الكاذب وأن ليس لهم سلوك سواه حين تواتى الفرصة.

أما توكيد المنافقين الخبر: (إنَّا كنا معكم) بـ«أن + اسمية الجملة فلإحساسهم أنهم كاذبون محتاجون لترويج كذبهم إلى توكيده، وإخراجه مخرج الصدق.

---

(١) انظر عبارة الزمخشرى فى: الكشاف (٣/١٩٨).

* ﴿أوليس الله بأعلم﴾ أجاز النحاة دخول حرف الجر (الباء) على خبر ليس ولم يذكروا له فائدة من حيث المعنى، والذى يلوح لنا - بلاغياً - أن فائدته تقوية النسبة بين طرفى الإسناد ومحال عراؤه من معنى يدل عليه.
* ﴿بما فى صدور العالمين﴾ مجاز مرسل علاقته المكانية، أى الأسرار الدفينة فى صدور الناس وإن لم يفصحوا عنها، والمراد من العبارة التهديد.

* * *

٤ - ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية من آيات الحجاج ولفت الأنظار إلى آثار قدرة الله الباهرة القاهرة، وقد ورد فيها هذا الاستفهام: ﴿أولم يروا كيف يُبْدئُ الله الخلق، ثم يعيده﴾، والسادة المفسرون منهم من لم يبين المراد من الاستفهام الذى معنا، ومنهم من بينه، والذين بينوه، وهم أبو السعود والألوسى والطاهر قالوا: إن المراد منه الإنكار، ولكنهم فسروه تفسير التقرير؟ فالإمام الألوسى يتابع الإمام أبا السعود على أن الإنكار مسلط على عدم رؤيتهم الموجب لتقريرها، وهذه هى عبارة أبى السعود.

(والهمزة لإنكار عدم رؤيتهم الموجب لتقريرها، أى ألم ينظروا ولم يعلموا علماً جارياً مجرى الرؤية فى الجلاء والظهور كيفية خلق الله تعالى الخلق ابتداء من مادة ومن غير مادة، أى: قد علموا)[1] وقد ذكرها الإمام الألوسى بتمامها[2].

ويقول الطاهر بن عاشور:

(والهمزة للاستفهام الإنكارى عن عدم رؤيتهم، نزلوا منزلة من لم ير فأنكر عليهم[3]).

والخلاصة: إن النظر فى مآل كلامهم هذا يفضى إلى أن الاستفهام فى الآية للتقرير لا للإنكار، وقد قال أبو السعود فى نهاية كلامه: أى قد علموا، وكذلك الألوسى، أى: قد علموا ذلك، أما الطاهر فقال نُزِّلُوا منزلة من لم ير؟

---

(١) تفسير أبى السعود: (٧/ ٣٤). (٢) روح المعانى (٢٠/ ١٤٦).
(٣) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٢٨).

وإذا كان الأمر كما قالوا فما المانع من حمل الاستفهام على التقرير من أول الأمر، وإن كان لابد من ملاحظة الإنكار فليكن تابعاً للتقرير ومتولداً عنه.

أى: يقررهم الله تعالى برؤيتهم لما ذكر، ثم ينكر عليهم عدم جريهم على موجب علمهم.

هذا ما ينبغى القول به دونما سواه، والمقام يستدعى أن يكون الاستفهام فى الآية للتقرير، لأن الكلام مسوق فيه للتوقيف والإلزام.

وهذا ما أخذنا به أنفسنا فى هذه الدراسة، ولا محيد لنا عنه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**أولم يروا**﴾ الهمزة مقدمة من تأخير - كما ذهب جمهور أهل العلم، والأصل: وألم يروا، فدخلت همزة الاستفهام على «لم» فأزالت النفى الواقع منها على فعل الرؤية، فصار المعنى إثباتاً، وهذا هو التقرير الذى رجحناه من قبل وهنا والرؤيا هنا علمية، لأن طريق حصول هذا العلم هو التأمل وليس البصر، حتى وإن كان للبصر مدخل هنا فالمعول عليه فى حصول المعرفة فى هذا الموضع ونظائره هو العقل.
* ﴿**كيف يُبدئ الله الخلق**﴾ اللفظ لفظ الاستفهام والمعنى ليس استفهاماً؛ لأن المراد بـ(كيف) هنا هو الكيفية الواقعة مفعولاً أول للرؤيا، وهذا المفعول الأول سد مسد المفعولين لاكتفاء المعنى به، والتقدير ألم يعلموا كيفية إبداء الله الخلق، وهذا معنى تام يحسن السكوت عليه من المتكلم والسامع، أما اشتراط ذكر المفعولين معاً فهذا يتجه فى الرؤيا العلمية الواقعة على الذوات أو الأشخاص، مثل: علمت خالداً شجاعاً.

أما فى هذه الآية فالمستفهم عنه معان مجتمعة.

* ﴿**ثم يعيده**﴾ من حمل الرؤية فى الآية على (البصرية) استشكل عطف الإعادة على البدء، لأنه غير داخل فى معمول الرؤية، ولذلك قدروا عطفه على الجملة (**أولم يروا**) برمتها، وكذلك من حملها على (العلمية)، كما أشار الإمام الألوسى، لأن العلم بكيفية الإعادة، قد يستشكل عطفه على العلم بكيفية البدء هذا إذا فسرت الإعادة بالبعث بعد الموت.

وقد ذكر بعض الأئمة معنى آخر للإعادة، وهى تكرار خلق الكائنات من الإنسان والحيوانات العجماوات والنبات، وعلى هذا يكون الله تعالى قد لفت أنظارنا إلى كيفية تصرفات قدرته الفائقة فى الحياة من إحلال وتجديد وتوالد طوراً بعد طور، لأن من قدر على البدايات قدر - لا محالة - على فعل كل شئ ومنه بعث الموتى.

وهذا معنى صحيح، والمقام لا يأباه، ويغنينا عن كثير من التكلفات فى توجيه العطف بـ(ثم) هنا للإعادة والمتبادر إلى الفهم أن العطف على (يبدئ) لا على الجملة (**أولم يروا**)، ثم إن حرف العطف (ثم) مع ما فيه من الدلالة على التراخى يرشح العطف على (يبدئ) لأن المعطوف (يعيده) نظير المعطوف عليه، وبين كل بدء وإعادة فاصل من الزمن يُقدر حسب المقام الوارد فيه، وما أكثر ما لوَّح النظم الحكيم بمثل هذا على وقوع البعث مثل: (**كذلك الخروج**).

* ﴿**إن ذلك على الله يسير**﴾ استئناف مسوق لتقرير ما قبله من قدرة الله على التصرف فى الخلق إحياءً وإماتة وإعادة.

وقد أكدت الخبر فى هذه العبارة بـ(إن + اسمية الجملة)، كما أوثر اسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد، وهو (ذلك) وكأنه يقول:

إن ذلك الذى يرونه بعيداً هو علىّ يسير.

والذى نراه حاسماً لهذه المسألة أن المراد من الإعادة هى البعث بعد الموت، ودخولها فى حيز الرؤية، باعتبار ورود البراهين والأدلة القاطعة على إمكانها عقلاً، ووجوبها شرعاً، إن هذا نزل لوضوحه وضرورة التسليم به منزلة ما يرى بالبصر إن كانت الرؤية بصرية، أو منزلة ما حصل به العلم الضرورى إن كانت الرؤيا علمية، وما أكثر ورود هذا التنزيل فى كتاب الله العزيز.

* * *

٥ - ﴿أَئنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ الْمُنكَرِ، فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾

[العنكبوت: ٢٩].

الدراسة والتحليل:

صراع لوط مع قومه من الوقائع المتكرر ورودها فى القرآن وبخاصة فى العهد المكى، وكان فيه للقصص - بعامة - دور كبير فى العظة والاعتبار، وقد مرَّ ورود هذا الصراع أكثر من مرة فى الصور الاستفهامية التى درسناها حتى الآن، وكانت جريمة الفاحشة مع الرجال هى وحدها قطب الدائرة فى قصة لوط مع قومه فى الأعراف وفى الحجر وفى غيرهما، أما هنا فى سورة العنكبوت فقد أطلت علينا جريمتان مضافتين إلى جريمة الفاحشة مع الرجال، وهما:

* قطع الطريق.
* ثم مكان ارتكاب تلك الفاحشة الجماعية، وهو نادى قوم لوط يعنى: أنها جريمة (منظمة) وجماعية بلغة عصرنا.

والجرائم الثلاث وردت فى حيز هذا الاستفهام:

* **﴿أئنكم لتأتون الرجال﴾؟**
* **﴿وتقطعون السبيل﴾؟**
* **﴿وتأتون فى ناديكم المنكر﴾؟**

ومن البديه أن المراد من هذا الاستفهام - أصالة - هو الإنكار، إنكار الواقع المخزى الذى كان عليه القوم، ويردف على هذا الإنكار معان أخرى يوحى بها المقام، وهى: التوبيخ والزجر والاستقذار، وهذا خلاصة ما قيل وما يمكن أن يقال فيه[1].

أسرار النظم وبلاغياته:

كان قبل هذه الآية قول الحق تبارك وتعالى: **(ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحدٍ من العالمين)** وبعده وردت آيتنا مبدوءة بقوله:

---

(١) انظر روح المعانى - مثلاً - (٢٠/ ١٥٣) وما بعدها.

* ﴿أئنكم لتأتون الرجال..﴾ فتكون هذه استئنافاً مسوقاً لتفصيل ما أجمل فى الآية الأولى من قوله ﴿إنكم لتأتون الفاحشة﴾ لأنه لو لم يذكر هذا التفصيل لاحتمل قوله الأول أن تكون الفاحشة التى يأتيها قومه هى الزنا، ولكن لما قال: ﴿أئنكم لتأتون الرجال﴾، اتضح المراد من الفاحشة فى الأولى، وعلى قراءة الجمهور: ﴿إنكم لتأتون الفاحشة﴾، فى الآية الأولى تكون جملة ﴿أئنكم لتأتون الرجال﴾ بدلاً أو عطف بيان، وتكون العلاقة بين الجملتين هى كمال الاتصال.

وحذف المقطع الذى ورد فى غير هذه السورة، وهو: الفاحشة أو شهوة من دون النساء، حيث لم يذكر شئ من ذلك فى آية العنكبوت هذه؛ لأن قوله تعالى فى الآية الأولى: ﴿إنكم لتأتون الفاحشة﴾ يغنى عنه.

* ﴿أئنكم لتأتون الرجال﴾ توكيد الخبر هنا قبل دخول همزة الاستفهام عليه بـ(إن + اسمية الجملة - لام التوكيد) لتشديد الإنكار وتقويته، ولأن إتيانهم الرجال كان واقعاً محققاً فدُلَّ عليه بكلام يطابق الواقع.

وفى (تأتون) كناية عما يستقبح ذكره، وينبغى صون اللسان عن التدنس به.

* ﴿وتقطعون السبيل﴾ هذه العبارة من جوامع الكلم لكثرة المعانى الصالحة للدلالة عليها، وإن تفاوتت الدلالة قوة وضعفاً فالمتبادر إلى الذهن أن قطع الطريق الاعتداء على المارة وإخافتهم بانتهاك حرمة المال والجسد والدم، والعبارة على هذا كناية عن العنف والترهيب أو مجاز مرسل بإطلاق المسبب وإرادة السبب وهذه أقوى الدلالات.

أو المراد قطع النسل بهجر أسبابه «نكاح النساء» والعبارة على هذا كناية عن انعدام التناسل أو استعارة تصريحية تبعية، حيث شبه انعدام التناسل المترتب على جرائمهم بقطع الأرحام وتعطيلها عن الإنجاب قطعاً حقيقياً، وسرها تبشيع جرائمهم وتصويرها بصورة الواقع المادى المحسوس.

أو يكون المراد بقطع الطريق منع المارة من السير فيه سيراً حقيقياً خشية أن يُعتَدَى عليهم ويُجْبَرون على فعل الفاحشة فيهم والعبارة على هذا مجاز عقلى فى النسبة الإيقاعية أى تقطعون سير أهل الطريق فى الطريق.

فانظر إلى هذه المعانى المدلول عليها بالعبارة المكونة من كلمتين هما: (وتقطعون السبيل).

* **﴿وتأتون فى ناديكم المنكر﴾** الجريمة الواحدة تختلف تخفيفاً وتغليظاً باختلاف ملابساتها، فالزنا جريمة، فإذا كان بحليلة الجار كانت أشد قبحاً، واللواط جريمة قذرة، فإذا مورس علنا كان جريمتين لا جريمة واحدة، وهذا ما أنكره لوط - عليه السلام - على قومه، حيث كانوا يجتمعون من أجل اللواط ويمارسونه فى مجالسهم.

وفى إيثار المضارع (تأتون) غرضان بلاغيان:

الأول: بيان أنه كان عادة لهم ودأباً لا يرعوون عنه.

الثانى: استحضار تلك الصورة الدنيئة وكأنهم كانوا يمارسونها ساعة خوطبوا هذا الخطاب.

وفى إيقاع الإتيان على المنكر، إشعار من أول الأمر بقبح فعلتهم التى ينكرها الذوق والعفة، والخلق القويم.

﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين﴾ حُصِرَ جوابهم هنا فى هذا القول، وهو استعجالهم بالعذاب مع التهييج عليه والإلهاب، المقصور هو الجواب والمقصور عليه هو استعجالهم العذاب.

وحُصِر جوابهم فى سورة الأعراف فى إخراجهم من القرية هكذا **(فما كان جواب قومه إلا أن قالوا: أخرجوهم من قريتكم إنهم أُناس يتطهرون)**، فالمقصور هو جوابهم، والمقصور عليه قولهم أخرجوهم من قريتكم، ولا منافاة بين الحصرين، لأن ما قاله القرآن عنهم حكاية معانٍ لا حكاية ألفاظ، ولا مانع أن يكون قوم لوط قالوا هذه مرة، وذاك مرة أخرى، فذكر النظم الحكيم فى كل موضع من مواضع الحكاية بعض ما قالوه هنا وبعضه هناك.

* * *

٦ - ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

الدراسة والتحليل:

قبل هذه الآية حكى الله عز وجل عن مشركى العرب واحدة من حماقاتهم فقال: **﴿وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه..﴾**، وهذه العبارة رددها كثير من مكذبى الرسل، وقد رد النظم الحكيم على هذه الحماقة - هنا - مرتين أو ردين قال فى الأول، بقية الآية التى ذكرنا فقرة منها الآن: **﴿قل إنما الآيات عند الله، وإنما أنا نذير مبين﴾**، أمر الله رسوله الكريم أن يواجههم بهذا القول، يعنى أن أمر الآيات - أى المعجزات - موكول إلى الله، يمسكها أو ينزلها على مقتضى حكمته، لأنه صاحب الأمر كله وهو - وحده - فاعل المعجزات.

هذا هو الرد الأول، أما الرد الثانى فهو ما جاء فى الآية - موضوع الدراسة - وقد صُدِّرت بهذا الاستفهام **﴿أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يُتلى عليهم..﴾**، والمراد بـ**(الكتاب)**، القرآن، وهو أعظم معجزة يؤيد الله بها رسولاً من رسله.

فهؤلاء عندما قالوا: **﴿لولا أنزل عليه آيات من ربه﴾** كان بين أيديهم، وملء سمعهم وأبصارهم معجزة ضخمة خالدة، لا يحتاج الرسول الذى أُيِّد بها إلى معجزة أخرى سواها تدل على صدق رسالته.

وسادتنا المفسرون حملوا هذا الاستفهام على الإنكار وبدأ هذا القول الإمام أبو السعود من القدماء، ثم الطاهر بن عاشور من المحدثين، أما الإمام الزمخشرى فلم يقل فيه شيئاً، وإن كان شرحه لمعنى الآية يفهم منه أن الاستفهام فيها للتقرير(١).

يقول الإمام أبو السعود:

﴿أولم يكفهم﴾ كلام مستأنف وارد من جهته تعالى رداً على اقتراحهم وبياناً لبطلانه، والهمزة للإنكار والنفى، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى: اقصَّر - يعنى القرآن - ولم يكفهم آية مغنية عن سائر الآيات.

---

(١) الكشاف (٣/ ٢٠٩)، تفسير أبى السعود (٧/ ٤٣)، والتحرير والتنوير (٢١/ ١٤).

ومن الملاحظ أن الإمام أبا السعود أجرى هذا الاستفهام على مذهب الزَّمخشرى القاضى بدخول الهمزة على محذوف وقد قدره أبو السعود - هنا - فقال: أقصَّر ولم يكفهم، يعنى أقصَّر القرآن فى الدلالة على المعجزة فهم لذلك اقترحوا آية بدلاً منه؟

أى أن الإنكار الذى قال به أبو السعود مسلط على المحذوف الذى قدَّره، هذا مراده، أما لو كان قد أجرى الاستفهام على مذهب الجمهور القاضى بتقديم الهمزة من تأخير لما ساغ له - ولا لغيره - القول بالإنكار ،أما الإمام الطاهر فقد جعل المعطوف عليه هو قوله تعالى: ﴿**وإنما أنا نذير مبين**﴾ ومع هذا حمل الاستفهام على الإنكار، وهذا غير صحيح لسببين:

الأول: إنه أجرى الاستفهام على مذهب الجمهور، فالهمزة - إذا - دخلت على نفى (لم) دخولاً مباشراً فنفت نفى (لم) فصار الكلام إثباتاً.

الثانى: كيف يتوجه الإنكار - والحالة هذه - على كفاية القرآن فى الدلالة على المعجزة؟

إن الإمامين: أبا السعود والطاهر قالا بالإنكار، ولأبى السعود عذر مقبول - كما تقدم - لأن سلط الإنكار على إدعاء أن القرآن غير كافٍ فى باب المعجزة، أما الطاهر فلا عذر له فيما ذهب إليه، لأنه يلزم عليه أن القرآن - فعلاً - لا دلالة فيه على المعجزة.

ولذلك نجزم بأن الاستفهام فى الآية للتقرير لاقتضاء المقام إياه، وليس فى نظم الصورة الاستفهامية ما يمنع من إرادة التقرير.

وإن كان لابد من ملاحظة معنى الإنكار، فإنه يكون رديفاً للتقرير وليس أصلاً دلالياً، لأن الله قررهم بكفاية القرآن فى باب المعجزة، ثم أنكر عليهم عدم الاعتداد به، وهذه هى الخلاصة لما يقال فى هذا الموضع.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**أولم يكفهم..**﴾ إيثار المضارع هنا للدلالة على تجدد وحدوث كفاية القرآن بتجدد النظر فيه، وظهور تلك الكفاية فى عموم الأوقات دون الاختصاص بوقت دون وقت.

وإيثار اسم (**الكتاب**) دون القرآن - مثلاً - إشارة إلى كونه جامعاً لكل خصائص الكمال وانحصار معنى «الكتاب» فيه، وعدم الاعتداد بغيره مما يسمى كتاباً لقصورها عما فيه كمال وجلال وجمال.

وتوكيد الجملة: (**أنَّا أنزلنا الكتاب**)، بـ«أن +اسمية الجملة» لرد إنكارهم أن الكتاب منزل من عند الله.

وإيثار المصدرالمؤول: أنا أنزلنا الكتاب على المصدر الصريح: إنزالنا الكتاب، لتأتى التوكيد المشار إليه فى المصدر المؤول دون المصدر الصريح.

* ﴿**يُتلى عليهم**﴾ كناية عن استمرار ويسر هذه المعجزة ومباينتها لما سواها من المعجزات المادية، كنار إبراهيم وعصى موسى، لأن المعجزات المادية محددة الزمان والمكان ومقصورة على حاسة البصر، ولا تبقى زمانين، أما معجزة القرآن فهى معجزة معنى لا مادة، معجزة نظم قولى وبيان سمعى عقلي سامية فوق حدود الزمان والمكان، تسمع فى الظلام كما تسمع فى النور.

وبناء الفعل (**يُتْلى**) لما لم يسمه فاعله، لإفادة العموم فى ما يشمل النبى ﷺ، وكل الدعاة من بعده إلى ما شاء الله، وتعدية الفعل بـ(على) داخلاً على ضميرهم، إشارة إلى ما فى تلك المعجزة من قوة السلطان والرفعة.

* ﴿**إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون**﴾ استئناف مقرر لما فى الكلام قبله من فخامته وجلال شأنه.

وتوكيد الخبر بـ«إن + اسمية الجملة + لام التوكيد» لأن مضمون الكلام حقيقة عظيمة، فحقها التعبير عنها بأسلوب عظيم مثلها.

وفى اسم الإشارة (**ذلك**) الموضوع للمكان البعيد إلماح إلى منزلة القرآن الرفيعة، ودخول حرف الجر (فى) على اسم الإشارة «ذلك» إيماء إلى استعارة مكنية شبه فيها «الكتاب» بوعاء مملوء بالرحمة والذكرى الهادية إلى أقوم طريق.

وفى تقديم الجار والمجرور «فى ذلك» على الرحمة والذكرى لإفادة القصر، أى: فيه هو لا فى غيره وتنكير (رحمة) و(ذكرى) لإفادة التكثير والتفخيم.

* ﴿لقوم يؤمنون﴾ مدح وثناء للإيمان وأهله، وتعريض وذم لأولئك الذين استهانوا بالقرآن، ووصفوه بالعراء من الإعجاز، وتهييج وإلهاب نحو الإقبال عليه والإيمان به.

وفى بناء الفاصلة (يؤمنون) على حرف المد والنون غرضان بلاغيان:

الأول: تناسق فواصل الآيات: (**مبين - يؤمنون - الخاسرون**) هذا من جهة اللفظ.

الثانى: الحث على تحصيل الإيمان عند من لم يؤمنوا والتثبيت لمن آمنوا.

* * *

٧ - ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١].

الدراسة والتحليل:

الكفر ضعيف، والأصنام التى عُبِدَتْ من دون الله أشد ضعفا، والمشركون؛ لأنهم كافرون، لم يدعوا يوماً ما من الأيام، أن أصنامهم خلقت شيئاً ما بله خلق السموات والأرض، ولم يدعوا أن أصنامهم حركت شمسا، أو أدارت قمرا، لم يدعوا شيئاً من ذلك، لأن عقولهم تأباه ولأن الواقع يدحضه، وكيف يكون الخالق بعضاً مما خلقه هو:

فالأصنام جمادات مخلوقة، ومَنْ عبدوه من الناس أو الملائكة أو الكواكب مخلوقة، فإن كانت هى الخالقة لزم أن يكون الخالق بعضاً مما خلق، وهذه دعوى - إذا - أدُّعِيت كانت الأوهام أثبت منها لو كان للأوهام ثبوت لذلك قرَّر الله - عز وجل - لرسوله الكريم ﷺ أنه إذا سأل المشركين عمن خلق السموات والأرض وهيأ الشمس والقمر لمنافع العباد، ما كان أمامهم إلا أن يقولوا: الله فإن حُبِستْ ألسنتهم عن النطق بها أجابت قلوبهم وعقولهم.

ومادام هذا هو المصير الذى لا محيد عنه فما أضل هؤلاء المشركين، **وقد ورد فى الآية استفهامان:**

الأول: ﴿من خلق..﴾.

والثانى: ﴿فأنَّى يؤفكون﴾.

والثـانى مـرتب على جـواب الأول كـما هو واضـح فى النظم الحكيم، والأئمـة مجمعون على أن الاستفهام الأول: ﴿**من خلق السموات والأرض..**﴾ للتقرير بالفاعل، أما الثانى: ﴿**فأنَّى يؤفكون**﴾ فهو للإنكار، ولا خلاف بينهم فى ذلك.

(وأنَّى) أن كانت بمعنى أين كان المعنى فأين تصـرفون؟ وإن كانت بمعنى كيف، كان المعنى فإلى أى حال من الأحوال تصرفون؟ وقد كنى بالسؤال عن الجهة فى الأول عن انعدام الجهة التى يصرفون إليها.

وكنى بالسؤال فى الثانى عن نفى الحال التى تكون لهم مع استمرارهم على العناد.

وهما من الكـنايات اللطيفة التى تـقدمت عشـرات الأمثلة لها فـيمـا قبل من هذه الدراسة.

لأن نفى الجهة، أو المحل يقتضى نفى الحالِّ فـيه، ونفى الحال يقتضى نفى صاحب الحال، وهذا ما أطلق عليه الأئمة الطريق البرهانى، أى اقتران الدعوى بدليل صدقها، وأياً كان فإن الاستـفهام الأول للتقرير والإلزام، أما الثانى: فهـو للإنكار والتعجيب، وهى الخلاصة التى يمكن أن تقال فى هذين الاستفهامين.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**ولئن سألـتهم من خلق السـموات والأرض**﴾؟ اللام موطئة للـقسم، وإن للشرط، والاستفـهام للتقرير بالفـاعل وقدم خلق السموات على خلـق الأرض، لأن خلقها ورفعهـا أدخل فى باب التقرير الذى من أجله سيق هذا الاستـفهام ثم عطف خلق الأرض على خلق السموات لأن خلقها يلى خلق السـموات فى الفخامة والعظمة، ولأن عليها معاش العباد، وإليها يعودون بعد الموت.
* ﴿**وسخر الشمس والقمر**﴾ التسخير أوثر على الخلق هنا لإفادة غرضين بلاغيين:

الأول: أنه يتضـمن الخلق ويزيد عليه خصـوصية من أجلهـا صير إليـه وعُدِل عن «الخلق».

الثانية: إفادة تيـسيـر منافع الشمس والقـمر للناس لأن التـسخيـر هو تهيـئة الشئ المخلوق للانتفاع به بيسر وسهولة.

وتقديم الأرض وما عُطِفَتْ هى عليه على تسخير الشـمس والقمر باعتبار التفاوت بين منافع المقدم والمؤخر.

* ﴿ليقولن الله﴾ هذا جواب القسم الذى سد مسد جواب الشرط فى ﴿ولئن سألتهم﴾، وفى العـبارة إيجـاز بالحذف والتـقدير: لـيقـولن خلقهن الله، أو: الله خلقـهن، والثانى: أصوب لأن المسئول عنه هو الفاعل وليس الفعل.

* ﴿فأنَّى يؤفكون﴾ الفاء تفريع على مـا قبلها وفيـها معنى السببـية، أى: كيف وبأى حال، أو أين وإلى أى مكان يصـرفون بعد فضح عنادهم ومحـاصرتهم بأدلَّة الحق من كل مكان، يعنى: أن الـقرآن لم يدع لهـم شبـهـة إلا وأزالها، ولا عـذراً إلا وقطعه، ولا طريقاً إلا سده، فـإن اذعنوا للحق وآمنوا فقد اهتدوا، وإن ظلوا على عنادهم فقد لزمتهم الحجة، وليس لهم، بعد ذلك مُنْصَرَفٌ ينصرفون فيه، ولا حيلة يتشبثون بها.

وبناء الفاصلـة على حرف المد (**الواو**) ثم النون بعـده للتناسق الصـوتى فى رءوس الآيات، ولاسـتحـضـار صورة الحـدث بالمضـارع المسند إلى نائب الفـاعل وهو واو الجماعة، وبناء الفعل على صورة مـالم يسمع فاعله إيذان بأن هذا الفعل ينبغى أن لا يكون له فاعل معروف.

* * *

٨ - ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءَ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ، قُلِ الحَمْدُ لله، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية نظيـرة الآية السابقة، ومـا سجلناه فى مـبحث الدراسة والتـحليل هناك صادق كل الصدق على هذه الآية، وذلك ما ينبـغى أن يلاحظه القارئ دفعاً للتكرار، فكل من خلق السموات والأرض، وتسخير الشمس والقمر، وتنزيل الماء من السماء، ثم إحياء الأرض به، المتمثل فى إنبات الزروع والأشجار والحدائق كل هذه الأعمال لا

يصلح أن يكون غير الله فاعلاً لها، ولهـذا أخبر الله رسوله أنه إن سأل المشركين عمن نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، فإن جوابهم لن يكون إلا الإقرار بالله فاعلاً لهـذه الأفعال الضخام العظام سيـقولون الله فاعلها، إما بالقلب واللسـان معاً، وإما بالقلب وحده إذا جحد اللسان.

ونعود فنقول: إن هذا الاستفهام (**من نزل من السماء ماء..**) للتقرير بالفاعل بإجماع أهل الذكر، ومما يردف عليه من معان ثانية الإلزام، وهذه خلاصة ما يقال فيه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء**﴾ رُتِّبَ لفت النظر إلى تنزيل الماء من السماء، وإحياء الأرض به، على لفت النظر إلى خلق السموات والأرض، وتسخير الشمس والقمر، للترقى فى الإقناع المبنى على شدة الإحساس بالمنافع القريبة من المخاطب، وإن كانت آيات الخلق والتسخير أعلى رتبة من حيث هى.

لأن إحساس الناس بفضل الله عليهم فى الماء وما تخـرج الأرض بسببه من خيرات أحضـر فى مشـاعرهم، وأظهر من مـجرد الخلق والتـسخيـر اللذين مضـيا فى الآية السابقة.

وصيغة التضعيف فى (نَزَّل) للتكثير، وتنكير (ماء) للتعظيم والتكثير.

وتقديم (**من السماء**) على (مـاء) للإشادة بمكـان الإنعام به من أول الأمـر، وهذا التقديم مطرد فى كل القرآن.

* ﴿**فأحيا به الأرض من بعد موتها**﴾ فى إحياء الأرض استعارة تصريحية تبعية شبه فيها انتشار النبات والكائنات الحية فى الأرض بإحـياء الموتى، بجامع الحركة والنماء فى كل، ويجوز أن تكون استعارة مكنية أو تمثيلية.

* وفى ﴿**من بعد موتها**﴾ الفن البديعى المسمى (التتميم) وهو ذكر لفظ تم المعنى بدونه لخصوصية فى معناه، لأن المـعنى تم بدون «من» فكان يكفى أن يقال: بعد موتها، ولكن لما دخلت (من) أفادت أن الله أحيا الأرض بعد تحـقق موتها تماماً بخلوها من سائر النباتات وانحسار الماء عنها.

وفى موت الأرض استعارة لخلوها من النبات، وهى استعارة تصريحية أصلية، والجامع بين الطرفين انعدام النفع فى كل.

والجمع بين الإحياء والموت طباق إيجابى واقع موقعه من البلاغة وتطبيق مقتضى الحال.

وكل من الاستعارتين ترشيح للأخرى.

* ﴿**قل الحمد لله**﴾ مناسبة الأمر بالحمد الحقيق به الله هنا، له غرضان بلاغيان:

الأول: الهتاف باستحقاق الله للحمد على نعمه: الخلق والتسخير وتنزيل الماء وإخراج النبات لنفع الناس والدواب وازدهار الحياة.

الثانى: التعريض بالأصنام وعابديها لعدم قدرتها على النفع والضر، وتسفيه عابديها وتحميقهم.

* ﴿**بل أكثرهم لا يعقلون**﴾ انتقال إلى تجهيل عبدة الأصنام وسلب العقول عنهم، لأن القرآن حاججهم فى هاتين الآيتين فى بديهيات عقلية.

* * *

٩ - ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ، أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

الدراسة والتحليل:

هذه المرة الثانية التى يمتن الله فيها على مشركى مكة بالحرم الآمن، وأن أمن الحرم - هذا - أثر من آثار قدرة الله، وفضل من أفضاله، وفى هذا نعى عليهم بالغباء، حيث آمنوا بالباطل، وهم الأصنام، وكفروا بنعمة الله عليهم، والله يهتف فى آذانهم بدلائل وحدانيته وتفرده بالحكم فى عباده أما الأصنام فلم تدع يوماً إلى الإيمان بها، وليس لها قُدرة على هذه الدعوة.

إذاً فما أحمق من يعرض عن صوت الحق وهو يدوى فى الكون ويصغى إلى ما هو أوهم من الوهم؟

وقد جاء فى هذه الآية استفهامان:

الأول: ﴿أولم يروا...﴾؟

والثانى: ﴿أفبالباطل يؤمنون﴾؟

ولئلا نكرر ما تقدم نقول فى إيجاز:

إن الاستفهام فيه مذهبان:

فمن يجريه على مذهب الجمهور من جعل الهمزة مقدمة من تأخير فلا مناص من حمل الاستفهام على التقرير لمباشرة الهمزة أداة النفى فيصير المعنى إثباتاً وبعضهم - وهو الطاهر بن عاشور - يحمله على الإنكار حتى مع إجرائه على مذهب الجمهور، وهذا سهو ظاهر رددناه مرات من قبل وبينا وجه الرد بكل وضوح.

ومن أجراه على مذهب الزمخشرى على جَعْل الهمزة قارة فى مكانها ومدخولها محذوف وهو المعطوف عليه بالواو هنا ذهب إلى أن الاستفهام للإنكار، لكن يسلط الإنكار على المحذوف المقرر لا على فعل الرؤية، وممن اشتهر بهذا الإمامان أبو السعود والألوسى كما تقدم مرات والقارئ يعرف أننا نجزم فى هذا الموضع ونظائره أن الاستفهام - هنا - للتقرير، لأن المقام يستلزمه بكل قوة، والكلام مسوق لإثبات الرؤية المستفهم عنها والامتنان عليهم بها.

أما الاستفهام الثانى: ﴿أفبالباطل..﴾ فهو للإنكار باتفاق أهل العلم من بلاغيين ومفسرين، والإنكار فيه مسلط على أمرين:

الإيمان بالباطل: ﴿أفبالباطل يؤمنون؟﴾.

الكفر بنعمة الله: ﴿وبنعمة الله يكفرون؟﴾.

هذا هو أصل الدلالة فيه، أما المعانى الثانية التى تردف عليه فهى التسفيه والتوبيخ والتهديد.

أسرار النظم وبلاغياته:

* توكيد الخبر فى ﴿أنا جعلنا حرما آمناً﴾ لتنزيل مشركى مكة منزلة المنكر لعدم اعتدادهم بهذه النعمة، وتنكير (حرما) للتعظيم والتفخيم.

* ﴿**ويتخطف الناس من حولهم**﴾ العبارة كلها كناية عن شدة الاضطراب فى القرى حول مكة، لدرجة أن الناس يخطف بعضهم بعضاً، وقد مرَّ نوع التصوير البلاغى فى هذا الفعل (**الخطف**)، ومعنى التضعيف فى صيغته فى آية القصص [٥٧] فى مبحث الأسرار والبلاغيات، ونعيد منه هنا أن بناء الفعل لما لم يسم فاعله للدلالة على كثرة الفاعلين تهويلاً للصراعات التى كانت تقع على تخوم مكة، حين منَّ الله على أهلها بالأمن العظيم.

* ﴿**أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون**﴾ ولى الباطل همزة الاستفهام لأنه محط الإنكار، وفى الجمع بين الباطل ونعمة الله، والإيمان والكفر مقابلة اقتضاها المقام وتقديم الإيمان بالباطل على الكفر بنعمة الله للترقى فى التشنيع عليهم، والتنبيه من أول الأمر على أنهم من حزب الشيطان.

* * *

١٠ - ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن أفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً، أَوْ كَذَّبَ بِالحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ**﴾ [العنكبوت: ٦٨].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية حصرت الأظلمية فى وصفين لموصوف واحد هم الذين كفروا، وهم الذين يفترون على الله الكذب، أويكذبون بالحق النازل من عند الله حين يُبَلَّغُ به، وقد جاء هذا فى صورة استفهام إنكارى:

﴿**ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه**﴾، وهذا الاستفهام واحد من ستة عشر استفهاماً وردت على هذه الصورة، وكنا قد درسناها دراسة وافية فى موضع سابق من هذه الدراسة، فلنكتف به ومن شاء الرجوع إليه فليعد إليه(١).

أما الاستفهام الثانى: ﴿**أليس فى جهنم مثوى للكافرين**﴾ فهو للتقرير باتفاق الأئمة، ويضاف إلى التقرير فيه الوعيد والتهديد بسوء المصير.

---

(١) انظر (١/ ٢٨١).

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**أليس فى جهنم مثوى للكافرين**﴾: جملة قصرية طريق القصر فيها تقديم المسند (**فى جهنم**) على المسند إليه (**مثوى للكافرين**)، والمقصور هو (مثـوى) والمقصور عليه هو (**فى جهنم**) أى فى جهنم لا فى غيرها.

* وفى (**مثوى**) استعارة تهكمية، لأن المثوى هو محل السكن، والمساكن معدة للراحة والاستجمام، والجامع بين الطرفين هو الإقامة الطويلة، وللأئمة: الزمخشرى، وأبى السعود، والطاهر بن عاشــور كلام طيب حول هذا الاستفهام لا يخرج كـثيراً عما أثبتناه فليرجع إليه من شاء[1].

* (**للكافرين**) اللفظ عام والمراد خاص وهم كـفار مكة، وسره البلاغى شمــول جميع الكافرين.

* * *

---

(١) الكشاف (٣/ ١٢)، وتفسير أبى السعود (٧/ ٤٧)، والتحرير والتنوير (٢١/ ١٥).

سورة الروم

١ - ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم، مَّاخَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلاَّ بِالحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى، وَإِنَّ كَثِيراً مِّن النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [الروم: ٨].

الدراسة والتحليل:

سورة الروم مكية، وترتيبها فى النزول الرابعة والثمانون نزلت بعد سورة الانشقاق وقبل سورة العنكبوت وعدد آياتها ستون آية. وسميت بسورة (الروم) لأن الروم لم يذكروا إلا فيها. وقد جمعت هذه السورة بين عدة أغراض من أغراض الدعوة:

* الإخبار بغلبة الروم على الفرس، وقد كان.
* تثبيت المؤمنين على الحق الذى جاء به الرسول ﷺ.
* الامتنان على العباد بطائفة من النعم الثابتة.
* لفت الأنظار إلى آيات الله فى الكون.
* الإلماح إلى بعض طبائع البشر.

وكان أول استفهام ورد فيها هو قوله تعالى:

﴿أولم يتفكروا فى أنفسهم﴾؟ يعنى ألم يفكر الغافلون عن الآخرة أن الله لم يخلق السموات والأرض إلا خلقا متعلقا بالحق وأن لهما أجلا مسمى سينتهيان فيه، وهو يوم القيامة الذى سوف تتبدل فيه الأرض غير الأرض وكذلك السموات وهذا استفهام تقدمت له نظائر كثيرة. وضابطه هو الآتى:

* أن يتوسط أداة الاستفهام والمستفهم عنه - ولا يكون إلا فعلا مضارعا - إداة عطف:

الواو، أو الفاء. أو ثم. والأول والثانى هما الواردان بكثرة فى نظم القرآن.

وهو عند الأئمة يتردد معناه بين التقرير، وهو الأصل، أو الغالب. وبين الإنكار.

ومنشأ هذا التردد هو مكان الهمزة فى التركيب الذى هى فيه:

هل هى مقدمة من تأخير وهذا مذهب الجمهور الذى أشرنا إليه كثيراً فيما تقدم.

أم هى قارة فى مكانها. وهذا مذهب الزمـخشرى. وهو عنده مبنى على الجواز لا الوجوب. ولم يتحمس له كثيراً فى التطبيق مثل أبى السعود والألوسى.

والتقـرير الذى أشرنا إليـه - هنا - هو ثمرة مذهب الجـمهـور أما الإنكار فثـمرة مذهب الزمخشرى.

والحق أن دلالات المقام - دائما - تناصر مذهب الجمهور بل وتجعله هو المتعين إلا فى مواضع قليلة، أو هى نادرة.

وقد حمل الإمام أبو السـعود هذا الاستفهام على الإنكار حـين أجراه على مذهب الزمخشرى من أن الواو عاطفة على محذوف هو المقصود بالإنكار. فقال:

﴿**أولم يتفكروا**﴾: إنكار واستقباح لقصر نظرهم على ما ذكره من ظاهر الحياة الدنيا مع الغفلة عن الآخرة[١].

وكذلك ذهب الطاهر بـن عاشور بيـد أنه جعل المعطوف عليه بالـواو هنا هو قوله تعالى: (**وهم عن الآخرة هـم غافلون**) وكـان يلزم على جـعله العطف على (**وهم عن الآخرة هم غافلون**) أن الاستفـهام للتقرير، لدخول الهمـزة على الفعل المنفى بـ (**لم**) دخولا مـباشـرا، فهى - والحالة هذه - تـنفى النفى المستـفاد من (**لم**) فيصير المعنى إثباتا.

والذى يلوح لنا أن الاستـفهام - هنا - للتقـرير لا للإنكار لأن سورة الروم الوارد فيها هذا الاستفهام نزلت بعد ثلاث وثمانين سورة. وكان القرآن قدواجه هذه القضية: قضية إنكار الحياة الآخرة فى تلك السـور، وجلاَّها كل التجلية، وفند شبهات منكرى البعث تفنيداً لم يبق لهـا على أثر، فأرى المنكرين من صحة البعث رؤيا علمـية حتى استقر ذلك فى أنفسهم، ولكنهم عاندوا على غرار قوله تعالى:

﴿**وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا**﴾ [النمل: ١٤].

ومحال إذا أجرينا الاستفهـام على مذهب الجمهور أن يقال أن المراد به - أصالة -

---

(١) تفسـير أبى السعـود (٧/ ٥١) وهو يشيـر إلى قوله تعالى قـبل هذه الآية (يعلمون ظاهراً من الحـياة الدنيا..).

هو الإنكار؛ لأن نفى النفى إثبات أما الإنكار الناشىء عن التقرير فلا بأس به، على أن يكون معنى ثانيا مردوفا على التقرير ومتولَّداً عنه.

والخلاصة: أن هذا الاستفهام تقريرى - بدلالة المقام - لأن القرآن يقررهم بثبوت تلك الرؤيا العلمية، ثم ينكر عليهم عدم جريهم على مقتضاها.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(ما خلق الله السموات والأرض إلا بالحق)** - قصر صفة على موصوف قصراً حقيقيا تحقيقيا:

المقصور هو خلق الله السموات والأرض، والمقصور عليه هو التعلق بالحق.

* **(وأجل مسمى)** كناية عن مجموع أمرين: أحدهما زوال الحياة الدنيا، والثانى بدء الحياة الآخرة والواو مشركة، للمعطوف مع المعطوف عليه فى حكم الإعراب وفى المعنى. أى ما خلقهما إلا متلبسين بالحق وبأجل مسمى وفى (مسمى) استعارة تصريحية شبِّه فيها التحديد بالتسمية، والجامع بين الطرفين الكشف والبيان. فكما أن الاسم يكشف عن المسمى، فذلك تحديد انتهاء عمر الحياة الدنيا - فى علم الله - يميزه عن مطلق الزمان.

* **(وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون)**:

استئناف مسوق للتعريض بمشركى العرب لكفرهم بالبعث وقد لاحت لهم دلائله. وتوكيد الخبر فيه للرد على جحدهم وتكذيبهم به. وفى لقاء ربهم كناية عن يوم الحساب.

* * *

٢ - ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ. كَانُوا أَشَدَّ مِنهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا، وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ، وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩].

الدراسة والتحليل:

انتقال من التسجيل عليهم بالغفلة، رغم وضوح الدلائل والبراهين القاطعة بنهاية هذه الحياة الدنيا، وإقبال الحياة الآخرة. إلى التسجيل عليهم بإهمال الاعتبار من وقائع الحياة وأحداث التاريخ. فلاهم اعتبروا بالدلائل الكونية اللائحة أمام أنظارهم، ولا هم اعتبروا بما فى الأرض من آيات حفل بها التاريخ البشرى، وتدويل الله الأيام بين الناس، وازدهار الحضارات ثم اندثارها مع بقاء آثارها شاهدة بما كان وقد ورد في هذه الآية هذا الاستفهام:

(أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا..)

بدأ الإمام الزمخشرى الحديث عن هذا الاستفهام فقال: «أو لم يسيروا»: تقرير لسيرهم فى البلاد ونظرهم فى آثار المدمَّرين من عاد وثمود وغيرهم من الأمم العاتية»[1].

فالإمام جار الله جزم - هنا - بأن الاستفهام للتقرير فإذا لاحظنا عطف هذا الاستفهام على نظيره السابق **(أو لم يتفكروا)** ظهر لنا صحة ما ذهبنا إليه فى الأول أنه للتقرير كهذا، لأن واو العطف فيه - أو العطف مطلقا - يشرك المعطوف مع المعطوف عليه فى الإعراب والمعنى. ولو لم يكن **(أو لم يتفكروا)** - تقريراً لامتنع أن يكون **(أو لم يسيروا)** تقريراً. وكذلك صنع الإمام أبو السعود، فقال:

«توبيخ لهم بعدم اتعاظهم بمشاهدة أحوال أمثالهم الدالة على عاقبتهم ومآلهم. والهمزة لتقرير المنفى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام، أى: اقعدوا فى أماكنهم ولم يسيروا **(فى الأرض)**؟»[2].

بيد أن تقديره للمحذوف - مع عدم الحاجة إليه - غير سديد لأننا لو سلمنا بصحة

---

(١) الكشاف (٣/ ٢١٦).

(٢) تفسير أبى السعود: (٧/ ٥٢).

مـا ذكـر، وهو: اقـعـدوا فى أمـــاكنهم ولـم يسـيـروا فى الأرض ترتـب على هـذا محظوران:

فإذا اعتـبرنا الهمزة فـى: أقعدوا فى أماكنهم «للتـقرير كان معناه أنهم لـم يـسيروا فعلا، فكيف يصح إذاً أن نوجه إليهم التوبيخ على عدم اعتبارهم بأحوال أمثالهم وهم لم يروها؟ هذه واحدة أما الثانية: فكيف ساغ لأبى السعود أن يقول مع هذا أن **(أو لم يسيروا)** للتقرير.

إن قول أبى السـعود هذا يُعَـدُّ اعتـذاراً عن مشركـى العرب وليس إلزامـهم بعدم الانتفاع بالعظات البينات.

ونحا الطاهر نحوهما فقال:

«والاستفهام فى **(أو لم يسيروا)** تقريرى»[1].

والخلاصة: أن هذا الاستفهام للتقرير أصالة، ويردف عليه التوبيخ والإلزام.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا...)** -: المراد بالسير الانتقال من مكان إقامتهم إلى أمكنة الاعتـبار والنظر. وفى النظر استـعارة تصريحـية، للتفكر والتـأمل. وسرها الوقـوف على مـا حل بالأمم الغـاتيـة من عـقاب اللـه حتى لكـأنهم ينظرون إلى مصارعهم وهى تقع أمامهم نظر العين. أى: تعـميق الفكر والتأمل فيما حل بهم، ليكون ذلك حافزاً لهم على الإيمان والصلاح.
* **(كيف كـان عاقبـة الذين من قبلهم)** - كـيف كان: تعـجـيب مما حلَّ بهم، وهو فى موضع المفعول لـ **(فينظروا)** - أى: ينظروا كيفية عقاب الله لهم.

والفاء فى **(فينظروا)** لتعقـيب النظر على السير. و**(الذين من قبلهم)** كناية عن عاد وثمود وغيرهما.

* **(كانوا أشد منهم قوة...)** شروع فى بيان أحـوال الذين دمرهم الله بذنوبهم، أى أن قوتهم لم تمنع عنهم عقاب الله لما عتوا عن أمره وفى **(أثاروا الأرض)** استعارة لقوة

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ٥٥).

حركتهم فى الأرض، وكثرة عملهم فيها سعيا وراء منافعها واستعمارها. والحضارات الزاهرة التى أقاموها فوقها.

* و(**جاءتهم رسلهم بالبينات**) الإضافة فى (رسلهم) - للمفعول لا للفاعل. و(**البينات**) - كناية عن دلائل التوحيد والبعث وإيقاع الفعل (جاء) - على ضميرهم - (هم) مع إضافة (رسل) - إلى الضمير نفسه لتحقيق بعث الله الرسل فيهم، وإقامة الحجة لله عليهم.

* (**فما كان الله ليظلمهم**) الفاء للتفريع على ما تقدم من مجىء الرسل إليهم. وفيها إلماح إلى أنهم كذبوا الرسل فأُهلكوا وهو المعطوف عليه بالفاء. وهذا من الإيجاز البديع الذى تُلَوِّحُ فيها الألفاظ إلى معان تدرك ببديهة النظر. ومجىء هذه الجملة (**فما كان الله ليظلمهم**) هى - بعد تقرير عدالة الله - تمهيدا لتسجيل ظلمهم لأنفسهم فى قوله تعالى: (**ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**) وتقديم (**أنفسهم**) على (**يظلمون**) وهو مفعوله للتشنيع عليهم؛ لأن ظلم الإنسان نفسه من أقبح أنواع الظلم.

هذا من حيث المعنى. أما من حيث اللفظ فلتناسب فواصل الآيات.

(**لكافرون - يظلمون - يستهزئون**) لبنائها على حرف المد والنون. وتقديم نفى الظلم عن الله على إثباته لأنفسهم، لإن الأول هو الأصل، والجمع بين نفى الظلم وإثباته طباق سلبى واقع موقعه من البلاغة ومقتضى الحال.

* * *

٣ - ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّـمَّا مَلَكَتْ أَيمانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِى مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية مثل رائع من تمثيلات القرآن البديعة. هذا المثل مسوق لإبطال عقيدة الشرك وعبادة الأصنام وبحجة أنها تقرب عابديها من الله زلفى.

وقد تلطف النظم القـرآنى فى إبطال هذه العقيـدة بهذا المثل المنتزع من واقع حـياة المشركين مما لايـنكره عقل ولا واقع ولا حس والفكرة التى يواجـهها الـقرآن - هنا - هى فكرة مساواة الأصنام بالله عز وجل فى العبادة والنفع والضر. فكيف واجه القرآن هذه الفكرة.

سألهم هذا السـؤال: هل لهم من عبيـدهم وإمائهم شركاء فى التـصرف فى إدارة أعمـالهم وإنفاق ما رزقـهم الله من مال، بحيث لايتـصرف أبو جهل - مـثلا - فى بعض ماله إلا بعد الحصول على إذن من عبيده وإمائه.؟

أو أن عبيـد وإماء أبى جهل لهم حق التـصرف فى ماله كما يـشاءون دون الرجوع إليه.

أم أن أبا لهب يخشى عبيده وإماءه إذا تصرف فى ماله من غير إذن منهم.

يسألهم القرآن: أى هذه الأمور واقع فـى حياتهم. أم أن هذه الأمور لايقع - ولن يقع - منها شىء قط.

الإجابة هى بالنفى الجازم قطعا. فليس لهم من مملوكيهم شريك قط فى أمرٍ ما من أمورهم.

وهنا وصل القرآن إلى قمة الانتصار حين وظَّف هذا المثل الحكيم فى نفى أن يكون له شريك فى ملكه. فـإن اهتدوا فقد أفلحـوا وأن أَبَوْا فقد لزمتهم الحـجة، وقُطعَتْ عنهم المعاذير.

وظاهر - كل الظهور - أن الاستفهام فى الآية للإنكار والتجهيل. ولا خلاف عند الأئمة فى ذلك.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(ضرب لكم مثـلا من أنفسكم)** ضرب المثل سوقه واعتـماده، وفى (ضرب) استعارة تصريحية، حيث شبه سوق المثل وذكره بالضرب فى قوة التأثير.

والجار والمجرور **(لكم)** تخصـيص للمشركين الذين سَـوَّوْا بين الله عز وجل وبين الأصنام فى العبادة والرجاء وتنكير **(مثلا)** للتفخيم وفى **(من أنفسكم)** للإلزام، أى مثلا

أنتم تعيشونه وتعرفونه حق المعرفة. فلن يعسر عليكم فهمه وفقهه.

* (**هل لكم من ما ملكت أيمانكم شركاء فى ما رزقناكم**): ملكت أيمانكم كناية عن الأرقاء وفى إسناد المِلْك إلى اليمين مجاز علاقته الجزئية. أى ما ملكتم، وللجزء - هنا - مزيد اختصاص بالمعنى المراد؛ لأن كسب الإنسان يكون بعمل يمناه فى الغالب ولأن اليمنى هى المتصرفة فى الأخذ والعطاء.

* (**فأنتم فيه سواء**) الفاء للتفريع على ما تقدم، والجملة مسوقة لتأكيد الإنكار وتقويته. مثل (هل) التى أوثرت لتحقيق الإنكار.

* (**تخافونهم كخيفتكم أنفسكم**) تفصيل لما فى (**شركاء**) من إجمال والجملة تشبيه مسوق لتأكيد الإنكار، والمشبه هو خوف ملك اليمين. والمشبه به خوف الأحرار بعضهم بعضا إذا كانوا شركاء ووجه الشبه هو شدة الخوف.

* (**كذلك..**) تشبيه ثان المشبه به فيه هو تفصيل هذا المثل وإحكامه والمشبه هو تفصيل الله سائر الآيات.

* والإشارة إلى هذا المثل بـ «ذلك» للتنويه بروعته وجلال شأنه .

* (**لقوم يعقلون**) تنويه بفضل العقل والترغيب فى إعماله ومدح للعقلاء.

* * *

٤ - ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٥].

الدراسة والتحليل:

قبل هذه الآية وردت آيتان كانت هذه الآية تعقيبا على ما جاء فيهما وهما:

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ، ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ. لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

فبعد هذه الأحوال المتضاربة من الناس أنكر الله عليهم ذلك الخُلُق الذميم:

يعرفون الله فى الشدة، ويكفرون به فى الرخاء. ولما كان هذا السلوك عادة للناس شُبّهوا بحال من عنده سلطان من الله بتقرير هذا السلوك، فعقب الله تعالى على هذا بقوله: (**أم أنزلنا عليهم سلطانا**) أى دليلا يدلهم على هذا السلوك الخبيث. وقد أهمل

المفسرون القدامى (أم) هذه، ولم يقولوا عنها شيئا بيد أن أبا السعود اكتفى بقوله: إنها للإعراض عنهم وتعديد جناياتهم»[1] يقصد أنها للإضراب.

أما الإمام الطاهر بن عاشور، فقد صرَّح بأنها للاستفهام وأن المراد من الاستفهام فيها هو الإنكار. وهذا قول سديد.

والخلاصة: أن (أم) - هنا منقطعة، للإضراب والانتقال عما قبلها، وأن الهمزة بعدها للاستفهام الإنكارى ويتبع الإنكار فيه التعجيب من حال هؤلاء الذين يعرفون الله ويلجأون إليه فى الشدة، ويكفرون به ويعرضونه عنه فى الرخاء.

وفى هذا تجهيل وتحميق لهم، إذ لم يدوموا على حال هم كانوا عليه. وللإيمان عندهم مناسبات وللكفر مناسبات؟

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(أم أنزلنا عليهم سلطانا)** انتقال من التشنيع عليهم بما ذكر من جناياتهم القبيحة، إلى رميهم بالجهل والجهالة واتباع الأهواء، التى تُلجئهم إلى الإيمان بالله مرات، إذا دهتهم شدة أو نزل بهم عناء.

  ثم تدعوهم إلى الكفر بعد إزالة ما بهم من ضر وعناء؟

* وفى **(سلطانا)** استعارة تصريحية أصلية، لإن المراد - هنا - الدليل أو الحجة، التى دعتهم إلى هذا السلوك الغريب. فاستعير السلطان للدليل والجامع بين الطرفين هو قوة النفوذ والتوجيه أما تنكير **(سلطانا)** فلا نخال له داع بلاغى إلا الانعدام وهذا غرض لم يقل به البلاغيون من قبل. وإنما قلنا به هنا لدلالة المقام عليه؛ لأن الله عز وجل لم ينزل أى دليل أو حجة يشرِّع للناس الإيمان بالله فى الرخاء وحده، والكفر فى الشدة فهذا من الله معدوم، وهو ما سوَّغ لنا القول- هنا - بأن تنكير **(سلطانا)** للانعدام.

* **(فهو يتكلم بما كانوا به يشركون)**: هذا هو محط الإنكار لأن الإنكار ليس مسلطا على مطلق سلطان. بل على هذا السلطان المخصوص بهذا الوصف.

---

(١) تفسير أبى السعود: (٧/ ٦١).

وهذا ترشيح لاستعارة **(سلطانا)** للدليل، لأنه من ملائمات المشبه به، وهو السلطان[1].

وإيثار الموصول وصلته للتسجيل عليهم بالإشراك بالله عز وجل. وتقديم الجار والمجرور (به) على (يشركون) لتناسق الفواصل فى الإيقاع الصوتى. ولأنه عائد على الأصنام فكان حريا أن يكون قريبا من همزة الإنكار.

* * *

٥ - ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: ٣٧].

الدراسة والتحليل:

علامة أخرى من علامات الإيمان بالله الواحد الأحد، هى تقسيمه المعايش بين الناس، واختلاف حظوظهم فى الدنيا من الرزق والمواهب والملكات. فمنهم من يوسع عليه فى الرزق ومنهم من لم يوسع عليه. هذه سنته فى الحياة، ولن تجد لسنته تحويلا ولا تبديلا.

والاستفهام - هنا - تقريرى، والرؤية مزيج من البصرية والعلمية. وإن كان جانب العلم فيه أظهر.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر)** أكد الخبر هنا لأن مضمونه حقيقة عظيمة، من حقها أن يعبَّر عنها بأسلوب عظيم مثلها. وفيها إزالة لإنكار من يظن أن سعة الرزق تكون بالحيلة وكثرة الوسائل الجالبة.

وفى **(يبسط)** استعارة للتوسعة، استعارة تصريحية تبعية. وفى **(يقدر)** استعارة للضيق فى الرزق. وهى تصريحية تبعية والجامع بين الطرفين فى الأولى الامتداد وكثرة الإنفاق، وفى الثانية الانحباس وقلة المنفق.

---

(١) ينظر الكشاف (٣/ ٢٢٣) وأبو السعود (٧/ ٦١) لأن فيهما زيادة إيضاح.

وفى الجمع بينهما طباق إيجاب مطابق لمقتضى الحال، وهى الموازنة بين بسط الرزق وقلته.

* (**إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون**) توكيد الخبر لما تقدم فى نظيره واسم الإشارة (**ذلك**) للتفخيم.. وتنكير (آيات) للتعظيم وفى وصف (قوم) بـ (**يؤمنون**) للتنويه بفضل الإيمان والثناء على المؤمنين.

* * *

٦ - ﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ، هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَىْءٍ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

[الروم: ٤٠].

الدراسة والتحليل:

وهذه مجموعة آيات من دلائل التوحيد. فالله - لا غيره - هو الذى خلق، وهو الذى رزق، وهو الذى يميت، وهو الذي يحيي. وليس من شركاء المشركين من يستطيع أن يفعل من ذلكم أى شىء، مهما حَقُر. فلله وحده التنزيه، وله وحده التعالى فوق كل مخلوق.

وقد ورد فى هذه الآية هذا الاستفهام:

(**هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء**) وهو استفهام إنكارى عند جميع الأئمة، وأهل الذكر. ويضاف إلى الإنكار الإلزام والإفحام. وهذه خلاصة ما قيل ويقال فى هذه الصورة.

أسرار النظم وبلاغياته:

* (**الله الذى خلقكم ثم رزقكم**) أسلوب قصر المقصور عليه هو الله، والمقصور هو الأخبار المحمولة عليه. وفى هذا تعريض بالأصنام وعابديها. والعطف بـ (ثم) بين (خلقكم) و(رزقكم) لتراخيِّ الرِّزق وامتداده بعد الخلق حتى الموت.

* ﴿**ثم يميتكم ثم يحييكم**﴾ عطف الإماته بـ (ثم) على الخلق لا على الرزق لما بين بداية الخلق والإماتة من امتداد زمنى.

وإيثار الماضى فى (**خلقكم ورزقكم**) لأنه خطاب للأحيـاء وما من مـخاطب منهم إلاوهو مخلوق مرزوق ساعة يسمح هذا الكلام يُتلى عليه.

أما إيثار المضارع فى (**ثم يميتكم ثم يحييكم**) لإنه خطاب لأحياء. ومـا من مخاطب منهم إلاسيموت ثم يـبعث بعد سماعه هذا الخطاب. فالأفـعال- هنا - تؤدى معناها فى دقة وإحكام.

وعطف (**يميتكم**) على (**خلقكم**) مثل عطف (**يحييكم**) على (**يميتكم**) لأن (ثم) فى هذه المواضع الثلاثة للدلالة على التراخى الزمنى لا غير.

* (**هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء**) فصلت هذه الجملة عما قبلها لكمال الانقطاع: لإن الأولى(**الله الذى خلـقكم**) خبـرية لفظا ومعنى. وهل إنشـائية لفظا ومعنى.

وإيثار (هل) هـنا لتحقـيق الإنكار واستـبعـاد المنكر. و(مَنْ) موصولـة. و(يفعل) صلته.. أما حرف الجر (من) المكرر ثلاث مرات:

فالأول (**من شركائكم**) بيـانيه، والثـانى (**من ذلكم**) بعـضيه والثـالث (**من شـىء**) لاستغراق الإنكار جميع أفراد وصور المنكر. وكونه ليس فى متناول أحد غير الله.

وإضافة (**شركاء**) لضمير المخاطبين تهكمية.

واسم الإشارة (**ذلكم**) لتفـخيم المشار إليـه وهو الخلق والرزق والإماتة والإحـياء، وكون هذه الأشياء بعيدة كل البعد عن غير الله عز وجل.

* (**سبحانه وتعالى عما يشركون**) استئناف تذييلى مقـرر لمضمون الكلام الذى قبله من الثناء على الله تعالى، ثم التعـريض بالأصنام وعابديها. وفى (**عما يشركون**) كناية عن معبوداتهم من دون الله عز وجل.

* * *

سورة لقمان

١ - ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِى السَّمواتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً، وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى اللهِ بِغَيرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَكِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠].

الدراسة والتحليل:

خطاب عام لجميع البشر، يذكر بنعم الله عز وجل على عباده بأنواعها المتعددة، النعم النازلة من السموات، والنعم الناتجة من الأرض، نعم غمرت الإنسان كما يغمر الثوب الجسد فيحفظه ويجمله ويقيه الشرور ويستره. ومع هذا فإن بعض الناس يجادلون فى شئون الله بجهل وجهالة.. وقد تصدرت هذه الآية بهذا الاستفهام:

(**ألم تروا** ...) وهو استفهام تقرير وامتنان باتفاق أهل الذكر. وهذه خلاصة ما يقال فيه. ومن يردف على التقرير والامتنان التوقيف فقد أصاب.

أسْرار النظم وبلاغياته:

* أكد الخبر بالرؤية العلمية والبصرية وحرف التوكيد (إن) واسمية الجملة، لأن مضمون الخبر من أعظم الحقائق.. والحقائق العظيمة يجب التعبير عنها بأساليب عظيمة مثلها.

* (**وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة**) فى (أسبغ) استعارة تصريحية تبعية، لأن السبوغ هو ستر الثوب الجسد، وقد استعير -هنا- للكثرة والإحاطة، والنعم الظاهرة هو ما يمتلكه الإنسان من أسباب المنافع كالمال والدواب والمأوى والباطنة كالملكات الجسمية والنفسية والذهنية.

* (**ومن الناس من يجادل فى الله** ...) استئناف مقرر لطبائع بعض البشر من مكذبى الرسل والجاحدين لنعم الله عز وجل وفى (**يجادل**) استعارة، لأن الجدل هو إبرام الحبل وإحكامه، والمجادل يحاول إحكام شبهته أو حجته لتروق عند سامعيها.

وفى (**فى الله**) حذف مضاف، أى يجادل فى شئون الله عز وجل، كذلك الجدل الذى يثيره المشركون وعبدة الأصنام، ومنكرى البعث قديما، وكالجدل الذى يثيره العلمانيون الآن، حول شريعة الله ومنهجه فى الحياة وقد استقصى النظم فى وصف هؤلاء المجادلين بالجهل فنفى أن يكون لهم علم أى علم، أو هدى أى هدى، أو كتاب ينير لهم الطريق، أى كتاب. فهؤلاء المجادلون هم الجهل بعينه.

وفى الآية الحكيمة من ضروب الإيجاز ما لا يخفى، فقد كنا بـ(**ما فى السموات**) عن النجوم والكواكب والطاقة الشمسية والقمر، ،وما لا يعلمه البشر من أسرار خلق الله وكنا بـ(**ما فى الأرض**) من بحور ومحيطات وأنهار ومعادن وزروع، ومهد للمعاش.

كما كنا بـ(**وأسبغ عليكم نعمه**) عمالا يُحْصى من نعم الله الظاهرة والخفية.

ومن البديع المعنوى الجمع بين (ظاهرة) و(باطنة) طباق أصيل فى دلالته ومطابقته لمقتضى الحال.. ومراعاة النظير فى الجمع بين: العلم والهدى والكتاب المنير.

* * *

٢ - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١].

الدراسة والتحليل:

فى هذه الآية امتداد فى الحديث عن الذين يجادلون فى الله. هؤلاء إذا دعاهم الرسل إلى اتباع ما أنزل الله لعباده، ليسعدوا فى الدنيا والآخرة، أعرضوا عن الدعاة وأصروا على اتباع آبائهم تقليدا وجهل وجهالة ومن هؤلاء مشركو مكة، عبيد الهوى والتقليد الأعمى وفى إخلاص النصح لهم كان تعقيب القرآن على هذا العمى الذى أصابهم فى عقولهم وقلوبهم:

(**أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير**)

وهو استفهام إنكار وتوبيخ، أى: أيتبعون أباءهم فى كل حال ولو كان وليهم الشيطان يزين لهم كفرهم وضلالهم ليكونوا وقوداً لجهنم.

وبعضهم يردف عليه التعجب من حالهم. وهذا حق لإن حالهم هذه مدعاة لكل عجب[1].

وخلاصة ما يقال فى هذا الاستفهام أنه للإنكار والتعجب والتجهيل، لإن الجاهل هو الذى يعرض عما فيه الخيرلنفسه فى عاجله وآجله، ويتبع ما فيه الشقاء لنفسه فى عاجله، وآجله. مع وضوح الأمر فى الحالتين.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله)** إيثار (إذا) لتحقيق الجواب الذى يقابلون به من يدعوهم إلى منهج الله. وبناء الفعل **(قيل)** لما لم يُسمَّ فاعله لتحقيق الغرض بالفعل دون التوقف على الفاعل؛ لأن المعول عليه هو دعوتهم إلى ما أنزل الله.

وفى الاتباع استعارة تصريحية تبعية شبه فيها الإيمان بما أنزل الله والاهتداء به فى السراء والضراء بالسير الحسى خلف خبراء الطريق فى أرض موحشة، كثيرة المهالك لايدرى أولها من آخرها، ولا شرقها من غربها، ولا شمالها من جنوبها.

أوْ هو تمثيل لهذه المعانى مجتمعة، وما أنزل الله كناية عن القرآن، وأُوثرت لما فيها من ذكر الإنزال مسندا إلى اسم الجلالة، تهويلا للإعراض عنه، وتربية للمهابة فى النفوس.

* **(قالوا: بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا)** بل للإضراب والانتقال من الدعوة إلى ما أنزل الله، إلى التمسك بعقيدة الشرك بالله.

و**(ما وجدنا عليه آباءنا)** كناية عن عبادة الأصنام.

* **(أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير)** أى: أيتبعون ما وجدوا عليه آباءهم حالة كون آبائهم يدعوهم الشيطان إلى عذاب السعير. وفى هذا كناية عن سوء القدوة والاقتداء. وفى إيثار المضارع **(يدعوهم)** تصوير لتلك الحالة التى وقع فيها آباؤهم فى مخالب الشيطان.

* * *

---

(١) انظر الكشاف (٣/ ٢٣٥) وروح المعانى (١/ ٩٥) والتحرير والتنوير (٢١/ ١٧٦) وتفسير أبى السعود (٧/ ٧٤).

٣ - ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ، قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَيَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥].

الدراسة والتحليل:

تقدمت فى سورة العنكبوت آيتان [٦١ - ٦٣] مثل هذه الآية، وفيهما هذه الصورة الاستفهامية سؤالا وجوابا. وكنا قد حللنا الآيتين ودرسنا الاستفهامين اللذين فيهما دراسة وافية، لذلك فإننا لسنا فى حاجة. إلى إعادة ما قيل فيهما هنا سوى أن نشير إشارة سريعة إلى أن الاستفهام فى الآيات الثلاث للتقرير بالفاعل وأن المسئول أقر بأنه الله قسرا؛ لأنه لاسبيل لديه ينكر به هذه الحقيقة. وللقارئ الكريم أن يعود إلى ما قيل فى تحليل ودراسة الآية [٦١] من سورة العنكبوت، لأن ما قيل هناك يقال هنا.

والجديد فى هذه الآية هو فعل الأمر (قل) الذى لم يذكر فى الآية [٦١] بل فى الآية [٦٣] وفى هذه الآية موضوع الدراسة فلنعد قولنا فيه هنا تحت مبحث:

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(قل الحمد لله)** عرفنا أن فعل الأمر (قل) فى النظم القرآنى الحكيم، يؤذن بأهمية المقول. وأمر الله رسوله الكريم بأن يقول **(الحمد لله)** لأن من أجل النعم على الرسول والمؤمنين أن يقر خصوم الدعوة بخالقية الله السموات والأرض. مع ما فى الحمد - هنا - من تعريض وإفحام للمشركين وإلزامهم بالحجة.

* * *

٤ - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ، وَيُولِجُ النَّهارَ فِى اللَّيْلِ وسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى. وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خبيرٌ﴾

[لقمان: ٢٩].

الدراسة والتحليل:

دلائل وجود الله وتوحيده لها كتابان: الكتاب الأول هو القرآن والكتاب الثانى هو الكون بما فيه وبمن فيه. والكتاب الأول حافل بالأضواء الكاشفة عما فى الكون والكائنات فيه عن تلك الدلائل.

وهذه الآية ضوء من تلك الأضواء الهادية إلى مواطن العِبْرَات والعظات المبثوثة فى كون الله العجيب الصنع. فهى تلفت أنظار العباد إلى هذه الدلائل:

* ما يعترى الليل والنهار - من أحوال فى الطول والقصر، والإتيان والذهاب.
* سَبْح الشمس والقمر فى الآفاق العالية لما فيه خير الأنام.
* علم الله المحيط بكل شىء.

وقد صُدِّرت الآية بهذا الاستفهام القرآنى الكثير الورود فى النظم الحكيم.

(ألم تر...)؟

هذا الاستفهام سكت عن بيان المراد منه كل المفسرين القدماء الذين تعودنا الرجوع إليهم فى هذه الدراسة، وذلك لوضوحه ولتقديم نظائره، ما عدا الإمام الطاهر بن عاشور فقد ذهب إلى أنه للإنكار. قال:

«والاستفهام لإنكار عدم الرؤية بتنزيل العالمين منزلة غير عالمين لعدم انتفاعهم بعلمهم»[1].

وهذا سهو ظاهر من الإمام الطاهر. لا المقام ولا التركيب يقبل ما قال:

أما المقام فلأن الكلام مسوق للفت الأنظار إلى ما استقرت رؤيته بقصد الامتنان على العباد، وبيان كمال قدرة الله عز وجل. وهذا لايناسبه القول بالإنكار.

وأما التركيب، فلأن همزة الاستفهام دخلت على فعل منفى بـ (**ألم**) فنفت ذلك النفى فعاد المعنى إثباتا، فلا صحة لما قاله الإمام الطاهر عفا الله عنه وعنا.

والصواب أن هذا الاستفهام للتقرير والامتنان والإلماح إلى كمال قدرة الله عز وجل. وهذه خلاصة ما يقال فيه.

أسْرار النظم وبلاغياته:

* (**ألم تر**) أجميع الأئمة على أن الرؤية هنا علمية. وهذا صادق على إيلاج الليل فى النهار وإيلاج النهار فى الليل .. وعلى إحاطة علم الله بكل شىء.

---

(١) التحرير والتنوير: (٢١/ ١٨٥).

أما تسخير الشـمس والقمر فالأحرى أن الرؤية فيه بصرية أو جـانب البصر فيه هو الأغلب.

وفى الرؤية استعارة للعلم، والجامع بين الـطرفين هو الكشف أما سرها فهو الإثارة إلى وضوح العلم ورسوخه حتى لكأنه يُرى بالعين الباصرة.

وتوكيد الخبر (**أن الله..**) بـ «إن» والجملة الإسمية لأن مضمونه حقيقة عظيمة، ومن حق الحقائق العظيمة أن تصاغ فى أساليب فخمة مثلها. فالتوكيد هنا منشؤه هو الكلام نفسه، لا مراعاة حال المخاطب ولا المتكلم.

* (**يولج الليل فى النهار ويـولج النهار فى الليل**) الإيلاج لغة هو الإدخـال بيد أن النظم القرآنى الحكيم يفرِّق بينهما فى الدلالة تفرقة جد دقيقة.

لأننا تتبـعنا مواضع اسـتعمـال الإيلاج والإدخال فوجـدنا النظم الحكيم يستـعمل الإيلاج فى الإدخال الذى فيه **لطُف** ويسر كما فى (**يولج الليل فى النهار**) أما الإدخال فيختص بما فيه شىء من العسر، أو ما فيه عسر فعلا، كما فى قوله تعالى: (**حتى يلج الجمل فى سم الخياط**).

وفى (**يولج**) استعارة، حـيث شُبِّه إضافة جزء من الليل فى النهـار - نهار الصيف الأطول من نهار الشتـاء - وإضافة جزء من النهار - من الـليل - ليل الشتاء الأطول من ليل الصـيف - شبـه هذه الإضافـة بالإيلاج - الإدخال الذى فـيه لطف ويـسر: والجامع بين الطرفين احتواء كل منهما للآخر. وسرها هو تحقق الزيادة فى المضاف إليه لتحقق الظرف على المظروف فيه.

وإيثار المضارع (**يولج**) إشارة إلى تجدد زيادة الليل على النهـار شتاء، وزيادة النهار على الليل صيفا.

وتقديم الليل على النهار؛ لأنه الأسبق وجوداً كما تقدم مرات.

وفى العبـارة فن بديعى هو العكس والتبـديل. وهى أن تقدم فى عجـز الكلام ما أخرت فى صدره وتؤخر ما قدمت.

* (**وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى**):

التسخير هو التهيئة للانتفاع قسرا للشيء المسخر. وكذلك هيأ الشمس والقمر بلا إرادة منهما لمنافع العباد التي لاتحصى ولاتعد وأوثر الفعل الماضي معها (**سخَّر**) لإن الله سخرهما ابتداء مرة واحدة، ومـا يزالان - ولن يزالا - مسخَّرَيْن إلى مـا يشاء الله. ومن لطائف النظم القرآني الحكيم أن كمال النعمة في الليل والنهار - هو تعاقبهما وتجددهما بانتظام المدلول عليه بالفعل المضارع (**يولج**) كما مر في سورة القصص ولو بقي الليل أبداً، أو النهار أبداً لفسد طعم الحياة وملها الأحياء.

وإن كمال النعمة في الشمس والقمر هو دوام تسخيرهما المدلول عليه بالفعل الماضي (**سخَّر**) فما أروع هذا البيان وأحكمه؟ وتقديم الشمس على القمر لأنه أصل النور المشع منه.

* (**كل يجري إلى أجل مسمى**) إيجاز بالحذف، حيث جاء التنوين في (كلٌّ) عوضا عما يضاف إليه، أي: كل شمس[1] وكل قمر.

* وفي (**يجري**) والجري هو السير السريع، تمثل لحركات الشموس والأقمار على ما هو معروف في علم الفلك.

وقال هنا: (**إلى أجل**) وفي غيره: (**لأجل**) لأنه قصد هنا النهاية فدُلَّ عليه بـ(إلى) أما (لأجَلَ) أي: من أَجْلِ بلوغ أجل معلوم[2].

وهذا - فيما فهمنا - المطابق لقول أهل العلم أن الشمس والقمر يجريان لبلوغ أجلين لكل منهما.

الشمس أجلها الأول بلوغ السنة، والقمر أجله الأول بلوغ الشهر وهذا هو المدلول عليه بـ (إلى) الدالة على انتهاء وقطع المسافة أما الأجل الثاني لهما - كما رووه عن الحسن - فهو يوم القيامة وهذا هو المدلول عليه باللام في (**لأجل مسمى**) لأنهما لم يبلغاه بعد.

فهل بعد هذا من إعجاز.

* (**وأن الله بما تعملون خبير**) توكيد الخبر له داعيان بلاغيان هنا:

---

(١) تنكير (شمس وقمر) على إرادة شمس كل يوم وقمر كل يوم.

(٢) قال هذا الإمام الزمخشري: الكشاف (٣/ ٢٣٧).

الأول: الرد على إنكار من ينكر هذه الحقيقة.

والثانى: مضمون الخبر نفسه؛ لأنه من الحقائق العظيمة الراسخة رسوخ الجبال.

وتقديم المعمول **(بما تعملون)** على العامل **(خبير)** والأصل أن يقال: خبير بما تعملون. له غرضان بلاغيان:

الأول: تناسق الإيقاع الصوتى فى فواصل الآيات.

والثانى: حصر عمل العباد بين الله وعلمه، الأول غَرض لفظى لتيسير القرآن للذكر. والثانى غرض معنوى بالغ الدقة.

والآية - برمتها - مسوقة لعدة أغراض بلاغية:

* بيان كمال القدرة الإلهية. * الامتنان على العباد بهذه النعم.

* التعريض بالأصنام وعجزها عن عمل أى شىء كان.

* البرهنة على وقوع البعث بعد الموت.

* التعريض بعبدة الأصنام ومنكرى البعث.

* البرهنة على وجود الله العلى العظيم، وتفرده بالألوهية فى السموات والأرض.

* تثبيت المؤمنين على إيمانهم. * تهديد مكذبى الرسالات.

* * *

٥ - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان: ٣١].

الدراسة والتحليل:

بعد أن فتح النظم الحكيم كتاب الكون لنقرأه، بعقولنا: ليلا ونهاراً متعاقبين متلاحمين متعاونين يُعَرضَ كل منهما الآخر قدراً منه حسبما تستدعيه حكمته التدبير الألهى، ثم شمسا وقمرا يسبحان فى صفحة الأفق الأعلى بما فيه مصالح العباد، بعد هذا تعرض علينا هذه الآية مشهداً حيا من دلائل التوحيد يجرى أمام أعيننا فى كوكبنا الأرضى.

مشهد الملاحة المائية، أقدم وسيلة فعَّالة للانتقال وتبادل المنافع بين العباد:

إنها الفلك من سفن ومراكب مختلفة الحجوم، وقوارب ورواميس[1] تجعل الماء براً يسير فيه الراكب وهو آمن فى سربه، فتنعش بمنظر المياه تمخر فيه السيارات المائية فى مختلف الاتجاهات. . وكل نعمة ينعمها الله على عباده إنما هى دليل على أنه الواحد وقد تصدر هذه الآية هذا الاستفهام:

(ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمت الله ..).

وهذا الاستفهام للتقرير والامتنان قطعا، هذا بإجماع الأئمة والبلاغيين، ولا عبرة لما يذهب إليه الشيخ الطاهر أحيانا من أن الاستفهام فى الآية للإنكار، فقد وضحنا - فيما تقدم - أنه سهو ظاهر كثير ما يقع فيه الشيخ عفا الله عنا وعنه.

وهذه هى **خلاصة** ما يقال فى هذا الاستفهام.

أسْرار النظم وبلاغياته:

* **(ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمت الله)**: الاستفهام تقريرى يُوَقِّفُ الله فيه عباده على هذه الحقيقة، والرؤية بصرية عامة. هى خطاب لكل من كان عاقلا. ولا ضرورة إلى ما يذهب إليه السادة المفسرون من تخصيص الرؤية بمعيَّن، والضابط بين تخصيص الرؤية وتعميمها هو مقام الخطاب. ومقام - بدلالة موضوع الرؤية - عام لكل الناس. وتقرير وتوقيف لكل الناس مؤمنهم وكافرهم طائعهم وعاصيهم.

وتوكيد الخبر بـ (إن) واسمية الجملة؛ لأن مضمونه من الحقائق العظيمة، فحقها أن تصاغ فى أساليب عظيمة مثلها.

وإيثار المضارع (تجرى) للدلالة على تجدد جرى الفلك الذى لايتوقف، مثل جرى الشمس والقمر.

والجار والمجرور **(فى البحر)** للتعجيب من الجرى على سطح الماء الرخو الانسيابى اللطيف. هذا غرض بلاغى أول، والغرض الثانى الفصل بين الفلك العلوية

---

[1] [illegible] جمع راموس وهو حزمة من أعواد الأشجار أو البوص كانت تستخدم فى عبور الأنهار [illegible]

(الفضائيـة) والفلك الأرضية و(**بنعمت الله**) يحتـمل أن يكون فى التعـبير كناية عـما تحمله السـفن والمراكب من أشياء يحـتاج إليهـا الناس فى حياتهم كـالحبوب والثـمار والدواب والفواكه والملابس.

ويحتـمل أن يكون فيـه كناية عن أمر الله، لأن الـسفن والمراكب تجرى بـأمر الله وتدبيره. ولا مانع من الجمع - هنا- بين المعنيين لأن المقـام من أغراضه الامتنان على العباد مع بيان كمال قدرة الله وحسن تدبيره.

* (**ليريكم من آياته**) تعليل جزئى لا كلى، لأن الله جعل البحر مساوراً للفلك للإنعام على عباده، وليتأملوا هذا الصنع الـرائع ولما كان جانب الإنعام ظاهراً للناس، وقد يلهيهم هذا عن التدبر والاعتبار، طوى ذكره ونبَّه على الجانب المهمل ليذكرهم به، ولكى يتخذوا من ذلك عِبَراً وعظات لتقوية إيمانهم وشكر الله على تلك النعم.

فجـرى الفلك فى البحـر له علتان: الإنعـام على الناس وتيسـير أمـور معـاشهم وأسفارهم.

ثم يكون ذلك الجرى من دقـيق صنع الله وبديع تدبيره فـاقتصـرت الآية على ذكر العلة الثانية؛ لأنهـا عرضة للإعراض عنها. وطوى ذكر الأولى لشـدة الإحساس بها. وهكذا ترى فى النظم الحكيم أسراراً ودقائق، هى وجوه الإعجاز فيه.

* (**إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور**) تذييل مقرر لفخامة معانى الكلام الذى قبله، وفذلكة لما تفرق فيه من معان وتوكيد الخبر بـ «إن» وإسمية الجملة، ولام التوكيد لما مر مراراً من أن مضـمون الخبر حقيقـة عظيمة، ينبغى التعبـير عنها بأسلوب عظيم مثلها.

وتقديم الجار والمجرور، وهو الخبر، علي (لآيات) وهو المبتدأ؛ لما فى اسم الإشارة (**ذلك**) من إشعار بفخامة المشار إليه، وهو ما تقدم عليه من جرى الفلك فى البحر بما ينفع الناس. وليس فى هذا التقـديم قصر؛ لأن آيات الله ليست مـحصورة فى الذى ذكر فى هذه الآية وتنكير (آيات) للدلالة على غرضين بلاغيين:

الأول: التكثير والاستفاضة.

الثاني: التعظيم والتفخيم.

* و(صبَّار) و(شكور) صيغتا مبالغة فى : صبَر وشكر، وترك العاطف بينهما: إلماح إلى أنهما وصفان متلازمان فى قوة الوصف الواحد.

وإيثار ذكر هاتين الصفتين هنا لمناسبة المقام لهما لأن ركوب البحر مما تخشاه النفوس وتضطرب فيه إذا هبت ريح أو علا موج، ولأن التفكر فى هذه الحقيقة - جرى الفلك فى البحر - لاستنباط مواطن العبرة فيها يحتاج إلى صبر على طول التفكر والثبات النفسى اللازم لسلامة الاستنباط.

فإذا عرف مواطن العبرة تجلَّت له عظمة النعمة، فقاده ذلك إلى شكر المنعم بها، وهو الله عز وجل.

وهذا يفسر - بكل وضوح - تقديم الصبر على الشكر لأنه تقديم للسبب على المسبب.

ومجيء الفاصلة علي حرف المد والراء لتناسق الفواصل فى الأنواع: **(الكبير - شكور - كفور)**.

* * *

سورة السجدة

١ - ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ، بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [السجدة: ٣].

الدراسة والتحليل:

سورة (ألم السجدة) مكية، نزلت بعد سورة (النحل) وقبل سورة (نوح) وترتيبها فى النزول الثالثة والسبعون وموضوعاتها هى ما اهتم به القرآن المكى فى الغالب كالدفاع عن القرآن، والرد على منكرى البعث وتطور خلق الإنسان، والنعى على الأصنام وعابديها.

وقد بدأت هذه الآية بهذا الاستفهام:

(أم يقولون افتراه)

والأئمة متفقون على أن (أم) فيه هى المنقطعة المقدرة بـ: **(بل)** وهمزة الاستفهام.

وأن (بل) فيها للإضراب الانتقالى من الثناء على القرآن إلى إنكار ادعاء المشركين أن القرآن مفترى من دون الله وهذا الإنكار تصحبه معان ثانية كالتوبيخ والوعيد.

وهذه خلاصة ما يقال فيه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(أم يقولون افتراه)** الثناء على القرآن فى الآية السابقة على هذه الآية، وهى:

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لاَرَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالِمِينَ﴾ ناسب أن يشار بعده إلى خرافة مشركى العرب أن القرآن مفترى من دون الله تمهيدا لتأكيد إنكارها ودحضها.

وإيثار المضارع **(يقولون)** للإعلام بتكرار هذا القول منهم حين كان القرآن ينزل. وأنه يتجدد فى الحال والمستقبل كما حدث منهم ذلك القول فى الماضى.

والتعبير عن المشركين بالضمير، وهو واو الجماعة **(يقولون)** ولم يجر لهم ذكر قبله

فى الكلام؛ لأنهم عُرفوا بهذا القول ويُنسبُ إليهم جرى لهم ذكر أم لم يجر. فالفاعل حاضر فى الأذهان حضوراً يشابه ذكرهم الصريح فى صحة عودة الضمير عليه.

❊ (**بل هو الحق من ربك**) بل للإضراب الإبطالى لقولهم (**افتراه**) والانتقال لتأكيد نزول القرآن من عند الله والألف واللام فى (**الحق**) لتعريف الجنس الشامل لكل الأفراد الحاصر لمفهوم الحق.

و(**من ربك**) من بيانية وإضافة (رب) إلى ضمير صاحب الرسالة ﷺ للتكريم والتثبيت والتعزية عما يلقاه من لأواء قومه وعنادهم.

❊ (**لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك**) اللام فى (لتنذر) لبيان الحكمة من إرساله ﷺ وإنزال القرآن عليه واقتصر البيان - هنا - على الإنذار دون التبشير، لأن الحديث جرى عن وصفهم بأنهم مكذبون بالقرآن والرسالة والرسول. وهذا الوصف يناسبه الإنذار لا التبشير والا الإنذار والتبشير معا.

لأن من سنن القرآن البيانية:

❊ اختصاص البشارة بالذين يعملون الصالحات مع الإيمان بالله.

❊ واختصاص الإنذار بالذين كفروا واجترحوا السيئات.

❊ الجمع بين البشارة والإنذار فى حالة الخلط بين العمل الصالح والعمل الطالح.

ومشركو مكة، المتحدث عنهم فى الآية لا إيمان ولا عمل صالحا لهم فلم يكن يناسبهم إلا الإنذار.

و(من) فى (**من نذير**) لاستغراق النفى.

وفى (**ينتهون**) استعارة، لأن الانتهاء فى اللغة وصول السائر إلى غايته وتوقفه عن السير. فاستعير هنا للتوقف عن الكفر والإقلاع عنه، استعارة محسوس لمعقول اعتناء بشأنه ومبالغة فى ظهوره.

❊ ❊ ❊

٢ - ﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، مَالَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِىٍّ وَلاَ شَفِيعٍ، أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤].

الدراسة والتحليل:

هذا شروع فى تمجيد الله عز وجل، ببديع صنعه وكمال قدرته وعظيم حكمته، فهو - لا غيره - الذى خلق السموات والأرض وما بينهما من كائنات لايعلم عددها وكنهها إلا الله عز وجل وفى إثبات هذه الصفات لله - سبحانه - تعريض بالأصنام وعابديها. ينصر من ينصره، ويخذل من يخذله. وليس لغيره عطاء ولا منع فى ملكه، فهو صاحب الأمر ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

وقد ورد فى فاصلة الآية هذا الاستفهام:

(أفلا تتذكرون) وهو استفهام كثير الورود فى النظم الحكيم فى فواصل آياته.

كثير الورود بصيغته وتركيبه فى النسق الآتى:

همزة الاستفهام + أداة عطف + أداة نفى + فعل مضارع

وكثير الورود بلفظه: **(أفلا تتذكرون)** أو **(أفلا تذكرون)** بتاء واحدة.

وفيه - كما تقدم مرات - مذهبان:

* مذهب الجمهور، وهو أن الهمزة فيه مقدمة من تأخير، وأن الأصل هو: فألا تتذكرون، بتقديم أداة العطف (الفاء) ثم قُدِّمت الهمزة عليها لما للاستفهام من صدارة فصار: (أفلا...).

* مذهب الزمخشرى. وهو أن همزة الاستفهام قارَّة فى مكانها لم تقدم من تأخير. كما يرى الجمهور -. وأيا كان الأمر فالمعطوف عليه محذوف يفهم من الكلام السابق، وقد قدره الإمام أبو السعود. وتابعه الإمام الألوسى، فقال: «الا تسمعون هذه المواعظ فلا تتذكرون بها؟ أو تسمعونها فلا تتذكرون بها»(١).

ثم قال معقبا: «فالإنكار على الأول متوجه إلى عدم السماع وعدم التذكر. وعلى الثانى على عدم التذكر مع تحقق ما يوجبه من السماع»(٢).

(١، ٢) تفسير أبى السعود (٧/ ٨٠) وروح المعانى (٢١/ ١٢٠).

ومعنى هذا أن الاستفهام - هنا - للإنكار عندهما. وقد قال به الإمام الطاهر كذلك[1].

والخلاصة: أن هذا الاستفهام للإنكار فعلا، إنكار عدم التذكر سواء صحبه عدم الاستماع أو لم يصحبه كما تقدم عند أبى السعود.

والإنكار - وحده - لايكفى فى المراد من هذا الاستفهام بل لابد من معنيين آخرين: وهما: التوبيخ على عدم التذكر، ثم الحث والتحضيض عليه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام).**

(الله) هو المسند إليه، و**(خلق السموات والأرض...)** هو المسند. هذا هو اللائق بجزالة النظم، لا كما ذكر الشيخ الطاهر أن ما بعد اسم الجلالة صفات للمسند إليه، وأن المسند هو: **(ما لكم من دونه...)**؛ لأن الاسم الموصول يأتى إما بتعريف ما ليس له صفة تعريف إلا الصلة، أو لإزالة إبهام فيما قبله و**(الله)** أعرف المعارف فلا يحتاج إلى زيادة تعريف ولا لما يزيل إبهاما فيه.

وإنما حاجته فى الآية هى الإخبار عنه. ولما كان طرفا الإسناد هنا معرفتين كانت الجملة قصرية. المقصور عليه فيها هو **(الله)** والمقصور هو خلق السموات والأرض وما بينهما فى المدة المذكورة، وهو قصر حقيقى تحقيقى.

* وفى **(ستة أيام)** كناية عن قِصَر المدة التى خلق الله فيها الكون كله. يعنى فى مقدار ستة أيام (١٤٤ ساعة) من أيام الدنيا. ولا وجه لما يقوله علماء الهيئة **(الفَلَك)** أن المراد ست مراحل طويلة. أى أطول من أيام الدنيا لأن هذا القول:

* لا دليل عليه أولاً.
* وينافى كمال قدرة الله ثانياً.
* ولمخالفته لصريح القرآن ثالثا.

---

(١) التحرير والتنوير: (٢١/ ٢١٢).

* **(ثم استوى على العرش)** هذه العبارة وردت فى النظم الحكيم مرات. وفيها مذهبان كما تقدم:

مذهب السلف، وهو إمرارها كما هى بلا تأويل ولا تجسيم مع تفويض الأمر فيها لله، وللسلف عبارة مشهورة فى ذلك تُعْزَى للإمام مالك وهى:

الاستواء معلوم. والكيف فيه مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

وإنما كان السؤال عنه بدعة؛ لأن الرعيل الأول وهم أصحاب رسول الله ﷺ لم يسألوا عنه صاحب الرسالة، ولا سأل بعضهم بعضا.

مذهب الخلف: وله عندهم تأويلان بلاغيان:

(أ) أن تكون الجملة **(ثم استوى على العرش)** كناية عن خضوع كل الكائنات لأمر الله عز وجل.

(ب) أو تكون تمثيلا لهيمنة الله على كل الكائنات، يعنى استعارة تمثيلية.

والجدير بالذكر أن مثل هذه «المتشابهات التى فى القرآن مما يتصل بصفات الله - ينبغى أن لاتكون مثار تفريق بين المسلمين، ولا تعصب لمذهب على مذهب، بل علينا أن نسلم بما ورد فيها مع تنزيه الله الجازم عن الحوادث والمحدثات. وفى هذا دعوة منا إلى اتباع مذهب السلف.

أما إذا نازعنا منازع من خصوم الإسلام، وادعى أن القرآن يصف الله بالتجسيم وصفات الحوادث، فى هذه الحالة يتعين التصدى لهم بمذهب الخلف، لتفويت غرضهم وسد منافذ الطعون أمامهم.

* **(ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع)** استئناف مسوق لتقرير وحدانية الله، ودحض عقيدة الوثنية، وتجريدها من كل حول وقوة وطَوْل. بعد إثبات كل طول وحول وقوة لله عز وجل.

وتقديم الولى، وهو الناصر بنفسه، على الشفيع، وهو النافع بمكانته عند مَنْ يرُجى منه النفع أصالة؛ لا الناصر بنفسه - أرجى فى النفع من الوسيط بين طالب النفع ومالك النفع والخطاب فى **(لكم)** الأولى حمله على جميع العباد، ويدخل فيه

المشركون ضمنا، لا أن الخطاب خاص بالمشركين كما ذهب بعضهم.

* **(أفلا تتذكرون)** تذييل فيه تهييج وإلهاب وإغراء على التذكر، بعد إنكار عدم التذكر والتوبيخ عليه.

* * *

٣ - ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِى الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ، بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ [السجدة: ١٠].

الدراسة والتحليل:

موضوع هذه الآية شبهة رددها الكفار كثيرا، هى إنكار واستبعاد البعث من القبور بعد الموت، ثم تعقيب مجمل عليها من الله العزيز الحكيم.

وقد ورد فيها صورتا استفهام فى قوة الاستفهام الواحد وهما:

(أئذا ضللنا فى الأرض).

(أئنا لفى خلق جديد)؟

وقد فُصِّل القول فى مثلهما من قبل مرات. ونذكر هنا تلخيصا لما قيل ويقال فيهما:

إن هاتين الصورتين فى قوة صورة استفهام واحد هو الأول: **(أئذا ضللنا فى الأرض)** أما الثانى وهو: ((**أئنا لفى خلق جديد)** فإن الهمزة فيه تأكيد للأول، وكان يكفى لو قالوا:

أئذا ضللنا فى الأرض أنَّا لفى خلق جديد؟ يعنى: أوقت ندفن فى الأرض ونغيب فيها يكون لنا بعد ذلك خلق آخر.

فالاستفهام للإنكار. وتأكيدهم له بـ «إن + إسمية الجملة + لام التوكيد، ليس لتأكيد الإنكار كما قال بعضهم بل لإنكار المؤكد. لأن الشرع أخبر بالبعث إخباراً مؤكدا فأنكروه هم فى صورته المؤكدة التى سمعوها عن لسان الوحى الأمين والخبر الصادق. هذه **خلاصة** سريعة ينبغى أن ينتهى إليها تحقيق القول فى هذا الاستفهام ونظائره السابقة واللاحقة.

أسْرار النظم وبلاغياته:

* **(وقالوا)** استئناف مسوق لبيان جهالة منكرى البعث بعد الحديث عن مراحل خلق الإنسان وتقويم صورته وشكله والتعبير عن منكرى البعث بالضمير، وهو واو الجماعة فى:

(قالوا) ولم يجر لهم ذكر صريح قبل الإضمار، لأنهم أكثروا من قول هذه المقولة حتى عُرِفوا بها معرفة ذهنية قامت مقام ذكرهم الصريح فى صحة عودة الضمير إليها.

* **(ضللنا)** إما استعارة لدُفِنا بجامع الاختفاء فى كلٍ منهما. وإما كناية عن الإقبار فى الأرض.

وإيثار حرف الجر (من) فى قولهم **(فى الأرض)** احتراس لدفع توهم أن الضلال على الأرض. وهو غير مراد، وفيه مبالغة فى تصوير المعنى، وكأنهم يريدون أن يقولوا: صارت أجسادنا ترابا لا يميز بينها وبين تراب الأرض.

* **(لفى خلق جديد)** كناية عن الإحياء والإخراج من القبور يوم البعث.

وإيثار حرف الجر (فى) فى قولهم **(لفى خلق جديد)** للدلالة على التفاوت بين الحالتين والتقابل التام بينهما فى الضدية. وهو من الطباق اللطيف المأخذ داخل فى أصل الدلالة لمقتضى الحال، وليس حلية لفظ ولا تحسين معنى.

* **(بل هم بلقاء ربهم كافرون)** إضراب وانتقال إبطالى لمقولتهم وتقرير لما بعدها، ولما كان القرآن قد دحض هذه الشبهة مرات بالطرق البرهانية اكتفى هنا بتقرير كفرهم بالبعث.

* * *

٤ - ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً، لاَّ يَسْتَوُونَ ﴾ [السجدة: ١٨].

الدراسة والتحليل:

بعدأن تحدث القرآن عن المجرمين ومصيرهم فى الآخرة وعن المؤمنين وحسن جزائهم عند الله يوم يلقونه[1]، ذكر فى هذه الآية فذلكة بديعة لكل ما تقدم، فيها حسم لأن يكون بين الفريقين تساوٍ فى المبدأ أو فى المصير.

وعَبَّر عن هذا بهذا الاستفهام:

(أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا) وهو استفهام مجازى تقدمت له نظائر فى هذه الدراسة. والأئمة مجمعون على أنه استفهام إنكار.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا)** ظاهر النظم إنكار مساواة المؤمن بالكافر. هذه دلالة «المنطوق» أما دلالة المفهوم فهى إنكار مساواة الفاسق - الكافر - بالمؤمن وكان يمكن لغة وبلاغة أن يقال: أفمن كان فاسقا كمن كان مؤمناً.

وذلك لأن كلا الطرفين صالح لأن يلى أداة الاستفهام، فإذا قال: أفمن كان فاسقا كمن كان مؤمنا: كان المعنى نفى مساواة الفاسق بالمؤمن فى الخيرية. ولكن لما قال: **(أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا)** كان المعنى نفى مساواة المؤمن بالفاسق فى الشرية.

ولعل السر فى تقدم المؤمن على الفاسق - هنا - هو الإلماح إلى شرف الإيمان والتعريض بالفسق - الكفر - وأهله وفى الجمع بين (مؤمنا) و(فاسقا) طباق إيجاب واقع موقعه من البلاغة وفى الآية من الفنون البديعية حسن التقسيم لحصر الناس فى المؤمن والفاسق (الكافر) ولا واسطة بينهما.

أما علم البيان فنرى التشبيه السلبى بين جملة الاستفهام الأولى **(أفمن كان مؤمنا)** وجملة الاستفهام الثانية **(كمن كان فاسقا)**.

وضابط هذا التشبيه أن يكون الشبَّه معقوداً خارج دائرة القرآن. والذى فى القرآن هو نفى ذلك الشبه أى: نفى وجه الشبه بين الطرفين.

---

(١) انظر الآيات [من ١٠ إلى ١٧] من سورة السجدة.

وهذا النفى استفيد من همزة الاستفهام الإنكارى.

* **(لا يستوون)**: تزييل مقرر لمضمـون الكلام قبله وإفراد **(مؤمنا)** و**(فاسقا)** بالنظر إلى إفراد لفظ (من) وأما جَمْعُ **(يستوون)** فنظر إلى معنى **(من)** وإيثار الفعل الماضى **(كان - كان)** لأن هذا الحديث جاء باعتبار مصير الفريقين يوم القيامة.

وفى **(لايستوون)** إيجـاز، حيث حُـذِفَ النص على بيان الجـملة، التى لايسـتوون فيها: والتقدير: لايستوون فى الجزاء عند الله.

* * *

٥ - ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِـمَّنْ ذُكِّـرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْـرَضَ عَنْهَـا، إِنَّا مِنَ الْمُـجْـرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

الدراسة والتحليل:

تقدم تفصيل القـول فى هذا الاستفهام ونظائره الخمسة عـشر فى موضع واحد من هذه الدراسة، ولا ضرورة تدعو إلى إعادته هنا[١].

والآية فيـها تهديد لكـل من أعرض عن الإيمان بالله بعد أن جلىَّ الـله على لسان رسله حقائق الإيمان.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(ذُكِّرَ بآيات ربه)** بُنى الفعل **(ذُكِّرَ)** لما لم يسم فاعلـه لأن الغرض التبليـغى البلاغى حصل بالحـدث، وهو التذكيـر المدلول عليه بالفـعل (ذُكِّرَ) دون توقفـه على تعيين الفاعل ثم ليـفيد هذا البناء التعـميم فى الفاعل: رسلا ودعـاة بعد الرسل إلى يوم القيامة.

و**(آيات)** أى كلمات الله. وسميت كلمة الله: آية، لأنها علامة أو علامات على ما يصلح حـال الناس فى الدنيـا والآخرة ولـما فى معنى (آية) مـن الإلماح إلى المعجـزة الخارقة لكل مألوف فى الحياة.

وإضافة **(آيات)** إلى (رب) المضاف إلى ضميـر المتحدث عنه (ربه) لتبشيع الإعراض وتفظيعه.

---

(١) انظر (١/ ٢٨١) من هذه الدراسة.

وفى (أعرض) استعارة تصريحية تبـعية، حيث شُبّه عدم الإيمان بما أنزل الله، وهو أمر عقلى ذهنى قلبى بالإدبار الحـسى وهو الإشاحة عنها بالوجه ثم السـير فى الاتجاه المضاد لها بعد التذكر بها وسماعها. للمبالغة فى تصوير رفض الإيمان بها. كما أن فى إيثار الفعل الماضى (**ثم أعرض عنها**) تشنيعا وتفظيعا لذلك الرفض الذى وقـع متحققا من المتحدث عنه.

وعطف الإعراض عن التـذكير بـ (**ثم**) زيادة فى التـشنيع والتفظيع، أى: أعـرض عنها بعد سماعها وتدبرها وبيان ما فيها له من أسباب الهدى والإيمان.

* (**إنَّا من المجرمين منتقمون**) استئناف مسوق لبـيان سنة الله فى هؤلاء المعرضين وسوء المصير المعد لهم.

وتوكيـد الخبـر بـ (أن) + اسميـة الجملة فى المبـتدأ وفى الخبـر (إنا) ـ (منتقـمون) للتشديد فى الوعيد.

وتقديم الجار والمجرور (**من المجرمين**) على (**منتقمون**) أفاد غرضين بلاغيين:

الأول: تناسق الفواصل فى الإيقاع: (**يرجعون - منتقمون**) حيث بنيت فواصل ما قبلها وما بعدها على حرف المد.

والثانى: تقديم السبب، وهو الإجرام، على المسبب وهو الانتقام.

والخبـر - برمته - لم يـرد منه فائدته ولا لازمهـا، بل هو مستـعمل فى الوعـيد الشديد، فهو مجاز مرسل حيث أطلق الخبر وأريد به الوعيد والتهديد.

وإيثار الصيغـة الإسمية فى (**منتقمون**) على الفـعلية إشـارة إلى أن انتقـام الله من المجرمين ثابت لا ينقطع.

* * *

٦ - ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ، أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦].

الدراسة والتحليل:

تقدم تفصيل الدراسة والتحليل وأسرار النظم وبلاغياته فى الآية رقم [١٢٨] من سورة (طه) وهى آية صورة طبق الأصل من آيتنا هذه. وهى:

﴿أَفَلَمْ يهدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لأُولِي النُّهَى﴾ ولا فَرْق بين الآيتين إلا فى موضعين:

فآية السجدة العطف فيها بالواو (**أوَ لَم يَهْدِ..**) وآية طه العطف فيها بالفاء (**أَفَلَمْ يَهْدِ..**).

والموضع الثانى: الفاصلة فى آية السجدة (**أفلا يسمعون**) والفاصلة فى طه (**لأولى النهى**) فليعد القارئ إلى ما سبق ذكره حول آية طه دفعا للتكرار. أما هنا فسنذكر السر البلاغى فى العطف بالواو، ثم الفاصلة تحت مبحث:

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**أو لم يهد لهم..**﴾ لم يتقدم فى هذه الآية ما يقتضى الترتيب والتعقيب حتى يكون العطف بالفاء كما فى سورة طه التى رتبت مراحل جزائية ثم عقب عليها بالعطف بالفاء. وهنا عُطِف بالواو وهى لمطلق الجمع، وهذه الواو مشعرة بمعنى الاستئناف، حيث فرغ النظم من الحديث عن موسى عليه السلام وعن الذين اهتدوا من قومه وتصييرهم أئمة يهدون بأمر الله، ثم استؤنف الحديث عن مشركى مكة، وكونهم غافلين عن العظات والاعتبار مما حل بالعتاة من الأمم الغابرة ومن يراجع نظم الآيات فى السجدة قبل هذه الآية لايرى وجها للتعقيب ولا للترتيب الذى تستعمل فى إفادتهما الفاء العاطفة. وإنما أن مطلق الجمع فى البيان هو المتعين؛ لذلك كان العطف بالواو هو المتعين دون أدوات العطف الأخرى.

أما الفاصلة فقدكانت فى (طه): (**لأولى النهى**) أى أصحاب العقول. وجاءت فى السجدة (**أفلا يسمعون**) وكلتا الفاصلتين واقعة موقعا بديعا من البلاغة.

لأن موضوع الآيتين واحد، هو الحث على الاعتبار من مصارع الأمم العاتية. ولن يعتبر إلا من كان ذا عقل متدبر، أو من كان ذا سمع يعى. وكل من العقل المتدبر والسمع الواعى يستلزم الآخر.

وأوثر **(أولوا النهى)** فى طه لمناسبة الفواصل التى بنيت على الألف المقصورة.

كما أوثر **(يسمعون)** فى السجدة لمناسبة الفواصل التى بنيت على حرف المد والنون: **(يوقنون - يختلفون - يسمعون - يبصرون)**.

وبناء الفواصل- عموما - على أنساق متآلفة صوتيا فيه تيسير وجذب نحو القرآن الذى يتلى، ثم التأمل فيه. وهكذا تجمع الفواصل بين جمال الألفاظ وخدمة المعانى، مصداق هذا قوله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ، فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

والاستفهام الذى فى الفاصلة **(أفلا يسمعون)** للإنكار حملا على مذهب الزمخشرى، أى: أيُقصُّ عليهم ذلك فلا يسمعون بمعنى لاينتفعون بما يقص عليهم فهم لايسمعون. مع الحث على السماع.

* * *

٧ - ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ، أَفَلاَ يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧].

الدراسة والتحليل:

فى الآية التى تقدمت كان لفت الأنظار إلى مصارع الأمم العاتية. أى: إلى وقائع التاريخ الإنسانى. وفى هذه الآية جاء لفت الأنظار إلى ما يجرى - الساعة - فوق الأرض من آثار قدرة الله وواسع رحمته.

هنا يوجه القرآن أبصارنا - بكل قوة - إلى الماء كيف يساق إلى أماكن القحل من الأرض، ثم سرعان ما يخرج الله من بطونها أشجاراً ونباتا وزروعا شتى، تحمل من الخير ما يكون متاعا للناس ولأنعامهم. ولولا رحمة الله، وكمال قدرته لما نبت شيء

من ذلك. أفليست هذه آيات تدرك بالعين الباصرة ألايكون فى ذلك عظات وعبر تدل على أنه الواحد.

وقد ختمت هذه الآية بهذا الاستفهام:

﴿أَفَلاَ يُبْصِرُونَ﴾.

وهو استفهام إنكارى. إنكار عدم الإبصار، ثم الحث عليه. أى أعموا عن هذه الآيات فهم لايبصرونها. وهذا على تقدير المعطوف عليه المحذوف الذى هو محط الإنكار أما الاستفهام الذى فى صدر الآية (**أولم يروا**) فهو استفهام تقريرى وإلزامى. لأنهم يرون بأبصارهم سوق الماء وإخراج الزرع منها، ولكنهم لم يبصروها بقلوبهم ولم يتدبروها بعقولهم. فهم المقصرون فى حق أنفسهم وعلى هذا فإن مذهب الجمهور هو المطبق فى الاستفهام الأول دون مذهب الزمخشرى وإلاَّ صار التقرير إنكاراً وأما فى (**أفلا يبصرون**) فالمطبق هو مذهب الزمخشرى الذي اقتضاه المقام.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْاْ**﴾ الرؤية - هنا بصرية، لأن موضوعها مما يشاهد بالبصر.
* (**أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز**) توكيد بـ (إن) واسمية الجملة، لأن مضمونه حقيقة عظيمة، راسخة، فعُبِّر عنها بأسلوب عظيم مثلها.

وإيثار المضارع (**نسوق**) لأن سوق الماء المشار إليه فى الآية يتكرر دائما حسب حاجة العباد وتدبير الله الحكيم.

* (**فنخرج به زرعا**) الفاء للترتيب والإلماح إلى معنى السببية وإيثار المضارع (**نخرج**) لإفادة التجدد والتكرار وتنكير (**زرعا**) للتكثير والتعظيم والتنويع بدلالة المقام.
* (**تأكل منه أنعامهم وأنفسهم**) وإيثار المضارع (**تأكل**) للتكرار. وذلك لأن المقام من أغراضه الامتنان، وهو يقتضى تكرار الانتفاع بالنعمة، لذلك جاءت الأفعال الأربعة مضارعة:

(**يروا - نسوق - نخرج - تأكل**) للمطابقة لمقتضى الحال وتقديم الأنعام على الأنفس؛ لأن الأنعام تنتفع بها الأنفس فهى ثمرة من ثمرات الماء والزرع.

* **(أفلا يبصرون)** لما كـانت الرؤية فى صدر الآية بصـرية ناسب أن تكون الفـاصلة، يبصرون، أما فى الآية التى قبل هذه الآية. فقد كانت كلمة **(يهد لهم)** بمعنى الرؤيا العلمـية لأن مـوضوعـهـا كان تاريخ الأمم الذى يُنْقَل لـلأجيـال بواسطة السمـاع والرواية، لذلك كانت الفاصلة هنا **(أفلا يسمعون)**.

* * *

٨ - ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [السجدة: ٢٨].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية تكررت من قبل مرات، ورددها منكرو البعث كثيراً، ومرادهم منها ليس عِلْمَ ما لم يـعلموا، بل إنكار ما علمـوا وهنا لما اتخذ القـرآن من الآيات الدالة على كمـال قدرة الله عز وجل، من خلق السـموات والأرض، وتسخـير الشمس والقـمر والنجوم، وإنزال الماء وسوقه إلى الأماكن التى هى فى حاجة إليه، وإهلاك الأمم التى عتت عن أمر ربهـا، لما اتخذ القرآن من هذه الآيات دلائل صادقـة على إمكان البعث عقلا، ووجـوبه شرعا. سخر مشـركو مكة مرة أخرى، وترجموا سـخريتهم هذه فى هذا الاستفهام **(متى هذا الفتْحُ إن كنتم صادقين)**.

وقد حللنا هذا الاستفهام من قبل، وقلنا إن المراد منه بإجماع المفسرين هو الإنكار. وهذه خلاصة ما يقال فيه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(ويقولون)** إضمار من غـير تقدم ذكر لعـودة الضمير. وقد وضـحنا هذا من قبل، وقلنا إن الحضور الذهنى - لقـوته - نُزِّل منزلة الذكر القولى، فى اعتمـاد الضمير عليه **(متى هذا الفتْحُ)**؟ اتخذوا من السؤال عن وقت الفتح وسيلة إلى نفيه وإنكاره، وذلك عن طريق الكناية، لأن السؤال عن الشىء يقتضـى عدم رؤيته، وعدم رؤيته يقـتـضى عدم وجـوده، أى عـدم وجـود الوقت، وقـد كنوا بهـذا كله عن إنكار البعث. أى أن البعـث لا وقت له، فهو غير كـائن، لأن كل كائن لابد له من وقت يكون فيه.

وسمواً يوم القيامة فتحا، لأنه انتصار للإيمان والمؤمنين وتيئيس للمشركين ومنكرى البعث. بدليل قوله تعالى بعد هذه الآية فى الرد عليهم، وفى دحض شبهاتهم:

﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لاَ يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

* **(إن كنتم صادقين)** تهييج وإلهاب من منكرى البعث للمؤمنين، وإلجاء إلى الجواب، لأنهم يعلمون أن يوم البعث لايعلم به أحد غير الله، فإذا قال لهم المؤمنون لايعلمه غير الله سخروا منهم، وعدوا ذلك انتصاراً عليهم. وإذا لم يجيبوهم بشىء عدوا صمتهم انتصاراً عليهم.

وفى العبارة إيجاز بالحذف، والتقدير:

متى يكون هذا الفتح؟ حددوا لنا وقته إن كنتم صادقين فيما تقولون؟

وبهذا تنتهى الاستفهامات التى فى سورة السجدة بعد تأديتها دورها فى مجال الدعوة، والرد على خصومها.

* * *

سورة الأحزاب

١ - ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُم مِّن اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً، وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيراً﴾

[الأحزاب: ١٧].

الدراسة والتحليل:

سورة الأحزاب تكاد تخلو - تماماً - من صور الاستفهام، حيث لم يرد فيها منه إلا صورتان وهذه الآية واردة ضمن آيات تتحدث عن المنافقين وبيان ألاعيبهم، وفيها يأمر الله رسوله الكريم بأن يقول لهم: إن الله وحده هو الذى ينفع ويضر، قوله حق وإرادته نافذة وقدرته غالبة، فإن أراد بهم سوءاً فلا مرد ولا راد له، وإن أراد بهم رحمة فلن يدفعها عنهم أحد، وأنهم مهما نافقوا فلن يجدوا لهم من دونه ولياً يصافيهم الود، ولا نصيراً يدفع عنهم الهزائم.

وقد تصدر هذه الآية هذا الاستفهام:

﴿من ذا الذى يعصمكم من الله﴾، وكنا قد عرضنا لخصائصه البيانية، والمراد منه والمقام الذى يرد فيه مرات من قبل، فى استفهامات سورة البقرة وغيرها[1].

والمراد منه يتردد بين الحث على الفاعل وتقريره وبين إنكار الفاعل، والنظم الحكيم يستعمله فى المقامات التى فيها فخامة ملحوظة، وعزة وجود أو امتناع وجود الفاعل، والآية التى معنا المراد من الاستفهام فيها إنكار وجود الفاعل أصلاً، أى لا عاصم لهم قط من الله ونوصى القارئ بالرجوع إلى تفصيل القول فى هذه الصورة التى تتكون من:

* اسم الاستفهام (من) التى للعاقل.

---

(١) انظر السفر الأول من هذه الدراسة الآيتين: (٢٤٥، ٢٥٠] من سورة البقرة.

* اسم الإشارة (ذا).

* اسم الموصول (الذى).

فإن له أسراراً لطيفة وبلاغيات بديعة جديرة بالاهتمام والتأمل[1].

أسرار النظم وبلاغياته:

* فى (**يعصم**) استعارة، حيث شُبِّه: المنع بالعصمة، لما فى العصمة من قوة وإحاطة بالمعصوم.

وتصدير هذه الآية بفعل الأمر (**قل**) للإشعار بأهمية المقول وفورية التبليغ والمواجهة.

* وفى (**من الله**) إيجاز بالحذف، والتقدير: مما يريده الله بكم أو من أمر الله فيكم.

وتقديم إرادة السوء على إرادة الرحمة، لأن السوء هو الذى يُطْلَبُ دفعه والحيلولة دونه.

* وفى عطف إرادة الرحمة على إرادة السوء، والرحمة لا عصمة منها، لبيان نفاذ قدرة الله فى جميع الأحوال.

وبين السوء والرحمة طباق لطيف المآخذ.

* ﴿**ولا يجدون لهم من دون الله وليًا ولا نصيراً**﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله، وإيثار المضارع (**يجدون**) لشمول النفى جميع الأوقات، وتنكير (**ولياً**) و(**نصيراً**) للتحقير أو الانعدام وهو الأصوب.

* * *

---

(١) أشرنا من قبل إلى موضعين من مواضع هذا الاستفهام يرجى الرجوع إليهما.

٢ - ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً﴾ [الأحزاب: ٦٣].

الدراسة والتحليل:

بعد أن حذرت السورة وأنذرت أهل الكفر والنفاق من تطاولهم على الله ورسوله وعلى المؤمنين، وقضى الله عليهم باللعنة وسوء المصير، أشار إلى ما كان يثيره الناس - وفى مقدمتهم أهل الكفر والنفاق - من كثرة سؤالهم عن الساعة متى تكون، وقد مضت الإشارة إلى هذه الظاهرة فى سورة الأعراف، كما أشار القرآن مرات إلى قول الذين كفروا مستبعدين قيام الساعة: **(ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين)** بعد هذا كله أعيدت الإشارة إلى هذا التساؤل - هنا - ثم سجل النظم الحكيم الجواب عليه، بأن علم الساعة مما استأثر به الله ولم يطلع عليه أحداً لا ملكاً ولا رسولاً، ولو كان الله مُطْلِعاً أحداً على وقت قيام الساعة لأطلع عليها رسله الكرام، لأنهم صفوة البشر.

وقد صور النظم الحكيم نفى العلم عن الناس بقيام الساعة فى هذا الاستفهام: **﴿وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً﴾** وفيه يقول الإمام أبو السعود: (يسألك الناس عن الساعة): أى عن وقت قيامها كان المشركون يسألونه ﷺ عن ذلك استعجالاً بطريق الاستهزاء، واليهود (يسألونه) امتحاناً، لأن الله تعالى عَمَّى وقتها فى التوراة، وسائر الكتب **﴿قل إنما علمها عند الله﴾** لا يطلع عليها ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلاً، وقوله تعالى: **﴿وما يدريك﴾** خطاب مستقل له ﷺ، غير داخل تحت الأمر(١)، مسوق لبيان أنها مع كونها غير معلومة للخلق مرجوة المجئ عن قريب، أى أشئ يعلمك بوقت قيامها، أى لا يعلمك به شئ أصلاً، **(لعل الساعة تكون قريباً)**، أى شيئاً قريباً(٢).

---

(١) يعنى أن هذه الجملة غير داخلة فى مقول القول لفعل الأمر (قل) وأن مقول القول هو: (علمها عند الله).

(٢) تفسير أبى السعود: (٧/ ١١٦) بتصرف يسير جداً.

معنى هـذا الكلام أن الاستفهام فى (وما يدريك) للنفى القاطع، الذى لا يتبدل قط.

وردد الإمام الألوسى ما قاله الإمام أبو السعود، وله زيادات عليه، منها التصريح بأن الاستفهام فى (**وما يدريك للنفى**)[1].

حسبنا ما قاله الإمامان فى بيان المراد من الاستفهام هنا، حيث لم يتعرض له الإمام الزمخشرى من قبل، وغيرهما لم تخرج أقوالهم عما قالاه.

والخلاصة التى لا نزاع فيها أن المراد من الاستفهام فى الآية موضوع الدراسة هو النفى، لكن ليس مجرد نفى، بل هو النفى المستمر، أو النفى المؤبد، لأن علم قيام الساعة مما استأثر الله به فلم يطلع عليه أحداً فى الماضى، ولن يطلع عليه أحداً فى المستقبل.

وقفة قصيرة:

نقف - هنا - وقفة قصيرة قبل مبحث الأسرار والبلاغيات، فنشير إلى أن هذا الاستفهام يرد لأول مرة فى القرآن فى سورة الأحزاب، ونعنى به ما كان المستفهم عنه فيه هو فعل الدراية، **وله فى القرآن صفتان:**

الأولى: الفعل المضارع كما هو الشأن - هنا - (**وما يدريك**) وقد ورد فى القرآن ثلاث مرات هذه أولاها، **والثانية:** فى [سورة الشورى: ١٧] ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾، **والثالثة:** فى [سورة عبس: ٣] ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾.

والصيغة الثانية هى الفعل الماضى، مثل ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الإنفطار: ١٧].

ومرات ورودها فى القرآن ثلاث عشرة مرة سيأتى الحديث عنها إذا شاء الله.

ثم نعقد موازنة بين الصيغتين مع الفروق بينهما فى المعنى والتركيب.

أما صيغة المضارع فسنكتفى بدراسة آية سورة الأحزاب وتحليلها، وبيان أسرار النظم وبلاغياته فيها؛ لأن ما يتصل بجملة الاستفهام فيها (**وما يدريك**) قد يغنى ذكره فى

---

(١) روح المعانى (٢٢/ ٩٢).

أحد المواضع عن الموضعين الآخرين، هذا ما أردنا لفت الأنظار إليه فى هذه الوقفة القصيرة.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿يسألك الناس عن الساعة﴾ استئناف مسوق للانتقال من الحديث عن الذين كفروا والمنافقين وسوء صنيعهم إلى إلحاحهم فى السؤال عن يوم القيامة تهكماً وإنكاراً، ثم توطئة لبيان مصيرهم فى الآخرة.

* وإيثار المضارع (**يسألك**) إشارة إلى ذلك الإلحاح وتكراره حالاً بعد حال، لجاجة وعناداً.

* وإسناد السؤال إلى (الناس) والمراد المشركون من إطلاق العام وإرادة الخاص على سبيل المجاز المرسل وسره البلاغى - فيما يلوح لنا - إشارة إلى كثرة من كان يرتاب فى قيام الساعة، أو يتطلع إلى معرفة شئ عنها من المؤمنين بها المشفقين منها.

* وفى (**عن الساعة**) إيجاز بالحذف، والتقدير: عن وقت قيام الساعة، وسره البلاغى استثمار أقل ما يمكن من الألفاظ فى أكثر ما يمكن من المعانى.

* ﴿**قل علمها عند الله**﴾ تصدير الجملة بفعل الأمر (قل) للإشعار بأهمية المقول بعده، وسرعة المواجهة به، وفيها إيجاز بالحذف - كما مر - والتقدير: قل علم وقتها عند الله.

* و(**عند**) المراد به عندية العلم لا عندية المكان فالظرفية فيه معنوية لا حسية، فإن أريد منها المكان كان الظرف كناية عن موصوف، هو اللوح المحفوظ الذى فيه أقدار كل شئ.

* ﴿**وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً**﴾ الواو للاستئناف، والاستفهام لنفى فاعل الإدراء.

* وإيثار المضارع (**يدريك**) ليعم النفى جميع الأوقات والمقام - هنا - يضفى على الفعل (**يدريك**) معنى دلالة الاسم من الثبوت والاستمرار والدوام، لأن دلالة

المضارع - هنا - ليست التـجدد والحدوث الذى يتخلله إنقطاع، بل دلالتـه الثبوت المستمر، وليس فى هذا خروج على الدلالة الوضعية المرادة من الفعل المضارع على وجـه العمـوم، لأن لكل دلالة مـخصـصـات تخرجـهـا عن الأصل، ومن تلك المخصصات المقام الذى ورد فيه هذا الفعل.

* وتخـصـيص الخطاب بالنبي ﷺ فى قـوله تعـالى: ﴿**وما يدريك**﴾ لتشـديد النفى وتأكيده، لأن نفى درايته بوقت قيام الساعة، وهو نبى مرسل، دليل قطعى عن نفى دراية غيره به من عامة الناس.

* وفيه كناية لطيفة عن جهل غيره بوقت قيـام الساعة والتلويح إلى قرب قيامها تهديد للسائلين عنها على وجه الإنكار والتهكم، ووصف قيامـها بالقرب لا ينافى استئثار علم الله بها، لأن كونها قريباً لا يعلم وقته إلا الله، ولو كانت قد قامت بعد نزول هذه الآية بطرفة عين، فجهل الخلق بها قائم قرب وقتها أو بَعُدَ، وتذكير (قريباً) لأن الساعة مؤنث مجازى يجوز مطابقة وصفه له فى التأنيث وفى التذكير معاً.

* * *

سورة سبأ

١ - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ، بَلِ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلاَلِ الْبَعِيدِ﴾ [سبأ: ٧، ٨].

الدراسة والتحليل:

اشتهر كفار قريش بإنكار البعث، وكانت لهم عبارات مختلفة فى إنكاره، ورددوا عبارات هذا الإنكار مرات، وهذا سر اختلاف الحكاية عنهم كما ورد فى الإسراء وفى السجدة وفى سبأ وفى غيرهن.

وقد سجلت سورة سبأ، وهى مكية، كثيراً من مواقفهم المعادية للإسلام، ولرسوله الكريم ﷺ، كما نرى فى هاتين الآيتين اللتين ورد فيهما قولهم فى إنكار البعث:

* **﴿هل ندلكم على رجل..﴾؟**
* **﴿أفترى على الله كذبا﴾؟**
* **﴿أم به جنة﴾؟**

جعلوا الإخبار بالبعث على لسان الشرع مثاراً للتَّنَدُّر والتفكُّه، وجعلوا الرسول ﷺ موضعاً للهزء والسخرية.

والمراد من الاستفهام الأول هو التعجيب والتندر، أما الثانى والثالث فالمراد منهما الذم والتكذيب، ومجموع هذه الاستفهامات الثلاث كناية عن إنكار البعث، فهم بعد أن أضمروا إنكاره فى أنفسهم، ودعوا إلى التعجب من القائل به أرجعوا هذا القول إلى واحد من أمرين هما:

إما أن يكون القائل به مفترياً على الله كذباً لم يقله الله، وإما أن يكون مجنوناً لا يعقل ما يقول، فرد الله عليهم بإبطال ما قالوه، ووصفهم بالخلود فى العذاب بسبب كفرهم بالحياة الآخرة.

هذه خلاصة سريعة لما يقال فى هذه الاستفهامات الثلاثة التى لم يصرح الأئمة بالمراد منها، بل أومأوا إليه فى عرض كلامهم.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**وقال الذين كفروا**﴾ إجمال: ﴿**هل ندلكم على رجل**﴾ شروع فى تفصيل ذلك الإجمال، وإيثار (**هل**) إشارة منهم إلى تحقق الدلالة التى عبروا عنها بقولهم: (**ندلكم**) وهذا كلام جرى بينهم، فالقائل بعضهم، والمقول لهم بعض آخر منهم.

والمراد بـ(**رجل**) محمد ﷺ، وإنما نكرّوه وهم يعرفونه كما يعرفون أنفسهم، سخرية واستهزاء وتندراً.

* (**ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق**) هذه كناية عن شدة الفناء التى يصيرون إليها بعد الموت، كما عبروا عنها من قبل بالعظام والرفات والتراب.

وبناء الفعل (**مزقتم**) لما لم يسم فاعله لأن المقصود هو حصول التمزق والبلى، لا معرفة فاعله من هو؟

* (**إنكم لفى خلق جديد**) كسرت همزة (إن) لوقوع الجملة بدلاً مما قبلها، وتوكيد الخبر بـ: إن واسمية الجملة ولام التوكيد حكاية لورود الخبر بالبعث على لسان الشرع مؤكداً، كما تقدم ذلك مرات.

وإيثار حرف الجر (فى) فى قولهم (**لفى خلق جديد**) إشارة إلى تمكن ذلك الخلق منهم، حتى صار كالظرف، وهم مظروفون فيه على سبيل الاستعارة بالكناية، وهذا مبالغة منهم فى الإنكار:

أى: كيف يكون الناس بعد الموت فى حياة ظاهرة مستقرة وقد دفنوا فى الأرض وامتزجوا بها؟

* ﴿**أفترى على الله كذباً أم به جنة**﴾ همزة الاستفهام فى (أفترى) مقدرة، أى: أأفترى على الله كذباً، والاستفهام هنا، وفى (**أم به جنة**) للتقرير، أى أحد الأمرين كائن فيه على وجه الترديد، و(أم) الظاهر أنها متصلة لا منقطعة لأنهم رددوا الإخبار بالبعث بين هذين الاحتمالين دون الجزم بواحد منهما، بل على معنى أن أحدهما هو الكائن فيه وتنكير (**كذباً**) للتهويل والتفظيع على زعمهم الباطل.

* ﴿بل الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ إضراب وانتقال إبطالى لقولهم السابق، إلى تقرير أن كفرهم وعنادهم هو السبب فى إنكار البعث:

فلا محمد ﷺ كاذب على الله، ولا هو مجنون، وإنما السبب هو كفرهم بالحياة الآخرة.

وإيثار الموصول وصلته فى (**بل الذين لا يؤمنون بالآخرة**) على الضمير، حيث لم يقل: بل هم، لما فى ذكر الصلة (**لا يؤمنون بالآخرة**) من التسجيل عليهم بهذا الكفر الشنيع، وليكون ذلك تمهيداً لقوله تعالى:

﴿**فى العذاب والضلال البعيد**﴾ ولبيان أن خلودهم فى العذاب سببه كفرهم بالحياة الآخرة، وضلالهم عن الحق، ووصف (الضلال) بـ(البعيد) مجاز عقلى، لأن البعد وصف لصاحب الضلال وسره الإشارة إلى بعدهم عن الحق بُعْداً بالغ الغاية القصوى.

* * *

٢ - ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ، أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِّنَ السَّمَاءِ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [سبأ: ٩].

الدراسة والتحليل:

يضع الله السماء والأرض أمام النظر، ثم يهدد منكرى البعث ويمتنُّ عليهم فى الوقت نفسه، يهددهم بأنهم محصورون بين السماء المظلة، والأرض المقلة، فإذا أراد الانتقام منهم فلن يرسل عليهم جنوداً من مكان بعيد، بل إن شاء خسف بهم ما تحت أقدامهم من الأرض فغاروا فيها لا يلوون على شئ.

أو يقذف عليهم كتلاً من السماء فتسويهم بسطح الأرض، وما هم بمعجزين فى الأولى، وما هم بمعجزين فى الثانية.

هذا هو التهديد، أما الامتنان، فلأنه عز وجل مع قدرته على الانتقام لم ينتقم منهم، وأتاح لهم فرصة التوبة.

والاستفهام فى الآية تقرير بالرؤية، وهى رؤية بصرية.

وهذه خلاصة ما يقال فيه، وإن تعودنا من بعض الأئمة حمله على الإنكار، بتنزيل الرؤية منزلة العدم لعدم الانتفاع بها، هكذا يذهب أبو السعود والألوسى فى بعض المواضع، ولكن هذا التوجيه ممتنع هنا، لأن المراد من الرؤية التوقيف على حقيقتى السماء والأرض لا ليعتبروا بهما ولكن لإمكان خسف الأرض بهم، أو إسقاط قطع من السماء عليهم، ولذلك فإن هذا الاستفهام لا يكون إلا تقريراً وتوقيفاً.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم**﴾ الرؤية بصرية، وقد عُدِّيتْ - هنا - بـ(إلى) لما قدمنا من قبل من أن الرؤية إذا كان موضوعها معنويا، عديت بذاتها، وإذا كان موضوعها مادة حسية فإن النظم الحكيم يُعَدِّيها بـ(إلى) كما فى هذه الآية، وتفيد هذه التعدية - مع ذلك - امتداد الرؤية مكاناً.
* ﴿**ما بين أيديهم وما خلفهم**﴾ ما موصولة، وما بعده هو الصلة والتعبير عما هو أمامهم بـ(**ما بين أيديهم**) كناية عن التمكن من الشئ وقوة الإحساس به، أو استعارة تمثيلية شبهت فيها الهيئة الحاصلة من المبصرات مع شدة ظهورها والتمكن منها بالهيئة الحاصلة بما فى يدى الإنسان من أشياء وتمكنه من الهيمنة عليها وتصريفها.

وتقديم (**ما بين أيديهم**) على (**ما خلفهم**) لشدة إلف الإنسان بما هو فى قبضته وتحت تصرفه.

والجمع بينهما طباق متمكن فى أصل الدلالة، والمراد هو الإحاطة.

ولم يذكر ما عن أيمانهم، وما عن شمائلهم، لأنه يدرك بحاسة البصر كما يدرك ما هو أمامهم.

* ﴿**من السماء والأرض**﴾ (من) بيانية، والعبارة تحديد لمجال الرؤية المقرر بها، وتقديم السماء على الأرض لشرفها، ولأنها أشد إرهاباً فى المقام المسوق من أجله الكلام وهو التهديد.
* ﴿**إن نشأ نخسف بهم الأرض**﴾ إيثار (**إن**) على: إذا لإخراج الكلام مخرج الاحتمال المناسب للتهديد وبدأ بالأرض لقربها منهم.

* ﴿**أو نسقط عليهم كسفاً من السماء**﴾ تنويع لضروب التهديد، وتنكير (كسفاً) للتكثير والتهويل.

* (**إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب**) تذييل مقرر لمعنى ما قبله.

وتوكيد الخبر بـ(إن واسمية الجملة ولام التوكيد) للإلماح بفخامة المعنى، وأنه من الحقائق العظيمة التى تصاغ فى أساليب فخمة، مثلها، ليكافئ اللفظ المعنى.

وتقديم الجار والمجرور (**فى ذلك**) وهو مسند، على (**لآية**) وهو المسند إليه للإيذان بتفخيم شأن المشار إليه من نوعى التهديد.

وإيثار اسم الإشارة (ذلك) الموضوع للمشار إليه البعيد، تفخيماً بعد تفخيم للمشار إليه المتقدم تنزيلاً لبُعْد المكانة منزلة بُعْد المكان.

* (**لكل عبد منيب**) بيان لصفة من ينتفع بالآيات وفيه تهييج وإلهاب وحث نحو ما يسوق الله لعباده من دلائل الإيمان والتوحيد.

وتنكير (**آية**) للتعظيم والتفخيم.

* * *

٣ - ﴿وَلاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ، حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ، قَالُوا الْحَقَّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

الدراسة والتحليل:

لما كان عبدة الأصنام يرون أن أصنامهم ستشفع لهم عند الله وحكى ذلك عنهم القرآن، وكانوا يعبدونها لأنها تقربهم من الله زلفى، أنزل الله هذه الآية والآية التى قبلها وهى:

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللهِ لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَلاَ فِى الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾.

وفى هاتين الآيتين تقنيط للمشركين من أصنامهم، فهم لا يملكون شيئاً ما لا فى السموات ولا فى الأرض، وليس لهم عند الله وزن قط وأن الشفاعة لا تنفعُ عند الله

إلا من يأذن له، ولن يأذن الله للأصنام بشئ، أما من عبدوهم من الملائكة والصالحين من عباده فشفاعتهم التى يأذن الله فيها لن تكون للمشركين، بل لمن يستحقها من المؤمنين.

وأن رهبة الموقف يوم القيامة ستغشى كل الناس، فإذا أزيل الفزع عن قلوبهم قال طالبو الشفاعة: ماذا قال ربكم، فيقول لهم الشافعون: قال ربنا الحق، أى أذن بالشفاعة لمن يستحقها من عباده.

والاستفهام الذى فى الآية: **(ماذا قال ربكم)** حقيقى لا مجازى، لأن المستفهم (اسم فاعل) يسأل هل أذن الله فى الشفاعة؟

فكان الجواب من الذين سُئلوا: قالوا الحق، وهو العلى الكبير.

والاستفهام الحقيقى على ندرة وروده فى القرآن لا يقف أمامه الأئمة طويلاً، لوضوح المراد منه عند السائل والمجيب.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾** أوثر نفى نفع الشفاعة دون الإذن بها، لأن الشفاعة سبب والانتفاع بها مسبب، وإيثار نفى المسبب أدخل فى التيئيس من نفى السبب، ولأن نفى الشفاعة غير واقع فهى مقيدة بالإذن، وإنما نفعها المنفى خاص بالمشركين دون المؤمنين.

والتقييد بالظرف **(عنده)** للاحتراز عن شفاعات الحياة الدنيا التى تجرى بين الناس، ولزيادة التيئيس عند عبدة الأصنام، وعبدة غير الأصنام من دون الله.

وفى **(إلاَّ لمن أذن له)** استثناء مفرغ من عموم الأحوال:

أى لا تنفع الشفاعة عند الله فى حال ما من الأحوال إلا فى حال صدور الإذن بها من الله، والجملة فيها قصر صفة على موصوف قصراً حقيقياً تحقيقياً.

وفى هذا تيئيس فوق تيئيس للمشركين من رجاء النفع من معبوديهم جمادات كانوا أو من العقلاء.

وفى **(من أذن له)** إيجاز بالحذف لأن كل شفاعة لابد فيها من طرفين:

شافع، ومشفوع فيه، ويترتب على هذا سؤال:

على مَنْ يعود الضمير فى (له)؟ هل يعود على الشافع أم على المشفوع فيه؟

للسادة المفسرين كلام فى هذا الشأن، وبخاصة الإمام الزمخشرى، يرجع إليه من يشاء من القراء، أما نحن فقد ظهر لنا وجه فيه نحسبه الأسَدَّ.

ذلك الوجه أن عود الضمير على الشافع يستلزم الإذن بالشفاعة فى المشفوع فيه، وعوده على المشفوع فيه، يستلزم الإذن بالشفاعة للشافع، وهكذا أدمج النظم الحكيم أحد المعنيين فى الآخر إدماجاً بديعاً كما نرى.

وطريق هذا الدمج - بلاغياً - هو الكناية الشديدة اللطف، الدقيقة المأخذ، فعلى أيٍ من الوجهين حملت الآية كان الوجه المعتمد كناية عن الوجه الآخر.

* **﴿حتى إذا فُزِّعَ عن قلوبهم﴾** عُدِّيَ الفعل الماضى (فُزِّع) بعن للدلالة على إزالة الفزع الذى يصيب أهل الموقف يوم القيامة، ومجئ **(فَعَّل)** فى الإزالة كثير فى اللغة العربية، سواء كان (فعَّل) لازماً كما فى الآية أو كان متعدياً بنفسه.

ومنه قولهم: قرَّدتُ البعير، أى أزلت القراد عن جسمه وقشَّرتُ العود إذا أزلت لحاءه وقوَّمت الرمح إذا أزلت اعوجاجه.

والمراد - هنا - إزالة التفزيع عن قلوب أهل الموقف وبناء الفعل **(فُزِّعَ)** لما لم يسم فاعله، لأن المقصود حصول الحدث **(الإزالة)** دون التوقف على تعيين الفاعل.

* **(قالوا الحق)** فى العبارة إيجاز والتقدير: قالوا قال ربنا الحق.

* **﴿وهو العلى الكبير﴾** ثناء على الله وابتهاج بتفريج كرب المكروبين، وقبول شفاعة الصالحين فى عباده المؤمنين والجمع بين هذين الوصفين مع تقديم العلو على الكبر لأن الثانى احتراس لطيف عما يتوهم من العلو، لأن الشئ إذا علا صغر فى عين الرائى، فجاء قوله **(الكبير)** مزيلاً لذلك التوهم، ومثبتاً تنزيه الله عن صفات الحوادث وما يألفه الناس من أحوالها وأوضاعها، وفى العبارة قصر حقيقى تحقيقى، طريقه تعريف المسند إليه والمسند، أى هو لا سواه.

وهذا من دقائق النظم المعجز، الذى تحدى الله به جميع من عداه.

* * *

٤ - ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ، قُلِ اللهُ، وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية رسالة خاصة أمر الله بها رسوله أن يواجه بها المشركين:

من الذى يرزق الخلق من السموات ومن الأرض؟ ولم يترك الإجابة لهم، أو يحكيها عنهم، بل لقن رسوله الكريم الجواب (**قل الله**) وتقرير الجواب هكذا (**قل الله**) لأن المخاطبين لم - ولن - ينازعوا فى هذه الحقيقة.

ثم أمره أن يقول لهم:

(**وإنا أو إياكم لعلى هدى، أو فى ضلال مبين**) الذى على الهدى معروف، والذى فى الضلال المبين معروف، ولكن النظم الحكيم أخرج الخطاب مُخْرَجَ التردد فى توزيع الوصفين بين الفريقين ليتفكروا هم - فى أنفسهم - وليصلوا إلى الحقيقة فيعلموا أنهم هم الذين فى ضلال مبين، وهذا ما يسميه البلاغيون بـ(**الكلام المنصف**) والاستفهام فى الآية تقريرى باتفاق أهل العلم.

أسرار النظم وبلاغياته:

﴿**قل: من يرزقكم من السموات والأرض**﴾؟ إيثار المضارع (**يرزقكم**) للدلالة على الواقع من تجدد الرزق آناً فآناً.

وقدم الرزق من السموات، كالماء الذى هو سبب الحياة على الرِّزق من الأرض، لأنه الأصل، ففى السموات تدبير الأمور والأرزاق وإنزال المياه، وفى الإنبات وما ينتج عنه من خيرات لا حصر لها.

* (**قل الله**) جواب الاستفهام، وقد تقدم أن الاستفهام المجازى الأصل فيه - بلاغياً - ألا يذكر له جواب، لكن النظم القرآنى الحكيم يخالف هذا الأصل - أحياناً - فيذكر الجواب وقد لاحت لنا حكمة بيانية من تتبُّع هذه المواضع التى خولف فيها

ذلك الأصل فى النظم الحكيم، وهى:

إن النظم القرآنى يذكر جواب الاستفهام المجازى فى كل مقام لا يكون للخيال دور فيه فى حرية تصوره وتصويره، وضابط هذا: أن يكون جواب الاستفهام حقيقة راسخة لا مجال فيها لعمل الخيال، فيكون فى ذكر الجواب حسم فى الرد على السؤال.

وفى العبارة إيجاز، والتقدير: قل الله يرزقكم من السموات والأرض.

* **﴿وإنَّا أو إياكم لعلى هدىً أو فى ضلال مبين﴾** مع تسمية البلاغيين هذا الأسلوب بـ(الكلام المنصف) أى المنصف للخصم، حيث لم يجزم القرآن بوصفهم فى الضلال المبين، بل ردَّد ذلك بينهم وبين المؤمنين تليينا لهم فى الخطاب رغم هذا فإن فى النظم تعييناً واضحاً لوصف كلا الفريقين، فقد رتب الوصفين على نسق ترتيب الموصوفين، لأن **(لعلى هدىً)** وصف للموصوف الأول **(وإنَّا)** و**(أو فى ضلال مبين)** وصف للموصوف الثانى **(إياكم)** وهذا ما يسمى بلاغة باللف والنشر المرتب. لأنه بعد ذكر الموضعين ذكر وصف كل منهما حسب موضعه فى الكلام تقديماً للمقدم، وتأخيراً للمؤخر.

وقد خالف النظم بين تركيب الوصفين مخالفة فارقة بين الفريقين فى اللفظ والمعنى والمصير، ففى جانب المؤمنين كان الوصف:

* **(لعلى هدىً)** حيث شبه هيئتهم فى الإيمان بما أنزل مع العمل به بهيئة الراكب مطية وضع عنانها فى يده وتمكن من تصريفها حيث يشاء جالباً لنفسه المنافع والخيرات، ففى الكلام استعارة تمثيلية، مع ما يفيده حرف الاستعلاء **(على)** فى **(لعلى)** من رفيع درجاتهم عند الله فى الدنيا والآخرة، أو استعارة بالكناية شبه فيها الهدى بالمطية الزلول، وفى جانب الكافرين كان الوصف:

* **(فى ضلال مبين)** حيث شبه ضلالهم، وشبهوا هم فى ذلك الضلال باحتواء الظرف على المظروف فيه وإحاطته به، وهى - كذلك:

إما استعارة تمثيلية شبهت فيها هيئهم وهم يروحون ويغدون فى الضلال غير

مهـتدين لغاية تنفـعهم بهيـئة إحاطة الظرف بالمظروف فـيه، مع المزلة عن أن يُرى أو يرى.

أو استعـارة بالكناية شبه فيهـا الضلال بمكان موحش، هم حالّون فـيه، مع حذف المشبه به والرمز له ببعض خواصه وهى فى الظرفيه.

مع ما فى الحرف (فى) من الرمز إلى دركات جهنم المقبورة فى بطون الأرض.

* * *

٥ - ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْـعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ، بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ [سبأ: ٣٢][1].

الدراسة والتحليل:

قبل هذه الآية مباشـرة كان قوله تعالى: ﴿. . . وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَـوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ، يَرْجِعُ بَعْـضُهُـمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ، يَقُـولُ الَّذِينَ اسْـتُضْـعِفُـوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْ لاَ أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾.

وكان رد الذين استكبروا هو ما نصت عليه الآية مـوضوع الدراسة، التى ورد فيها هذا الاستفهام (**أنحن صددناكم عن الهدى...**).

وهو اسـتفـهام إنكارى، ينـفى فيـه الذين استكـبروا أن يكونوا هم الذين صـدوا المستضعفين عن الهدى.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**قال الذين استكبروا**﴾ فصلت هذه الجملة عـما قبلها لأن بين الجملتين شـبه كمال الاتصال، حيث جاءت هذه الجملة جـواباً عن سؤال نشأ عن الأولى، تقريره: ماذا قال الذين استكبروا بـعد أن اتهمهم الذين استضعـفوا بأنهم هم الذين صدوهم عن الإيمان.

* (**أنحن صددناكم..**) ولى الاسم (نحن) همزة الاستفهام لأنه محط الإنكار.

---

(١) تجاوزنا الآية ر قم [٢٩] وهى: (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صـادقين)، لسبق تحليلها ودراستها مرات من قبل كان آخرها فى سورة السجدة الآية رقم [٢٨].

* (**بل كنتم مجرمين**) إضراب عن اتهامهم لهم بالصد عن الإيمان وانتقال إلى وصف المخاطبين بالإجرام وجعله سبباً للصد.

* * *

٦ - ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠].

الدراسة والتحليل:

إطلالة سريعة على حدث من أحداث يوم القيامة، وخطاب حكيم من الله - عز وجل - موجه إلى الملائكة، يشير الله فيه إلى طائفة من المشركين عبدت الملائكة، كما عبد النصارى عيسى - عليه السلام - وكل كانوا خاطئين، وكما سأل الله عيسى من قبل: أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله، فنفى عيسى وتبرأ من هذا القول، وظهر للنصارى كذبهم وكفرهم.

كذلك يسأل الملائكة - هنا - بعد أن يجمع من كانوا يعبدونهم من دون الله، ويقول للملائكة.. (**أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون**) فتنفى الملائكة هذا وتقول: (**بل كانوا يعبدون الجن، أكثرهم بهم مؤمنون**)، والاستفهام الذى فى الآية (**أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون**)؟ تناوله بعض الأئمة فأطال الحديث عنه، من هؤلاء: الإمام الزمخشرى إذ يقول:

(هذا الكلام خطاب للملائكة، وتقريع للكفار، وارد على المثل السائر: إياك أعنى، واسمعى يا جارة[1]، ونحوه قوله تعالى: ﴿**أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله**﴾، وقد علم سبحانه أن الملائكة وعيسى منزهون برآء مما وُجه إليهم من السؤال الوارد على طريق التقرير، والغرض أن يقول ويقولوا، ويسأل ويجيبوا فيكون تقريعهم أشد، وتعييرهم أبلغ، وخجلهم أعظم، وهوانهم ألزم[2].

ما ذكره الإمام كلام فى غاية الجودة، وقد صرّح بأن الاستفهام فى الآية للتقرير،

---

(١) يعنى: إن الخطاب للملائكة، والمراد غيرهم وهم المشركون.

(٢) الكشاف: (٣/ ٢٩٢) وما بعدها.

بيد أن هذا التقرير يختلف: ففى خطاب عيسى - عليه السلام - كان التقرير بالقائل من هو؟ أما فى خطاب الملائكة فإن ظاهر العبارة يفيد أن التقرير فيها بالفاعل.

والإمامان الألوسى وأبو السعود تابعاً الإمام الزمخشرى، بيد أنهما لم ينصا على التقرير كما نص هو، واكتفى كل منهما بأن المراد من الاستفهام التقريع والتبكيت[1].

أما الإمام أبو حيان فقد قال فى المراد من الخطاب إلى الملائكة والاستفهام الذى فيه:

(وخطاب الملائكة تقريع للكفار، وقد علم الله تعالى أن الملائكة منزهون برآء مما وُجِّه إليهم من السؤال، وإنما ذلك على طريق توقيف الكفار على سوء ما ارتكبوه من عبادة غير الله تعالى وأن من عبدوه مفترى عليهم[2]).

والخلاصة: أن هذا الاستفهام للتقرير والتوقيف، ويردف عليها التقريع والتبكيت كما ذهب الأئمة.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿.. **ثم يقول للملائكة**﴾ العطف بـ(ثم) لإفادة ترتيب هذا القول على حشر الناس، وتراخيه لأن هذا القول يوجه إلى الملائكة، بعد الشفاعة العظمى فى أهل الموقف، بعد حبسهم بلا حساب.

* ﴿**أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون**﴾ نظَّر الأئمة بين هذا السؤال وبين سؤال عيسى - عليه السلام - ولكنهم لم يلحظوا فرقاً دقيقاً بين السؤالين كنا نود لو لحظوه وكشفوا عن السر فيه.

هذا الفرق لحظناه فى الآتى:

فى السؤال الموجه لعيسى - عليه السلام - طابق النظم مقتضى الحال، لأن قولاً حدث فى هذه الحياة الدنيا بأن عيسى وأمه الهين من دون الله، وقد خُدع النصارى بهذا القول الذى افتراه رجال دينهم فى مجامعهم ورسائلهم وأعمال رسلهم على حد

(١) روح المعانى (٢٢/ ١٥١)، وتفسير أبى السعود: (٧/ ١٣٦).

(٢) البحر المحيط (٧/ ٢٨٤).

تعبيرهم، وفي مـقدمة هؤلاء المفترين بولس المدعو عندهم بـــ(بولس الرسول)، فجاء السؤال الذى وجهه الله لعيسى فى سورة المائدة:

(أأنت قلت لـلناس اتخـذونى وأمـى إلهين من دون الله)؟ حين يسمع الناس، وفـيهم النصارى، هذا السؤال، ثم يجيب عليه عيسى:

﴿سبحـانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق، إن كـنت قلته فقد علمتـه تعلم ما فى نفـسى ولا أعلم ما فى نفـسك، إنك أنت علام الغـيوب، مـا قلت لهم إلا ما أمـرتنى به أن أعبدوا الله ربى وربكم..﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].

حين يحدث هذا يُدْرك النصارى بطلان عقيدتهم، ويحـصل الغرض من الاستفهام والجواب عليه.

أما فى سؤال الملائكة، فـقد كان الاستفهام للتـقرير بالفاعل: **(أهؤلاء إياكم كـانوا يعبدون)**، وإيلاء **(هؤلاء)** همزة الاستفهام يجعل التقرير متردداً بين المشار إليه (هؤلاء) وبين غيرهم، أما العبادة - مهما كان فاعلها - فمسكوت عنها، وهى - فى الواقع - محط المؤاخذة، وهذا يبدو فيه - بحسب الظاهر - مجافاة لما يقتضيه المقام، وأنه كان ينبغى أن يقال - كمـا قيل لعيسى عليه السلام -: أأنتم قلتم لهـؤلاء اعبدونا، فلماذا كانت العبادة فى نفسها مسكوتاً عنها حتى لكأنها مباحة؟!

هذا ما كنا نتوقع أن يـلحظه الأئمة، ويعالجوه بلاغيـاً، ولكنهم لم يفعلوا، ولابد من توجيه.

والذى لاح لنا، أن التقرير بالقائل فى سؤال الله عـيسى إنما كان لأن القول المسئول عن قائله حدث فى الحياة الدنيا، أمـا فى سؤال الله تعالى الملائكة، فليس يوجد قول منسوب إلى أحـد حتى يُسْـأل عن فاعله من هو؟ وإنما كـان المقام مقـام إنكار أن تقع عبادة لغير الله، أياً كان العابد وأياً كان المعبود.

وقد سلك النظم فى إنكار العبـادة لغير الله مسلك الكناية اللطيفة الدقـيقة المأخذ، ولابد لهذا من تمهيد، وفيه نقول:

الذين عُبدوا من دون الله أنواع:

* ملائكة مقربون. * أنبياء مرسلون.

* عباد صالحون. * بشر عاديون.

* حيوانات عجماوات. * كواكب علويات. * أشكال جماديات.

وهذه الأنواع منها الطاهر الشريف، وهم الملائكة والرسل وعباد الله الصالحون، وأعلاهم طهارة وشرفاً الملائكة، وأحقر الأنواع الأشكال الجمادية (الأصنام - الأوثان) وقد ضرب الله مثلاً رائعاً لإبطال العبادة لغير الله فى جميع صورها.

هذا المثل ضربه للتنبيه على بُطلان عبادة الملائكة من دون الله، وهى - أعنى الملائكة - أزكى وأرفع درجات عند الله من الذين عبدهم المشركون من دون الله، فإذا بطلت عبادة هؤلاء بطلت عبادة مَنْ دون الله فى جميع صورها وأشكالها فنبه الله - عز وجل - ببطلان الأعلى على بطلان الأدنى، وهذه هى الكناية اللطيفة التى أشرنا إليها من قبل.

وقد أجمع الأئمة على أن تقديم **(إيَّاكم)** على **(كانوا يعبدون)** سره البلاغى موافقة الفواصل، والذى يلوح لنا أن التقديم - هنا - مع مناسبته لتوافق رءوس الآيات، وهو غرض بلاغى صحيح، فإن هذا التقديم له غرض بلاغى آخر من حيث المعنى، وهو إفادة القصر والاختصاص، أى: أهؤلاء كانوا يخصونكم بالعبادة من دونى، وهذا - كذلك - غرض بلاغى صحيح وليس فى المقام ما يأباه، بل فيه ما يستدعيه، ويُلح عليه عقيدة وبلاغة.

* * *

٧ - ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: ٥٢].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية وما قبلها: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلاَ فَوْتَ، وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ وما بعدها: ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِ مِن قَبْلُ، وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾.

تعرض موقفاً من مواقف الكفر وأهله يوم القيامة، فالآية الأولى تُعَجِّبُ من حالهم حين يؤخذون فلا ينجوا منهم أحد، والآية الثانية - موضوع الدراسة - تُصوِّر ندمهم على ما كان منهم من كفر برسول الله ﷺ، ومسارعتهم بإعلان الإيمان به: **(وقالوا آمنا به)** ويستبعد القرآن صحة إيمانهم، لأن أوانه فات، كما يسجل عليهم كفرهم به فى الحياة الدنيا - الآية الثالثة - وأنهم كانوا خائبين فيما رموا به الإسلام كتاباً ورسولاً وعقيدة، مثل خيبة من يطلق سهماً على شئ لم يره وهو بعيد عنه كل البعد.

هذا هو موضوع هذه الآيات الثلاث، وقد جاء فى الآية موضوع الدراسة هذا الاستفهام:

﴿وأنى لهم التناوش من مكان بعيد﴾[1].

وهذا الاستفهام للاستبعاد والاستحالة، وهما من معانى الإنكار، أى استحالة أن يستطيع الإنسان تناول شئ بيده مع بُعْد المسافة بين الآخذ والمأخوذ، ويردف على معنى الاستحالة - هنا - التبكيت والتحسير والتسفيه، لأن من يحاول هذا حرى بأنه فاقد العقل.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **﴿وقالوا آمنا به﴾** الجملة معطوفة على جملة **(وأخذوا)** فى الآية التى قبلها، ووضع الماضى **(آمنا به)** موضع المضارع المراد به الحال: نؤمن، طمعاً منهم فى قبول إيمانهم بالحق الحادث منهم قَسراً لما رأوا صدق ما كفروا به من قبل، حتى لكأنهم آمنوا به فى الحياة الدنيا.

---

(١) التناوش: الأخذ والتناول باليد، والفرق بين التناوش والتناول أن التناوش هو أخذ الشئ بيسر وسهولة، والتناول هو الأخذ بصعوبة.

ومرجع الضمير فى (به) هو الموحى به الوارد فى قوله تعالى قبل هذه الآية: ﴿وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربى﴾ [سبأ: ٥٠].

* ﴿وأنى لهم التناوش من مكان بعيد﴾: أنّي إن كانت بمعنى: كيف كان الذى سلط عليه الإنكار هو حال ذلك التناوش وإن كانت بمعنى: أين كان الإنكار لمكان التناوش.

وعلى كل فقد كنى النظم الحكيم بنفى الحال أو المكان عن نفى صاحب الحال، أو الحالِّ فى المكان، وهو التناوش، ويتولد عنهما كناية أخرى هى المرادة: وهى إبطال إيمانهم وعدم جدواه لهم، مع شدة احتياجهم إلى ما ينقذهم مما هم فيه، وفى هذا البيان تمثيل رائع لحالهم، يقول فيه الإمام جار الله الزمخشرى رحمه الله:

(وهذا تمثيل لطلبهم مالا يكون، وهو أن ينفعهم إيمانهم فى ذلك الوقت كما ينفع المؤمنين إيمانهم فى الدنيا، مثلت حالهم بحال من يريد أن يتناول الشئ من علو كما يتناوله الآخر من قيس ذراع تناولا سهلاً لا تعب فيه[1]).

لم يذكر الإمام وجه الشبه، وهو: الصورة الحاصلة من شدة الحرمان، والخيبة مع شدة الاحتياج إلى المطلوب.

* * *

(١) الكشاف: (٣/ ٢٩٦).

سورة فاطر

١ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ، هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ، فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

الدراسة والتحليل:

سورة فاطر من السور المكية، وتسمى - كذلك - سورة الملائكة لذكر الملائكة، فيها فى أولى آياتها، والأغراض التى وردت فيها هى الأغراض التى كانت الموضوع الغالب على ما نزل من القرآن بمكة المكرمة قبل الهجرة الشريفة إلى المدينة المنورة، وذلك مثل تقرير وحدانية الخالق، وعقيدة البعث، والدعوة إلى النظر فى الآيات الكونية لتقوية إيمان المؤمن، وهداية غير المؤمن وإقامة الحجة على من أعرض ونأى بجانبه عن الحق الذى لاحت دلائله، ونطقت شواهده فى كل شئ فى الوجود.

وفى الآية - موضوع الدراسة - دعوة الناس جميعاً للإقرار بنعمة الله عليهم وشكرها، وتقريرهم بالله خالقاً ورازقاً ومنفرداً بالألوهية، وأن الإيمان بهذه الحقائق لا مَصْرِفَ عنه ينصرف إليه من كفر وعاند، ولم يقم لما أنزل الله وزناً، وقد ورد فى الآية هذان الاستفهامان:

* **﴿هل من خالق غير الله..﴾؟**
* **﴿فأنى تؤفكون﴾؟**

وهذا الاستفهام بصورتيه استفهام إنكار عند جميع الأئمة وأهل الذكر، منهم من صرح بالإنكار، ومنهم من دمجه فى تفسير الآية ولم يصرح به لفظاً، وإن أومأ إليه معنى.

وممن صرح بالإنكار فى الصورتين الإمام أبو السعود، قال رحمه الله:

(ولما كانت نعم الله تعالى مع تشعب فنونها منحصرة فى نعمتى الإيجاد والإبقاء

نفى أن يكون فى الوجود شئ غيره تعالى يصدر عنه إحدى النعمتين بطريق الاستفهام الإنكارى المنادى باستحالة أن يجاب عنه بنعم[1]).

وقال فى الثانى:

(فأنى تؤفكون) لترتيب إنكار عدولهم عن التوحيد إلى الإشراك على ما قبلهما[2].

وأطنب الإمام الألوسى فى تفسير الآية وما فيها من استفهام وطرق أموراً كنا قد رددنا عليها من قبل مثل أن الاستفهام فى (هل) إنما هو بالهمزة المقدرة قبلهما، وأياً كان فإن الاستفهام عنده للإنكار بصورتيه[3].

أسرار النظم وبلاغياته:

* **﴿يا أيها الناس اذكروا نعمت الله عليكم﴾** جاء النداء - هنا - عاماً للناس جميعاً، لأن نعم الله المقصودة هنا بالذكر يرفل فيها جميع البشر، ولا يختص بها ناس دون آخرين.

وفى **(اذكروا)** مجاز مرسل من إطلاق السبب، وهو الذكر وإرادة المسبب، وهو الشكر، لأن المقصود من الذكر، ليس مجرد الذكر، ولكن من حيث هو وسيلة موصلة إلى الشكر، والمراد من نعمة الله جنس النعمة، ولذلك أفردت ولم تجمع، كما فى قوله تعالى: **﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾**.

* **﴿هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض﴾**؟ الاستفهام إنكارى كما تقدم، وإيثار (هل) من بين أدوات الاستفهام لتحقق الإنكار، لما فيها من معنى التصديق.

ودخول (مِنْ) على (خالق) لاستغراق أفراد الجنس المنفى وشموله، وتنكير خالق مراداً به غير الله كما تقدم مرات لإفادة الإنعدام، وليس لمجرد الإنكار والنفى، وهذا هو المطابق الواقع إذ لا خالق غير الله - عز وجل.

ومصطلح **(الانعدام)** لم يسبق ذكره عند علماء البلاغة بل هو من إضافتنا، لأن النفى والإنكار لا يكفيان فى المواضع التى آثرنا أن نذكر فيها هذا المصطلح، وهو الانعدام التام.

(١، ٢) تفسير أبى السعود (٧/ ١٤٢).

(٣) روح المعانى (٢٢/ ١٦٥) وما بعدها.

وإيثار المضارع (يرزقكم) للدلالة على الواقع لتجدد الرِّزق آنًا فآنًا.

* (لا إله إلا هو) تقرير لوحدانية الله، وفصلت عما قبلها لكمال الانقطاع لاختلاف الجملتين فى الإنشائية (الأولى) والخبرية (الثانية) لفظاً ومعنى، والثانية استئناف مسوق لتوكيد ما فى الأولى من إنكار ألوهية غير الله وهى جملة قصرية، قصر فيها صفة الألوهية، على موصوف هو الله المكنى عنه بالضمير (هو).

* ﴿**فأنى تؤفكون**﴾ استفهام إنكار عن طريق نفى الحال أو نفى المكان على الاختلاف فى حقيقة (أنَّى) هل هى بمعنى كيف؟ أم بمعنى أين؟ وقد تقدم مرات ما فى هذا من كناية لطيفة، وهى الطريق البرهانى المؤكد للإنكار.

* * *

٢ - ﴿**أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِه فَرَآهُ حَسَناً، فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ، فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ**﴾

[فاطر: ٨].

الدراسة والتحليل:

فى إطار الآيات التى تدعو النبى ﷺ إلى الرفق بنفسه فى مجال الدعوة، وألا يقيم وزناً لصدود من صدَّ عنها بعد البلاغ الواضح، والبيان الشافى، نزلت - فيما نزل - هذه الآية فبعد أن ذكر الله أصحاب النار وسوء مصيرهم، والذين آمنوا وعملوا الصالحات وجزيل ثوابهم، التفت إلى صاحب الرسالة ﷺ ليخفف عن نفسه العناء الذى كان يلاقيه من جفاء قومه وكفرهم، وحرصه - هو - الشديد على أن يؤمنوا واضعاً أمامه الحقائق التى تذهب أسفه عليهم، وأن من ضل منهم كان الضلال عقاباً له من الله على اختياره الكفر، ومن اهتدى منهم كانت الهداية تيسيراً له من الله جزاء على ميله إلى الإيمان واختياره، ثم إن الله عليم بصنعهم، فلن يفلت من عقابه مجرم، ولن يخيب عنده أمل مؤمن، فعلام - إذاً - يأسو على حالهم، ويتفجع على كفرهم.

وقد ورد فى هذه الآية هذا الاستفهام: ﴿**أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً**﴾.

وللأئمة فى توجيه هذا الاستفهام ثلاثة تقديرات ذكرها الإمام الزمخشرى، ثم تابعه الآخرون.

وتوخياً للإيجاز نلخص ما ذكروه فى الأسطر الآتية:

التقدير الأول: أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً كمن لم يزين له؟

التقدير الثانى: أفمن زين له سوء عمله ذهبت نفسك عليهم حسرات، فحذف لدلالة: (**فلا تذهب نفسك عليهم حسرات**).

التقدير الثالث: أفمن زين له سوء عمله كمن هداه الله، فحذف لدلالة: (**فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء**[1])، وأياً كان الأمر فإن فى الكلام حذفاً لابد من ملاحظة تقديره لانبناء المعنى عليه.

وأياً كان المحذوف فإن الاستفهام للإنكار، وهو يدور على محورين:

الأول: إن كان المحذوف: كمن ليس كذلك، أو كان: كمن هداه الله فالإنكار على هذين التقديرين للمساواة بين الفريقين: أى الفريق الذى زين له سوء عمله فرآه حسناً، والفريق الذى لم يزين له، أو الذى هداه الله، فلا مساواة بين الفريقين، ومن أجل نفى تلك المساواة جاء الإنكار.

الثانى: وإذا كان التقدير: ذهبت نفسك عليهم حسرات كان الإنكار مسلطاً على ذهاب النفس حسرات، أى إنكار على النبى ﷺ أن يحمل نفسه عناء ومشقة وأسفاً على صدودهم وكفرهم.

والذى نميل إليه هو الوجه الثالث، الذى عزاه الزمخشرى إلى الزجاج، والمعنى عليه هو الآتى: أفمن زين له سوء عمله وهو الكفر ففرح به ورآه حسناً.

(**فلا تذهب نفسك عليهم حسرات**) أى: لا تذهب نفسك عليهم حسرات، لأن عليك البلاغ وعلينا الحساب، هذه هى خلاصة ما قيل، وما يقال فى هذا الاستفهام

---

(١) الكشاف (٣/ ٣٠١)، وروح المعانى (٢٢/ ١٦٨)، وتفسير أبى السعود: (٧/ ٩١٤٤)، والبحر المحيط (٧/ ٣٠٠).

ومن شاء فليعد إلى ما قاله الأئمة فيه فإن فيه طولاً آثرنا غض الطرف عنه.[^]

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً**﴾ إذا أخذنا بمذهب الجمهور فى تقديم الهمزة من تأخير كانت الفاء عاطفة لما بعدها من التـزيين وعدم التزيين على ما قبلها من عاقبة حزب الشيطان، وجـزاء حزب الرحمن، ويكون التقـدير: أفبعد ما بينا من مـصير الفريقين يكون من زين له سـوء عمله فاعتقـد أنه حسن واختار الكفر كـمن اختار الإيمان والعـمل الصالح، يـعنى: لا يتسـاويان، وتكون الفـاء - كمـا قال الإمـام الألوسى - لتفريع إنكار المساواة وترتيبه على ما ذُكِر من حال الفريقين.

وإذا أخذنـا بمذهب الزمخـشرى من قـرار الهمـزة فى مكانها وأن المعطوف علـيه محذوف يكـون المعنى: أهما متسـاويان فالذى زين له الكفر كمن اسـتقبحـه واختار الإيمان والعمل الصالح، أى: لا يتساويان.

وإيثار بناء الفعـل ماضياً لما لم يسم فاعله لتـحقق التزيين وعدم توقف تحـققه على تعيين الفاعل، وهذا من إيجاز الحذف كما حذف مقابل ﴿**أفمن زين له..**﴾.

* وفى (**فرآه حسناً**) استعـارة تصريحية، حيث شـبه الاعتقاد بـالرؤية، وسرها تحقق التزيين حتى لكأنه يرى بالعين الباصرة.

* ﴿**فإن الله يضـل من يشاء ويهدى مـن يشاء**﴾ ذكـر الفاء هنا أمـارة على أن فى الكلام محذوفاً عطفت الفاء ما بعدها عليه، وتقديره هو ما ملنا إليه من قبل، أى: ذهبت نفسك عليـه حسرات، ولِمَ؟ (**فـإن الله يضل من يشـاء ويهدى من يشـاء**)، يعنى أن ضلال من ضل، وهدى من اهتدى، كل هذا خاضع لمشيئة الله، وجارٍ وفق تصرفه هو فى شئون العباد، إذن:

* (**فلا تذهب نفسك عليـهم حسرات**) فقوله (**فإن الله يضـل من يشاء، ويهدى مـن يشاء**) تمهيد للنهى (**فلا تذهب..**) وتبصـير لصاحب الدعـوة ﷺ، وتثبيت لقلبـه وتسلية لهمه.

وفى **(فلا تذهب نفسك عليهم حسرات)** كناية عن الهلاك أى فلا تهلك نفسك حزناً عليهم.

وفى الآية من الإيجاز فوق ما تقدم: مفعول المشيئة فى الموضعين، ومن البديع الطباق الإيجابى فى **(يضل - يهدى)**.

* **﴿إن الله عليم بما يصنعون﴾** استئناف تعليلى للنهى فى **(فلا تذهب)**.

وتوكيد الخبر بـ: (أن + اسمية الجملة)، لأن مضمون الخبر من الحقائق العظيمة، وإيثار الصفة المشبهة باسم الفاعل **(عليم)** زيادة تقرير بفخامة علم الله وتقديم **(عليم)** على **(بما يصنعون)** لتوافق الفواصل مع إظهار العناية بسعة علم الله المحيط بكل شئ زيادة تسلية للنبى ﷺ.

وتقديم **(يضل)** على **(يهدى)** لمناسبة الضلال لتزيين سوء العمل والانخداع به ورؤيته حسناً، وهو قبيح.

* * *

٣ - **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾** [فاطر: ٢٧].

الدراسة والتحليل:

بعد أن عرض النظم الحكيم طرفا من تاريخ النبوات، وأن الله بعث فى كل أمة نذيراً، وأن قومه مثل الأمم الغابرة كذبت الرسل فأنتقم الله منهم بعد هذا التفت إلى رسوله الكريم، ولكل عاقل، يُبَصِّر عباده ببعض آثار قدرته، وكريم رحمته، وبديع صنعه. إلى الماء الذى أنزله من السماء فأخرج به نبات كل شئ، وصارت الأرض حديقة غناء، تجود بثمرات مختلفة الألوان والطعوم والأحجام، ثم لفت الأنظار إلى بديع صنعه فى الجبال ما بين بيض وحمر وسود؛ آيات فى السماء، وأخرى فى الأرض، وثالثة فى النفس، أليست هذه دلائل ناطقة بجلال الله وكماله وجماله وتفرده بالألوهية، وقد ورد فى صدر الآية هذا الاستفهام:

﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء﴾؟ وهو استفهام تقرير وتوقيف، بيد أن بعض

الأئمة لم يشر إلى هذا صراحة كالزمخشـرى وأبى السعود، وبعضهم أشار إليه ومنهم الإمام الألوسى[1].

وممن صرح به الإمـام أبو حيان، وأضـاف أن هذا الاستفـهام **(ألم تر)** ونظائره لا يستعمل إلا فى الظاهر جداً[2].

والخلاصة: أن هذا الاستفهام للتقرير والتـوقيف، وهو كما نص الإمام أبو حيان لا يرد فى القرآن إلا فى المواضع التى يكون فيـها المستخبر عنه، أو مـعمول الرؤية شديد الوضوح، أو مُنَزَّلاً منزلة الشديد الوضوح، ولابد من هذا التنويع.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء**﴾؟ الرؤية علمية عند جميع الأئمة، وإن كان إنزال الماء من السماء مرئياً بالبصـر، هكذا قالوا بناء على أن من الرؤية البصرية ما يكون وسـيلة للرؤيا العلمـية، والذى نميل إليـه أن الرؤية - هنا - بصـرية، لأن جمـيع عناصرها يدرك بحاسة البـصر، فهى بصرية - ابتداء - علمية - انتـهاء - وعبِّر - هنا - بالرؤية البصرية عمـا يصير معلوماً ذهنياً للمبالغـة فى قوة العلم الحاصل بها ووضوحه.

والخطاب فى **(ألم تر)** عام لكل العقلاء، ولا وجه لتخصيصه، وفصلت جملة **(ألم تر)** عمـا قبلها لكمال الانقطـاع، فالأولى خبرية لفظاً ومـعنى، والثانية إنشـائية لفظاً ومعنى وتوكيـد الخبر **(أن الله)** لأن مضـمونه حقيـقة راسخـة وتنكير (ماء) للتكثـير والتعظيم.

* ﴿**فأخرجنا به ثمرات مـختلفاً ألوانها**﴾ الفاء لتـرتيب الإخراج على الإنزال مع الإلماح إلى أن ما قبلها سبب فيما بعدها.

والعدول من الغيبة **(أن الله أنزل)** إلى التكلم **(فأخرجنا)** التفات اقتضاه المقام، وهو - مع نون العظمة - لتـفخيم ذلك الإخـراج والتنويه بتمام النعـمة فيـه، والباء فى **(به)** للسببية.

---

(١) الكشاف (٣/ ٣٠٧)، وتفسير أبى السعود (٧/ ١٥٠)، وروح المعانى (٢٢/ ١٨٩).

(٢) البحر المحيط (٧/ ٣١١).

وتنكير (**ثمرات**) للتكثير والتنويع والتفخيم، وفى (**مختلفاً ألوانها**) إشارة إلى الفروق بين ألوان وحجوم وطعوم تلك الثـمرات، وما فيها من قيمة غـذائية فمكنى باختلاف الألوان عن جميع الفروق بينها كالعنب والبطيخ فإن الاختلاف فى: اللون - الحجم - الطعم - القيمة الغذائية.

وأوثرت الكناية بـالألوان عـما سـواها مـن الفـروق لإن اللون أظهـر وأبين تلك الفروق.

* (**ومن الجبال جُدَد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود**)، الرابط بين الحديث عن الجبال وعن الماء والثمرات، أن الآية مسوقة للفت الأنظار إلى أمرين:

* الامتنان على العباد بما أنعم الله - عز وجل عليهم.

* التنبـيه على كمـال قدرته وبديع صـنعه فى كل شئ خلقـه، والحديث عن الجـبال وأنواعها وألوانها، وثيق الصلة بما ورد فى أول الآية:

وثيق الصلة بهـا من حيث الامـتنان، لأن للجبـال دوراً فى حياة النـاس لا يخفى أثره.

ووثيق الصلة من حيث كـمال قدرة الله وبديع صنعـه فى الهيئة واللون واخـتلاف الحجوم.

وقد رأينا - رؤية عين - هذه الجبـال كما وصفها القرآن فى الطريـق بين عاصمتى الإسلام الخـالدتين: مكة المكرمة والمدينة المنورة، ورآها أعـداداً لا تحصى من المسلمين المتنقلين بين تينك العاصمـتين فى مواسم الحج والاعتمار والجمع بينهـا بألوانها طباق إيجاب يصـور الواقع كما هو والتنكير فى جـدد بيض وما عطف عليه للتـفخيم لأن ذلك من آيات الله البارعة.

والجُدَد: ذات العلامات والطرق الواضحة والغرابيب الشديدة السواد.

وتقديم البيض لما فى اللون الأبيض من تفاؤل، وتوسط الحمرة بين البيض والسود، لأنه واسطة بينهما فى الإشعاع، فهو أغمق من الأبيض، وأفتح من الأسود.

* * *

٤ - ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ، وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ، فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

الدراسة والتحليل:

لقطة صاخبة مزعجة تصورها هذه الآية من أتون الجحيم وهى تغلى بمن فيها غَلْىَ القدر، يندم الذين كفروا بالله ورسوله، ووصفوا القرآن بأنه سحر أو شعر أو هو أساطير الأولين، وأنكروا الحياة بعد الموت، ووصفوا الرسول الكريم بأنه ساحر أو شاعر أو مجنون.

يندم هؤلاء، وقد حقت عليهم كلمة العذاب، يندمون وهم يتقلبون فى النار علواً وسفلاً يميناً ويساراً، ويصيحون كالحمر المستنفرة، يتوسلون إلى ربهم: ربنا أخرجنا مما نحن فيه، وأعدنا إلى الحياة الدنيا، أو أعد لنا الحياة الدنيا نؤمن بك وبرسولك، ونعمل الصالحات التى دعانا إليها رسولك فكذبناه وعصيناه.

فيكون الرد عليهم: ألم نحيكم فى الدنيا حياة طويلة كانت الفرصة سانحة، لكم فيها فأضعتموها ولم تنتفعوا بها كما انتفع غيركم، وأرسلنا إليكم رسولنا ينذركم مصيركم هذا فاحتسوا الكأس التى ادخرتموها لأنفسكم، فأنتم ظالمون، وما للظالمين عندنا من نصير.

هذا وقد ورد فى الآية هذا الاستفهام: **﴿أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾**، وهو - بالإجماع - استفهام تقرير وتبكيت وتنديم(١)، **وهذه خلاصة** ما قيل فى هذا الموضع.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **﴿وهم يصطرخون فيها﴾** أوثر هذا الفعل **(يصطرخون)** ليدل بخشونة جرسه ولفظه على غلظ أصواتهم وخشونتها وهم يصيحون فى النار ينادون ربهم أن ينقذهم مما هم فيه.

---

(١) ينظر: الكشاف (٣/ ٣١١)، وروح المعانى (٢٢/ ٢٠١)، والبحر المحيط (٧/ ٣١٧)، وتفسير أبى السعود (٧/ ١٥٤).

* ﴿**ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذى كنا نعمل**﴾ نادوا الله بـ(ربنا) مع إضافة (رب) إلى ضميرهم تذللاً وانكساراً وجعلوا هذا الترقيق فى النداء وسيلة لاستجابة الله نداءهم.

* (**أخرجنا..**) أى أخرجنا من النار، وحذف الجار والمجرور إما لضيق المقام، وإما لأن أنفسهم لم تساعدهم عليه لأنهم استشعروا عزة الطلب.

وذكر الوصف (**صالحاً**) وكان يكفى أن يقولوا: نعمل غير الذى كنا نعمل: دلالة على مبالغتهم فى الرجاء وزيادة تذلل وتليين فى الخطاب.

* ﴿**أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر**﴾ تيئيس وتقنيط، وتذكير لهم بأنهم أضاعوا الفرصة التى منحهم الله إياها، وكانت كفيلة بإصلاح ما أفسدوا.

وإيثار الماضى (**من تذكر**) على المضارع (**من يتذكر**) إعلام بأن الأجل انتهى، وأن من عاش مثلهم قد تذكر فى الزمن الماضى، أما لو قيل (**من يتذكر**) لكان فى هذا بصيص من أمل عندهم بأن الفرصة ما تزال سانحة، فجاء النظم الحكيم بالفعل الماضى قاطعاً كل أمل يراود أنفسهم.

والمراد بالتذكر الإيمان والعمل الصالح، فهو مجاز مرسل من إطلاق السبب - التذكر - وإرادة المسبب: الإيمان وعمل الصالحات بدلالة المقام.

* ﴿**فذوقوا فما للظالمين من نصير**﴾ فى الذوق استعارة تصريحية لشدة الإحساس، وإيثار الموصول وصلته للتسجيل عليهم بالظلم، وهو أبلغ مما لو قيل: فما لهم من نصير، والالتفات من الخطاب فى (**فذوقوا**) إلى الغيبة (**للظالمين**) لإخراج الحكم مخرج الكليات والسنن العامة، ولبيان ضلاعتهم فى الظلم.

* * *

٥ - ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُـونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ، بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلاَّ غُرُوراً﴾ [فاطر: ٤٠].

الدراسة والتحليل:

فى هذه الآية مواجـهة حاسمـة لعقيـدة الشرك، وتوقيف للمـشركين على بُطلان شـركهم، وإفـحام لهم أشـد مـا يكون الإفحـام وقطع لكل الأعـذار، ومحـو لكل الشبهات.

فالمطلوب منهم - إن كانوا صادقين - أن يجددوا جزءا من الأرض ولو بمقدار شبر فى نفسه، ويقيموا الدليل على أن آلهتهم هى التى خلقت ذلك الجزء.

أو يقيموا الدليل على أن شركاءهم لهم - مع الله - شرك ما فى السموات وما من سبيل إلى إثبات شئ من هذا.

فإذا عجزوا فهل بين أيديهم كـتاب أنزله الله عليهم - مالك الملك - يقول لهم إن آلهتهم آلهة حقاً ينبغى أن يُعْبَدُوا كما يُعْبَد الله.

ليس شئ ما من هذه الأمـور صحيـحاً، ولم يبق إلا حـالة واحدة، هى أن هؤلاء المشركين مغرورون، ولا شئ لديهم إلا الغرور.

والاستفهام الأول (**أرأيتم شركاءكم**) أجمع الأئمة على أنه بمعنى أخبرونى كما تقدم ذلك عنهم كثيراً، أما الاستفهامات الثانى والثالث والرابع وهى:

* ﴿**ماذا خلقوا من الأرض**﴾؟
* ﴿**أم لهم شرك فى السموات**﴾؟
* ﴿**أم آتيناهم كتاباً**﴾؟

فقـد سكتوا عنها، وهى - جمـيعاً - للإنكار والنفى، وهذا يُدرك ببـديهة النظر، ويردف على الإنكار ما تقدم ذكره من الإفحام والتوقيف والتبكيت.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله**﴾؟ تصدير جملة الاستفهام بفعل الأمر

(**قل**) للإشعار بأهميــة المقول، وكونه رسالة خاصة يجب الاعتناء بها وتبلـيغها فور تلقيها ومواجهة من كان مقصوداً بها، وهم - هنا - عبدة الأصنام.

* أما (**أرأيتم**) فنحن على عهدنا بها، وفهمنا لـها: إنه ليس بمعنى أخبرونى كما ذهب الأئمة[1].

بل المراد منه استـحضار صورة المستـفهم عنه فى الذهن ليُحكم عليـه وهو حاضر ماثل فـيه، لأن الحكم على المجـهول أو الغائب عن الشـعور لا يفـيد، وقد اسـتدل بعضــهم بقوله تـعالى: ﴿**أرونى مــاذا خلقــوا من الأرض**﴾ عــلــى أن (**أرأيتم**) بمعنى أخبرونى، وهذا الاستدلال غـير سديد، لأن معنى: أخبرونى مستـفاد من فعل الأمر (**أرونى**) لا من (**أرأيتم**) كما توهَّم من قال بهذا.

* ﴿**شركاءكم الذين تدعون من دون الله**﴾ الإضافة فى (**شركاءكم**) للتهكم والسخرية من عبدة الأصنام، وإيثــار الموصول وصلته (**الذين تدعـون من دون الله**) للتشنيع عليهم ورميهم بالسفه.

وإيثار المضارع (**تدعون**) إشارة إلى بقـائهم على كفرهم، وأن عـبادتهم الأصنام لا تختص بوقت دون وقت، بل هى تحدث وتتكرر بتكرار موجباتها.

* ﴿**أرونى ماذا خلـقوا من الأرض**﴾ الأمر فى (**أرونى**) للإفحام والتعجيز، والاستفهام للإنكار والتوقيف والتبكيت والتنديم والرؤية فى (**أرونى**) مستعارة لـ(اعلمونى) بأى طريق من طرق العلم.

* ﴿**أم لهم شـرك فى السمـوات**﴾ ترقى فى الإفحـام والتعجـيز، فقـد انتقل بهم من تعجيـزهم عن إثبات شئ لشركائهم فى الأرض إلى تعجـيزهم عن إثبات شئ لهم فى السموات لأن (**أم**) منقطعة، بمعنى بل والـهمزة، والتقـدير: بل ألهم شرك فى السموات؟

* وتنكير (**شرك**) للتحقير أو الانعدام كما تقدم فى غير هذا الموضع.

---

(١) الكشـاف (٣/ ٣١١)، روح المعانى (٢٢/ ٢٠٢)، البـحر المحـيط (٧/ ٣١٧)، تفسـير أبى السـعود: (٧/ ١٥٥).

* ﴿**أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه**﴾ أى: بل أأتيناهم على معنى: لم نؤتهم، بل هم يفترون ما يدَّعون، والضمير فى (**آتيناهم**) للمشركين، وفيه التفات من الخطاب فى: أرأيتم، إلى الغيبة فى (**أم آتيناهم**) وسره البلاغى هو الإعراض عنهم بعد تبوير شبهاتهم.

وهذا أولى من عود الضمير على (**شركاءكم**) لأن شركاءهم أصنام جمادية، والسادة المفسرون ذكروا الوجهين ولكنهم أخروا المقدم هنا، وقدَّموا المؤخر، وكأنه أولى، وهذا لا يصح.

* ﴿**فهم على بينة منه**﴾ صفة للكتاب المعدوم، فهو على حد قول البلاغيين: ولا ترى الضب فيها ينجحر، وقولهم على لا حب لا يهتدى لمنارة، أى: لا ضب ولا انجحار ولا لا حب ولا اهتداء.

يعنى: نفى المقيد، وهو كتاب، ونفى القيد، وهى البينة معاً، وتنكير (**كتاباً**) للإنعدام رأساً، ولا يكفى أن يقال: للتحقير، لأن التحقير صفة لموصوف موجود، وليس لدى المشركين كتاب من الله قط.

* ﴿**بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً**﴾ جملة قصرية وبل للإضراب والانتقال الإبطالى من الخلق والشرك والكتاب إلى تقرير حالهم، وهو قصره على الغرور يلقنه أسلافهم إلى أخلافهم.

* * *

٦ - ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ، وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً، وَمَا كَانَ ٱللهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَاتِ وَلاَ فِى ٱلْأَرْضِ، إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً﴾ [فاطر: ٤٤].

الدراسة والتحليل:

لما ذكر الله - عز وجل - استكبار الذين كفروا فى الأرض ومكرهم السيئ، وتوعدهم بأن المكر السيئ لا يُهلك إلا أهله، ووعظهم بما حدث للأمم من قبلهم لما مكرت مثل مكرهم وأن سنة الله فى المستكبرين والمجرمين واحدة، وأن هؤلاء إذا لم يثوبوا إلى رشدهم فإن ما حل بالأولين سيحل بهم[١] عقب على هذا بحثهم على السير فى الأرض بعين الاعتبار لينظروا كيف أهلك الله أمثالهم فى الكفر والعناد، وكانوا أشد منهم قوة، فلم تحل قوتهم بينهم وبين ما أراد الله بهم لسعة علمه، وكمال قدرته.

وقد ورد فى صدر الآية هذا الاستفهام:

﴿أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، وكانوا أشد منهم قوة﴾.

ويفهم من كلام الإمام جار الله الزمخشرى أن هذا الاستفهام للتقرير، قال رحمه الله:

(استشهد عليهم بما كانوا يشاهدونه فى مسايرهم ومتاجرهم فى رحيلهم إلى الشام والعراق واليمن من آثار الماضين وعلامات هلاكهم ودمارهم[٢]).

وهكذا قال الإمام أبو السعود:

(استشهاد على ما قبله من جريان سنته تعالى على تعذيب المكذبين بما يشاهدونه فى مسايرهم إلى الشام واليمن والعراق من آثار دمار الأمم الماضية..[٣]).

---

(١) جاء ذلك فى قوله تعالى: ﴿استكباراً فى الأرض ومكر السيئ، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، فهل ينظرون إلا سنة الأولين، فلن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ [فاطر: ٤٣].

(٢) الكشاف (٣/ ٣١٣). (٣) تفسير أبى السعود (٧/ ١٥٣).

أما الإمام الألوسى فلما أجـرى التركيب الاستفهامى على مـذهب الزمخشرى من كون الهمزة قارة فى مكانهـا، داخلة على محذوف قدره الألوسى بقوله: (**أقعدوا ولم يسيروا**) لما ذهب هذا المذهب قـال: إن الاستـفهام للإنـكار، ويقصد إنـكار المحذوف المقدر وهو القعود فى قوله: (أقعدوا ولم يسيروا)، وهذا غير سديد كما تقدم مرات، لأن المقام يقتضى ثبوت السير ويلزمهم بالاتعاظ بما شاهدوا من آثار هلاك الماضين.

لأن المقام مقام تحذير وتهديد، وهذا يناسبه السير والوقوف على ثماره، فالاستفهام للتقرير، أما الإنكار فهو لعدم الاعتبار بما شاهدوا.

والخلاصة: أن الاستفهام - هنا - للتقرير حـملاً على مذهب الجمهور، أما إجراؤه على مذهب الزمخشرى فهو مع صحته فإن الحمل على مذهب الجمهور أحرى بالقبول بدلالة المقام وسياق الحديث.

ويتولد عن هذا التـقرير معانٍ فى مـقدمتهـا إنكار عدم اعتبـارهم بما شاهدوا، ثم حثهم عليه من جديد.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**أولم يسيروا فى الأرض**﴾ حث على الاعتبـار بما يُشاهَد من آثار من أهلكهم الله، وفى السيـر مجاز مرسل، حـيث أطلق السبب، وهو السيـر، وأراد المسبب، وهو التأمل والاعتبار.
* ﴿**فينظروا كيف كان عـاقبة الذين من قبلهم**﴾ الفاء لترتيب النظـر على السير، والنظر استعارة للعلم، أى فيعلموا علماً ظاهراً ظهور ما يُرى بالعين.
* وفـى (**كيف كان..**) استـفهام صـورى المراد منه التعـجيب من كيـفية عـقاب الله للمجرمين، والعاقبة مستعـارة للجزاء السيئ بجامع أن كلا منهما يأتى بعد المجازى والمعاقب عليه، والاستـعارة أبلغ لأن كلمة (**عاقبة**) تعنى نهاية أمـرهم، أما الجزاء فيخلو من هذه الدلالة الدقيقة.
* ﴿**وكانوا أشـد منهم قوة**﴾ ترقى فى دواعى التعـجيب والوعيـد والواو للحال، أى: حالة كونهم أشد منهم قوة.

* ﴿**وما كان الله ليعجزه من شئ..**﴾ استئناف مسوق لتـقرير كمال قدرة الله، و(**من**) فى (**من شئ**) لاستغراق أفراد المنفى.

* ﴿**إنه كان عليـماً قديراً**﴾ تذييل مقـرر لمضمون مـا قبله وتوكـيده لأن مضـمونه من الحقائق العظيمة التى يصوغها القرآن دائماً فى أساليب فخمة عظيمة مثلها، وتقديم (**عليماً**) على (**قديراً**) لترتيب القدرة على مقتضى العلم.

* * *

سورة يس

١ - ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ، أَإِن ذُكِّرْتُم، بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [يس: ١٩].

الدراسة والتحليل:

سورة (يس) من السور المكية، نزلت بعد سورة (الجن) وقيل سورة الفرقان. وترتيبها فى النزول الحادية والأربعون، وقد بدأت بالثناء على صاحب الرسالة والكتاب العزيز وموقف مشركى مكة من الدعوة، ثم وعظهم بما حدث لأصحاب القرية الذين كذبوا الرسل، مع ذكر نعم الله على عباده وكونها من دلائل القدرة الإلهية، ولوم من كفر من بنى آدم ولفت الأنظار مرة أخرى إلى نعم الله الدالة على بديع صنعه، وتثبيت النبى ﷺ، والرد على منكرى البعث.

والآية - موضوع الدراسة - تحكى طرفا من الحوار الذى دار بين أصحاب القرية والمرسلين إليهم. وفيه تعلن الآية أن أصحاب القرية أظهروا تشاؤمًا من دعوة الرسل إليهم إلى الإيمان بالله وتوحيده. والرد الذى رد به الرسل عليهم، وقد ورد فى الآية هذا الاستفهام:

﴿أإن ذكرتم﴾ هذا باتفاق، لظهور همزة الاستفهام فيه.

وكان هذا القول لأصحاب القرية فى نهاية حوار جرىء بينهم وبين الرسل، واتخذوا من هذا التشاؤم وسيلة صارفة لهم عن دعوة الرسل، وسببا يستندون إليه فى توعدهم الرسل كما حكى عنهم القرآن:

﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يس: ١٨].

وهذا الاستفهام الذى ورد فى كلام الرسل استفهام مجازى المراد منه الإنكار والتوبيخ. ولم يصرح به كثير من الأئمة سوى الألوسى، حيث حمله على التعجب

والتوبيخ، والشيخ الطاهر قال إن الاستفهام إنكارى، أما الآخرون فقد اكتفوا ببيان المعنى العام للآية، ولم يخصوا الاستفهام فيها ببيان خاص[1].

بيد أننا لاحظنا أن المفسرين فى توجيههم للمعنى خرَّجوا قول الرسل: (**طائركم معكم**) على الإثبات، أى: أنهم أثبتوا لأصحاب القرية شؤما، ولكنهم نازعوهم فى سبب هذا الشؤم هل هو تذكير الرسل لهم؟ أم هو كفرهم وعنادهم؟

وعجز الآية يدل على هذا الفهم، (**بل أنتم قوم مسرفون**) وكأن الرسل قالوا لهم: إن سبب شؤمكم هو كفركم لا تذكيرنا لكم.

ومعنى هذا أن التطير أو التشاؤم خارج عن حيز الإنكار.

وفريق منهم أخرج المعنى مُخَرَجَ دخول التطير والتشاؤم فى حيز الإنكار. وقد قدر المعنى الإمام الطاهر فقال:

(أتتشاءمون بالتذكير إن ذكرتم)[2].

وهذا هو الأصوب - فيما نرى - لدلالة المقام عليه، ويكون الإنكار حينئذ مسلطا على المقيد: التشاؤم. والقيد: وقت التذكير، والمعنى على هذا:

أيحدث لكم التشاؤم وقت ذكَّرناكم بما فيه سعادتكم لو أجبتم؟

والخلاصة: أن الاستفهام فى الآية للإنكار والتوبيخ والتسفيه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**قالوا..**﴾ فصلت هذه الجملة عما قبلها لما بين الجملتين من شبه كمال الاتصال.

لأن الثانية نزلت من الأولى منزلة جواب عن سؤال نشأ عن الأولى حاصله: ماذا قال الرسل فى الرد على قول أصحاب القرية:

(**إنا تطيرنا بكم، لإن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم**) فكان الجواب: ﴿**قالوا طائركم معكم..**﴾.

والطائر هنا: كناية عن التشاؤم على عادة العرب الذين كانوا يزجرون الطير

(١، ٢) الكشاف (٣/ ٣١٨) وتفسير أبى السعود (٧/ ١٦٣) وروح المعانى (٢٢/ ٢٢٤)، والبحر المحيط (٧/ ٣٢٧)، والتحرير والتنوير (٢٢/ ٣٦٤).

ويتشاءمون أو يتفاءلون من اتجاهاتها، ولأنهم كانوا يعبرون عن الهلاك بقولهم: طارت به الفتعاء أو مجاز مرسل بإطلاق السبب وإرادة المسبب.

* ﴿**أإن ذكرتم**﴾ بناء الفعل ﴿ذُكِّرتُمْ﴾ لما لم يسم فاعله لحصول الغرض بالحدث- نفسه - وهو التذكير دون التوقف على تعيين الفاعل.

و﴿إن﴾ شرطية. أى: أتتطيرون بسبب تذكيرنا إياكم بالحق أو أيلازمكم شؤمكم بسبب تذكيرنا. فالإنكار موجه للتشاؤم المترتب على التذكير لا مطلق تشاؤم.

* ﴿**بل أنتم قوم مسرفون**﴾ انتقال من إنكار تشاؤمهم بتذكير الرسل لهم، وتوبيخهم عليه إلى بيان أن شؤمهم حاصل لهم بكفرهم وأسرافهم فى المعاصى وسوء الظن، وفى التعبير بالجملة الاسمية: (**أنتم قوم مسرفون**) لتوكيد النسبة بين طرفى الإسناد. وقد أكد المسند إليه ﴿**أنتم**﴾ بقولهم ﴿**قوم**﴾ مرة أخرى، وكان يمكن أن يقال: بل أنتم مسرفون.. فزيد «قوم» للتوكيد والتسجيل عليهم بالضلاعة فى الإسراف.

* * *

٢ - ﴿وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ* أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونِ﴾ [يس: ٢١، ٢٢].

الدراسة والتحليل:

بعد الحوار الذى دار بين أصحاب القرية وبين الرسل ووصل الأمر إلى تهديد الرسل بالرجم بالحجارة حتى الموت أو التعذيب الشاق المؤلم، بعد هذا كان الأمر قد شاع فى المدينة، وأن أصحابها رفضوا دعوة الرسل، فى هذه الأثناء أسرع رجل مؤمن إلى حيث يجتمع الناس (قلب المدينة) وأخذ يعظ قومه ويحثهم على أتباع المرسلين، ويحبب إليهم طاعتهم، وذلك ما حكاه القرآن:

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى، قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾.

ويبدو أن حواراً دار بين هذا الرجل وبين قومه حول هل هو مصدق لهم، ويعبد الله وحده عملاً بدعوة الرسل، والذى يدل على هذا الحوار قوله:

﴿وما لى لا أعبد الذى فطرنى﴾ وهذا أسلوب استفهام تصدرت به الآية.

ثم تصدرت الآية التى بعدها بأسلوب استفهام آخر وهو: ﴿أأتخذ من دونه آلهة..﴾.

وهما استفهامان مجازيان قطعا بدلالة المقام وهذان الاستفهامان المراد منهما الإنكار، ولكن المنكر بالأول غير المنكر بالثانى. والسادة الأئمة كما هو واضح عند النظر فيما قالوه لم يهتموا ببيان المراد منهما والمنكر فى الاستفهام الأول ﴿وما لى لا أعبد الذى فطرنى﴾ هو الأسباب الصارفة عن عبادة الله عز وجل، أى: لا صارف لى يصرفنى عن عبادة الله الذى فطرنى. ويردف على هذا الإنكار تقرير عبادة الله والمواظبة عليها أما المنكر فى الاستفهام الثانى فهو اتخاذ آلهة من دون الله عز وجل.

والمعنى: لا أتخذ وما كان لى أن اتخذ من دون الله آلهة على الإطلاق.

ويردف على الإنكار - هنا - إفراد الله عز وجل بالإيمان والعبادة.

هذا خلاصة ما يقال فى هذين الاستفهامين، وإن سادتنا المفسرين لم يهتموا بالمراد منهما بلاغيا، وخاصة الاستفهام الأول. وقليل منهم من قال إن الاستفهام الثانى للإنكار والتقريع. وأن الأول للتعريض بالمشركين ودفع بعضهم القول بالتعريض.

وأيا كان فإن تفسيرهم لمعانى الآيتين يدل بكل وضوح على أن الاستفهامين للإنكار أصاله(1).

أسرار النظم وبلاغياته:

* **﴿وما لى لا أعبد الذى فطرنى﴾**: الواو عاطفة على محذوف يهدى إليه المقام، والظاهر أن ذلك المحذوف من كلام الرجل الذى جاء من أقصى المدينة. كأن يكون قد أعلن لهم فى ذلك الحوار المطوى إيمانه بالله وإفراد الله بالعبادة، ثم استطرد قائلا: وما لى لا أعبد الذى فطرنى. وهذا نظنه أوفق مما ذهب إليه الإمام الطاهر ابن عاشور حيث جعل العطف على ﴿اتبعوا المرسلين﴾.

وفى التعبير كناية من الكنايات اللطيفة التى أشرنا إليها مرات كثيرة من قبل. حيث

(1) الكشاف (3/ 319) تفسير أبى السعود (7/ 163) روح المعانى (22/ 226)، البحر المحيط (7/ 328)، التحرير والتنوير (22/ 368).

أُوقع الاستفـهام عن السبب الصارف عن عـبادة الله. والاستفهـام عن الشيء يستلزم عدم رؤية ذلك الشيء. وعدم رؤية شيء مـا معناه أنه غير موجود فـيترتب على نفى السبب نفى المسبب، وهو ترك عبادة الله وإيثار المضارع: ﴿أعبد﴾ إشارة إلى أن عبادته لله تتكرر بتكرار موجبها ولن تتوقف، ولا تختص بزمان دون زمان.

* ﴿الذى فطرنى﴾ أوثر الموصول ﴿الذى﴾ وصلتـه ﴿فطرنى﴾ على الاسم العلم (الله) لأن فى الموصول وصلته تعليل الموجب للعبـادة التى نفى كل الصوارف عنها. فهى أبلغ فى موضعها من (الاسم العلم) فى هذا الموضع. وهذا هو شأن تراكيب القرآن كلها.

وأوثر الفعل ﴿فطرنى﴾ على: خلقنى، لخصوصية دقـيقة بديعة تناسب المقام، لأن الفعل ﴿فطرنى﴾ فيـه إلماح إلى فطرة الله التى فطر الناس علـيها، وهـى إقامة الـوجه للدين، حيث قال الله تعالى:

﴿فَأَقِمْ وَجْـهَكَ لِلدِّينِ حَنِيـفًا، فِطْرَتَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَـلَيْهَا، لاَ تَـبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

* ﴿وإليه ترجعون﴾ عطفت هذه الجملـة على جملة ﴿فطرنى﴾ لأنهما خـبريتان لفظا ومعنى فبينهـما التوسط بين الكمالين وهى ﴿وإليه ترجعون﴾ زيادة التعليل الموجب لإفـراد الله عز وجل بالعـبادة، لأن منه المبـدأ ﴿فطرنى﴾ ثم إليـه المصيـر: ﴿وإليه ترجعون﴾.

وسر العدول عن: وإليه أرجع. إلى: ﴿وإليه ترجعون﴾ لمحة من ذكاء المؤمن، ففيها إلزام لهم بوجوب أفراد الله بالعبـادة الذى ألزم بها نفسه، وفيهـا إلزام لنفسه بالرجوع إلى الله الذى ألزم به مـخاطبـيه. ولإخراج الحكـم مُخْرَجَ العـموم حـتى لا يقع فى وهمهـم أن عبادة الله والرجـوع إليه مـقصـوران على المتكلم دون غـيره وفى ﴿وإليه ترجعون﴾ كناية عن البعث من القـبور والمثول بين يدى الله للحسـاب. فريق فى الجنة وفريق فى السعير.

* ﴿أأتخذ من دونـه آلهة﴾ الاتخاذ الإيثار والمـوالاة، وتنكير آلهة للتحـقير. وفى هذه

العبارة تعريض شديد الوقع بقومه الذين كذبوا المرسلين وظلوا على عبادة الأصنام.

وفى إطلاق وصف آلهة على الأصنام تمهيد لإنكارها رأسا؛ لا على أنها آلهة بل حكاية لما يطلقه عليها عابدوها الوثنيون، أنكر على نفسه أن تتخذ من دون الله آلهة والمراد بالإنكار قومه لا هو، لإظهار خلوص النصح لقومه، وأن ما لا يرضاه لهم لا يرضاه لنفسه.

* **﴿إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئًا﴾** هذا - كله - استئناف مسوق لتأكيد وتعليل إنكار آلهة من دون الله.

فكما علل إفراد الله بالعبادة فى الآية الأولى بأمرين:

* كون الله هو الذى خلق. * وكون الخلق راجعين لله.

علل - هنا - إنكار اتخاذ الآلهة من دون الله بأمرين:

* عجزها عن الشفاعة عند الله. * عجزها عن الإنقاذ مطلقا.

ومجموع هذين الوصفين كناية عن حقارة الأصنام وتسفيه عابديها.

وإيثار الاسم الكريم ﴿الرحمن﴾ من بين أسماء الله الحسنى تصوير بديع بقبح عقيدة الشرك حتى أن (الرحمن) الذى هو مصدر الفيض بالخير والرحمة يصب بلاءه وغضبه ونقمته على كل من يشرك به أحدًا فى ملكه.

وتنكير (ضر) لاستقراق أفراد الجنس، أى: كل ضر عظيما كان أو يسيرًا.

وإسناد الاغناء إلى الشفاعة مجاز عقلى علاقته السببية، أى: لا يغن عنى الله شيئًا بسبب شفاعتهم.

وإضافة الشفاعة إلى ضمير الآلهة إضافة فى اللفظ لا فى المعنى. والمراد نفى الشفاعة رأسًا. ولكن هذا رد على قول المشركين أن الأصنام شفعاء لهم عند الله فهذا على حد قول العرب:

* على لا حب لا يهتدى لمناره *

واللاحب الطريق. والمنار العلامات التى توضع عليه إذ ليس المراد وجود طريق لكن لا يهتدى إليه بل المراد نفى الطريق والمنار أصلا. أى: نفى المقيد والقيد معًا.

أما تنكير ﴿شيئًا﴾ فللتحقير والانعدام، والمعنى: أن تلك الشفاعة - فضلا عن كونها مزعومة - لا تجلب أى نفع كان.

* ﴿ولا ينقذون﴾ معاملة الأصنام، وهى جمادات لا تعقل - معاملة العقلاء، حيث عُبِّر عنها بضمير العقلاء فى ﴿شفاعتهم﴾ وفى ﴿ولا ينقذون﴾ لها وجهان بلاغيان:

الأول: مجاراة الخصوم فى دعاويهم تمهيدا للكر عليها وإبطالها.

الثانى: لأن المعبود - زورًا - من دون الله، منهم العقلاء كالملائكة والصالحين من عباد الله. وشفاعة هؤلاء لا تنفع عابديهم، لا لأنهم ليسوا أهلا للاستشفاع، ولكن لأن المشركين لا يشفع فيهم أحد.

الثانى: غير العقلاء، وهى الأصنام الجمادية. فجاء التعبير عنها - هنا - بضمير العقلاء تغليبا للعقلاء على غير العقلاء، وهذان الوجهان كاف كل منهما فى توجيه التعبير عنها بضمائر العقلاء.

وقد حمل بعض الأئمة قوله تعالى ﴿ولا ينقذون﴾ على عطف العام، وهو مطلق الإنقاذ على الخاص، وهو الشفاعة والذى لاح لنا أن لا خصوص ولا عموم بين الشفاعة والإنقاذ. بل كل منهما مباين للآخر تمام المباينة وأن المراد - هنا - إثبات عجز المعبودين من دون الله عن أمرين:

الأول: لا وسيلة لهم تُفْلح عند غيرهم فى نفع عابديهم ورُمز إلى هذا بنفى الشفاعة لدى الغير.

الثانى: لا قوة لهم ذاتية تدفع الضر عن عابديهم إذا وقع بهم مكروه. هذا هو المعنى الذى لاح لنا، وهو صواب بإذن الله.

* * *

٣ - ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾

[يس: ٣١].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية من الآيات التى تأتى تعقيبًا على مواقف سُرِدَتْ قبلها. والموقف الذى تقدم عليها - هنا - قصة الصراع بين أصحاب القرية والمرسلين إليهم والرجل الصالح الناصح الأمين، فجاءت هذه الآية تقرر حقيقة من حقائق الحياة فى الأمم الغابرة، وهى ذهاب أمم وشعوب كان لها دوى على الأرض ثم عادوا - جميعًا - فدفنوا فى بطنها، ولم يرجع منهم أحد إلى الحياة.

لو تأمل مكذبو الرسل هذه الحقيقة الساطعة سطوع الشمس، وقدروها حق قدرها لكان لهم شأن فى الإيمان والعمل الصالح.

فأسلافهم لم يدفنوا فى الأرض إلى الأبد، ولكنهم سيُدعون منها فإذا هم قيام ينظرون.

وقد صُدِّرت هذه الآية بهذا الاستفهام. **﴿ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون﴾**؟.

والضمير فى ﴿يروا﴾ - و ﴿قبلهم﴾ لمشركى العرب أما الاستفهام، فهو بإجماع الأئمة والبلاغيين - استفهام تقرير. والرؤيا علمية. يذكرهم الله بهذه الحقيقة لعلهم يثوبون إلى رشدهم، ويتعظون بعبر التاريخ ويتأملون كيف كان أخذ الله لمن كان مثلهم فى الكفر والعناد وتكذيب المرسلين، فإن أضيف إلى التقرير معنى ثان فهو الحث على التدبر والانتفاع بالذكرى.

أسرار النظم وبلاغياته

* **﴿ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون﴾** هذا الاستفهام للتقرير قطعًا، وهذا ما تقضى به قواعد اللغة وأصول البلاغة لأن همزة الاستفهام لما دخلت على ﴿لم﴾ دخولا مباشرًا نفت النفى الذى كان حاصلاً بـ (لم) فعاد الكلام إثباتا وقد ذكرنا هذا مرات من قبل، وأعدناه هنا لأن الإمام الطاهر بن عاشور كثير الانتهاك لهذه القواعد اللغوية والأصول البلاغية. وقد رأيناه - هنا - يردد هذا الاستفهام بين الإنكار

والتقرير. وحين جوَّز فيه التقرير فسره تفسير الاستفهام الإنكارى.

والصواب أن الله يقرر المخاطبين - هنا - بالعلم الحاصل لهم فعلاً بكثرة من هلك ومات. وبلفت الأنظار لا لتحصيل العلم بهذه الحقيقة، ولكن لوضعها موضع الاعتبار، لعلهم يهتدون إلى الحق.

و﴿كم﴾ هنا خبرية، فالاستفهام فيها صورى كما تقدم.

والقرون جمع قرن. والمراد الأجيال أو الأمم. فإن كان الأصل فى ﴿القرن﴾ هو الزمان ففى التعبير مجاز عقلى أو مرسل لأنه أطلق الزمن وأراد من كان حالاً فيه.

* **﴿أنهم إليهم لا يرجعون﴾** من معمول الرؤيا العلمية سواء كان بدل اشتمال من ﴿أهلكنا﴾ أو استئنافاً على قراءة من كسر همزة ﴿إن﴾.

* * *

٤ - ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ، أَفَلاَ يَشْكُرُونَ﴾ [يس ٣٥].

الدراسة والتحليل:

بعد أن لوحت سورة (يس) إلى عِبر التاريخ، بقصة أصحاب القرية وتدميرهم كنموذج تفصيلى خاص، ثم عطف عليها الاشارة إلى مجموعة الأمم التى أخذها الله بذنوبها، التفت النظم الحكيم إلى أن يعرض أمام الأنظار ما يغمر الناس من نعم الله التى بين أيديهم ومن خلفهم، وهى فى الوقت نفسه دلائل ناطقة على كمال قدرة الله عز وجل. وقد تم الانتقال من أحداث التاريخ إلى ضروب النعم الماثلة بين أيدى الناس بقوله عز وجل:

﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ* وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ [يس: ٣٣، ٣٤].

ثم جاءت الآية - موضوع الدراسة، التى كانت فاصلتها هذا الاستفهام:

﴿أفلا يشكرون﴾؟. وهذا التركيب الاستفهامى المكون من:

همزة الاستفهام + أداة عطف + أداة نفى + فعل مضارع، هذا التركيب بهذه

الضوابط الأربعة عرفنا أن فيه مذهبين أحدهما مـذهب الجمهور وهو أن الهمزة مقدمة من تأخير وأن الأصل فيه:

﴿**أفلا يفعلون**﴾[1] فقـدمت همزة الاستـفهام على أداة العـطف لما للاستفـهام من الصدارة فصار التركيب ﴿**أفلا يشكرون**﴾.

والمذهب الثانى لـلإمام الزمخـشرى وهو أن الهمـزة قارَّة فى مكانهـا لم تقدم من تأخير، ومدخولها محذوف وهو المعطوف عليه بأداة العطف.

وأيا كان الأمر فـإن الاستفهام فى الآيـة للنفى والإنكار، ولكن النفى على مذهب الجمهور له طريق، وعلى مذهب الزمخشرى له طريق أخرى.

فعلى مذهب الزمخشرى كفانا الإمام أبو السعود فقال فى تقدير المحذوف:

﴿**أفلا يشكرون**﴾ إنكار واستقباح لعدم شكرهم للنعم المعدودة، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى: أيرون هذه النعم، أو أيتنعمون بها فلا يشكرونها[2].

أما على مذهب الجمهور فلا مناص من تقدير الهمزة مع (لا) أداة حث وتحضيض، ويكون التقدير: ﴿ألا يشكرون﴾ وإنما قلنا لا مناص من هذا لأننا إذا أبقينا الهمزة على معناها من الاستفهام، وأبقينا (لا) على معناها من النفى كان النفى المستفاد من الهمزة مسلطا على النفى المستـفاد من (لا) ونفى النفى إثبات بإجماع العـقلاء - بَلْه اللغويين والبلاغيين - وعلى هذا يكون الاستـفهام للتقـرير لا للنفى والإنكار. وهذا يأباه المقام ويمنعه منـعا باتا؛ لأن الشكر على هذا يكون مـوجوداً لا منفيًـا، ولا دخل لما عطفت عليه الفاء فى إزالة هذا المحظور، فـإن قيل: إن الهمزة فى التركيب القـرآنى مفصولة عن (لا) ولو كانت لـلتحضـيض للزم اتصالهـا بـ (لا) ولما وجبت لهـا الصدارة لأنها تكون حينئذ للتحضيض وليست للاستفهام.

إذا قيل هذا قلنا: إن (ألا) التى للحث والتحضيض شديدة الشبه بأدوات الاستفهام

---

(١) آثرنا التـمثيـل حسب الميـزان الصرفى ليكون التـمثـيل عاما فـى جميع الآيـات التى ورد فيـها هذا الاستفهام.

(٢) تفسير أبى السعود (٧/ ١٦٦).

لفظا ومعنى. وكثيراً ما يشتبه التحضيض فيها بالاستفهام. فإن قدمت همزتها من تأخير فحملا لها على همزة الاستفهام الخالص الصريح.

والخلاصة: أن الاستفهام فى الآية للإنكار والنفى أصالة أو إذا شئنا التدقيق قلنا إنه للنفى. ويتولد عنه الحث على الشكر، والترغيب فيه. وطريق هذا النفى على مذهب الزمخشرى إذا خرَّجنا المعنى عليه هو (لا) النافية نفيا صريحا كما قدَّره الامام أبو السعود المحذوف من قبل.

أما طريق النفى على مذهب الجمهور فهو الكناية، لأن التحضيض على تحقيق الشىء وتحصيله يلزم منه أن ذلك الشىء معدوم ساعة حُضِّض عليه ورُغِّبَ فيه.

أسرار النظم وبلاغياته

* ﴿**ليأكلوا من ثمره**﴾ تعليل لإحياء الأرض وإخراج الحب والثمار والفواكه منها. و﴿**من**﴾ فى ﴿**من ثمره**﴾ بيانية أو لابتداء الغاية.

والهاء المضاف إليه الثمر فى قوله: ﴿ثمره﴾ كناية عن اسم الجلالة، إذ لا مرجع لهذا الضمير فى الكلام - هنا - إلا الله عز وجل.

وعلى هذا يكون فى ﴿ثمره﴾ التفات من المتكلم فى (فجرنا) إلى الغيبة فى ﴿ثمره﴾ وسره البلاغى - فيما لاح لنا - مناسبته لعدم الشكر الواقع بعده. وفيه تعريض بالجاحدين لنعم الله بأن الله غاب عن تفكيرهم فانتفى شكرهم لنعمه.

* ﴿**وما عملته أيديهم**﴾ استئناف مسوق لتأكيد غرضين بلاغيين:

الأول: توكيد التعريض بجاحدى نعم الله عليهم.

الثانى: توكيد الحث على الشكر والترغيب فيه بذكر موجباته ودواعيه.

وفى (أيديهم) إما مجاز مرسل، أو مجاز عقلى، والمعنى وما عملوه هم بأيديهم. وعلاقة المرسل فيه الجزئية حيث أطلق الجزء (الأيدى) وأراد الكل.

أما علاقة العقلى فيه فهى الآلية، لأن اليد آلة العمل.

﴿**أفلا يشكرون**﴾ إيثار المضارع إشارة إلى استحداث الشكر وتكراره بتكرار موجباته.

* * *

٥ - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ، إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٤٧].

الدراسة والتحليل:

هذه صورة من صور الجحود وكفران النعم، وتسجيل على الذين كفروا بالجهل والجهالة معًا. فهم يواجهون الدعاة إذا دعوهم للانفاق على ذوى الحاجة من الناس يواجهون الدعاة بهذا الجهل البهيم، ويعللون الامساك عن الانفاق بأن الانفاق فيه خروج على إرادة الله، وقد صوَّرت لهم شياطينهم وأوهامهم بأن الله خلق أناسا ليجوعوا، وخلق آخرين ليشبعوا، فمن أشبع من أراد الله إجاعته، أو أجاع من أراد الله إشباعه فقد عصى الله فإذا أنفقوا - هم - على الفقراء فقد بارزوا الله بالمعاصى لأن الله لو أراد إشباع الجائع لأشبعه.

والغريب أنهم بعد أن زوَّروا على الله من المبادىء والقيم ما زوَّروا راحوا يجزمون بأن من يخالف هذا الوهم الذى أعلنوه سادر فى الضلال الذى لا يخفى على أحد أنه هو الضلال.

وقد ورد فى هذه الآية هذا الاستفهام المحكى عنهم بكل أمانة:

﴿أنطعم من لو يشاء الله أطعمه﴾؟

وهذا الاستفهام إنكارى تهكمى. ولم يصرح بالإنكار فيه إلا الإمام الطاهر بن عاشور. أما بقية الأئمة فقد اكتفوا بتفسيره تفسير الاستفهام الإنكارى ولم يصرحوا بلفظ الإنكار، وإن صرحوا بالتهكم والاستهزاء(١).

وقد ذكر المفسرون - هنا - أشياء لا نرى لها وجها، وهى أن الرسول ﷺ أمر المشركين أن ينفقوا على فقراء المؤمنين أو أن فقراء المؤمنين طلبوا من مشركى مكة، أن ينفقوا عليهم بعد إسلامهم كما كانوا يحسنون إليهم قبل إسلامهم، فواجه المشركون هذا بقولهم:

---

(١) أنظر مثلا: الكشاف (٣/ ٣٢٥) وأبو السعود: (٧/ ١٧٠)، والتحرير والتنوير: (٢٣/ ٣٢).

﴿**أنطعم من لو يشاء الله أطعمه**﴾ ونشهد الله أن النفس لم تسترح لهذا الذى ذكروه؛ لأن العلاقة بين النبى والمؤمنين معه، وبين المشركين لا تسمح بهذا أبدًا. أما بالنظر إلى وضع صاحب الرسالة ﷺ فكان يخاطبهم بتوحيد الله وترك عبادة الأصنام وينهاهم عن الانحرافات والفواحش فى العقيدة والسلوك. فكيف يقال: إنه طلب من مشركى مكة الانفاق على فقراء المؤمنين؟ مع حدة التوتر بينه وبينهم حول أصول الإيمان.

وأما بالنظر إلى فقراء المؤمنين فقد كانوا موضع اضطهاد وتعذيب ومطاردة من جانب المشركين؛ فهل من المعقول أو المقبول أن يلتمسوا من أعدائهم الانفاق عليهم، وكان أعداؤهم يتربصون بهم الدوائر وينزلون بهم أشد ألوان العذاب؟

إن طلب النبى الانفاق من المشركين على فقراء المؤمنين، أو طلب فقراء المؤمنين الإنفاق عليهم من مشركى مكة. مرحلة ما كانت تسمح بها تلك العلاقات المتوترة بين الفريقين، لذلك لم تسترح النفس إلى ما ذكره سادتنا المفسرون. والذى لاح لنا، ويلوح بشدة، أن هذا الانفاق المذكور فى الآية موضوع الدراسة كان توجيها عاما من توجيهات الإسلام كالأمر بالإيمان بالله واليوم الآخر، ومن المبادىء والقيم التى نادى بها الإسلام نداء عاما، وليس للانفاق على فقراء المؤمنين من المشركين.

هذا ما لحظناه وسجلنا هذه الخواطر نحوه ليكون ما ذكرناه إسهاما منا فى تيسير فهم كتاب الله العزيز وتجلية ما يحتاج إلى تجلية من معانيه.

والخلاصة: أن هذا الاستفهام استفهام إنكار وتهكم وهو - حسب دلالة المقام - إنكار الوقوع واستبعاده لا إنكار الواقع.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله**﴾ الواو للعطف على جملة ﴿**وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم**﴾.

وإيثار أداة الشرط ﴿إذا﴾ على ﴿إن﴾ لتحقق جواب الشرط: ﴿**قالوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه**﴾ وفى هذا تسجيل على الذين كفروا بالجهل والجهالة والإصرار على

العناد، وبناء الفعل ﴿قيل﴾ لما لم يسم فاعله للإعلام بأن المعوّل عليه هو حصول القول دون التوقف على تعيين الفاعل هذا غرض بلاغى أول.

وغرض ثان هو القصد إلى عموم الفاعلين بما يشمل صاحب الرسالة، والدعاة معه ومن بعده والزنادقة الذين قالوا هذا الكلام العقيم فى عصر نزول القرآن لا يخلو له منهم زمان حتى تقوم الساعة.

* ﴿مما رزقكم الله﴾: ﴿من﴾ المدغم نونها فى ﴿ما﴾ فى قوله تعالى (مما) للتبعيض، والايذان بأن الانفاق يكون ببعض الرِّزق وليس الرِّزق كله.

وإسناد الفعل ﴿رزق﴾ إلى الله تليين وتلطيف فى الخطاب، وتعليل للامتثال للأمر ﴿أنفقوا﴾ لأن المال المطلوب الانفاق منه ممنوح من الله، فالله يأمر بالانفاق مما أعطاه هو لعباده.

كما يتضمن هذا الإسناد تهديداً كنائيًا لمن لم يمتثل الأمر بالحرمان، لأن مانح المال قادر على إذهابه ومنع العصاة من الاستمتاع به.

﴿قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه﴾ جواب الشرط المحقق حصوله بـ (إذا).

وإيلاء الفعل ﴿نطعم﴾ همزة الاستفهام لأنه محط الإنكار، أى لا يكون منا هذا الإطعام، ولم يقولوا فى الجواب: (أنـنفق) ليطابق الشرط لأنهم طولبوا بالأعم، وهو الانفاق الذى يشمل الإطعام والاكساء وغيرهما. لأنهم كنوا بنفى الأخص على نفى الأعم. وإيثارهم إنكار الإطعام، لأنه المقصود الأهم من الانفاق. وفيه لطيفة أخرى:

وهى أنهم يبخلون بالإطعام مع شدة حاجة الجائع إليه، فهم لغير الإطعام أشد منعا.

وفى هذا الجواب إظهار التهكم بالمؤمنين الذين يقولون: إن كل شىء مرهون بإرادة الله ومشيئته.

* ﴿**إن أنتم إلا فى ضلال مبين**﴾ تذييل مقرر لمضمون كلامهم السابق.

والجملة قصرية، أداة القصر فيها النفى والاستثناء والمقصور ﴿أنتم﴾ والمقصور عليه ﴿**ضلال مبين**﴾ والاستثناء فيه مفرغ من عموم الأحوال: أى: ما أنتم فى حال من الأحوال إلا حال الانغماس فى الضلال وتنكير (**ضلال**) للتهويل والتفظيع على حد زعمهم وفى حرف الجر ﴿فى﴾ فى قولهم ﴿**فى ضلال مبين**﴾ استعارة بالكناية، حيث شبهوا الضلال بالظرف والمؤمنين مظروفين ئيه. والقصد بيان أن الضلال محيط بهم من كل جهة. بل هم مغمورون فيه.

وفى وصف الضلال بـ (مبين) مجاز عقلى بتحويل الوصف من الموصوف به إلى الوصف القائم بالموصوف وقصدهم المبالغة فى وصف المؤمنين بالضلال، ومجىء الفاصلة (مبين) على هذا البناء لإفادة غرضين:

الأول: تناسق الفواصل فى الايقاع الصوتى.

الثانى: المبالغة فى وصف المؤمنين بالضلال كما تقدم.

* * *

٦ - ﴿قَالُوا يَآ وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا، هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية تقص علينا مشهداً من مشاهد القيامة، لأن الآيات التى قبلها مباشرة كانت رداً على استبعاد المشركين للبعث والحياة الآخرة. وقد حكى عنهم القرآن الأمين مقولة الاستبعاد هذه، ثم كر فى الرد عليها فى الآيات الآتية:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[1] * مَا يَنْظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ * فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ * وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَىَ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾.

(١) هذه الآية هى الـ (٤٨) من سورة يس. ولم نخصها بمبحث هنا لورودها من قبل فى هذه الدراسة. ودراسة نظمها وبلاغياتها وعرفنا أن الاستفهام الذى فيها: إنكارى تهكمى.

فقول الموتى، ومنهم منكر والبعث: **﴿يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا﴾** سيكون ساعة القيام من القبور والحشر إلى ساحة العدل الإلهى ليقضى بين الناس، ويثيب أهل الإيمان والطاعة. ويعاقب عصابات الكفر والعصيان. وهذا الاستفهام **﴿من بعثنا من مرقدنا﴾** المراد منه الاستهوال والاستفظاع والاستغراب. وللأئمة فيه كلام لا يخرج عما أوجزناه. فإن كان يضاف إلى ما قلناه شىء فهو الاستعجاب مما يحدث فى أثناء الخروج من القبور.

وكثير من الأئمة خصص هذا القول بمنكرى البعث وهذا احتمال وارد، لأن منكرى البعث يفاجأون بما كانوا ينكرون وقوعه، فتأخذهم الدهشة والاضطراب.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **﴿قالوا: يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا﴾** فصلت جملة **﴿قالوا﴾** عما قبلها لأنها استئناف بيانى وقعت جوابا عن سؤال نشأ عن جملة قيام الموتى من القبور والكافرون كانوا يقولون: **(متى هذا الوعد)** وقصدهم أنه لن يكون بعث قط. والسؤال: ماذا قال منكرو البعث حين فوجئوا بوقوع ما كانوا ينكرون وقوعه؟

  فكان الجواب: **﴿قالوا يا ويلنا...﴾**.

والويل هو الهلاك. والذى ينادى هذا النداء هو من كان فى شدة لا مخرج منها.

وفى نداء الويل استعارة بالكناية، حيث شُبِّه الويل بمن يعقل فنودى نداء من يعقل. والمعنى: يا ويلنا أحضر فهذا أوانك.

* **﴿من بعثنا﴾** استفهام استهوال واستفظاع واستغراب واستعجاب. والسؤال هنا عن فاعل البعث؛ لأنهم لجهلهم كانوا يعتقدون أن الإحياء بعد الإماتة لا فاعل له فى الوجود. يكنون بنفى الفاعل عن نفى الفعل نفسه، وفى البعث استعارة للاستيقاظ. لأن الايقاظ يكون من نوم. والبعث يكون من موت. وسر عدولهم عن أيقظنا - حسب اعتقادهم أنهم كانوا نائمين - إلى: (بعثنا) هو للإشعار بأن البعث الذى

كذبوا به فى الدنيا كان أول ما تنطق به ألسنتهم بعد رد الحياة إليهم.

وفى هذا تحسير لهم، وإلزام بقول الحق وإن كانوا لم يؤمنوا به فى حياتهم الأولى.

* **﴿من مرقدنا﴾** استعارة تصريحية، حيث جرى على ألسنتهم تشبيه مكان الموت - القبر - بمكان النوم - السرير، أو المأوى. والمرقد اسم مكان، أو مصدر ميمى بمعنى الإنامة.

وهذه الاستعارة ترشيح لاستعارتهم الأولى، وهى **﴿بعثنا﴾** بمعنى أيقظنا. وتلك ترشيح لهذه.

* **﴿هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾** اسم الاشارة **﴿هذا﴾** الموضوع للمشار إليه القريب إشارة إلى ما هم متلبسون به من أحداث، وهى أهوال القيامة و**﴿ما وعد الرحمن﴾** أى على لسان رسله فى الحياة الدنيا من البعث بعد الموت.

* **﴿وصدق المرسلون﴾** أى فى تبليغهم عن الله أن الناس مجموعون ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين. وهذه العبارة **﴿هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾**.

إن كانت من مقول منكرى البعث بعد القيام من القبور فهى اعتراف منهم - بعد فوات الأوان - بصدق الرسالات أجروه على ألسنتهم وصدقت به أنفسهم تكذيبا منهم لما أنكروه من قبل. ومسارعة فى شعورهم بالخيبة والخذلان.

وإن كانت من قول الملائكة - كما ذكر بعض المفسرين - فهى تبكيت لهم وتحسير، وإنذار بالويل والثبور وعظائم الأمور.

* * *

٧ - ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِى آدَمَ أن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِى، هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا، أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٠- ٦٢].

الدراسة والتحليل:

هذا الخطاب الإلهى يوجه إلى البشر جميعًا يوم القيامة، بعد أن جالت الرسل جولاتها فى الحياة الدنيا وبلغت إلى الناس ما أنزل إليهم من ربهم، وكلٌّ قد أتى الرحمن فردًا.

والظاهر أن هذا الخطاب الرهيب سيوجه إلى أهل المحشر قبل البدء فى الحساب وبعد نشر صحف العباد، من أوتى كتابه بيمينه، ومن أوتى كتابه من وراء ظهره فتناوله بشماله مع سماع هذا النداء لكل أحد:

﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾ [الإسراء: ١٤].

وفى هذا الخطاب العام تذكير لبنى آدم بما بعث الله به رسله:

* النهى عن عبادة غير الله. * إفراد الله بالعبادة.

ثم تعقيب من الله بحصائد الشيطان، وأنه أضل كثيراً من الناس، وإنكار منه تعالى على من اتبع الشيطان وأهمل إعماله عقله فلم يميز بين الحق والباطل، أو ميَّز بينهما ولكنه ضل عن علم واتبع هواه وكان أمره فرطا. والاستفهام الأول: **﴿ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان﴾** استفهام تقرير وتذكير وإلزام كل أحد بتبعة نفسه، وإبراء ساحة العدل الإلهى من الظلم. **(وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا).**

وأما الاستفهام الثانى **﴿أفلم تكونوا تعقلون﴾** فهو استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع. وقد خرَّج الإمام أبو السعود هذا الاستفهام على مذهب الزمخشرى وقدر المحذوف هكذا:

(أكنتم تشاهدون آثار عقوباتهم فلم تكونوا تعقلون أنها لضلالهم. أو: فلم تكونوا

تعقلون أصلا حتى ترتدعوا عما كانوا عليه كيلا يحيق بكم العقاب»[1].

وتابعة الإمام الألوسى ونقل عبارته لفظا ومعنى[2] والمفسرون القدامى لم يصرحوا بالتقرير فى الأول ولكنهم ذكروا مكانه عبارات أخرى كالتبكيت والإلزام والتوبيخ والتقريع.

كما لم يذكروا الإنكار فى الثانى مع اكتفائِهم بما ذكروه أو بعض ما ذكروه فى الأول.

أما الإمام الطاهر بن عاشور فقد نص على التقرير فى الاستفهام الأول. وعلى الإنكار فى الاستفهام الثانى، مع إضافة بعض المعانى الثانية فى كل من الاستفهامين[3].

والخلاصة: أن الاستفهام الأول **(ألم أعهد..)** للتقرير والإلزام والتبكيت لأولياء الشيطان. والاستفهام الثانى **(أفلم تكونوا تعقلون)** فهو استفهام إنكارى توبيخى.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(ألم أعهد إليكم يا بنى آدم)** العهد الوصية، وأصل العهد ما يلتزم به طرف أمام طرف آخر من أمور يتفق عليها. وعهد الله إلى عبادة هنا هو إيصاؤهم بمخالفة الشيطان، وأوثر تسمية الوصية عهداً لما فى العهد من الإلزام والالتزام الإلزام من الله والالتزام من البشر، ولوجوب الوفاء بالموصى به كوجوب الوفاء بالعهد، أو المتعهَّد به.

* **(يا بنى آدم)** أوثر النداء بـ(يا بنى آدم) دون يا أيها الناس، وهو مكافئ له فى إفادة العموم إشارة إلى العداء القديم بين آدم والشيطان. وفى هذا توطئة بديعة للنهى الوارد فى الآية عن عبادة الشيطان.

* **(أن لا تعبدوا الشيطان)** (أن) تفسيرية بمعنى أى وعبادة الشيطان إما طاعته فى دعوته إلى المعاصى، وإما مجاز عقلى والمراد عبادة آلهة مدعاة من دون الله. وإطلاق عبادة الشيطان على عبادة الأصنام لأن الشيطان هو السبب والداعى إليها، فهو

---

(١) تفسير أبى السعود: (٧/ ١٧٦).
(٢) روح المعانى: (٢٣/ ٤١).
(٣) التحرير والتنوير: (٤٣/ ٤٧) وما بعدها.

مجاز عقلى علاقته السببية. والأول أصوب لأنه أعم فيدخل فيه معصية المؤمن.

* **(إنه لكم عدو مبين)** تذليل تعليلى للنهى عن عبادة الشيطان سواء كانت فى عبادة الآلهة المدعاة مع الكُفر، أو المعاصى مع الإيمان. وتوكيد الخبر لتشديد النهى، وتقديم الجار والمجرور (لكم) أفاد غرضين بلاغيين:

الأول: من حيث المعنى، وهو قصر عداوة الشيطان على بنى آدم منذ خلق الله آباهم إلى قيام الساعة.

والثانى: توافق رءوس الآيات فى الإيقاع الصوتى هكذا (المجرمون- مبين- مستقيم).

* **(وأن أعبدونى)** عطفتِ هذه الجملة على جملة (لا تعبدوا) لما بين الجملتين من التوسط بين الكمالين؛ لأنهما إنشائيتان لفظا ومعنى.

و(أن) فى (أن أعبدونى) تفسيرية لعهد مضمر فى الكلام أى: وعهدت إليكم أى أعبدون. وهذا من الإيجاز الحذفى البديع.

وتقديم النهى: **(أن لا تعبدوا الشيطان)** على الأمر **(وأن أعبدونى)** من باب تقديم التخلية على التحلية، أو بعبارة أخرى: من باب تقديم (الإفراغ) على (الإملاء)

* **(هذا صراط مستقيم)** المشار إليه هو مجموع الأمرين معا: النهى عن عبادة الشيطان، والأمر بعبادة الرحمن والجمع بين النهى والأمر طباق سلبى مطابق لمقتضى الحال، داخل فى أصل الدلالة - كما ترى - لا مجلوب لحلية لفظ، ولا تحسين معنى.

وإيثار اسم الإشارة الموضوع للمشار إليه القريب لأن المقام يقتضى هذا القرب. فالمتحدث عنه هو الصراط المستقيم، وكمال النعمة قرب الصراط من الذين يبغون السير فيه. وزانه قوله تعالى **(إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم)** فلما ذكرت الهداية اقتضت البلاغة الإشارة إلى مصدرها -وهو القرآن، باسم الإشارة الموضوع للقريب؛ لأن كمال النعمة فى قرب الهادى- وهو القرآن- من المهدى، وهم المؤمنون.

وتنكير (صراط) للتعظيم والتفخيم. وفى وصفه بـ: (مستقيم) إيذان ببلوغه الغاية فى الاعتدال ويسر السير فيه.

* **(ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً)**: استئناف مسوق لتأكيد النهى عن عبادة الشيطان، وللتذكير بما جناه الشيطان من الإضلال والتضليل وصرف أكثر الناس عن عبادة الله الكبير المتعال. والجبل القدر الكثير من العباد.

وتنكير (جبلاً) للتكثير والتنويع، وقد أكد هذا التكثير تأكيداً معنوياً بـ(كثيراً) كما أكد الإضلال بلام التوكيد فى (لقد) ثم بـ(قد) نفسها. ولا نرى ضرورة لحمل اللام فى (لقد) على أنها لام القسم، لأن المقام ليس فى حاجة إلى التوكيد القسمى، لأن مضمونه حقائق عرفها البشر من قبل، أعيد عليهم ذكرها لإقامة الحجة على الكفرة والعصاة.

* **(أفلم تكونوا تعقلون)** جُمِعَ فى هذا الاستفهام بين فعلين مضارعين:

* **(تكونوا)**.

* **(تعقلون)**.

وقد مرَّت نظائر كثيرة له لم يرد فيها إلا فعل مضارع واحد، والذى لاح لنا أن السر البلاغى فى ورود الفعل المضارع الأول **(تكونوا)** أن الحديث -هنا- عن واقعة ماضية فكان لابد فى الدلالة عليها من ورود هذا الفعل منفيا بـ(لم) التى تقلب معنى المضارع إلى المضى. ونظيره قوله تعالى، ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِى أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهاَ، بَلْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٠].

* * *

٨ - ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٦٦].

الدراسة والتحليل:

فى الآيات التى تقدمت -مباشرة- على هذه الآية ذكر الله عز وجل بعض ما يحدث لأهل الشرك من فجائع يوم القيامة فقال:

﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ * اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٣-٦٥].

وفى هذه الآية بداية لما يمكن أن يفعله بهم فى هذه الحياة الدنيا:

* طمس أبصارهم حتى لا يهتدوا إلى شىء.
* مسخهم وتصليبهم فى أماكنهم فلا يستطيعون تقدما ولا تأخرا.

ولكن هذا كله مرهون بمشيئته عز وجل إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل.

والآية موضوع الدراسة أشارت إلى طمس أعْينهم إن تعلقت به لله مشيئة. والمعنى أن الله تعالى قادر على أن ينزل بهم من صنوف العذاب ما يشاء، ولو أراد أن يحملهم حملاً على الإيمان به لكان ذلك. ولكنه ترك ذلك لاختيارهم فإن آمنوا باختيارهم نجوا، وإن ظلوا على كفرهم فسوف يؤمنون يوم يرون عذاب الله. ولكنه إيمان لا ينفع صاحبه لخلوه من الاختيار، وحصوله بالاضطرار يوم لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً.

لأن سنة الله جرت أن لا يتدخل فى صرف إرادة الناس عما يريدونه باختيارهم، لكن من أراد الهداية أعانه وهيأ له أسبابها. ومن أراد الضلال تركه يهيم فى ضلاله. ويوم القيامة يتفرقون: فريق فى الجنة وفريق فى السعير.

ويقرر الله فى هذه الآية أنه لو أراد أن يطمس على أعينهم لفعل، ولو فعل لما أبصر أحدهم موضع قدمه ولأظلمت عليهم الدنيا كظلام قلوبهم وعقولهم، ولو

أرادوا السير فى الطريق ما اهتدوا إليه. وكيف يبصر الأعمى بصراً وقلباً أن يحدد له غاية، أو يخطو فى طريق هو لا يبصره؟

وقد ختمت الآية بهذه الصورة الاستفهامية البديعة (**فأنَّى يبصرون**)؟

وقد عرفنا من قبل أن (أَنَّى) تحمل على واحد من معنيين:

* أن تكون بمعنى (كيف) أى للسؤال عن الحال فى الاستفهام الحقيقى. أو لإنكار الحال فى الاستفهام المجازى.
* أن تكون بمعنى (أين) للسؤال عن المكان فى الاستفهام الحقيقى، أو لإنكار المكان فى الاستفهام المجازى.

والمعنيان محتملان - هنا - فإن كانت بمعنى (كيف) كان المراد من الاستفهام المجازى - هنا - إنكار حال الإبصار كناية - لطيفة - عن إنكار الإبصار نفسه، كما مر بنا هذا مرات.

وإن كانت بمعنى (أين) كان لإنكار مكان الإبصار كناية عن إنكار الإبصار نفسه كذلك.

والخلاصة: أن الاستفهام فى الآية للإنكار والتعجيب والوعيد الشديد من الله عز وجل لمكذبى الرسالة والرسول ﷺ.

أسرار النظم وبلاغياته:

* (**ولو نشاء لطمسنا على أعينهم**) لو حرف امتناع لامتناع، والممتنع -هنا- هو الطمس على أعين مكذبى الرسالة وهذا الامتناع ترتب على امتناع أمر آخر، هو عدم تعلق مشيئة الله عز وجل به، أى بذلك الطمس. والخبر هنا مستعمل فى التهديد؛ لأن امتناع إيقاع الطمس على أعينهم فى الماضى والحال فحسب، لأنَّا لما لم نر طمسا وقع على أعينهم علمنا أن مشيئة الله لم تتعلق به. ولكن قد يكون هذا الطمس بعد الماضى والحال واقعا فى الاستقبال؛ لإنَّا لم نعلم -ولن نعلم- ما فى علم الله إلا بعد وقوعه.

وفى العبارة إيجاز بالحذف. والمحذوف هنا هو مفعول المشيئة.

والتقدير: لو نشاء الطمس على أعينهم لطمسنا على أعينهم والدليل على المحذوف هو جواب (لو).

وإيثار نون (العظمة) فى (نشاء- لطمسنا) للتعظيم والتشديد فى الوعيد والتحذير.

وإيثار تعدية الفعل (طمس) بحرف الجر (على) وهو متعد بنفسه، للإيذان بتهويل ذلك الطمس وتبشيعه بما يفيده الحرف (على) من شدة التمكن والهيمنة على المكان المطموس.

* وفى **(لطمسنا)** استعارة، حيث شبه عمى البصر وفقده بالطمس وهو الغمر أو التغطية الحسية، لتهويل ما يصيبهم من انتقام الله -لو شاء- حتى لكأن آلات البصر فيهم تمسح وتسوى فلا يُرى لها أثر.

* **(فاستبقوا الصراط)** الصراط هو الطريق الذى هو معهود لهم فى حلهم وترحالهم. وتعدية الفعل (فاستبقوا) بنفسه، وهو يتعدى بحرف الجر (إلى) إما لتضمين **(استبقوا)** معنى ابتدروا، وإما على نزع الخافض بتقدير (إلى) المحذوف. هذا ما قاله كثير من المفسرين. ابتدأه الإمام جار الله. وجاراه فيه آخرون.

ولكن الذى لاح لنا أن لحذف (إلى) هنا مغزى بلاغيا بديعا:

هو أن (إلى) لانتهاء الغاية كما يقول النحاة. ولو ذكرت -هنا- لكان فى ذلك إشعار بأن الذين يطمس الله أعينهم ما يزال لديهم بصيص من ضياء يريهم الصراط فيخطون نحوه. ولكن لما حذف الحرف (إلى) انعدمت الغاية عندهم فلم يبصروا الصراط ولكنهم خبطوا خبط عشواء يدورون حول أنفسهم ويركضون بحثا عن الصراط فكيف وأين يبصرونه؟

وهذا ما تؤكده الفاصلة البديعة:

(فأنَّى يبصرون). أليست هذه أسراراً ودقائق تنادى بالإعجاز العظيم؟ فهل من مدكر؟

* * *

٩ - ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ، أَفَلاَ يَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٨].

الدراسة والتحليل:

جاءت هذه الآية بعد هاتين الآيتين:

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلاَ يَرْجِعُونَ﴾.

وقوله تعالى بعدهما: **(ومن نعمره ننكسه فى الخلق أفلا يعقلون)** صورة ثالثة لما يجرى فى الحياة الدنيا بعد صورتى الطمس على الأعين ومسخ الخلقة لو تعلقت لله بهما مشيئة. وترتيب الآيات الثلاث على هذا النسق يرمى إلى معنى يطل علينا من عُرْض الكلام. ذلك المعنى نراه فى أن من يحدث له طمس على عينيه، أو مسخ فى خلقته لا يلبث أن يموت بعد أن يذوق الطمس أو المسخ. ويالهما من سوء عاقبة.

يقوى هذا الفهم أن الآية موضوع الدراسة -هنا- فيها انتقال من الآفات التى يعقبها الموت: الطمس والمسخ، إلى آفة تبقى معها الحياة وتبقى الحياة معها:

(ومن نعمره ننكسه فى الخلق) أى من نبقيه حيا لا نبقيه معافىً من العلل والآفات، فالإنسان يولد ضعيفا، ثم ينمو حتى يصير قوياً، ثم يدب إليه الضعف شيئاً فشيئاً، حتى تغور عيناه، وتخور قواه، ويحدودب ظهره، ويثقل سمعه، ويلتاث لسانه. وتضل ذاكرته، حتى لا يعلم بعد علم شيئاً.

هذه الطوارىء التى تتعاقب فى حياة الخلق، سبقت للدلالة على إمكان الطمس والمسخ اللذين توعَدَّ الله بهما أولياء الشيطان ولكنهما لم يقعا كرما من الله ولعدم تعلق المشيئة الإلهية بهما، وحتى لا يظن أولئك المتوعَّدون استحالة ما توعدهم الله به -لو شاء- لفت أنظارهم لما يرونه من آفات الشيخوخة، وكأنه يقول لهم: من يفعل هذا الذى تحسونه وترونه قادر على أن يوقع بكم الطمس والمسخ، وما هو أشد من الطمس والمسخ. ثم جاءت هذه الصورة الاستفهامية فى فاصلة الآية:

(أفلا يعقلون)؟

وهذا الاستفهام إنكارى تبكيتى. أى: أيشاهدون ذلك فلا يعقلون؟

وهو يتضمن من المعانى الثانية الحث والتحضيض على إعمال العقل لعلهم يرشدون.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(ومن نعمره ننكسه فى الخلق)** شرط وجزاء. وإيثار المضارع **(نعمره)** لمطابقة مقتضى الحال، وهو إبقاء الحياة فى الحال والاستقبال. أى: نتركه حيًّا. وهذا هو الشرط. أما الجزاء فهو (ننكسه) والتنكيس هو التعكيس الذى الأصل فيه جَعْلُ أعلى الشىء أسفله، وجعل أسفله أعلاه. ففى العبارة استعارة تصريحية شبهت فيها هيئة الإنسان (المعمر طويلاً) فى تدهور صحته وضعف قواه الحسية والذهنية بالشئ المنكس أعلاه أسفله وأسفله أعلاه. والجامع بين الطرفين انقلاب الشىء إلى ضده. وفى هذه الاستعارة من التبشيع ما فيها.
* **(أفلا يعقلون)** استخراج العبرة من هذه الأحوال، وهى الأحوال التى تطرأ على حياة الإنسان من ضعف ثم قوة ثم ضعف، والاهتداء بها إلى مكان وقوع الطمس والمسخ. يحتاج إلى فكر واع، وموازنات منظمة. ولا يتأتى هذا إلا للعقلاء الذين يتدبرون الواقع. ولهذا جاءت الفاصلة **(أفلا يعقلون)** وإيثار المضارع مع هذا التركيب الاستفهامى الكثير الورود فى النظم الحكيم، لما فيه -بعد الإنكار- من الحث والترغيب على ما أنكر النظم إهماله والإعراض عنه: ولتوافق فواصل الآيات وهو سمة منهجية فى النظم الحكيم. فاق بها جميع أساليب الكلام.

* * *

١٠ - ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ [يس: ٧١].

الدراسة والتحليل:

توقيف إثر توقيف على ما مَّن الله به على عباده من نعمه التى لا تحصى ولا يحاط بها علما.. فالله سخر ما فى السموات وما فى الأرض لمنافع عباده، يأكل منها المؤمن والكافر، والبار والفاجر، والشاكر والجاحد. والنعم تشكر لا تُكفر. ورأس شكر النعم هو الإيمان الصادق بالمنعم بها وقليل من عباده الشكور.

وخصصت الأنعام هنا، وهى بعض مما أنعم الله به على الخلق، لكثرة منافعها، ولألف الناس بها ووثيق صلتهم بأحوالها.

وقد صدرت الآية بهذا الاستفهام:

(أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما..)؟ وهو استفهام تقريرى يوقِّف الله فيه عباده على تلك النعم العظيمة المنافع، ويردف على هذا التقرير الامتنان والتفضل.

وهذه خلاصة ما يقال فى هذه الصورة الحافل بها نظم القرآن الحكيم.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(أو لم يروا..)** لا نسأم من القول أن هذا التركيب الاستفهامى من يحمله على مذهب الجمهور من تقديم الهمزة من تأخير فإن الاستفهام يحمل على التقرير لما تقدم من أن نفى النفى إثبات.

ومن يُخرِّجه على مذهب الزمخشرى فالاستفهام عليه يكون للإنكار. والمنكر فيه هو المحذوف المقدر وهذا ما صنعه الإمام أبو السعود حيث يقول:

(أو لم يروا..) الهمزة للإنكار والتعجيب، والواو عاطفة على جملة منفية مقدرة.. أى: ألم يتفكروا، أو: ألم يلاحظوا ولم يعلموا علما يقينياً متاخما للمعاينه»[1] وأبو السعود -ومثله الألوسى- أكثر حماسة لتطبيق مذهب الزمخشرى من الزمخشرى نفسه.

(١) تفسير أبى السعود (٧/ ١٨٧).

والذى يلوح لنا فى مثل هذه الصورة تطبيق مذهب الجمهور الذى يكون الاستفهام معه للتقرير، وهذا هو ما يقتضيه المقام؛ لأن الله عز وجل: يقرر عباده بهذه الرؤية، ويرتب على هذا التقرير الامتنان وإيجاب الإيمان به والشكر على إنعامه.

والرؤية -علمية- فى الأظهر، وإن كان بعض معمولاتها مما يرى بالبصر.

* **(أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما، فهم لها مالكون)** توكيد الخبر لأن مضمونه من الحقائق العظيمة، التى يحرص النظم الحكيم على إخراجها فى أساليب فخمة مثلها، ليكافىء الشكلُ المضمون.

و**(مما عملت أيدينا)** تأكيد للتقرير وتفخيم للنعمة الممتن بها. والعبارة تمثيل لخلق الله الكائنات وتشريف لنعمه التى سخرها لعباده. وحمل هذه العبارة على الحقيقة غير سديد حتى عند من أثبت لله ما أثبته لنفسه من الصفات الخبرية. بلا تأويل ولا تكييف. لأن إثبات الأيدى -جمعا- غير إثبات اليدين (معنى) وهو المعهود.

* **(فهم لها مالكون)** تذييل مقرر لمضمون الكلام قبله. وتقديم (هم) على **(لها مالكون)** للاهتمام بالمحدث عنه لا للقصر، ثم لتوافق رؤوس الآيات.

* * *

١١ - ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧٣].

الدراسة والتحليل:

تواصل هذه الآية الحديث عن الأنعام التى وردت فى معرض الامتنان فى الآية السابقة [٧١] وكان وجه الامتنان فيها هو كونها مخلوقة بعناية من الله، وأنها مملوكة للعباد، فجاءت هذه الآية وفصلت -فى إجمال- وجهين آخرين للامتنان، وهما:

* ما فيها من منافع كحرث الأرض والإسباخ واللحوم والحمل عليها وما يستخرج من منتجاتها من أغذية.
* ما فيها من مشارب.

ثم جاءت فاصلة الآية جملة استفهامية: **(أفلا يشكرون)** وهو استفهام إنكارى، وقد تقدمت نظائره مرات عديدات. وقد وضحنا كيفية دلالته على الإنكار على

مذهبى الجمهور والإمام جار الله الزمخشرى، وكان آخر مرة عرضنا فيها له الآية [٣٠] من هذه السورة.

والخلاصة: أن هذا الاستفهام مجازى والمراد منه الإنكار مع الحث على تحصيل المستفهم عنه، وهو - هنا - الشكر، كما كان فى الآية المشار إليها.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(ولهم فيها)** هذه الجملة معطوفة على الجملة التى قبلها، وهى:

﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧٢].

وتقديم الجار والمجرور الأول (لهم) على الجار والمجرور الثانى (فيها) لأن المجرور فى الأول (هم) عائد على العباد، والمجرور فى الثانى (ها) عائد على الأنعام فقُدِّم ما يتصل بهم على ما يتصل بالأنعام لأنهم هم الممتن عليهم، والمقررون بالرؤية.

* **(منافع ومشارب)** تنكير (منافع) و(مشارب) لإفادة غرضين بلاغيين يرمى إليهما سياق الحديث:

الأول: التكثير، أى: منافع ومشارب كثيرة مع التنويع.

والثانى: التعظيم، أى: ذات نفع عظيم.

وكلا هذين الغرضين له اعتبار مقصود فى الإنعام والامتنان وتقديم المسند **(ولهم فيها)** على المسند إليه **(منافع)** وما عطف عليه **(مشارب)** له غرضان بلاغيان كذلك:

الأول: من حيث المعنى، وهو المسارعة بالامتنان عليهم المستفادة من تقديم (لهم)؛ لأن اللام مؤذنة بالتفضل عليهم من أول الأمر.

والثانى: من حيث النظم وتوافق الفواصل على حرف الواو والنون:

(يأكلون- يشكرون- ينصرون).

وإيثار العطف بالفاء دون الواو فى قوله تعالى **(أفلا يشكرون)** للدلالة على معنيين اقتضاهما المقام:

الأول: سببية ما قبل الفاء، وهو الإنعام، فيما بعدها، وهو الشكر على نعم الله وعنايته بعباده.

والثانى: الإيماء إلى إيجاب فورية وقوع الشكر على الأنعام.

* * *

١٢ - ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٧ - ٧٨].

الدراسة والتحليل:

عاد الحديث إلى منكرى البعث، الجاحدين لقدرة الله على كل شىء. وفى تصدى النظم الحكيم لهذه الشبهة التى يثيرها منكرو البعث دائماً، بدأ بتمهيد إلزامى وقَّف فيه الإنسان على مبدأ خلقه القريب، وهو النطفة، لأن هذا المبدأ أظهر مبادىء خلق الإنسان وهذه الرؤيا علمية. ولكن الذين يجحدون كمال قدرة الله يتعامون عنها، وبدلا من أن تقودهم هذه الحقائق إلى الإيمان بالخالق وكمال قدرته والتصديق بوعده ووعيده، فإن منكرى البعث تحولوا إلى خصوم ألداء ثم تشير الآية الثانية إلى جهلهم وجهالتهم المتمثلة فى واحد منهم، وهو أبى بن خلف الجمحى، الذى وقف أمام النبى ﷺ، وقد حمل معه عظاما بالية، وأخذ يفتتها بيده ويذريها فى الهواء، ويقول للنبى ﷺ:

(يا محمد، أترى الله يحيى هذا بعد ما رَمَّ، أى بلى وصار رميما؟ فقال ﷺ: نعم ويبعثك ويدخلك جهنم؟ فنزلت فى شأنه هاتان الآيتان وما بعدهما حتى آخر السورة).

هذا، وقد ورد فى كل من الآيتين موضوع الدراسة صورة استفهام:

والاستفهام الأول: **(أوَ لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة)** اختلفت حوله وجهات نظر الأئمة، هل هو استفهام تقرير أم استفهام إنكار؟

فالإمام الزمخشرى أشار صراحة إلى أنه استفهام تقرير حيث قال:

(قبَّح الله عز وجل إنكارهم البعث تقبيحا لا ترى أعجب منه وأبلغ، وأدل على تمادى كفر الإنسان وإفراطه فى جحوده النعم، وعقوق الأيادى، وتوغله فى الخسة، وتغلغله فى القحة، حيث قرَّره بأن عنصره الذى خلقه منه هو أخس شئ وأمهنه،

وهو النطفة المذرة الخارجة من الإحليل، الذى هو قناة النجاسة)[١].

هذا كلامه، وهو فى جملته دال على أن الاستفهام فى الآية الأولى [٧٧] للتقرير، وقد صرَّح به فى درج الكلام بقوله:

(حيث قرَّره -أى قرر الله الإنسان- بأن عنصره الذى خلقه منه هو أخس شئ وأمهنه).

أما الأئمة أبو السعود والألوسى والطاهر فقد قالوا إنه للإنكار[٢] وسكت عنه الرازى وأبو حيان[٣].

وحمل هذا الاستفهام على الإنكار -كما حملت بعض نظائره من قبل عند هؤلاء الثلاثة- غير سديد، بل هو سهو ظاهر؛ لأن المقام الذى ورد فيه هذا الاستفهام يمنع هذا الحمل منعا قاطعا. فالله عز وجل يقرر الإنسان على علمه بمبدأ خلق الله إياه. ويتخذ من هذا التقرير حجة يلزمه بها، ويقيمها عليه، لأنه كفر بالبعث واستبعده على الله. ولو كان البعث مستبعداً على الله لكان خلقه للإنسان أول مرة أشد استبعاداً وهذا باطل ببديهة النظر، لأن الإنسان الذى قد استبعد على الله إعادة الحياة إلى الموتى. قال هذا الكلام وأعتقد هذا الاعتقاد وهو مخلوق. فلماذا لم ينكر خلق الله له، ويستبعده عليه؟

هذه هى دلالة المقام، فكيف يستقيم لهؤلاء الأئمة أن يقولوا: أن الاستفهام -هنا- للإنكار؟ هل غابت عنهم هذه المعانى الظاهرة ظهور الشمس، وهم من هم علما وذكاءً؟

الواقع أن الذى أوقعهم فى هذا المنزلق هو تخريجهم للاستفهام على مذهب الزمخشرى الذى ذكرناه مرات عديدات فى هذه الدراسة. والزمخشرى لم يقل بوجوب مذهبه فى كل استفهام توسط حرف العطف فيه همزة الاستفهام والمستفهم عنه، وإنما جوَّز ذلك بغير إلزام. وقد رأيناه لا يطبق مذهبه ذاك فى هذه الصورة، ولا

---

(١) الكشاف: (٣/ ٣٣١).

(٢) تفسير أبى السعود: (٧/ ١٨٠)، وروح المعانى: (٢٣/ ٢٥٣)، والتحرير والتنوير: (٢٣/ ٧٤).

(٣) البحر المحيط: (٧/ ٣٤٧)، والتفسير الكبير: (٢٦/ ١٠٨).

فى صور أخرى مثلها قد مضت فالرجل أكثر حيطة من أبى السعود والألوسى والطاهر الذين تحمسوا لمذهب الزمخشرى أكثر من الزمخشرى نفسه والحق الذى ينبغى أن يقال: إن مذهب الزمخشرى إذا ترتب على تطبيقه محظور أو خلل فى المعنى وجب عدم تطبيقه. كما فى هذا الاستفهام.

والخلاصة: أن هذا الاستفهام للتقرير والإفحام والإلزام، والتوبيخ والتسفيه. وليس للإنكار بحال؟

أما الاستفام الثانى **(من يحيى العظام وهى رميم)** فهو استفهام إنكار واستبعاد باتفاق أهل الذكر جميعاً، قائله، أو معتقدوه بنوه على شبهة هى أوهى من بيت العنكبوت. وقد ورددت كثيراً فى الآيات التى سبقت دراستها من قبل. ومن المعانى الثانية التى تردف على الإنكار هنا حسب مقصدهم: السخرية والتعجب، يسخرون ممن يقول ببعث الموتى من قبورهم، ثم يتعجبون منه ومن قوله وكأنه -فى وهمهم- مهبول.

وهذه خلاصة ما قيل أو يقال فى هذا الاستفهام.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(أو لم ير الإنسان..)** الواو استئنافية، والاستئناف مسوق لإنكار إنكارهم البعث، وهذا أولى من جعلها عاطفة على جملة **(أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما..)** كما ذهب الإمام الطاهر، وذلك للأسباب الآتية:

أولاً: طول الفصل بين الجملتين.

ثانياً: اختلاف موضوعيهما.

والألف واللام فى (الإنسان) للعهد الذهنى لأن الذى ذهب إلى رسول الله ﷺ وأنكر البعث كان معروفا لدى أصحاب رسول الله ﷺ.

والرؤيا علمية، وإيثار المضارع لأن أدلة الرؤيا قائمة لا يختص بها وقت دون وقت آخر.

* **(أَنَّا خلقناه من نطفة)** معمول الرؤيا، وتوكيد الخبر بـ(أن) - واسمية الجملة - وتكرار الإسناد فى **(خلقناه)** لأن مضمون الخبر حقيقة عظيمة، ومن حق الحقائق العظيمة أن تصاغ فى أسلوب فخم عظيم مثلها.

ولا بأس أن يضاف إلى هذا السبب الخاص بالكلام ومعناه فى نفسه، إزالة أو مواجهة إنكار المنكر لهذه الحقيقة، وهى كيفية خلق الله الإنسان ومبدأ خلقه.

و**(من)** إما بيانية، أو لابتداء الغاية أولهما معاً. إذ لا مانع من اجتماعهما إذا دل على ذلك مقام القول. وتنكير **(نطفة)** للتحقير.

ونون العظمة فى **(أنَّا)** و(خلقناه) لتفخيم المعنى المقرر به وزيادة توكيده.

* **(فإذا هو خصيم مبين)** الفاء لسرعة الانقلاب إلى كفر النعمة، وجحودها، وقد أكد هذا المعنى بـ(إذا) الفجائية، والمفاجأة باعتبار حال المخاطبين، لا حال المتكلم، الذى هو الله. وفى هذا تهويل وتبْشيع لسوء سلوك الجاحدين المعاندين. الذين يضعون أنفسهم -جهلا وجهالة- أمام الله الخالق المصور الرازق الرءوف الرحيم موضع الندية والخصومة الفاجرة، التى لا يخفى قبحها عمن له سمع أو بصر.

* **(وضرب لنا مثلاً)** الواو للاستئناف، والجملة بعدها مستأنفة والاستئناف مسوق لبيان تمادى -هذا الإنسان- فى كفره وتجرؤه على صانعه ومحييه ورازقه.

وفى **(ضرب)** استعارة تصريحية لذكر أو ساق. وسرها العناية بأحكام الكلام المجعول مثلاً، حتى لكأن له تأثير الضرب فى المضروب فى دقة الإصابة، وشدة التأثير.

وتقديم الجار والمجرور **(لنا)** على **(مثلاً)** للمسارعة إلى تسجيل قبح كفر هذا الإنسان، وكون أن الله هو المقصود بهذه الجرأة والوقاحة لا غيره من أول الأمر، أى: ضرب لنا مثلاً لا لغيرنا.

وتنكير (مثلاً) للتهويل والتبشيع.

* **(ونسى خلقه)** جملة معترضة بين التفسير (قال...) والمفسر (مثلاً) والأصل:

(ضرب لنا مثلاً.. قال من يحيى العظام وهى رميم) فجىء بالجملة المعترضة إشارة إلى غفلة ضارب المثل وشدة غبائه. وأنه نسى خلق الله له من العدم.

* **(قال: من يحيى العظام وهى رميم)** كناية عن إنكار البعث بعد الموت.

لأن الاستفـهام عن فاعل شئ معناه أن ذلك الفاعل ليس له وجـود، وعدم وجود الفاعل يستلزم عدم وجود الفعل وهذا من الكنايات التى وسمناها من قبل بأنها لطيفة لدقة مأخذها.

وفى (العظام) كناية عن الإنسـان، أو مجاز مرسل عـلاقته الجـزئية والألف واللام فيها إما لتعريف الجنس، أو العهد، يعنى العظام التى فتتها بيده.

وجملة **(وهى رميم)** حاليـة، وهى محط الإنكار أو من كمـال محط الإنكار ولم يقل (رميمة) بل (رمـيم) مذكرا. لأن المراد أن العظام تحولت لطول مفارقـة الحياة لها عن طبيعتها وصارت (شئ رميم).

* * *

١٣ - ﴿أَوَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَـادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ، بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١].

الدراسة والتحليل:

شبهـات منكرى البعث ذكرت فى النظم القرآنى الحكيم مرات وتصـدى لها القرآن مرات. وقد صيغت شبـهتهم صياغات تعبيرية مختلـفة كلها تدور حول معنى واحد، كما صيغت مواجهات القرآن لها صياغات متفاوته فى الألفاظ والتراكيب ولكنها تتآزر لتأدية معنى واحد هو إبطال تلك الشبهات التى تذرَّع بها منكرو البعث.

وفيـما تقدم من هذه الدراسة وقـفنا مرات أمام تلك الشـبهات كـما حكاها النظم الأمين عنهم، وأمام تصديات القرآن لها، موضعاً، موضعًا.

وكنا قد لخصنا فى موضع سابق ما أسفـرت عنه مواجهات القرآن لدحض شبهات منكرى البعث فى الحقيقتين الآتيتين:

أن مواجهات القرآن لأوهام منكرى البعث أثبتت:

أولاً: أن البعث من حيث الحكم العقلى ممكن عقلاً، وليس مستحيلاً.

ثانياً: أن البعث من حيث الحكم الشرعى واجب الوقوع لورود الأخبار الصحيحة الصادقة بوقوعه فى لسان الشرع: كتابا وسنة.

هذا ما ذكرناه من قبل، ومعلوم أن منكرى البعث كانوا قد أنكروه من جهة العقل. وجزموا بأنه مستحيل عقلاً وبهذا بلغ القرآن قمة الانتصار عليهم من جهة العقل بعد أن بوَّر أدلتهم بحكم العقل نفسه، والعقل كان هو السلاح الذى شهروه فى وجه الدعوة لإبطال أصل من أرسخ أصول الإيمان، وهو الحياة الآخرة.

أما من حيث حكم الشرع فإن القرآن بعد أن بوَّر حججهم طالبهم بالإيمان بحكم الشرع، وهو: أن البعث واجب لا محالة. فإن يؤمنوا فقد اهتدوا ونجوا، وإن ظلوا على كفرهم فقد قامت عليهم الحجة، وما ظلمهم الله ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم.

وما فى سورة (يس) هذه من مواجهة منكرى البعث مثل ما تقدم فى سورة (الإسراء) من شدة العناية فى المواجهة، وتدمير شبهات المنكرين بحكم العقل نفسه الذى توهموا أن البعث من جهته مستحيل. وكانت هذه الآية -موضوع الدراسة- واحدة من عدة آيات اختتم الله بها سورة (يس) نزلت لتنسف شبهات المنكرين نسفا، وهى:

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنشَأهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ* الَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ* أَوَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم، بَلَى وَهُوَ الخَلاَّقُ العَلِيمُ* إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ* فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٧٩- ٨٣].

لقد دحض القرآن الحكيم هذه الشبهات بما ذكره فى الآية الأولى: (**قل يحييها الذى أنشأها أول مرة..**) والقانون الذى واجه القرآن به شبهاتهم فى هذه الآية من أبده الأشياء وأحسمها، تشترك جميع العقول فى سلامته وقوته والتسليم به:

فإذا كان (أ) مثلاً قد أوجد (ب) من العدم.. فإنه قادر - عقلاً - على إعادة إيجاده مرة أخرى إذا حدث له زوال.

هذا هو حكم العقل، وهذا هو الذى رد به القرآن عليهم فى الآية الأولى:

(قل يحييها الذى أنْشأها أول مرة..).

وضارب المثل لو رجع إلى نفسه - وقد خلقه الله ولم يك شيئًا، لما أنكر على الله أن يعيده بعد الموت مرة أخرى فماذا يبقى بعد ذلك من أوهام يتمسك بها منكرو البعث على إنكاره؟

لا شئ: إلا الجهالة والجهل واتباع الشيطان.

أما الدلائل الأخرى فى بقية الآيات فقد أكدت إنكار الإنكار:

فالله بكل خلق عليم. والله الذى أخرج من الخضرة ناراً.

والله الذى خلق السموات والأرض. والله الذى يقول للشئ كن فيكون.

والله الذى بيده مقاليد كل شئ.

الله - صاحب هذه الصفات العظيمة - يعجز عن خلق الناس ثانية بعد أن خلقهم أولاً ولم يْعىَ بخلقهم.

كلا.. إنه على كل شئ قدير. يخلق ما يشاء كيف يشاء ومتى يشاء. وهو الخلاق العليم. ولكن الذين كفروا بربهم يعدلون.

وهذا الاستفهام: (**أو ليس الذى خلق السموات والأرض..**) استفهام تقرير قطعاً. ولا يعتد بقول من يقول إنه لغير التقرير. ويردف على هذا المعنى معان ثانية منها تكذيب منكرى البعث ورميهم بالحماقة والسفه.

وهذه خلاصة ما يقال فى هذا الاستفهام.

أسرار النظم وبلاغياته:

* (**أو ليس..**) الهمزة مقدمة من تأخير، والواو للعطف والمعطوف عليه - فيما يلوح لنا - هو: (**الذى جعل لكم**) عطف برهان على برهان.
* (**الذى خلق السموات والأرض**) إيثار الموصول (الذى) وصلته (**خلق السموات**

والأرض) على الاسم العلم: **(الله)** لما فى الصلة من قوة الدلالة على وقوع البعث ويسره على الله. لأن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس وتقديم السموات على الأرض لأن آثار قدرة الله فيها أعجب.

* **(بقادر على أن يخلق مثلهم؟ بلى)** دخول الباء على خبر ليس لتوكيد صلة الخبر (قادر) بالاسم (الذى) والمقام يقتضى هذا التوكيد.

وفى **(يخلق مثلهم)** كناية عن الإعادة بعد الموت.

و(بلى) جواب الاستفهام المجازى التقريرى: (أوَ ليس) وإنما ذُكر جوابه -والأصل عدم الذكر- لما تقدم من أن القرآن يذكر جواب الاستفهام المجازى إذا كان حقيقة معينة. وليس للخيال صلة فى تصور هذا الجواب ولا فى تصويره.

* **(وهو الخلاق العليم)** تذييل مقرر لمضمون الكلام قبله. ودلالة الجملة الاسمية فيه هى الثبوت والدوام.

* * *

سورة الصافات

١ - ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا، إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١].

الدراسة والتحليل :

سورة الصافات مكية النزول، وترتيبها فى النزول السادسة والخمسون نزلت بعد الأنعام وقبل لقمان. وموضوعاتها هى موضوعات القرآن قبل الهجرة من الانتصار لعقيدة التوحيد والبعث، وقصص الرسل والنعى على المشركين.

وتتميز سورة الصافات بقصر الآيات والايقاع السريع، كأن آياتها بروق تلمع فى الظلام، وبعض آياتها مكون من جملة واحدة **(أفلا تذكرون)**.

وأول آية ورد فيها استفهام فى هذه السورة هى الآية موضوع الدراسة، وفيها يأمر الله رسوله ﷺ أن يسأل المشركين أهم أشد وأصعب خلقا من السماء؟ أم السماء هى الأشد؟

ثم بيَّن مبدأ خلق الناس، وهو الطين اللاصق المختلط بالماء.

وقد ورد فى هذه الآية صورتا استفهام، هما:

* **﴿أهم أشد خلقا﴾؟ ﴿أم من خلقنا﴾؟**

والاستفهام - بصورتيه - مجازى، والمراد منه التقرير بيسر خلقهم مقارنا بخلق الكائنات الأخرى، وفى مقدمتها السموات والأرض؛ لأن خلق السموات والأرض أعظم وأعجب من خلق الناس، وحمل الاستفهام - هنا - على التقرير موضع اتفاق بين الأئمة. وقد جوَّز بعضهم فيه الإنكار.

والخلاصة: أن هذا الاستفهام للتقرير، و﴿أم﴾ فيه متصلة والمعنى أى الأمرين أشد خلقا؟ والجواب يكون بتعيين أحد الأمرين.

أسرار النظم وبلاغياته :

* ﴿**فاستفتهم**﴾ الاستفتاء استعارة للسؤال: والأصل فاسألهم، وأصل الاستفتاء هو طلب المعرفة ممن يختص بها فهو أخص من مطلق السؤال. والسر فى استعارة الاستفتاء للسؤال - فيما لاح لنا - التعريض بالمخاطبين، بأن خلقهم أيسر وأطوع من خلق غيرهم من الكائنات العلوية والسفلية أمر لا ينازع فيه أحد، وأنهم - هم - محيطون به علما حتى صاروا أهلا لأن يستفتيهم الناس فيه. ومادام الأمر كذلك فليس لهم فى إنكار البعث شبهة يتمسكون بها.

﴿**أهم أشد خلقا أم من خلقنا**﴾؟ تفصيل بعد إجمال. الإجمال فى ﴿**فاستفتهم**﴾ والتفصيل فى ﴿**أهم أشد خلقا أم من خلقنا**﴾؟

والتعبير عنهم بالضمائر فى (**استفتهم - أهم**) ولم يتقدم لهم ذكر، لأن حضورهم فى الذهن، واشتهارهم بإنكار البعث سد مسد الذكر اللفظى فى صحة عودة الضمير عليهم.

وإيلاء ضميرهم همزة الاستفهام (**أهم**) لأنه محط الإنكار(١).

وفى ﴿**أم من خلقنا**﴾ كناية عن كل ما عدا المتحدث عنهم من أجرام علوية وسفلية وما بينهما. وفى العبارة إيجاز بالحذف، والتقدير:

أهم أشد خلقا أم من خلقناهم من الملائكة، والشياطين والسموات والأرض أشد خلقا من خلقهم. وفى التعبير بـ (من) تغليب للعقلاء على غير العقلاء.

﴿**إنَّا خلقناهم من طين لازب**﴾ لم يذكر فى النظم جواب الاستفهام، ليُعملوا فكرهم، ويصلوا إليه بأنفسهم فيتمكن فيها كل تمكن:

ثم: إما أن يؤمنوا ويهتدوا، وقد ظهر لهم الحق. وإما أن يظلوا على عنادهم فتقوم عليهم لله الحجة. وجملة: (**إنا خلقناهم**) تلويح إلى جواب الاستفهام بذكر مبدأ خلق الإنسان.

---

(١) تقدم فى الخلاصة أن الاستفهام للتقرير. وقلنا - هنا - أن (هم) محط الإنكار. وتوضيح ذلك أن هذا الاستفهام مكون من طرفين، الأول: (أهم أشد خلقًا) وهذا معناه الإنكار، أى هم ليسوا أشد خلقًا. والثانى وهو (أم من خلقنا) للتقرير. ومجموع الأمرين لتقرير المخاطبين بهذه الحقيقة.

وهى استئناف مقرر لمضمون الكلام قبله من يسر خلق الناس مقارنا بخلق الكائنات الأخرى وتوكيد الخبـر فيها لإن مضمونه حقيقـة عظيمة، وبلاغة النظم الحكيم تصوغ هذه الحقائق العظيمة فى أساليب فخمة مثل معانيها.

وتنكير (طين) للتحقير والمهانة.

* * *

٢ - ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ﴾ [الصافات: ١٦ - ١٧].

الدراسة والتحليل:

هذا تكرار لشبهـات إنكار البعث، دأب مشركـو مكة، على ترديدها بكثرة، فكان النظم القـرآنى الأمـين يسـجل كل ما لـغطوا به حول هـذه الظاهرة، فمـرات كـانوا يُقصرون الحديث على أنفسهم، وأخرى كـانوا يقرنون معهم آباءهم. وما ذكر فى هذه السورة من هذا القبيل.

وعمدة ما استندوا إليه فى كل ما أعلنوه عن البـعث، هو استحالة عودة الحياة إلى أجساد بليت فصارت ترابا وعظاما. وقد ورد فى هاتين الآيتين هذان الاستفهامان:

* **﴿أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئِنا لمبعوثون﴾**؟
* **﴿أوأباؤنا الأولون﴾**؟

والاستفـهام فى الأية الأولى تقدمت دراسته كـثيرا فى هذه الدراسة وهو استـفهام إنكارى باتفاق الأئمة، والإنكار حاصل بالاسـتفهام الأول **﴿أئذا ..﴾** أما الثانى فهو توكيد للأول كما تقدم مرات. والمعنى: أوقت نموت ونبلى نبعث من جديد؟

وليس المراد البـعث وقت يموتون. بل إن هذا الوقت - حـسب زعمـهم هو بداية النهاية التى تبدأ معها استحالة العودة إلى الحياة.

وقد قلنا من قبل إن هذا الإنكار حـاصل بالاستفهام الأول ولو لم يعـد مرة أخرى فى **(أئِنا)**.

أما توكيد الخبر فى **﴿أئِنَّا لمبعوثون﴾** فليس لتوكيد الإنكار كما قال الإمام أبو السعود

من قــبل - وآخرون - بل هو لإنكار المؤكـد وقد وضــحنا هذا من قبل مــرات. بأن قصدهم أن ينكروا الإخــبار المؤكد على لسان الشرع. لأن الشرع تواترت فــيه الأخبار بحتمــية البعث. فجاءوا هم وأنكروا ذلك البــعث فى صورته المؤكدة التى وردت على لسان الشرع.

والفرق كــبير بين: تأكــيد الإنكار الذى لم نرتضه، وبين إنــكار المؤكد الذى ذهبنا إليه، ونحن مطمئنون كل الاطمئنان لصحته.

أما الاســتفهــام الثانى، وهو: **﴿أو أباؤنــا الأولون﴾ فهــو معطوف على الاستفــهام** الأول. والمراد أنهم ينكرون بعث أنفسهم وبعث أبائهم الأقدمين.

والخلاصة: أن الاستفهام فى الأية الأولى [١٦] للإنكار والاستبعاد. وأن الاستفهام فى عجز الأية تــوكيد للأول[١] وأن الاســتفــهــام الثانى فى الآية [١٧] مــعطوف على الأول وحكمه، حكمه وهو الإنكار.

أسرار النظم وبلاغياته :

* **﴿أئذا متنا وكنــا ترابا وعظاما﴾** فى هذه العبارة شــبهتان اتخذهمــا منكرو البعث أدلة على إنكاره، وهما:

* الموت من حيث هو موت.

* صيرورة الموتى ترابا وعظاما.

يعنى أن استحالة العودة إلى الحيــاة تبدأ من وقت أن يحل الموت، وتستمر إلى أبد الآبدين على زعمهم.

ولهذا وليت (إذا) همــزة الإنكار، باعتبار أن الــوقت المدلول عليه بـ (إذا) هو بداية مراحل استحالة الإحياء. وليس قصدهم إنكار الإحياء ساعة يموتون بدليل قولهم.

﴿وكنا ترابا وعظاما﴾ وهذا لا يكون وقت يموتون بل بعد الموت بتراخٍ مناسب.

---

(١) أرجو أن لا يخــتلط علينا الأمر بين تأكــيد الإنكار وإنكار المؤكــد فالهمــزة فى (أءنا) لتأكــيد الإنكار المفهوم من الاستــفهام الأول وهو (أئذا) أما توكيد الخــبر بـ: إن واسمية الجملة،ولام التوكــيد فهو: إنكار المؤكد.

وتقديم **(ترابا)** على **(عظاما)** لأن مدخلية التراب فى إنكار البعث أقوى - عندهم - من مدخلية الصيرورة إلى العظام.

* **﴿أئنَّا لمبعوثون﴾** تكرار همزة الاستفهام - هنا - لتأكيد الإنكار المستفاد من الهمزة الأولى فى **﴿أئذا﴾** وهذا ما أسميناه فى الدراسة بـ (تأكيد الإنكار) أما توكيد الخبر بـ: إن + إسمية الجملة + لام التوكيد فى **﴿لمبعوثون﴾** مع إسمية الخبر **﴿مبعوثون﴾** فهذا ما أسميناه من قبل بأنه لـ (إنكار المؤكد، وإن شئت فقل هو: المنكر المؤكد).

* **﴿أو آباؤنا الأولون﴾** الهمزة مقدمة من تأخير والواو للعطف والمعطوف عليه ما قبلها. و**(الأولون)** كناية عن أجدادهم الأقدمين لأنهم أكثر فناءً وبلى، وفى العبارة إيجاز بالحذف، والتقدير:

وآباؤنا الأولون بعد موتهم وصيرورتهم ترابا وعظاما مبعوثون كذلك.

* * *

٣ - ﴿مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات: ٢٥].

الدراسة والتحليل:

معنى هذه الآية يتوقف على ما قبلها من آيات، وهى: ﴿أُحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * من دُونِ **الله** فَاهْدُوهُم إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ * وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَّسْئُولُونَ * مَالَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ﴾ وهذه الآيات تقص مشهدًا من مشاهد القيامة التى تتصل بالمشركين وأصنامهم. وهذا الأمر: **(أحشروا)** يصدر من **الله** للملائكة يجمع الذين ظلموا أنفسهم هم وأزواجهم المشاركات لهم فى هذه العقيدة، وهى عبادة غير **الله** عز وجل.

وبعد جمعهم يصدر أمر آخر هو: **﴿قفوهم﴾** ولماذا: **﴿إنهم مسئولون﴾** سؤال خزى وتحسير. والسؤال الذى سيوجه إليهم هو:

﴿ما لكم لا تناصرون﴾ فقد كانت العلاقة بينهم فى الحياة الدنيا علاقة عابد بمعبود، وهى علاقة حميمة من ثمارها التناصر والتعاون، ولكنهم لم يتناصروا ولم يتعاونوا

وظهر للمشركين أنهم كانوا خاطئين فخسروا الدنيا، لأنها ولَّتْ ولن تعود.

وخسروا الآخرة؛ لأن مصيرهم إلى جهنم وبئس القرار وهذا الاستفهام:

﴿ما لكم لا تناصرون﴾ استفهام تقرير لهم بحالة واقعة هى عدم التناصر، وما يترتب عليه من قطيعة وتبكيت وتنديم.. هذه خلاصة لأقوال أهل العلم فيه وإن اختلفت بعض العبارات.

أسرار النظم وبلاغياته :

* **(ما لكم..)** سبق لنا مرات أن هذه الصيغة الاستفهامية، المكونة من:

* ما الاستفهامية. * حرف الجر (اللام).

* الضمير المجرور به، سواء كان للمتكلم «مالى» أو للمخاطب: «ما لك» أو للغائب: «ما له» وسواء كان الضمير المجرور باللام مفردًا أو مثنى، أو جمعا هذه الصيغة تستعمل فى السؤال أو الاستفهام عن السبب حقيقة أو مجازًا. وأن المراد منها إذا كان الاستفهام مجازيا هو إنكار السبب أو نفيه توصلا وتوطئة لإنكار المسبب بطريق الكناية التى وصفناها بأنها لطيفة لدقة مأخذها، ولطف مسلكها.

أما هنا فقد خالفنا ما سبق من جعل الاستفهام فى هذه الصيغة للتقرير، وليس للإنكار، فهى فيها إنكار فعلا، لكن المُنكَر له وجود عند المتكلم، وهو الله عز وجل، أو الملائكة. لكن الإنكار - هنا - صورى المقصود منه تقرير المخاطب، وهم المشركون، به، واعترافهم بأن عدم تناصرهم هم وأصنامهم، هو عجزهم جميعا عن التناصر والتعاون، لذلك لم نلق بالاً للإنكار، وقلنا إن الاستفهام للتقرير وما قد يترتب عليه من تحسير وتوبيخ وإلزام بفساد عقيدتهم فى معبوديهم من دون الله.

* **(لا تناصرون)** موضوع الاستفهام. أى ما سبب ترك بعضكم نصرة بعض. وهذا من أقوى أساليب الحجاج وأبلغها وأشدها أثرا فى نفوس المخاطبين أو الخصوم. لأن المستفهم عنه واقع، وهو التخاذل والسبب الحامل عليه معلوم عند المتكلم والمخاطب، لكن المتكلم أخرج الكلام مُخْرج غير العالم بالمستفهم عنه، وهو فى الواقع عالم به، والمخاطب يعلم أن المستفهم عالم بما استفهم عنه.

فإذا رجعوا إلى أنفسهم برز فيها المستفهم عنه وأوقعهم فى شر أعمالهم. ووجدوا أنفسهم بين أمرين أحلاهما مر إن كان فيهما حلو وأحلى.

فإما إن يجيبوا السائل ولا مناص لهم من الاعتراف بأن سبب تخاذلهم هو العجز عن التناصر.

وإن كتموا كتموا على جمر جهنم، وقامت لله الحجة عليهم، وقد أشار قوله تعالى عقب هذه الآية:

﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾

إلى أنهم لم يذكروا جوابا، وأن المستفهم ليس فى حاجة إلى جواب، لأنه ما أراد إلا تبكيتهم. وقد كان، وعلم الذين ظلموا أى منقلب انقلبوا فيه.

* * *

٤ - ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ [الصافات: ٣٦].

الدراسة والتحليل :

وهذه الآية يرتبط معناها بما قبلها. وما قبلها كان حديثا عن العابدين والمعبودين من دون الله، ومنهم الضعفاء الذين أضلهم سادتهم وكبراؤهم، كل منهم يحاول جهده أن يلقى بالتبعة على الآخر، وبعد ما دار بين الفريقين من تبادل الاتهامات حسم الله الأمر فقال:

﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٣ - ٣٦] فالآية [٣٦] تصور جريمة لهم من أقبح الجرائم، وهى الكفر بالله، ورمى رسوله الكريم بالجنون والشعر. وهذه الجريمة عُطفت على نفورهم من كلمة التوحيد حين تتلى عليهم، واستعلائهم على الإيمان بالله عز وجل. ووحيه الأمين ورسوله الكريم.

وفى الآية موضوع الدراسة ورد هذا الاستفهام. ﴿. . **أئنا لتاركو آلهتنا** . . ﴾.

وقد أغفل الأئمة، بيان المراد من هذا الاستفهام. وهو استفهام إنكار واستبعاد

وتعجب من حالهم إن تركوا آلهتهم. وهذه خلاصة ما يقال فى هذا الاستفهام الذى أرادوا منه تثبيت أنفسهم على عبادة أصنامهم، وإصرارهم على الكفر بالله ورسوله وما أنزل الله عليه من آيات بينات تقرع أسماعهم صباح مساء.

أسرارُ النظم وبلاغياته :

* **(ويقولون)** الواو لعطف هذه الجملة **(يقولون)** على ما قبلها، **(يستكبرون)** أى: يستكبرون ويقولون وإيثار المضارع (يقولون) إشارة إلى صدور هذا القول منهم مرات كلما دُعُوا إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام **﴿أئنا لتاركوا آلهتنا﴾** استفهام إنكار: إنكار وقوع تركهم آلهتهم فى أى حال وفى أى وقت. يعنى: لا يكون ذلك منهم أبدًا.

وقد عدلوا عن الفعل: أنترك. كما عدلوا عن الخبر المرسل إلى الخبر المؤكد بـ: أن + لام التوكيد، ثم باسم الفاعل **(تاركو)** ولم نر أحدا من الأئمة، أشار إلى هذا أبدًا ولابد لهذا العدول من معنى بلاغى قصدوه هم قصدًا فأخرجوا هذا الخبر مخرج التفخيم والتوثيق.

والذى لاح لنا أنهم لم يقولوا: أنترك آلهتنا، بل قالوا: أئنا لتاركو آلهتنا للإعلام بإصرارهم على عبادة أصنامهم. فالتوكيد الذى بنوا عليه عبارتهم لتأكيد الإنكار، وأنهم مستمرون على تقديسهم أصنامهم مهما ألح عليهم الدعاة بالإقلاع عنها.

* **﴿لشاعر مجنون﴾** اللام بمعنى (من أجل) ومدخولها محذوف تقديره لقول شاعر مجنون. وتنكير : (شاعر) و(مجنون) للتحقير والتهكم حسب زعمهم، والعدول عن الموصوف (محمد) ﷺ. إلى الوصف **(شاعر مجنون)** لأن الوصف - حسب زعمهم - هو محط الإنكار. ولو ذكروا الاسم العلم لفات غرضهم من الإنكار.

* * *

٥ - ﴿يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُّطَّلِعُونَ ﴾ [الصافات: ٥٢ - ٥٤].

الدراسة والتحليل :

الآيات الثلاث - موضوع الدراسة - طرف من حوار سيجرى فى الحياة الآخرة فى الجنة بين فريق من المؤمنين، الذين منَّ الله عليهم فى الدنيا بالهداية، وفى الآخرة بالنعيم المقيم. واحد من هذا الفريق يتذكر بعضا من أحداث الحياة الدنيا وثب إلى ذهنه مقولة قرين (صديق) له فى الدنيا. قال له مرة:

هل أنت مصدق بما يقوله محمد ﷺ أننا بعد أن نموت وتبلى أجسادنا نبعث من القبور ونَدان بما نعمل فى هذه الدنيا. ينكر عليه أن يكون مصدقا بهذا القول وينكر أن تكون بعد الموت حياة؟

وبينما هو يقص هذه الواقعة يرى قرينه يتلظى فى نار جهنم. فيقول المؤمن لأصحابه: هل أنتم ترون مثل ما أرى لأنه رآه - كما تقدم يتلظى فى نار جهنم:

﴿ فاطلع فرآه فى سواء الجحيم ﴾ [الصافات: ٥٥].

وقد ورد فى هذه الآيات ثلاثة استفهامات، الأول والثانى مجازيان وهما:

* **(أئنك لمن المصدقين)؟ (أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون)**[1]؟

والثالث حقيقى وهو : **(هل أنتم مطلعون)؟**

والاستفهام الأول إنكارى. ينكر عليه قرينه فيه أن يكون من المصدقين بالبعث. وهو إنكار للواقع فعلا أما الثانى - بصورتيه، فهو لإنكار الوقوع، يعنى أن البعث غير واقع الآن، وأنه لن يقع فى أى وقت فى المستقبل.

وقد مرَّتْ لهذا الاستفهام نظائر من قبل، وبينا فيها أن الاستفهامين فى قوة الاستفهام الواحد؛ لأن الثانى **﴿أئنا لمدينون﴾** توكيد للأول: **﴿أئذا متنا﴾** وهذه خلاصة ما يقال فى هذه الاستفهامات.

---

(١) هما استفهامان فى قوة الاستفهام الواحد كما مرَّ فى نظائره قبلا.

أسرار النظم وبلاغياته :

* (**يقول**) إيثار المضارع للـدلالة على أن هذا القول كان دأب القرين يردده مـرات بغية زعزعة إيمان صاحبه.

* ﴿**أئنك لمن المصـدقين**﴾ لم يقل: أأنـت مـصـــدق. . وإنما عـدل إلـى ﴿**أئنك لمن المصدقين**﴾؟ مصوراً إيمان صديقه فى صورة المؤكد المجزوم به ليسلط عليه الإنكار كما هو عند صاحبه، وكأنـه يلوِّح له أن أقصى ما يتوقع فى البعث - إذا لم يُكْفُر به أن يشَكَّ فيه ويُرتاب، وقد حكى الله عنهم هذا القول فى قوله تعالى:

﴿**وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندرى ما الساعة، إن نظن إلا ظنا، وما نحن بمستيقنين**﴾ [الجاثية: ٣٢].

وإيثار التصـديق على الإيمان فى قوله: ﴿**لمن المصدقين**﴾ ولـم يقل: لمن المـؤمنين. للإعلام بكراهيته للإيمان اعتقادا ولفظا.

وقوله ﴿**لمن المصدقين**﴾ بدلاً من (**مصدق**) توكيد لإنكار أن يكون أصحابه ممن عرفوا بالتصديق بالبعث ورسخ ذلك الاعتقاد فيهم.

* (**لمدينون**) تفنن منكرو البعث فى عبـارات إنكاره. فمرة يقولون: (**لمخرجون**) ومرة: (**لمبعوثون**) ومرة (**أخرج حيا**) وهنا قيل: (**لمدينون**) وهو كناية عن البعث لأن الإدانة تستلزم الإِحياء بعد الموت.

أو مجاز مرسل بإطلاق المسبب (الإدانة) وإرادة السبب، وهو الاحياء بعد الإماتة.

* ﴿**قال: هل أنتم مـطلعون**﴾ فصل هذه الجـملة عمـا قبلهـا لا نخاله إلا للاسـتئناف البيانى، ولكن فى شىء من الطرافة فبعد أن قص المؤمن هذه الواقعة على أصحابه فى الجنة فإن أذهانهم تترقب منه أن يقص عليهم ماذا كان قد قال لقرينه الذى زين له الكفر ورغبه فـيه، فجاءت جملة (قال) مؤذنة بالجـواب، لكن على غير الوجه الذى تطلعت إليـه نفوس أصـحابه، حـيث عُدِل فى الخطاب عن قـوله لصاحـبه الزنديق فى الحيـاة الدنيا إلى لفت أبصـارهم إلى ما عليه ذلك القـرين من العذاب وسوء الحال. وهذا هو وجه الطرافة فى هذا الاستئناف.

وإيثار (هل) من بين أدوات الاستفهام لتحقق رغبته فى اطلاعهم على ما عليه قرينه الكافر من التقلب فى أتون الجحيم. وما حل به من سوء العاقبة.

* * *

٦ - ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴾ [الصافات: ٥٨].

الدراسة والتحليل:

بعد أن اطَّلع المؤمن، وهو فى الجنة، على من كان قرينا له فى الدنيا، وهو فى النار، أخذ المؤمن يخاطبه. وهذه الآية جزء من الخطاب، وهو مسوق على النسق الآتى.

﴿ قَالَ تَا اللهِ إِنْ كِدتَّ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلاَ نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ * أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [الصافات: ٥٦ - ٥٩].

ويبدو أن الكافر بالبعث كان كثير الإلحاح على صاحبه المؤمن فى التشكيك، حتى لقد كاد يُردى صاحبه، لولا أن وقاه الله من الردى.

ثم أخذ المؤمن يوبخ الكافر، وقد استقر أهل الجنة فى الجنة، واستقر أهل النار فى النار، وأخذ يذكره بمساوئ اعتقاده الذى أرداه، وجعله من أهل النار، وقد ورد فى هذه الآية هذا الاستفهام **(أفما نحن بميتين)**؟

وبعد هذا - مباشرة - ورد قوله تعالى: **(إلا موتتنا الأولى، وما نحن بمعذبين)**

والآيتان من مقول قائل واحد. وحين تعرض الأئمة لبيان المراد من هاتين الآيتين اضطربت آراؤهم ولم يصلوا إلى ما يقنع القارئ. مع أنهم أحسوا أن فى الكلام مشكلة. وهى مشكلة حقا، لكن معالجتهم لهذه المشكلة، كانت بمثابة مشكلة أخرى. ولكى يشترك معنا القراء فى تصور هاتين المشكلتين نقدم التمهيد الآتى:

أولا: المشكلة التى فى النظم: وحاصلها أن هذه الآيات تتحدث عن مشهد من مشاهد الآخرة بعد القضاء فى شئون العباد. والكلام المحكى - هنا - محكى عن لسان رجل من أهل الجنة يخاطب رجلا من أهل النار كانت تربطه به صلة فى الحياة الدنيا ثم التفت من الخطاب إلى التكلم فيما حكاه عنه القرآن الآمين حيث قال:

(**أفما نحن بميتين * إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين**) وهذا يصلح أن يكون امتداداً لحديثه مع الكافر ويصلح أن يكون حديثًا مع رفقائه فى الجنة.

فإن كان امتداداً لحديثه مع الكافر فما هو المراد من الاستفهام: ﴿**أفما نحن بميتين**﴾؟ هل هو للتقرير أم للإنكار؟

بداهة أن حمله على الإنكار مستحيل؛ لأن المخاطب من منكرى البعث. ومنكرو البعث لم ينكروا الموت فى الحياة الدنيا. وما إلى ذلك من سبيل. وإنما انكروا الإحياء من القبور، وما يترتب عليه من النعيم والعذاب فكيف يُنكر عليه أمراً هو به مُقر؟ ليس هذا من عمل العقلاء.

وكذلك لا يصح حمله على التقرير، لأنه مقرٌّ به دون أدنى شك، فإن حُمِل على التقرير كان تحصيل حاصل وهو كذلك ليس من عمل العقلاء.

وإذا كان كلامه حديثا مع أصحابه من أهل الجنة فلا وجه - كذلك - لأن يقررهم أو ينكر عليهم، ويضاف إلى ما قدمناه من امتناع حمل هذا الاستفهام وما عطف عليه على الإنكار أو التقرير - مهما كان المخاطب به المؤمنين أو منكرى البعث - أن هذا الكلام سيقال بعد انتهاء الحياة الدنيا والآخرة لا موت فيها قط. هذه هى المشكلة، التى تتعلق بظاهر الكلام.

فكيف - يا ترى - عالجها سادتنا المفسرون؟

نختار نموذجين لما أبدوه من آراءحول هذه المشكلة أحدهما للإمام الزمخشرى حيث يقول:

(الذى عطفت عليه الفاء محذوف. معناه: أنحن مخلدون منعَّمون فما نحن بميتين ولا معذبين.. والمعنى: أن هذه حال المؤمنين وصفتهم، وما قضى الله به لهم.. ألا يذوقوا إلا الموتة الأولى. بخلاف الكفار، فإنهم فيما يتمنون فيه الموت كل ساعة»[1].

قلت: لو كان المعنى هو الذى ذهب إليه الزمخشرى لجاء النظم على خلاف ما هو عليه، ولقيل - مثلا: نحن الخالدون المنعمون، إذ لا داعى لذكر نفى الموت ونفى

---

(١) الكشاف (٣/ ٣٤١).

العذاب؛ لأنه لا يلزم من ذكر نفى الموت معنى الخلود، ولا من نفى العذاب معنى التنعم إلا بدليل خارجى لا صلة لهذين النفيين بهما.

أما إذا قيل: نحن المخلدون المنعمون، فإن اللفظين يدلان دلالة مباشرة على التخليد والتنعيم؛ فالعدول عن هذين اللفظين إلى ما عليه النظم من نفى الموت والتعذيب لابد أن يكون له سر آخر.

وإذا سلمنا بما قاله الإمام الزمخشرى فإن المقام يخلو من داعٍ ظاهر أو ثر من أجله ما عليه النظم من نفى الموت والعذاب.

والنموذج الثانى للإمام الألوسى. وفيه يقول:

(**أفما نحن بميتين**): رجوع إلى محاورة جلسائه بعد إتمام الكلام مع قرينه تبجُّجًا - أى افتخارًا - وابتهاجا بما أتاح الله تعالى له من الفضل العظيم والنعيم المقيم، وتعريضا للقرين بالتوبيخ)[1].

هذا الكلام اهتدى فيه الإمام الألوسى بما ذكره الإمامان الزمخشرى وأبو السعود[2].

وقدر المحذوف كما قدراه. وهو - كما ترى - ينطبق عليه ما ذكرناه من محظورات عند تعقيبنا على كلام الإمام الزمخشرى.

وهذا هو موقف كل الأئمة من توجيه هذا الاستفهام من الإمام الزمخشرى إلى الإمام الطاهر بن عاشور[3].

والخلاصة: أن هذا الاستفهام عندهم - جميعًا - معناه التقرير، ومنهم - كأبى السعود والألوسى والطاهر - من صرح بأنه استفهام تقرير، مع اختلافهم فى المعانى الثانية التى تردف عليه، مثل الابتهاج والافتخار الذى عبر عنه كل من الإمامين أبى السعود والألوسى - بالتبجُّج. وهو المعنى المرادف للافتخار فى اللغة، قبل التطور الدلالى الذى طرأ عليه فى العصر الحديث. وهو عدم الحياء.

---

(١) روح المعانى (٢٣/٩٣).

(٢) تفسير أبى السعود (٧/١٩٣).

(٣) التحرير والتنوير (٢٣/١١٩).

تعقيب :

ما أشرنا إليه من توجيهات الأئمة، غير مقنع لما أبدينا، عليه من ملاحظات، ونضيف هنا أن تقديرهم للمحذوف (أنحن مخلدون)؟ يتبادر إلى الفهم أنه استفهام إنكار. وهم يجزمون بأنه تقرير. وأن هذا التقرير على صورته هذه يفهم منها السامع أنه رد بالنفى والإنكار على من يدعى التخليد، ولا يشفع لهم فى دفع هذا الفهم أن يردفوا عليه:

(**أفما نحن بميتين**) لأنها تأكيد للإنكار المفهوم من الهمزة فى: (أنحن مخلدون)؟ حسب تقديرهم.

فأنت ترى توجيههم - عفا الله عنا وعنهم - للمشكلة، صار هو مشكلة أخرى، وما يزال النظم فى حاجة إلى توضيح ومن الطريف أن الأئمة ذكروا عبارة فى آخر ما قالوه نراها هى المفتاح للتوجيه الصحيح المريح المقنع، ومع أهميتها فإنهم عاملوها معاملة عدم الرضا بها، حيث قدَّموا لها بصيغة التمريض (قيل) وها نحن أولاء تذكرها كما وردت عندهم:

(وقيل: إن أهل الجنة أول ما دخلوها - يدخلونها - لا يعلمون أنهم لا يموتون. فإذا جيء بالموت على صورة كبش أملح فذُبح ونودى: يا أهل الجنة خلود فلا موت يعلمونه فيقولون ذلك تحدثا بنعمة الله، واغتباطا بها[1]).

نقول: هذه العبارة هى مفتاح التوجيه المريح المقنع لكن لا بذاتها، وإنما بما تدل عليه من معنى هو نفسه التوجيه الذى يطمئن إليه القلب، ويليق ببلاغة النظم الحكيم، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

والمعنى الذى تشير إليه هذه العبارة أن قول المؤمن: (**أفما نحن بميتين * إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين**) ليست امتداداً للحديث مع الكافر، وليست حديثا مع أصحاب المؤمن الذين كان قد خاطبهم من قبل بقوله:

(**هل أنتم مطلعون**) وإنما هى تعقيب على قول آخر خوطب به أهل الجنة جميعًا،

---

(١) تفسير أبى السعود: (٧/ ١٩٣).

وهو النداء فيهم بتكريمهم بالخلود فى الجنة منعمين.. وأن عذاب الله لن يحل بهم فيها مع سلامتهم من الآلام والمكدرات التى كانوا يتعرضون لها فى الحياة الدنيا.

وأن هذا النداء المبشِّر حدث حين كان المؤمن يخاطب الكافر. فسعد المؤمنون بهذه البشريات. فقال المؤمن الذى كان يحاور الكافر مبتهجًا مسرورًا:

(أفما نحن بميتين * إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين) ويكون الاستفهام على هذا التوجيه المريح المقنع للتقرير والابتهاج. ولكن هذا التقرير ليس للمخاطب وإنما هو للمتكلم نفسه يردد ما سمعه من المنادى فرحًا وابتهاجًا. ولا سبيل غير هذه السبيل التى تحسم كل جدل أو تساؤل حول هذا الاستفهام.

فإن قال قائل. إن افتراض ورود هذه البشريات لا دليل عليها من النظم الحكيم، فهى مجرد احتمال عارٍ عن السند. إن قال هذا قائل. فإليه الجواب الذى لا يقبل جدلاً وهو مكوَّن من ثلاثة عناصر:

الأول: أن إبقاء الاستفهام وما عطف عليه على ظاهره غير مُسلم لما يترتب عليه من محاذير.

الثانى: أن ما ذكره السادة المفسرون لا يزيل المشكلة لما بيناه من موانع لا يمكن التغلب عليها.

ثالثا: إن ورود كلام عقب كلام فى النظم القرآنى المعجز والمراد بالكلام الثانى التنسيق على كلام أو معنى آخرغير مذكور بلفظه فى النظم شائع وكثير فى غير هذا الموضع.

وأن النظم القرآنى كما يعوِّل على القرائن اللفظية المذكورة يعوِّل على دلالة العقل بعد التلويح له بما يومىء إلى ذلك الكلام أو المعنى المنسوق عليه الكلام الثانى. ومن أمثلة هذا التنسيق قوله تعالى خطابا لموسى عليه السلام ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [الأعراف: ١٦٠].

والتقدير: فضرب فانبجست؛ لان انبجاس الماء - أى ظهوره وتدفقه - ليس سببه الأمر بالضرب، بل الضرب نفسه.

وقوله تعالى فى قصة يوسف عليه السلام:

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَابَةِ الْجُبِّ، وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥].

فواو العطف فى (وأوحينا إليه) ليست جوابا لـ (لما) ولا هى عاطفة على جملة مذكورة فى الكلام. بل فى الكلام حذف والتقدير:

فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يلقوه فى البئر وفعلوا به ما فعلوا وأوحينا إليه لنؤنسه فى محنته.

فالواو نسقت الإيحاء إلى يوسف على المحذوف المقدر، وليس له صورة فى الكلام ملفوظ بها.

ومن أظهر هذه الأمثلة ما ورد فى مؤمن أصحاب القرية: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ * وَمَالِىَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونَ * إِنِّى إِذًا لَّفِى ضَلاَلٍ مُّبِينٍ * إِنِّى آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ * قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ، قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُكْرَمِينَ * وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ * إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [يس: ٢٠ - ٢٩].

فى هذه الآيات كلام ذكر عقب كلام ليس منسقا عليه بل منسق على كلام آخر بدلالة العقل بعد أن لُوِّح إليه فى النظم. وذلك فى المواضع الآتية:

* (**وما لى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون**) فهذه الآية نُسقت على كلام محذوف أومأ إليه المقام، تقديره: فسألوه هل أنت تعبد من يدعو إليه الرسل؟

* **(قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومى يعلمون * بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين)**.

وهذا الكلام منسوق على كلام محذوف، وليس على الذى ذكر قبله مباشرة. والتقدير:

فلما يئسوا منه انقضوا عليه فقتلوه. فلما قتل بشر بالمغفرة والجنة فقال:

(ياليت قومى يعلمون * بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) هذا هو نظم القرآن المعجز، وهو ملئ بمثل هذه النماذج التى ذكرناها. ومنها موضوعنا الرئيس وهو تنسيق قوله تعالى حكاية عن المؤمن:

﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَى، وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * إنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾.

إن هذا الكلام وإن ذكر عقب مخاطبة المؤمن للكافر فهو غير منسوق عليه، بل هو منسوق على ذلك الكلام المقدر الذى بشر الله فيه أهل الجنة بالخلود فى النعيم، والنجاة من الجحيم.

ولا غرابة فى ذلك، لا من حيث المعانى، ولا من حيث التراكيب، فهذه سمة من سمات النظم القرآنى المعجز، وقد سقنا منها بعض الأمثلة لتطمئن القلوب ونظائرها فى القرآن لا تكاد تُحصى. وشطر بلاغة القرآن يكمن فيما فيه من حذوفات قد مهد القرآن نفسه طريق إدراكها للعقول.

وبقى سؤال: كيف لم يعلم أهل الجنة خلودهم فيها، وقد قرر القرآن ذلك الخلود فى آيات متعددات، فكيف يستساغ القول بأنهم لم يعلموا ذلك إلا بعد دخولهم الجنة فى البشارة التى نُسِّق عليها هذا الاستفهام وما عطف عليه من نفى الموت والتعذيب؟

والجواب: من شقين :

الأول: أن أهوال القيامة وأحداثها الضخمة الغريبة التى تشيب الولدان يكون لها وقع على النفوس فتنسى ما كانت تذكر، وتجهل ما كانت تعلم.

وقد جاء فى سورة المائدة أن الرسل، وهم أطهر البشر ينسون فى أول الحشر ما لقوا من أممهم: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبتُمْ ، قَالُوا لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ﴾ فإذا كان هذا هو حال الرسل، فماذا يكون حال عامة المؤمنين؟

الثانى: وإذا سلمنا بأنهم - أى المؤمنين - كانوا يعلمون بأنهم يخلدون فى الجنة، كما أخبرنا القرآن فى الحياة الدنيا. فإن الإعلام بالشىء بأنه سيكون غير الإعلام به وهو كائن، والمؤمنون لما دخلوا الجنة وعاينوا ما فيها مما أعد الله لعباده الصالحين، حين يبشرون بالخلود فيها وأمنهم من العذاب يكون لتلك البشرى وقع خاص فى نفوسهم، وفرحة لم يسمعوا بمثلها فتأخذهم النشوة ويغمرهم الابتهاج وكأنهم يعلمون ذلك لأول مرة.

أسرار النظم وبلاغياته:

﴿أفما نحن بميتين﴾ إيثار نفى الموت - وهو كناية عن استمرار الحياة بلا انقطاع - على: أفنحن أحياء، لأن الحياة لا مانع من أن يعقبها موت، أما نفى الموت فإن معناه دوام الحياة.

* وإيثار الاسم (ميتين) على الفعل (نموت) إشارة إلى دوام نفى الموت، الذى هو كناية عن استمرار الحياة.
* ودخول الباء على الخبر (بميتين) زيادة وترسيخ للوصف بالموصوف ثم إن العطف بالفاء إيذان بسببية البشارة فى المبشر به.

* * *

٧ - ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ [الصافات: ٦٢].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية المرجحٌ أنها من كلام الله عز وجل الخالص. يعنى أن الله لم يحكها عن قائل آخر، فالكلام المحكى عن المؤمن الذى كان يحاور الكافر انتهى عند قوله تعالى حاكيا عنه. (**لمثل هذا فليعمل العاملون**) ثم بدأ كلام الله الخالص غير المحكى عن غيره من هذه الآية:

(**أذلك خير نزلاً أم شجرة الزقوم**) بدليل قوله تعالى بعدها مباشرة:

(**إنَّا جعلناها فتنة للظالمين**) [آية: ٦٣].

وقد ورد فيها هذا الاستفهام: (**أذلك خير نزلاً**).

ولم أجد لأحد من الأئمة كلمة فى بيان المراد من هذا الاستفهام إلا الإمام أبو حيان فقد قال فيه:

(عادل بين ذلك الرزق وبين شجرة الزقوم.. لأن ذلك الرزق المعلوم يحصل به اللذة والسرور -أى رزق أهل الجنة، وشجرة الزقوم يحصل بها الألم والغم فلا اشتراك بينهما فى الخيرية.

(والمراد تقرير قريش والكفار وتوقيفهم على شيئين: أحدهما فاسد. ولو كان الكلام استفهاماً حقيقة لم يجز، إذ لا يتوهم أحد أن فى شجرة الزقوم خيراً حتى يعادل بينها وبين رزق الجنة[1]).

ومعنى هذا أن الإمام أبا حيان يريد أن يقول إن هذا الاستفهام مجازى، وأن المعنى المراد منه تقرير المشركين بنفى خيرية ثمار شجرة الزقوم. وهذا التوجيه -مع سداده- فيه قصور عن بيان المراد من هذا الاستفهام وكل ما جاء فى صورته، وهو كل استفهام عادلت (أم) فيه الهمزة فإنه يأتى على الصور الآتية:

* أن يكون لتقرير الأول (ما بعد الهمزة) ولإنكار الثانى (ما بعد أم).
* أن يكون لإنكار الأول وتقرير الثانى.

---

(١) البحر المحيط: (٧/ ٣٦٣).

* أن يكون لإنكار الأول والثانى معاً.

فمثال الأول قوله تعالى: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فالخيرية مقررة لله، ومنكرة بالنسبة للأصنام.

ومثال الثانى: ﴿أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾؟ فالأعلمية منكرة فى شأن الأول، ومقررة فى شأن الله عز وجل.

ومثال الثالث: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ فالأول والثانى منكران معاً.

والآية - موضوع الدراسة - ما يلى الهمزة فيها تقرير وما يلى (أم) فيها إنكار.

فإذا قيل إن الاستفهام فيها للتقرير فحسب نظرا للأول، أو للإنكار فقط نظرا للثانى كان هذا قصوراً فى بيان المعنى المراد من الاستفهام، إلا إذا أضفنا اعتباراً آخر فى التوجيه وهو تغليب المقدم على المؤخر.

فيكون للتقرير إذا كان ما ولى الهمزة مقررا به. ويكون للإنكار إذا كان ما ولى الهمزة منكراً.

والأحوط أن يقال: إنه تقرير مع الهمزة وإنكار مع (أم).

والخلاصة: أن هذا الاستفهام (**أذلك خير نزلاً أم شجرة الزَّقوم**) لتقرير خيرية رزق أهل الجنة. وشرية طعام أهل النار. وإذا قيل إنه للتوقيف على هذين المعنيين كان صوابا.

أسرار النظم وبلاغياته:

* (**أذلك**) المشار إليه بـ(ذلك) هو ما وصفه الله من نعيم أهل الجنة فى قوله تعالى:

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ* فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ* فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ* عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ* يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ* بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ* لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ* وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ* كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾

[٤١ - ٤٩].

وإيثار اسم الإشارة (ذلك) الموضوع للمشار إليه البعيد لتفخيم شأن المشار إليه

- هنا - وهو رزق أهل الجنة، والنعيم الدائم، الذى أعده الله لهم.

* (**نزلاً**) مجاز مرسل بإطلاق السبب وإرادة المسبب فالنزل فى الأصل هو نزول الضيف لدى المضيف أو منزل الضيف فى بيت المضيف. وهذا هو السبب. أما المسبب فهو ما يُقدَّم للضيف عند نزوله من طعام وشراب. فهو من تسمية الشئ باسم سببه أى مكانه.

وملاحظة هذا المعنى فى شأن أهل الجنة، تكريم لهم وتشريف وامتنان عليهم.

وملاحظته فى شأن أهل النار تهكم بهم وسخرية منهم وتحسير لهم.

* (**أم شجرة الزقوم**) أم متصلة، ومعادلة ما بعدها بما بعد الهمزة لتبكيت المشركين وتقريرهم بسوء مصيرهم ونجاة عباد الله المكرمين.

وبناء (**الزقوم**) على: الفَعُّول، للإيحاء بغلظ ثمارها وانحشاره فى بلاعم آكليه حتى ليُخيَّل للسامع أنه يسد منافذ التنفس ويؤدى إلى الاختناق، ولا مناص لهم منه، إذ لا طعام لهم سواه. فأى شئ يُصْبِرهم على النار وبئس القرار.

* * *

٨ - ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ* أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ* فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٥- ٨٧].

الدراسة والتحليل:

هذه الآيات يعرف من له صلة واعية بالقرآن، أنها تتحدث عن قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه، ومواجهة عقيدة الوثنية التى كانوا يعتقدونها.

وقبل هذه الآيات الثلاث كان قوله تعالى:

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ* إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ [٨٣- ٨٥].

وقد حكى القرآن هذا القول فى مواضع أخرى فى القرآن - كما فى سورة الشعراء - وكل ما حكاه القرآن عنه - عليه السلام - له مضمون واحد وإن اختلفت العبارات. ونرى - هنا - ثلاثة استفهامات. فى كل آية استفهام هكذا:

* ﴿ماذا تعبدون﴾؟ * ﴿أئفكا آلهة..﴾؟ * ﴿فما ظنكم برب العالمين﴾؟

والاستفهامان الأول والثانى للإنكار مع التوبيخ والتسفيه وهذه المعانى ظاهرة فيهما، لأن من يتخذ الأصنام آلهة لا يقره عليها عاقل. وهو فى نفسه أشبه بمن لا عقل ولا رشد له، أما الاستفهام الثالث: **(فما ظنكم برب العالمين)** فقد سكت عنه الأئمة، ومنهم من قال إنه للتوبيخ والتعجيب. وقد صرح ابن عاشور بأنه للإنكار[1].

والذى لاح لنا أن هذا الاستفهام **(فما ظنكم برب العالمين)** لتقريرهم بجهلهم بمعرفة الله عز وجل؛ لأنهم لو كانوا يعرفون الله عز وجل ما سوَّل لهم الشيطان أن يعبدوا من دونه أصناما لا تضر ولا تنفع. ثم لا مانع من إضافة التوبيخ والتعجيب أو التجهيل من حالهم هذه ووعيدهم على هذا الضلال.

أما الإنكار الذى قال به الإمام الطاهر فلا نرى أنه المراد -أصالة- من هذا الاستفهام. ولو كان قال إنه تقرير لهم بجهلهم بالله، ثم إنكار هذا الجهل عليهم لكان حسنا.

وهذه هى الخلاصة لما يقال فى هذه الاستفهامات الثلاثة.

أسرار النظم وبلاغياته :

* **(إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون)** فصلت هذه الجملة عما قبلها: **(إذ جاء ربه بقلب سليم)** لما بين الجملتين من كمال الاتصال؛ لأن الثانية بمنزلة عطف البيان من الأولى.

وتقديم **(أبيه)** على **(قومه)** لأن الابتداء بإنكار عبادة غير الله بأبيه ادعى لتصديق قومه إياه. ونهى الأقرب ثم عطف الأبعد عليه أبلغ وأسد فى مجال الاقناع **(ماذا تعبدون)** استفهام إنكار بطريق الكناية؛ لأن السؤال عن الشئ يقتضى عدم رؤيته. وعدم رؤيته يستلزم عدم وجوده. فكنى بهذه الوسائط عن نفى الشريك لله عز وجل بالطريق البرهانى. وهى اقتران الدعوى بدليل صحتها وصدقها وإيثار المضارع

---

(١) ينظر الكشاف: (٣/ ٣٤٤)، وروح المعانى: (٢٣/ ١٠١)، وأبو السعود: (٧/ ١٩٧)، والبحر المحيط: (٧/ ٣٦٥)، والتفسير الكبير للرازى: (٢٥/ ١٤٧)، والتحرير والتنوير: (٢٣/ ١٣٩).

(**تعبدون**) إشارة إلى تلبسهم بعبادة غير الله ساعة أنكرها عليهم.

وقال هنا (**ماذا تعبدون**) وفى الشعراء: (**ما تعبدون**) بزيادة (ذا) بعد (ما) هنا. وزيادة المبنى دليل على زيادة المعنى. لأن الشعراء أسبق نزولاً من الصافات، فكانت مواجهة إبراهيم لأبيه وقومه فى الصافات أشد وأعنف، وكأن النظم الحكيم يعرض كفاح إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه، وهو يجرى فى الواقع الخارجى فى عصر نزول القرآن. وسيأتى فى هذه السورة نماذج أخرى لعنف وشدة تلك المواجهة، التى انتهت بتحطيم إبراهيم - عليه السلام - لآلهة أبيه وقومه.

* ﴿**أئفكًا آلهة دون الله تريدون**﴾ فى النظم - هنا - تقديم وتأخير - كما نص كثير من الأئمة - فأصل النظم - كما قالوا -:

أتريدون إفكا إلهة من دون الله؟ على أن (**إفكا**) معمول (**تريدون**).

والسر البلاغى فى هذا التقديم أن محط الإنكار هو الإفك ووصف عبادتهم بالإفك تعنيف منه لهم فى المواجهة وإيثار المصدر (**إفكا**) للمبالغة فى وصف عبادتهم بالقبح حتى صارت هى الإفك نفسه. وهذا لم يرد فى سورة الشعراء، وتنكير (**آلهة**) للانعدام كما تقدم، لا ستحالة وجود آلهة فى الكون مع الله. فلا يكفى -هنا- أن نقصر التنكير على التحقير. لأن التحقير وصف للموجود لا المعدوم. لا يقال أن تلك الآلهة موجودة فى أوهامهم وفى الخارج فى شكل الأصنام والأوثان، لأنَّا نقول إن هذا وجود أسماء لا وجود مسميات. وإطلاق اسم على غير مسمى وَهْمٌ هو والعدم سواء.

وفى (**تريدون**) استعارة تصريحية تبعية لـ(تعتقدون) تنزيلاً لا عتقادهم -فى بطلانه- منزلة الإرادة التى هى مجرد شعور سرعان ما يزول.

* ﴿**فما ظنكم برب العالمين**﴾ الفاء للتفريع على ما تقدم.. وإضافة (ظن) إلى ضمير المخاطبين تمهيد لتقريرهم بالجهل والسفه.

والباء فى (برب) للملابسة. أى ما ظنكم المتلبس بشئون رب العالمين.

وإيثار (**رب العالمين**) من بين أسماء الله الحسنى؛ لأن كلمة (رب) هى المتعين ذكرها هنا، للأسباب الآتية:

الأول: أن المقام مقام إنكار لعبادة غير الله، وأمر بإفراد الله -وحده- بالعبادة. وهذا يقتضى ذكر ما يقوى جانب الإنكار، وجانب الأمر بإفراد الله بالعبادة.

الثانى: ما فى معنى (رب) من الإنعام والخلق وحسن الرعاية وإحكام التدبير.

الثالث: طواعية كلمة (رب) للإضافة إلى (العالمين) وهذه الخصائص -مجتمعة- لا يؤديها من أسماء الله الحسنى إلا كلمة (رب).

الرابع: ما فى لفظ (العالمين) من الدلالة على ملكية الله للكون كله، ومن فيه وما فيه.

الخامس: ما فى لفظ (العالمين) من تحقيق للتوافق الإيقاعى الصوتى فى فواصل الآيات وبنائها على حرف المد واللين ثم النون وما فى حكمه:

(تعبدون- تريدون- العالمين)

السادس: ما تحفل به هذه العبارة (**رب العالمين**) من ضروب الثناء على الله بما هو أهله.

* * *

٩ - ﴿ مَا لَكُمْ لاَ تَنطِقُونَ ﴾ [الصافات: ٩٢].

الدراسة والتحليل:

لما يئس إبراهيم عليه السلام من هداية قومه، أنتقل من مواجهتهم إلى مواجهة أصنامهم، وكان قد أقسم لأبيه وقومه ليفعَلَنَّ بأصنامهم ما يغيظهم فقال:

﴿وتَا لله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين﴾ [الأنبياء: ٥٧].

وتكررت الواقعة -هنا- فى الصافات، ولكنه قبل أن يُقدم على تحطيم الأصنام وقف أمامها وكأنه يجرى معها حواراً:

﴿فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون * ما لكم لا تنطقون * فراغ عليهم ضرباً باليمين﴾ [الصافات: ٩١- ٩٣].

والآية - موضوع الدراسة - جزء من ذلك الحوار، وهى عبارة عن الاستفهام المجازى: (**ما لكم لا تنطقون**) المراد منه النفى والتهكم. نفى وقوع أن تكون لهم قدرة على النطق ثم السخرية منهم ومن عابديهم.

أما آية (**ألا تأكلون**) فإن كانت الهمزة فيها للاستفهام فهو للنفى - كذلك - ولكنه نفى متولد عن تقريرهم بعدم القدرة على الأكل، أو عدم الاشتهاء أصلاً؛ لأنها جمادات لا روح فيها ولا حياة.

والذى يلوح لنا أن (**ألا تأكلون**) للعرض بقصد التهكم وكان عابدوها يضعون أمامها طعاماً للتبرك فسخر منهم إبراهيم عليه السلام بحثهم على الأكل. وهو يعلم أنها لا تشتهى فعبر بالمسبب، وهو عدم الأكل، عن نفى السبب، وهو الاشتهاء.

أسرار النظم وبلاغياته :

* (**ما لكم لا تنطقون**)؟ استفهام إنكارى بمعنى النفى؛ لأن الأصنام لم تدع أنها قادرة على النطق حتى يُنكر عليها. وإنما النطق معدوم فيها.

وقد تُوُصِّل لهذا النفى عن طريق الكناية، لأن (**ما لكم**) سؤال عن السبب، والسؤال عنه يقتضى عدم وجوده وعدم وجود السبب يستلزم عدم وجود المسبب وهو الامتناع عن النطق - لمانع طارئ - مع القدرة عليه.

والأصنام لا تنطق أصلاً، وليس عدم نطقها ناشئًا عن سبب طارئ. ونفى هذا السبب كناية عن عجزها أصالة عن النطق.

والمراد تقرير جماديتها، توصلاً لنفى صفة الألوهية عنها.

وهذه من الكنايات اللطيفة التى ألمحنا إليها كثيراً فى بلاغيات النظم القرآنى الحكيم و(**لا تنطقون**) محط الإنكار الذى هو بمعنى النفى.

وإيثار المضارع أفاد غرضين بلاغيين:

الأول: شمول العجز عن النطق فى جميع الأوقات.

والثانى: تحقيق التوازن الإيقاعى الصوتى بين فواصل الآيات.

* * *

١٠ - ﴿ قَالَ: أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ [الصافات: ٩٥].

الدراسة والتحليل:

حطم إبراهيم عليه السلام الأصنام. وأحالها إلى كـومة من التراب. وراع قومه ما حدث، وأقـبلوا عليه من كل جهة، فـما كان منه إلا أن يوجـه إليهم هذا الإنكار المر والتقريع الموجع:

(أتعبدون مـا تنحتون) وهو اسـتفـهام إنكارى - أصـالة - ويردف عليه من المعـانى الثانية كل من: التوبيخ - التقريع - التبكيت - التهكم.

وهذه هى خلاصة ما قيل وما يقال فيه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(قال)** فصلت هذه الجملة عـما قبلها **(فأقبلوا إليه يزفون)** لما بين الجملتين من شـبه كمال الاتصال؛ لأن الثانية نُزِّلَتْ من الأولى منزلة جواب عن سؤال مقدر نشأ عنها حاصله:

ماذا قـال إبراهيم - عليه السـلام - حين أقبل إليه قـومه بعد أن حـطم أصنامهم؟ فكان الجواب: **﴿قال أتعبدون ما تنحتون﴾**؟

وإنما قـــال فى هذه المرة: **(ما تنحتون)** منبهًـا إياهم بأن ما يعبـدونه اجتمعت فـيه خستان:

إحداهما: أنه جماد لا روح ولا إحساس فيه.

والأخرى: أنه مصنوع بأيديهم، والإله الحق يـكون صانعاً لا مصنوعـا. وبهذا بلغ إبراهيم عليه السلام غاية الانتصار عليهم، والإفحام لهم.

* * *

١١ - ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ قَالَ يَا بُنَىَّ إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىَ، قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ، سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

الدراسة والتحليل:

فى هذه الواقعة من وقائع صدق الإيمان ما لم يتعرض لها أحد فى الوجود البشرى إلا إبراهيم عليه السلام وولده إسماعيل قبل أن يكون نبياً رسولاً:

أب - شيخ كبير - يؤمر أن يذبح ولده بيده، وهو أحب إليه من نفسه التى بين جنبيه.

وولد صغير يفسح صدره ليُسْلِمَ رقبته للقطع امتثالاً لأمر الله مستعينا بالله أن يجعله من الصابرين، وكان الله - وهو كذلك دائما - أكرم من الوالد الذابح، والولد الذبيح.. فما كادا ينفذان الأمر حتى نادى الله إبراهيم عليه السلام بأن يكف عن ذبح ولده، وأعلن لهما صدقهما فى التضحية وامتثال الأمر، ثم فدى الولد - إسماعيل - بذبح عظيم وشهد لإبراهيم بصدق الوفاء:

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٣- ١١١].

والاستفهام الذى ورد فى الآية - موضوع الدراسة - استفهام حقيقى لا اختلاف فى بيان المراد منه. فإبراهيم عليه السلام، أراد أن يعرف موقف ولده من هذا الأمر بشأن أيطيع أم يعصى؟ وكان الإيمان الذى حمل آباه على امتثال الأمر قد حمل ولده على الوعد بالطاعة والامتثال.

أسرار النظم وبلاغياته :

* **﴿فلما بلغ معه السعى﴾** كناية عن القوة وشدة النشاط **(قال: يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك)** التصغير فى (بُنَّى) لصغر سن إسماعيل عليه السلام، ولدافع الشفقة. وتوكيد الخبر فى **(إِنِّى أذبحك)** لإزالة ما قد يعلق فى ذهن ولده من إنكار لغرابة

الرؤيا، ولأن هذه الواقعة لم تحدث فى تاريخ الإنسانية.

وإيثار المضارع (**أرى**) على الماضى: (رأيت) لتصوير شـأن تلك الرؤيا وكأنها تجرى ساعة أعلمه بما رأى و(**فى المنام**) ظرف للرؤيا. وللإعلام بأن رؤيا الأنبياء وحى.

* (**فانظـر ماذا ترى**) الفـاء تفريـعيـة على مـا قرره من شـأن الرؤيا. والأمـر (انظر) للتوجيه، والتثبيت، لأن الإجابة العاجلة قد يعقبها خلل.

وإيثار (**ماذا**) للدلالة على خطورة الأمر وشدته وإحكام الرأى فيه.

* (**قال يا أبـت أفعل ما تـؤمر**) فصلت هذه الجـملة عما قـبلها لأنها جـواب يثار فى النفوس بإلحاح شديد، ماذا قال ولده حين علم من أبيه هذا الأمر.

وإيثار حرف النداء (**يا**) الذى يُنادَى به البعيـد إشارة إلى رفعة شـأن أبيه فى الطاعة والامتثـال حيث سمح بذبح أبنه طاعة لله عز وجل. ومن أجل هذه الرفـعة قال: (**يا أبت**) ولم يقل: يا أبى. وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى.

وإيثار النداء نفسه، وكان يمكن أن يقول: أفعل ما تؤمر بدون نداء إعلام بأن الطاعة لله واجبة وكـذلك طاعة الآباء إذا لم يأمروا بمعصـية، وقوله: (**أفعل ما تؤمر**) إطلاق للطاعة، وأنه لو كان قد أُمِرَ بما هو أشق من الذبح فإن الولد مطيع لله ولأبيه.

* (**ستـجدنى إن شاء الله مـن الصابرين**) أكد الطاعـة هنا بحرف التنفـيس (السين) دون (سوف) أى هو طائع ممتثل ولو جرى الذبح ساعة الحوار بينه وبين أبيه.

* (**إن شاء الله**) إيثار أداة الشـرط (إن) على (إذا) لأن المأمور به مما تجـزع منه النفوس جزعا عظيما وأنه يخشى أن تخور قـواه فيجزع. فاحتاط للأمر بـ(**إن**) دون (إذا) لما فى الأولى من معنى تخلف الجزاء عن الشرط. دون الثانية.

وهذا من أدب النبوة وأخلاق الإيمان الواعى.

* (**من الصابرين**) أى من الذين رسخ شأنهم فى الصبر وقوة الاحـتمال حتى عرفوا به بين الناس وصار سجية لهم.

وقد أفادة كلمة (**الصابرين**) هذا المعنى كمـا أدت وظيفة قرآنيـة أخرى. هى توافق الفواصل فى حسن الإيقاع الصوتى.

* * *

١٢ - ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلاَ تَتَّقُونَ * أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ [الصافات: ١٢٤- ١٢٥].

الدراسة والتحليل:

هاتان الآيتان تحكيان ما قاله نبى الله إلياس عليه السلام لقومه، حاثا لهم على تقوى الله عز وجل، وموبخا لهم على دعائهم الأصنام وإعراضهم عن الله أحسن الخالقين وقد ورد فيهما هذان الاستفهامان:

* ﴿ألا تتقون﴾؟ إن كانت الهمزة للاستفهام.

* ﴿أتدعون بعلا. .﴾؟

ولم يقل الأئمة شيئاً عن الاستفهام الأول، إلا الإمام الطاهر قال إنه لإنكار عدم تقواهم مع تفسيره (لا) بعد الهمزة بأنها (لا) النافية[1]. وإذا كان الأمر كما قال فلا وجه فيه للإنكار.

لأن همزة الإنكار تنفى النفى الحاصل بـ(لا) النافية فيعود المعنى إثباتا.

والذى لاح لنا أن (ألا) كلمة واحدة ليست مركبة من همزة الاستفهام ولا النافية، بل هى (ألا) التى للحث والتحضيض. ولهذا فإننا نكاد نجزم بأن قوله **(ألا تتقون)** للأمر بتحقيق التقوى، أى: اتقوا وهى المعنى الناشئ عن الحث الذى أشرنا إليه.

وزانه قول من يقول: ألا تخاف الله يا فلان؟ أى خف الله.

أما الاستفهام الثانى: **(أتدعون بعلا)** فهو للإنكار بالإجماع. ولكن الأئمة فسروه تفسير استفهام الإنكار ولم يصرح به إلا بعض منهم، وفى عُرْض الكلام، لا مقصود قصداً[2].

والخلاصة: أن الموضع الأول (ألا) للحث والأمر على التقوى ويضعف الحمل معها على الاستفهام.

أما الموضع الثانى فالاستفهام فيه للإنكار والتوبيخ والتسفيه.

---

(١) التحرير والتنوير: (٢٣/ ١٦٦).

(٢) الكشاف: (٣/ ٣٥٢)، أبو السعود: (٧/ ٢٠٣)، البحر المحيط: (٧/ ٣٧٣)، روح المعانى: (٢٣/ ١٤١)، التفسير الكبير: (٢٦/ ١٦١).

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**إذ قال لقومه ألا تتقون**﴾؟ إيثار المضارع للحث على تقوى الله فى جميع الأوقات.

وحُذفُ مفعول (تتقون) للعلم به، وهو الله عز وجل، ولتوافق فواصل الآيات (**المرسلين - تتقون - الخالقين**).

* ﴿**أتدعون بعلا**﴾ الدعاء - هنا - كناية عن العبادة، لأن من دعا شيئاً ورجا منه جلب النفع، ودفع الضر فقد عبده لأن الدعاء من لوازم العبادة.

أوْ مجاز مرسل بإطلاق المسبب، وهو الدعاء، وإرادة السبب، وهو العبادة.

وولى الفعل (**تدعون**) همزة الإنكار لأنه محط الإنكار، مع ما عطف عليه، وهو:

* ﴿**وتذرون أحسن الخالقين**﴾ فكلاهما منكر، وتقديم دعاء الأصنام فى الإنكار على ترك دعاء الله تعالى لأن دعاء غير الله شرك خالص، أما ترك دعاء الله فقد يكون سببه الجهل أو النسيان أو الغنى والسلامة من العلل والآفات.

وإيثار المضارع فيهما (**تدعون - تذرون**) لتوجيه الإنكار على الدعاء والترك فى الحال وفى الاستقبال ولتصويرهما لبيان قبح ما فيهما.

وقد لحظ بعض الأئمة ترك الجناس فى الآية حيث جاء فى النظم (**تذرون**) ولم يقل: تَدَعون. بفتح التاء والدال، وهى بمعنى (تذرون) ثم بحث - وهو الإمام الألوسى - عن السر فى العدول من (تَدَعُونَ) بمعنى (تذرون) إلى (تذرون) وعدد صاحب روح المعانى ثمانية إجابات قال فى نهاية عرضه لها: إن أكثرها حرى بالمنع[1].

ومن أبرز تلك الإجابات:

أن (يَدَع) يكون للإعراض عن الشئ مطلقاً وقبل العلم به أما (**يذر**) فيكون للإعراض عن الشئ مع الاستخفاف به بعد العلم برفعة شأنه.

وهذا - إذا صح فى اللغة- توجيه طيب، وتفسير مقبول بلاغة للعدول من (يدع) إلى (يذر).

ونضيف إلى ما ذكر:

---

(١) انظر روح المعانى حسب الإشارة التى تقدمت فى الهامش.

أن سر هذا العدول قد يكون قصد المخالفة بين مقام الله عز وجل، وبين مقام الأصنام؛ لأنه لو قيل فى جانب الله: وَتَدَعون أحسن الخالقين. لتشابه الفعلان فى الرسم ولم يكن بينهما فرق إلا سكون الدال فى الأول، وفتحه فى الثانى.

وهذا - كما ترى - ملمح دقيق فى التفرقة بين مقامات الكلام فى كتاب الله العزيز.

* ﴿**أحسن الخالقين**﴾ أوثرت هذه الكناية عن التصريح باسم الجلالة (الله) لبيان قبح دعاء بنى إسرائيل -قوم إلياس- غير الله تعالى، وتسفيه لأحلامهم وفساد عقولهم؛ لأنهم يدعون جماداً أصم مصنوعاً لا صانعاً، ويعرضون عن الذى خلقهم فأحسن صورهم، ورزقهم من الطيبات ولا يفعل ذلك من كان عنده مثقال ذرة من عقل أو تمييز.

فليس المدعو شيئًا يذكر أمام مالك الملك، وهَّاب النعم.

وإضافة (**أحسن**) إلى (**الخالقين**) أمارة قوية على أن (الخالقين) بمعنى: الصانعين. وأن سر العدول عن (الصانعين) إلى (الخالقين) لبيان أن صنعة الله صنعة خَلَقٍ وإيجاد من العدم، وأن صنعة غير الله صنعة تأليف وتشكيل لمواد مخلوقة لله عز وجل من قبل.

وهذا هو وجه أحسنية خلق الله. ومحال إبقاء (**الخالقين**) على ظاهره؛ لأن الخالق واحد هو الله عز وجل. ولو أبقى لفظ (الخالقين) على ظاهره للزم منه أن مع الله خالقاً، وأن الله أحسن خالق. وهذا إشراك نعوذ بالله منه ومن معتقديه.

* * *

١٣ - ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٩- ١٥٠].

الدراسة والتحليل:

الخطاب فى (فاستفتهم) للنبى ﷺ، والمراد من الذين أُمِرَ باستفتائهم هم كفار مكة قبل الفتح المبين والمقام الوارد فيه هاتان الآيتان مقام حجاج وإفحام والموضوع المثار حوله هذا الحجاج دعويان كان يدعيهما مشركو العرب:

الدعوى الأولى: أن لهم الذكور من دون الله، وأن الله له البنات، والدعوى الثانية: زعمهم أن الملائكة إناث وكانوا يقولون إنها بنات الله، تعالى الله عما يقولون علوا كبيراً.

وفى مواجهة الدعوى الأولى ورد هذا الاستفهام: **﴿أ لربك البنات ولهم البنون﴾**؟

وفى مواجهة الدعوى الثانية ورد هذا الاستفهام:

* **﴿أم خلقنا الملائكة إناثًا وهم شاهدون﴾**.

وبدون أن نطيل بما قاله الأئمة فى هذين الاستفهامين نكتفى بذكر خلاصة ما ورد فيهما:

فالاستفهام: **﴿أ لربك البنات ولهم البنون﴾** للإنكار والتكذيب والإفحام.

والاستفهام الثانى: **﴿أم خلقنا الملائكة إناثًا وهم شاهدون﴾** للإنكار -كذلك- ويردف عليه من المعانى الثانية: التكذيب والتعجيب من جهلهم وحماقتهم.

فالإنكار فيهما إنكار للواقع الذى يروجونه. فالكون وما فيه لله عز وجل، ونسبة البنات لله، والبنين لهم أوهام وأباطيل زينها لهم الشيطان. فأعماهم عن الحق وأصم آذانهم.

ووصف الملائكة بالأنوثة رجم بالغيب، يترفع عنه المجانين.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **﴿فاستفتهم﴾** هذه الفاء نسقت ما بعدها على ما قبلها. وما قبلها كان عرضا سريعا

لقصص أنبياء ورسل مع أقوامهم سبق للاعتبار والتذكير، وإمحاض النصح لهؤلاء الكفرة الذين أسلموا قيادهم للشيطان فأرداهم.

وبعد الفراغ من هذا العرض الزاجر الواعظ، التفت الله عز وجل إلى رسوله بهذا الخطاب الحكيم:

﴿فاستفتهم﴾ والأمر للإفحام والتعجيز، لأنهم لن يستطيعوا أن يثبتوا صدق ما يدعون من اختصاصهم بالذكور، واختصاص الله بالإناث.

أما الفعل نفسه **(استفتهم)** فهو للسخرية منهم والتهكم عليهم، لأن الاستفتاء لا يوجه إلا إلى عالم بالإجابة الصحيحة على ما يوجه إليه من أسئلة. وهم أجهل من الجهل.

وكون المستفتي هو رسول الله ﷺ، والرسل أعلم البشر بشئون الله. مبالغة فى السخرية والتهكم. وهكذا اجتمع فى هذا الفعل **(استفتهم)** النكات البلاغية الآتية:

* التعجيز، وهو مستفاد من (أمريَّة) الفعل.
* السخرية والتهكم، وهو مستفاد من (معنى) الفعل.
* المبالغة فى السخرية والتهكم، وهى مستفادة من (فاعل) الفعل، والآمر بالفعل، وهو الله عز وجل.
* **﴿أ لربك البنات ولهم البنون﴾** تقديم إنكار نسبة البنات إلى الله على نسبة البنين لهم؛ لأن الإنكار هنا مسلط على الآمرين معاً، والبدء بالأول إشارة إلى شدة الإنكار فيه، لأن الإناث والذكور مخلوقون مربوبون خاضعون جميعهم لله. فكونهم يخصون الله بالبنات، وهن عندهم أنزل وأحط، ويستأثرون بالذكور وهم عندهم أكرم وأعظم. فهذا هو وجه شدة الإنكار فى الأول، فلذلك قدم وعطف عليه إنكار ما زعموه خالصًا لهم.

مع ملاحظة القصر فى الزعمين، الذى يفيده تقديم الجار والمجرور فى كل منهما. فتقديم **(أ لربك)** على **(البنات)** يفيد قصر نسبة البنات على الله. ومعنى هذا أنهم لا شركة لهم مع الله فيهن.

وتقديم (لهم) على (البنون) يفيد قصر نسبة البنين لهم، وأن الله لا شركة له معهم فيهم. فقد نزّلوا أنفسهم منزلة الشريك لله فى ملكه، قاتلهم الله أنى يؤفكون.

وفى الجمع بين البنات والبنون طباق حاكٍ لواقع قـولهم. لا تكلف فيه ولا فضول ولا ترف فى الأسلوب، ويفيد تأخير (**البنون**) غرضا بلاغيا آخر كثير الشيوع فى النظم الحكيم، وهو تحقيق التوافق والرنين الصوتى فى فواصل الآيات:

﴿حين - البنون - شاهدون﴾.

* **﴿أم خلقنا الملائكة إناثًا وهم شاهدون﴾**؟ لم ينص الأئمـة على نوع (أم) هنا، وهى: أم المنقطعة المقدرة معها: بل والهمزة.

وبل فيهـا للإضراب والانتقال الإبطالى، من دعـواهم أن لهم الذكور ولله البنات، وإبطال تلك الدعـوى، إلى الإنكار عليـهم وتكذيبـهم فى دعـواهم أنوثيـة الملائكة، والهمزة لإنكار وتكذيب هذه الدعـوى الأوهى من الوهم والتقدير: بل أخلقنا الملائكة إناثا. يعنى لم نخلقهم إناثا كما يدعون.

* **﴿وهم شاهدون﴾** الادعاء يكون صادقاً إذا استند إلى دليل قاطع:

إما خبر صحيح صادق وإما مشاهدة ومعاينة.

والخبر علـى هذه الدعوى معدوم. ولذلك لم يتـعرض النظم لإنكاره، بل أهمله، ثم أنكر عليهم أن يكونوا قد شاهدوا الله وهو يخلق الملائكة إناثا، ولو ادعوا هم هذا لكانوا أكذب من الكذب نفسه فلم يبق لهم شئ يعتمدون عليه. وبهذا أثبت أنهم:

* كاذبون. * راجمون بالغيب. * مفحمون مخذولون.

* * *

١٤ - ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾
[الصافات: ١٥٤- ١٥٦][(١)].

الدراسة والتحليل:

هذا استمرار للحجاج مع مشركى العرب، وتكرار للإنكار عليهم والتعجيب من حالهم ودعاويهم الغريبة، واستمرارهم على الباطل مدعاة لرميهم بالغفلة والجهالة. وهذا ما واجهت به الآيتان الأولى والثانية قبائح مدعياتهم، أما الآية الثالثة فتنكر عليهم أن يكون لديهم دليل من عقل أو نقل يستندون إليه فيما تفوَّهوا به، وتُبالغ فى تبكيتهم فتأمرهم أمر تعجيز فتطالبهم بإبراز ما لديهم من دليل على صدق ما يقولون.

وفى الآيات الثلاث ثلاثة استفهامات:

* ﴿مالكم..﴾؟ * ﴿أفلا تذكرون﴾؟ * ﴿أم لكم سلطان مبين﴾؟

وقد مرَّ بنا مرات أن أسلوب الاستفهام (مالك) يستعمل دائما - إلا فيما ندر[(١)]- فى إنكار السبب. وهو - هنا - كذلك. ولما كان المستخبر عنه **(كيف تحكمون)** فقد نتج عن (ما لكم) و(كيف) معنى الإنكار والتعجيب.

أما **(أفلا تذكرون)** فهو استفهام إنكار وتوبيخ.

وقوله تعالى بعده: **(أم لكم سلطان مبين)** إنكار جديد مؤكد لما قبله، وهى بمعنى النفى: أى لا سلطان لكم على ما تدعون.

والخلاصة: أن الاستفهامات الثلاثة للإنكار والتكذيب والتوبيخ. وبعض الأئمة صرَّح ببعض هذه. ولكن مجمل كلامهم محمول على أن أصل الدلالة فى الاستفهامات الثلاثة هو الإنكار.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **﴿ما لكم كيف تحكمون﴾** أى: أى شئ استقر لكم فجعلكم أهلا لهذا الحكم والقضاء الغريب، حيث قضيتهم بأن الله اختار البنات لنفسه، وخصكم بالبنين. إن حالكم هذه لتدعو إلى العجب والسخرية منكم.

---

(١) لم نذكر الآية [١٥٣]: (اصطفى البنات على البنين) لأنها خبر وليست استفهاما على تقدير حذف أداة الاستفهام كما جوَّز ذلك بعضهم وإن كانت استفهاما فالاستفهام فيها للإنكار والتوبيخ.

وإيثار المضارع (**تحكمون**) إشارة إلى أن هذه الدعوى هى ديدنهم وعادتهم. والإنكار - هنا - مسلط على الواقع الذى يهجرون به.

* ﴿**أفلا تذكرون**﴾: أتقولون ذلك وتستمرئونه فلا تذكرون وتثوبون إلى رشدكم. ويتولد عن إنكار تذكرهم الحث عليه والترغيب فى تحقيقه.

* ﴿**أم لكم سلطان مبين**﴾؟: أم منقطعة، والمعنى: بل ألكم سلطان يُظهر صدق ما تدعونه. فبل للإضراب والانتقال من إنكار قضائهم بالباطل، والدعوة إلى التعجيب منه، ثم إنكار عدم تذكرهم إلى إنكار أن يكون لهم دليل يصدِّق مقولتهم والتوبيخ عليها.

وتقديم الجار والمجرور (**لكم**) على (**سلطان**) لأنه محط الإنكار، واستمرار الاحتجاج عليهم، والمسارعة إلى تبكيتهم. هذا من حيث المعنى، أما من حيث اللفظ فللتوطئة إلى توافق الفواصل وجمال التنغيم:

﴿**تحكمون- تذكرون- مبين**﴾.

* * *

١٥ - ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [الصافات: ١٧٦].

الدراسة والتحليل:

الحديث ما يزال متصلا بمشركى العرب، يتضح هذا من سياق الآيات التى جاءت هذه الآية واحدة منها، وقد كان قبلها:

﴿**فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ* وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ* أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ* فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ**﴾ [١٧٤- ١٧٧]، الله يأمر رسوله بالتولى المؤقت عنهم - بعد إصرارهم على الكفر - وكانوا من حماقتهم وجهلهم يستعجلون عذاب الله ويجعلون حلوله بهم أمارة من أمارات صدق الرسالة والرسول. كما حكى عنهم القرآن من قبل:

﴿**وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، أو أئتنا**

بعذاب أليم﴾ [الأنفال: ٣٢]. والاستفهام الذى فى الآية للإنكار والتهديد. وليس فى ذلك خلاف بين أهل العلم.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **﴿أفبعذابنا يستعجلون﴾** الهمزة للإنكار والتهديد والتخويف، والفاء للعطف، والمعطوف عليه محذوف يمكن تقديره هكذا: أبعد ما عرفوا من انتقام الله من مكذبى الرسل فهم يستعجلون بعذابنا، والهمزة مقدمة من تأخير كما هو مذهب الجمهور.

والمنكر بالهمزة هو الاستعجال بعذاب الله، لا مطلق عذاب، لذلك ولى الهمزة وآخِّر الفعل. ولم يُقَلْ: أيستعجلون بعذابنا.

ولو قدِّم لكان بليغا، ولكن تأخيره أبلغ لما قدمنا، وإضافة العذاب إلى ضمير اسم الجلالة للتهويل والتفظيع.

* * *

سورة ص

١ – ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَهاً وَاحِدًا، إِنَّ هَذَاَ لَشَىءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥].

الدراسة والتحليل:

سورة (ص) من السور المكية، وهى من السور التى نزلت مبكرًا، لأن ترتيب نزولها كان الثامنة والثلاثين. قبلها نزلت سورة القمر، وبعدها نزلت سورة الأعراف وأغراضها أغراض القرآن المكى وموضوعاتها هى موضوعاته.

فقد بدأت بحكاية ما قاله المشركون عن آلهتهم وعدائهم لعقيدة التوحيد.

كما تحدثت هذه السورة عن البعث والمعاد، وحذَّرت وأنذرت، وذكرت بقصص الماضين، وعصيان إبليس لله لما أمره بالسجود لآدم.

وذكرت نعيم أهل الجنة فى الجنة، وحسرات أهل النار، كل هذا بقصد إجلاء حقائق الإيمان عسى أن يثوب المشركون إلى الرشد. ويهتدوا إلى سواء الصراط.

وأول آية ورد فيها استفهام فيها هى الآية موضوع الدراسة.

﴿**أجعل الآلهة إلها واحدا**. .﴾ وهم – هنا – يتحدثون عن رسول الله ﷺ. منكرين عليه أن يدعو إلى توحيد الله عز وجل، ويتعجبون من هذه الدعوى، بل ويبالغون فى إنكارها والتعجب والتعجيب منها، وكأنها هى الباطل المنكر. وشركهم هو الحق المطاع؟

وهذا الاستفهام مجازى، المراد منه – باجماع الأئمة – الإنكار والتعجب والتعجيب. فقد تعجبت منه أنفسهم، ودعَوا غيرهم للتعجب منه.

وهذه **خلاصة** ما قيل أو يقال فى هذا الاستفهام.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**أجعل الآلهة إلها واحدا**. .﴾؟ الهمزة لإنكار جَعْل الآلهة وهى الأصنام، إلهًا واحدًا، وهو الله عز وجل. ولابد من تأويل هذه العبارة وصرفها عن ظاهرها.

لأن ظاهرها أن محمـدًا ﷺ كوّن وصنع من أصنامهم وهى كثيـرة، صنما واحدًا.

وهذا غيـر مراد لهم، بل المراد أن محـمدا ﷺ يدعـو إلى إبطال عقيـدة المشركين الذين كان لهم معبودات وثنية كثيرة العدد، وإلى إقامة عقيدة التوحيد والإيمان بالله - وحده - مكان تلك العقيدة.

فالعبارة فـيها إيجاز وإدماج معان كمـا ترى، والجعل الذى أنكروه جعل معنوى لا حسى مادى. وهو إحلال عقيدة مكان عقيدة.

والألف والـلام فى **(الآلهة)** للعهـد الذهنى وايثارهم الفـعل الماضى **(جعل)** على المضارع: **(يجعل)** اشارة منهم إلى تحقيق دعوة التوحيد التى فاجأهم بها محمد ﷺ.

ووصف **(الها)** بـ**(واحدًا)** حكاية معنى لما بعث به الرسول ﷺ.

والمعنى: لا ينبـغى أن نتنازل عن عقيـدتنا فى آلهتنا ونتـبع محمـدًا فى الإيمان بإله واحد.

* **﴿إن هذا لشيء عـجاب﴾** هذه الجملة - برمـتهـا - هى استئناف أو تذييل لـتعليل الانكار والتعجب والتعجيب وتوكيد الخبر فيها بـ:

إن + اسميـة الجملة + لام التوكيـد. لتهويل شأن ذلك الجـعل وتشديد إنكاره من جانبهم، وفوق هذا فقد أكدوا الإنكار بأمرين آخرين:

الأول: التعبير عنه بـ(شىء) للمبالغة فى ادعاء غرابته ونكارته، لأن (شىء) يوصف بها الأمر المبهم الشديد الغراية بمعونة المقامات وقرائن الأحوال وزانه قوله تعالى:

﴿إن زلزلة الساعة شىء عظيم﴾ [الحج: ١].

والمقام - هنا - يُعيِّن أن التعبير بـ(شىء) للتهويل والاستغراب.

والثانى: قولهم **(عُجَابٌ)** أفاد غرضين بلاغيين:

(أ) فـمن حيث المعـنى أفاد رسـوخ ذلك (الجـعل) وشدة تمكنه فـى إثارة التعـجب والتعـجيب، لأن بناء (فُعال) من صـيغ المبالغة فى تصـوير المعانى، ولذلك لم يقولوا: عجيب، أو عاجب مع ما فى (عجيـب) من صفة مشبهة باسم الفاعل فيها من المبالغة ما فيها.

(ب) ومن حيث اللفظ تحقيق التوافق والرنين الصوتى فى فواصل الآيات:
(كذَّاب - عجاب - يراد - اختلاق) لأن حرف المد هنا - هو الألف.

* * *

٢ - ﴿أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ من بَيْنِنَا، بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّــن ذِكْرِى بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ * أَمْ عِنْدهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَــةِ ربِّكَ العَزِيزِ الوَهَّابِ * أمْ لَهُمْ مُّلْكُ السَّمَوات والأَرْضِ ومَا بَينَهُمَا، فَلْيَرْتَقُوا فِى الأَسْبَابِ﴾ [ص: ٨ - ١٠].

الدراسة والتحليل:

فى الآية الأولى ينكر المشركون اختصاص الله محمداً بانزال الوحى عليه. كان هذا فى صدر الآية، وبهــذا تم ما حكاه القرآن عن مشــركى العرب، ثم بدأ النظم الحكيم فى الرد عليهم وتفنيد أقــاويلهم، فبيَّنَ أن الشأن ليس فيــما ذكروا، بل لأنهم يشكون أصلاً فى الذكر - القرآن - أن يكون هو من عند الله، يقولون - كما قال الزمخشرى -: إمّا وإما، ثم ينتقل من إثبات شكهم فى القــرآن إلى بيان السبب فيه، وهــو أنهم معافون - الآن - من عذاب الله. ولكن حين يذوقونه سوف يؤمنون مضطرين أنه كان من عند الله، ولكن بعد فوات الأوان.

ثم سخر منهم ومن عــماياتهم وجهلهم بالتدخل فى شئون الله، واقــتراحهم إنزال القرآن على غير محمد ﷺ من رؤساء الكفر والضلال. ويثبت لهم العجز الكامل عن صلاحيتــهم لما لغت ألسنتهم به، لأنهم لا يملكون خزائن رحمة الله حــتى يخصوا بها من يشاءون، ويحرمون منها من يشاءون.

ويبالغ فى إهانتهم والسخرية منهم حين ينفى عنهم ملكية السموات والأرض، فإن كان لهم ملكهما فليصعدوا فى السماء وليدبروا أمور الكون إن كانوا قادرين؟

وقد ورد فى الآيات الثلاث هذه الصور الاستفهامية:

* **﴿أأنزل عليــه الذكــر من بيننا﴾؟ ﴿أم عــندهم خــزائن رحــمــة ربــك﴾؟ ﴿أم لهم ملك السموات والأرض﴾؟**

والاستفهام الأول ﴿**أأنزل عليه الذكر** . .﴾ استفهام إنكار واستبعاد.

وفى ذلك يقول الإمام الزمخشرى:

«أنكروا أن يختص بالشرف من بين رؤسائهم وأشرافهم وينزل عليه الكتاب من بينهم»[1].

فقد نص الإمام - هنا - على الانكار صراحة، أما الاستفهامان الثانى والثالث فإن كلامه المجمل فيهما يفهم منه أنهما للنفى. وليس للإنكار مثل الأول.

وهذا مذهب صائب لأن الإنكار يُواجَهُ به المدعى وهم لم يدعوا ملكية السموات والأرض، ولا خزائن رحمة الله. فهما - إذًا - للنفى لا للإنكار كما قال رحمه الله[2].

أما الإمامان أبو السعود والألوسى فالاستفهامات الثلاثة عندهم للإنكار، وكلام الألوسى أكثر صراحة بهذا المعنى من كلام أبى السعود[3].

ويرى الطاهر بن عاشور أن مناط الاستفهام فى الأول ﴿**أأنزل عليه الذكر من بيننا**﴾ هو الظرف (من بيننا) وهذا غير سديد، لأن مناط الإنكار هو الانزال نفسه[4] وقال فى الثالث ما نصه بالحرف:

والاستفهام المقدر بعد (أم) المنقطعة، تهكمى وليس إنكاريًا؛ لأن تفريع أمر التعجيز عليه يُعَيِّن أنه تهكمى»[5].

وهذا سهو ظاهر من سماحة الشيخ الطاهر، لأن قوله (وليس انكاريا) أنه استفهام تقرير، وهذا فاسد كل الفساد.

ثم ما الذى يمنع من كونه إنكاريًا أن يكون للتهكم والتوبيخ؟ أن التقرير والإنكار جنسان تندرج تحتهما كل صور الاستفهام المجازى، هما أصلاً الدلالة فيها، أما التهكم والتوبيخ والتقريع والتكذيب والتبكيت وغيرها فهى معان ثانية تنشأ إما عن التقرير، وإما عن الانكار حسب السياق ومقامات الكلام.

(١، ٢) الكشاف (٣/ ٣٦١). (٣) تفسير أبى السعود (٧/ ٢١٦) وروح المعانى (٢٣/ ١٦٨).

(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢١٥).

(٥) المصدر السابق (٢٣/ ٢١٧) ويقصد بتفريع الأمر التعجيزى قوله تعالى: ﴿فليرتقوا فى الأسباب﴾.

والخلاصة: أن الاستفهام الأول ﴿**أأنزل عليه الذكر**﴾ فهو استفهام إنكار حسب زعمهم.

أما الثانى ﴿**أم عندهم خزائن رحمة ربك**﴾ والثالث: ﴿**أم لهم ملك السموات والأرض**﴾ فهما للنفى على الأصوب.

ويردف عليهما من المعانى الثانية:

التهكم والتكذيب، وما يناسب المقام من الاعتبارات الدقيقة، التى تنقدح فى الأذهان.

ولا عبرة بما ذكره الإمام الطاهر من منافاة الإنكار للتهكم. ووضحنا الأسباب التى رددنا بها قوله هذا من قبل.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**أأنزل عليه الذكر من بيننا**﴾؟

فصلت هذه الجملة عما قبلها ﴿**ما سمعنا بهذا..**﴾ لأن بين الجملتين كمال الانقطاع، لخبرية الأولى لفظًا ومعنى وإنشائية الثانية لفظًا ومعنى.

وتقديم (عليه) أى على محمد ﷺ على (الذكر) لأنه محط الإنكار، وليس الظرف ﴿من بيننا) كما قال الإمام الطاهر. إذ لو كان الأمر كما قال لوجب -بلاغة- تقديمه، ولقيل: أأنزل من بيننا عليه الذكر.

وبناء الفعل (**أُنزل**) لما لم يسم فاعله، رمز إلى حالة نفسية عند المشركين، وهى كراهة إسناد إنزال القرآن إلى الله عز وجل، لأن القرآن فى زعمهم أساطير الأولين.

* (**من بيننا**) كناية عن رؤيتهم أنفسهم أحق من محمد ﷺ بأن الله لو كان هو الذى أنزل القرآن لأنزله عليهم.

وهذا الظرف (من بيننا) من تتمة دواعى الانكار.

* ﴿**بل هم فى شك من ذكرى**﴾ انتقال من تصوير جريمتهم وهى إنكار أن يكون الله أنزل على رسوله الكريم وحيا هو الذى يتلوه محمد ﷺ إلى الكشف عن حقيقة أمرهم، وهى الشك فى ذكر الله ووحيه أصلاً.

وتنكير (شك) للتهويل والتبشيع.

ودخول حرف الظرفية (فى) على (**شك**) تفظيع له وتبشيع حتى لكانه غطاء محيط بهم من كل جهة، كما يحيط الظرف الكثيف بالمظروف، على سبيل الاستعارة بالكفاية و(من) فى (**من ذكرى**) بيانية. أى: من جهة ذكرى.

* ﴿**بل لما يذوقوا عذاب**﴾ انتقال من الكشف عن حقيقة أمرهم، وهى الكفر الناشىء عن شدة الارتياب، إلى وعيدهم وتهديدهم بوشك وقوع عذابه بهم حينما يتخطفهم الموت ويعلمون أن وعد الله حق. لأن (لما) لنفى الحال مع الايذان بقرب وقوعه.

قال الشاعر:

أشــــوقـــا ولـمـا تمض لى غـــيــــر ليـلة
فكـيف إذا جـــدَّ المســـيــــرُ بنا شـــهـــرا

أى: أأشتاق إلى أحبائى قبل انقضاء ليلة من سفرى عنهم فكيف يكون حالى إذا غبت عنهم شهرًا؟

* وفى (**يذوقوا**) استعارة تصريحية تبعية لشدة الإحساس بالألم الذى سيحل بهم سببه، وهو عذاب الله لهم.

* ﴿**أم عندهم خزائن رحمة ربك**﴾ أم منقطعة، بمعنى بل والهمزة، وبل للإضراب والانتقال إلى نفى ملكيتهم لرحمة الله، والتهكم بهم لتطاولهم على الشئون الإلهية، حينما رأوا أنفسهم أحق من محمد ﷺ بتلقى الوحى لو كان لله وحى إلى البشر على زعمهم.

* وفى ﴿**خزائن رحمة ربك**﴾ استعارة تمثيلية، شبه فيها اجتماع أسباب رحمة الله فى يده وطلاقة تصرفه فيها بالخزائن التى تتجمع فيها كثرة المنافع وأنواع الخيرات. وهى تشبيه صورة معنوية عقلية بصورة حسية مادية. وسرها التوضيح وإخراج المعنوى مُخْرج الحسى اعتناء به وإضافة خزائن إلى (رب) لما فيه من خصوصية الإنعام وحسن الرعاية وحكمة التصريف. أما إضافة (رب) إلى كاف الخطاب

المعنىِّ به الرسول ﷺ فلتسليته عليه السلام وعزائه عزاءً جميلاً لما كان يلقاه من عناد قومه.

* **(العزيز الوهاب)** للثناء على الله، فهو العزيز الذى لا يقهر، والوهاب الذى تفيض نعماؤه على عباده.

وهذان الوصفان كنايتان عن تفرد الله بالسلطان والمنح. وفى هذا تعريض بالمشركين الذى اجترأوا على التدخل فى شئونه عز وجل.

وتقديم **(العزيز)** على **(الوهاب)** لأن الأول صفة جلال. والثانى صفة جمال. والمقام هنا يقتضى هذا النسق لقهر خصوم الدعوة والتهديد بالانتقام منهم، وحفظ المؤمنين والإنعام عليهم.

﴿**أم لهم ملك السموات والأرض**﴾ ترقٍ فى التهكم منهم وإفحامهم بنفى الأعلى بعد نفى الأدنى وأم منقطعة كالأولى.

* ﴿**فليرتقوا فى الأسباب**﴾ الفاء لتفريع الأمر بالارتقاء فى الأسباب على نفى ملكيتهم للسموات والأرض. وإشارة إلى نفى السببية المستفادة من نفى مليكتهم لملك السموات والأرض والأمر فى **(فليرتقوا)** للتعجيز والتهكم والتبكيت و﴿**فى الأسباب**﴾ تمثيل وتجسيم للرقى العاجزين عنه أى فليصعدوا فى مدارج العلا حتى يصلوا إلى مكان النفوذ ليدبروا أمر العالمين.

* * *

٣ - ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ [ص: ٢١].

الدراسة والتحليل:

لما ذكر الله عز وجل طرفًا من مقابح مشركى العرب وعنادهم الذى يغيظ صاحب الرسالة، عقب على ذلك بأمره بالصبر فقال ﴿**اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ. .**﴾ ثم قص عليه صورًا من صبر الرسل السابقين، فقال:

﴿**وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ، إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾. وحكى له بعضًا من إنعامه عليه، ثم قال:

(وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب) وهى قصة عجيبة الشأن مما وقع فى حياة الرسل. أخبر الله فيها محمداً ﷺ بما دار فيها بين نبى الله داود وبين الخصمين اللذين اقتحما عليه خلوته للذكر والعبادة. وقضى داود عليه السلام فى الخصومة بعد سماع أقوال أحد الخصمين دون سماع الآخر، وقد ذكر كثير من المفسرين سبب هذه الخصومة وفيها من تزوير اليهود ما فيها. مما لا يليق بنزاهة الأنبياء.

والآية صدرت بهذا الاستفهام:

(وهل أتاك. .)؟ وفيه يقول الإمام جار الله الزمخشرى:

«ظاهره الاستفهام، ومعناه الدلالة على أنه من الأنباء العجيبة التى حقها أن تشيع ولا تخفى على أحد، والتشويق إلى استماعه»[1].

يعنى أن المراد منه التعجيب والتفخيم والتسويق. وهذه المعانى لابد أن تكون مردوفة على معنى رئيس مراد من هذا الاستفهام:

أما الإثبات وإما النفى. وتعيين أحدهما يتوقف على معرفة حال المخاطب. فإن كان قد علم به من طريق آخر قبل الإخبار به فى القرآن فهو للإثبات، أى: قد أتاك.

وإن لم يكن له علم به إلا من هذه الآية كان للنفى، أى: لم يأتك فاستمع - الآن - إليه.

وقول الإمام الزمخشرى: «ظاهره الاستفهام ومعناه الدلالة. .» ربما كان المراد منه نفى أن يكون هذا الاستفهام حقيقيًا ولابد من ذلك، لأنه استفهام مجازى لا ريب فى ذلك لأنه صادر عن الله علام الغيوب.

وهذا ما قرره الإمام أبو السعود بكل وضوح حين قال: «استفهام معناه التعجيب والتشويق إلى استماع ما فى حيزه لإيذانه بأنه من الأنباء البديعة التى حقها أن تشيع بين كل حاضر وبادٍ»[2]. وتابعه الإمام الألوسى[3].

والخلاصة: أن الاستفهام فى الآية مجازى قطعًا لصدوره عن الله عزَّ وجل ويحتمل الإثبات والنفى على ما بينا من قبل.

---

(١) الكشاف (٣/ ٣٦٦). (٢) تفسير أبى السعود: (٧/ ٢٢٠).

(٣) تفسير روح المعانى (٢٣/ ١٨٧).

أما معانى التعجيب والتفخيم والتشويق فصالحة أن تكون مردوفة على كل منهما إذا تعين.

أسرار النظم وبلاغياته:

* (**وهل أتاك..**) الواو للعطف على ما تقدم إما: على (**اصبر**) أو على واذكر. أو على مجاوره وهو (**وشددنا ملكه**) وإن كان عطف إنشاء على خبر. والأصوب أن تكون الواو للاستئناف.
* ﴿**أتاك نبأ الخصم**﴾؟ فى إسناد الإتيان إلى النبأ مجاز عقلى؛ لأن النبأ يُؤتى به ولا يأتى هو، وسره الإيذان بفخامة شأنه حتى لكأنه يرد على المسامع بنفسه دون أن ينقله ناقل.

وإيثار النبأ على الخبر لما فى دلالة القصة من الفخامة والغرابة. لأن الخبر يطلق على الأمور العادية. والنبأ يطلق على الأخبار ذات الأهمية البالغة، والنظم القرآنى حافل بهذه الخصوصيات ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾.

﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾.

* ﴿**إذ تسوروا المحراب**﴾ هذه العبارة هى مناط التعجيب فى هذه القصة، لأن فى التسور معنى الاقتحام وهو ينافى توقير الأنبياء.

ويزيد تهويل هذا الاقتحام الحالة التى فاجأوا عليها داود عليه السلام، وهى الاشتغال بعبادة ربه.

وموطن العبرة والتثبيت للنبى ﷺ فى هذه القصة جفاوة هذه المعاملة التى عومل بها داود ممن أرادوا الاحتكام إليه فى خصومة بينهما. ومحمد ﷺ ليس بدعًا من الرسل فكلهم أسيء إليهم. وكلهم تحملوا وصبروا ثم نصروا.

* * *

٤ - ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ، أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

الدراسة والتحليل:

لما ذكر الله تعالى فى أوائل هذه السورة مقولات الذين كفروا. ثم أمر رسوله الكريم بالصبر على ما يقولون، وساق له نماذج من معاناة الرسل من قبله، ثم عاد إلى تكذيب الكفار وقرر أنه تعالى خلق السموات والأرض بالحق، وأن الذين كفروا مع إقرارهم أن الله هو خالق السموات والأرض وخالق كل شيء، ولكنهم لما كفروا بوحدانية الله، وأنكروا البعث والنشور نَزَّلهم منزلة من ظن أن الله عابث فيما خلق؛ لأن إنكار البعث والثواب والعقاب وترك الناس يعملون ما يعملون مع تمتيع كثير من الكفار فى هذه الحياة، وحرمان كثير من المؤمنين المتقين من لذائذها وطيباتها، كل هذا لو لم يكن يعقبه بعث ونشور، وحساب وعقاب وثواب لاستوى الكافر والمؤمن، والطائع والفاجر فى الإفلات، من المساءلة، والجزاء الذى يصبح فيه الكفر والإيمان سواء.

هذه المحالات أنكرها الله تعالى بقوله: **﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض﴾؟ ﴿أم نجعل المتقين كالفجار﴾؟**

أى لا يكون هذا أبدًا؛ لأن الله خلق السموات والأرض بالحق، ولم يخلقها بالباطل.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً؟ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

والاستفهامان اللذان فى الآية للإنكار. وفى ذلك يقول الإمام جار الله:

(أم منقطعة ومعنى الاستفهام فيها الإنكار، والمراد أنه لو بطل الجزاء كما يقول الكافرون لا ستوت عند الله أحوال من أصلح وأفسد، وأتقى وفجر. ومن سوَّى بينهما كان سفيها، ولم يكن حكيماً)[١].

(١) الكشاف: (٣/ ٣٧٢).

وفصل الإمام أبو السعود ما أجمله الإمام الزمخشرى فقال فى الاستفهام الأول:

(أم منقطعة، وما فيها من بل للإضراب الانتقالى من تقرير أمر البعث والحساب والجزاء بما مر من نفى خلق العالم خاليا من الحكمة والمصالح إلى تقريره وتحقيقه بما فى الهمزة من إنكار التسوية بين الفريقين ونفيها على أبلغ وجه وآكده، أى: بل أنجعل المؤمنين المصلحين كالكفرة المفسدين فى أقطار الأرض، كما يقتضيه عدم البعث، وما يترتب عليه من الجزاء لاستواء الفريقين فى التمتع بالحياة الدنيا بل الكفرة أوفر حظا منها من المؤمنين، لكن ذلك الجعل محال. فتعين البعث والجزاء حتما لرفع الأولين إلى أعلى عليين. ورد الآخرين إلى أسفل سافلين[1]. وقال فى الثانى (**أم نجعل المتقين كالفجار**) كلاماً قريباً مما قاله فى الأول. بيد أنه أوجز منه[2].

وقوله: (على أبلغ وجه وآكده) يريد أن النظم الكريم دل على هذا المعنى عن طريق الكناية. أى دل على حتمية البعث بإنكار التسوية بين الفريقين. وهما فى الدنيا متساويان. إذاً فعدم التسوية ستكون فى الدار الآخرة.

وكذلك ذهب بقية الأئمة فحملوا الاستفهامين على الإنكار، وأم على الانقطاع[3].

والخلاصة: أن هذين الاستفهامين للإنكار عند جميع الأئمة. وإذا أضيف إليهما توبيخ من يذهب إلى التسوية بين الفريقين، ثم تهديده ووعيده كان حسنا.

أسرار النظم وبلاغياته:

* (**أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض**)؟ إيثار أداة الاستفهام (أم) هنا على الهمزة، لما فى (أم) من معنى العطف والإضراب والانتقال من تقرير خلق الكون بالحق، والنعى على الذين كفروا لظنهم خلاف ذلك مع النص على التمييز بين الإيمان وأهله، والكفر وأهله والتقوى وأهلها والفجور وأهله، ومُحالية أن يكونوا مستويين عند الله. ففى (أم) من الربط بين ما بعدها وما قبلها ما ليس فى الهمزة لو قيل: أنجعل.

(١، ٢) تفسير أبى السعود: (٧/ ٢٢٤).

(٣) روح المعانى: (٢٣/ ١٨٨)، البحر المحيط: (٧/ ٣٩٥)، التحرير والتنوير: (٢٣/ ٢٤٩).

وإيثار المضارع (**نجعل**) للإيذان بأن عدم المساواة بينهم ستكون فى غير الحياة الدنيا، وهذا هو التعبير الكنائى المدلول به على البعث، وهى من الكنايات التى اصطلحنا على وسمها باللطافة لدقة مأخذها وخفاء مسلكها.

ومقابلة الإيمان وعمل الصالحات بالإفساد فى الأرض مبالغة فى ذم الكفر والمعاصى والتنبيه على أن الكفر والمعاصى هما الإفساد والفساد.

* وفى (**المفسدين فى الأرض**) إدماج لمسمى الكفر ومسمى المعاصى. دُلَّ على هذا الإدماج بذكر الإيمان معطوفا عليه عمل الصالحات. فتعين أن يكون الإفساد متضمنا معنى الكفر المقابل للإيمان، ومعنى المعاصى المقابل لعمل الصالحات. وهذا من بديع الإدماج.

* ﴿**أم نجعل المتقين كالفجار**﴾ إطناب فى المدح والثناء والقدح والذم. لأن (**المتقين**) هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

والفجار هم المفسدون فى الأرض. فتكرار الوصف إطناب المراد منه المبالغة فى وصف الفريقين بما يخص كلا منهما.

والتشبيه فى الموضعين سلبى، وهو نفى المساواة بين الفريقين. والتشبيه السلبى كثير الورود فى النظم الحكيم فى مقامات المقارنات والموازنات.

وفى الآية طباقان ايجابيان بين المؤمنين والمفسدين، وبين المتقين والفجار.

* وفى (**الفجار**) زيادة ذم للمفسدين لما فيه من المبالغة فى اسم الفاعل.

* * *

٥ - ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لاَ نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلأَشْرَارِ * أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلأَبْصَارُ﴾ [ص: ٦٢، ٦٣].

الدراسة والتحليل:

هاتان الآيتان تصوران لقطة من مشاهد يوم القيامة حين يتلفت أصحاب النار فى النار، فلا يرون رجالاً فيها كانوا يجزمون بأنهم من الأشقياء الأشرار، ثم يتساءلون بينهم، ما الذى حدث لنا فمنعنا من رؤيته فلان وفلان وفلان، الذين كنا نعتقد أنهم أشقياء أشرار هل كنا مخطئين حين عددناهم من الأشرار، وكان ذلك سخرية منا بهم، فليسوا هم فى النار؟ أم زاغت عنهم أبصارنا وهم معنا؟

والمفسرون على أن المتسائلين هم صناديد قريش الذين لم يؤمنوا وماتوا على الكفر. وأن المتساءَل عنهم هم فقراء المسلمين كعمار بن ياسر وأضرابه. هذا احتمال وجيه وربما كان المقام أعم من ذلك.

والآيتان فيهما استفهامان على رأى، وثلاثة على رأى آخر. وذلك أن قوله تعالى: **(اتخذناهم سخريا)** قرىء على الإخبار بهمزة واحدة. ومنهم من حمله على حذف همزة الاستفهام، أى: أأتخذناهم سخريا. فإذا جرينا على أنه استفهام كان فى الآية الأولى استفهام واحد. وكان فى الثانية استفهامان.

وأيا كان الأمر فإن الأئمة مجمعون على أن الاستفهام فى الآيتين -اثنان أو ثلاثة- استفهام إنكار بلا خلاف.

وقد أورد الإمام الزمخشرى كلاما نفيسًا فى هذه المواضع فقال: **(وقالوا)** الضمير للطاغين (رجالاً): يعنون فقراء المسلمين الذين لا يؤبه لهم **(من الأشرار)** من الأراذل الذين لا خير فيهم ولا جدوى.. **(اتخذناهم سخريا)** قرىء بلفظ الإخبار على أنه صفة لـ**(رجالاً)**.. وبهمزة الاستفهام على أنه إنكار على أنفسهم وتأنيب لها فى الاستسخار منهم. وقوله: **(أم زاغت عنهم الأبصار)** له وجهان من الاتصال:

أحدهما: أن يتصل بقوله - مالنا - أى ما لنا لا نراهم فى النار كأنهم ليسوا فيها، بل أزاغت عنهم أبصارنا فلا نراهم وهم فيها.

قسَّموا أمرهم بين أن يكونوا من أهل الجنة وبين أن يكونوا من أهل النار، إلا أنهم خفى عليهم مكانهم.

والوجه الثانى: أن يتصل باتخذناهم سخريا. إما أن تكون (أم) متصلة على معنى: أى الفعلين فعلنا بهم؟ الاستسخار منهم أم الازدراء بهم والتحقير، وأن أبصارنا كانت تعلو عنهم وتقتحمهم على معنى إنكار الأمرين جميعًا على أنفسهم...

وإما أن تكون منقطعة بعد مضى اتخاذهم سخريا على الخبر أو الاستفهام. كقولك أنها لإبل أم شاء. «وأزيد عندك أم عندك عمرو»[1].

هذه المواضع الثلاثة من المواضع التى أولاها الإمام الزمخشرى عناية فائقة من حيث تحليل التراكيب الاستفهامية، وتقليب القول فيها.

وخلاصة ما عرضه هنا هو الآتى:

* أن الاستفهام فى صوره الثلاث استفهام إنكار وتأنيب من أهل النار لأنفسهم.
* أن (أم) يجوز فيها الاتصال والاستفهام معها لإنكار الأمرين جميعًا.
* ويجوز فيها الانقطاع والإضراب والانتقال فيها من تصور بعض الأحوال إلى بعض أحوال أخرى، سواء قرىء (**اتخذناهم**) على الخبر أو الاستفهام.

وأيا كان الأمر. فإن الاستفهام حيث كان فهو استفهام إنكار وتأنيب. وقد أصاب الإمام الزمخشرى كل الصواب فيما قال:

* نحا الإمامان أبو السعود والألوسى منحى الإمام جار الله مع تبديل يسير فى العبارات[2].

والخلاصة: أن الاستفهام فى الآيتين للإنكار والتأنيب والتوبيخ. يستوى فى ذلك حمل (**أتخذناهم**) على الخبر أو على الاستفهام. والاستفهام فيه أظهر بدلالة المقام وعلى جَعْل (أم) متصلة أو منقطعة. فإن الإنكار وما أردف عليه لا ينفك عن الاستفهام فى المواضع الثلاثة.

---

(١) الكشاف: (٣/ ٣٨٠).

(٢) تفسير أبى السعود: (٧/ ٣٣٣)، وروح المعانى: (٢٣/ ٢١٨).

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**وقالوا**﴾ الواو عاطفة لهذه الجملة على جملة (**لا مرحبا بهم**) قبل هذه الآية. لأن هذه العبارة (**لا مرحبا بهم**) من مقول الطغاة مثل: (**ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار**).

وما فى قولهم (**ما لنا**) استفهامية. وهذا الأسلوب الاستفهامى - كما تقدم مرات من قبل - إنكار السبب والداعى حيثما وقع. وتلازمه - دائما - الكناية التى وسمناها باللطف. لأن الاستفهام هنا مسلط على سبب عدم الرؤية، وعدم الرؤية كناية عن عدم المرئى وهم الرجال الذين وصفوهم بالأشرار ولم يبصروهم معهم فى النار.

وتنكير (**رجالاً**) للتحقير بدلالة المقام. وإلا لقالوا: الرجال الذين كنا نعدهم من الأشرار.

ولم يقولوا: كنا نعدهم أشراراً، بل قالوا: من الأشرار مبالغة فى وصفهم بالشرية، أى الراسخين أو المتمكن فيهم هذا الوصف.

* ﴿**اتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار**﴾؟ هذه الآية تفصيل للإجمال الذى فى الآية الأولى. فقد تساءلوا فى الأولى عن السبب فى عدم الرؤية، ثم رددوا ذلك السبب المجمل فى احتمالين:

* أن يكونوا قد افتروا عليهم وهم من أهل الجنة.

* أو يكونوا معهم فى النار لكن أبصارهم مالت عنهم فلم ترهم وفيها كنايتان:

الأولى فى (**اتخذناهم سخريا**) لأن فيها إيماءً لطيفا إلى أنهم من أصحاب الجنة.

والثانية فى (**أم زاغت عنهم الأبصار**) كناية أخرى فيها دقة ولطف، كنوا بها عن أنهم معهم فى النار.

وإيثار التعريف بالألف واللام على الإضافة، حيث لم يقولوا: أبصارنا، أفاد غرضين بلاغيين:

الأول من حيث المعنى، وهو أن النار كادت تفنيهم فغابوا عن جميع الأبصار.

والثـانى من حـيث اللفظ، وهـو بناء الفـواصل على حـرف الراء بعـد حـرف المد: ﴿**الأشرار - الأبصار - النار**﴾.

* * *

٦ - ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ، أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية إضـاءة كاشـفة لأمـر غيـبى، وهو مـا حدث من إبليس حين أمـره الله بالسجود لآدم مع الملائكة، فسجد الملائكـة وامتنع إبليس. فوجه الله إليه هذا السؤال التأنيبى الوعيدى (**ما منعـك أن تسجد لما خلـقت بيدى**)؟ قـال الله ذلك وهو يعلم لماذا أمتنع إبليس عن السجود، ليجيب إبليس بما أجاب:

﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ، خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [٧٦].

وليسمع قرار طرده من الجنة:

﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لعْنَتِى إِلَى يَـوْمِ الدِّيـنِ﴾ [٧٧- ٧٨].

والجريمة النكراء التى ارتكبـها إبليس فى حق الله، أنه قَدَّم حق نفسـه -فى زعمه- على حق الله. فالأمر بالسجود صادر من الله فأمتنع إبليس عن السجود لأنه -أى فيه مهانة لنفسـه- ولو كان إبليس من أهل الطاعة والسعادة لقدَّم تـنفيذ أمر الله على حق نفسه.

والاستفهـام فى قوله تعالى: (**ما منعـك أن تسجد لما خلـقت بيدى؟**) استفهام إنكار وتهديد وتوبيخ. أما الثانى ﴿**أستكبرت أم كنت من العالين**﴾ فأم فيه متصلة؛ والمعنى أى الأمرين حملك على عدم السجود ادعاؤك العظمة أم أنت عظيم حقا.

فالهمزة فى (**أستكبرت**) للتقـرير وهو تقرير ادعائه العظمـة. أما: (أم) فللإنكار، وهى لإنكار أن يكون إبليس من العـالين حقا.. هذا ما صـرح به الزمخشـرى حيث

جعل الهمزة فى (**استكبرت**) للتقرير. أما أبو السعود فقد جعلها للإنكار، وتابعه الألوسى[1].

والرأيان متقاربان، والمآل واحد، فالزمخشرى نظر إلى حقيقة الواقع فى نفس إبليس، وهو التكبر، فقال إن الاستفهام للتقرير. وهذا حق.

وأبو السعود والألوسى نظرا إلى الواقع الخارجى، وهو أن الملائكة وهم أكرم عند الله من إبليس أطاعوا الأمر فسجدوا، وإبليس أدنى منازل منهم فما كان له أن يتكبر فقالا - أى أبو السعود والألوسى - إن الاستفهام للإنكار وهذا حق كذلك. اختلف النظران فاختلف الرأيان.

والخلاصة: أن الاستفهام الأول (**ما منعك**) للإنكار والاستدراج، والثانى (**استكبرت**) صالح للتقرير والإنكار على ما تقدم. والثالث: للإنكار.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**قال ما منعك**﴾ فصلت عما قبلها لشبه كمال الاتصال.
* ﴿**لما خلقت بيدى**﴾ تشريف وتكريم لآدم. والمراد من (**بيدى**) أى بدون واسطة أب وأم. وهذا أصوب ما قيل فيه.
* ﴿**استكبرت أم كنت من العالين**﴾ تفصيل بعد إجمال وأم متصلة. والمعنى: أى الداعيين كان السبب فى عصيانك وقد أجاب إبليس معينا الأول، وهو الاستكبار: (**قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين**).

* * *

(١) تفسير أبى السعود: (٧/ ٢٣٦)، وروح المعانى: (٢٣/ ٢٢٦).

سورة الزمر

١ - ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثمانيةَ أَزْوَاجٍ، يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ، ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ، لَهُ الْمُلْكُ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦].

الدراسة والتحليل:

نزلت سورة الزمر بمكة قبل الهجرة بعد سورة سبأ وقبل سورة غافر. وكان ترتيبها فى النزول التاسعة والخمسين بدأت بابطال عقيدة الشرك، واختتمت بوصف مأساة الذين كفروا وهم يدخلون النار، ووصف الذين آمنوا وهم يدخلون الجنة، ثم بإثبات الحمد لله على ألسنة المؤمنين والملائكة وما بين البدء والختام كانت جولات وصولات مع موضوعات القرآن فى العهد المكى.

وفى هذه الآية - موضوع الدراسة - التفات إلى الناس جميعا يذكرهم بأصول النعم عليهم فى الأرض وفى أنفسهم، ليقررهم بوحدانية الله وعظيم سلطانه الذى لا مصرف عنه، بعد أن ذكرهم فى الآية السابقة [٥] بآياته فى الآفاق العليا من خلق السموات والأرض وتكوير الليل على النهار والنهار على الليل، وتسخير الشمس والقمر لمصالح العباد، وكونه عزيزاً .لا يُقْهَر غفاراً لا يقنط عباده من رحمته.

وقد ورد فى فاصلة الآية هذا الاستفهام:

﴿فأنى تصرفون﴾.

وهو استفهام تقدم مرات كثيرة بلفظه ومعناه. وعرفنا أن الأئمة مجمعون على أنه استفهام إنكار، وهو إنكار وقوع لا إنكار واقع. لأن الناس لا ملجأ لهم يلوذون به إذا خرجوا من حظيرة الإيمان بالله العلى الكبير.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **﴿خلقكم من نفس واحدة﴾** الخطاب فى **﴿خلقكم﴾** للناس جميعا ويدخل فيه

المشركـون دخول الطائفة فى عـموم الجنس، وليس خـاصا بهم كمـا ذهب الإمام الطاهـر إذ لا دليل على هذا التخـصيص. ومضمـون الخطاب معان قائمـة بجميع بنى آدم.

والجملة استئناف للانتـقال من الاسـتدلال على وحدانيـة الله بالآيات العلوية إلى الاستدلال بالآيات الأرضية.

* و**(نفس واحدة)** كناية عن أبى البشر آدم عليه السلام والسر البلاغى فيها إظهار طلاقة قدرة الله وبثه الناس جميعا من أصل واحد.

* **﴿ثم جعل منها زوجها﴾** العطف بـ (ثم) للتراخى الزمنى والرتبى بين خلق آدم وخلق حواء.

وأوثر **﴿جعل﴾** على: خلق للإيذان بالفرق بين الخلقين فـخلق آدم كان من (تراب) وخلق حواء كان من آدم نفسه والخلق إيجاد من العدم.

أما الجعل فتشكيل وتصنيع لمادة موجودة مع قرب الشبه بين المصنوع والمصنوع منه.

* **﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمـانية أزواج﴾** عطف للنعم على المنعم عليـه. والواو لمطلق الجمع مع إفادتها - هنا - الترتيب الوجودى بين المعطوف عليه والمعطوف.

وإيثار ذكر الجار والمجرور **﴿لكم﴾** وتقديمه على ما بعده مـسارعة فى الامتنان على العباد بأن المُنَزَّل لنفعهم لا لضرهم.

و**﴿من﴾** فى **﴿من الأنعام﴾** بيانية.

وتقديم المعدود **﴿الأنعام﴾** على العدد **﴿ثمانية أزواج﴾** لما فى لـفظ **﴿الأنعام﴾** من الايحاء بالمسرة، والإشعار بالبشرى والابتهاج.

وفى **﴿أنزل﴾** إما مجاز مرسل بإطلاق المُراد وإرادة الإرادة. أى أن المقصود هو إرادة الله وتقـديره خلق الأنعام لمنـافع الناس لأن الأنعام لم تخـلق فى السمـاء وتنزل إلى الأرض كالماء.

أو استعـارة للتهيؤ والانتفـاع بها وتسخيرها، استـعارة تصريحية تبـعية. وهذا هو الأصوب. ونظيره (وأنزلنا الحديد).

* ﴿**يخلقكم فى بطون أمهاتكم**﴾ استئناف مسوق لبيان كـيْفية الخلق الثانى - التوليد - بعد الخلق الأول - التناسل عن آدم عليه السلام.

وإيثار المضارع ﴿**يخلقكم**﴾ للإيذان بالحدوث والتجدد فى عموم الأوقات.

وفى ﴿**فى بطون أمهاتكم**﴾ تذكير ولفت أنظار إلى عـجائب قدرة الله. وتقرير لدور الأم فى حيـاة الجنين. وأنها مـأوى ومرفًـاً لأولادها. وزيادة تمييز بين الخلـق الجُملى الأول من آدم والخلق التفصيلى الثانى من الأمهات.

وإضافة ﴿**أمهات**﴾ بدل التعريف بالألف واللام إلى ضمـير المخاطبين لتوثيق الصلة بين الأبناء وأمهاتهم ترقيقا لقلوبهم عليهن، ورعاية لحقوقهن.

* ﴿**خلقا من بعد خلق**﴾ كناية عن مراحل تكوين الأجنة فى الأرحام وتطـورها ورقيها من حالة أدنى إلى حالة أعلى، امتنانا على العباد، وترشيحا لرسوخ الإيمان بالخالق العظيم فى القلوب وتنكير ﴿**خلقا من بعد خلق**﴾ للتعظيم والتنويع.

* ﴿**فى ظلمات ثلاث**﴾ هذا من الإعـجاز العلمى. فـقد رُجِّح فى العلم الحـديث أن تكون الظلمات الثلاث هى:

* جدار البطن. * جدار الرحم.

* الغـشاء الداخلى الرقـيق الذى يلتف حول الجـنين فى الرحم للرعاية والوقـاية من الأضرار.

وكان المفسـرون القدامى يرون أن الظلمات الثـلاث هى المراحل التى يمر بها الجنين قبل نفخ الروح فيه:

أربعون يومًا نطفـة - أربعون يومًا علقة - أربعون يومًـا مضغة - وكلا التفـسيرين مقبول.

وإيثار ذكر ﴿**من**﴾ فى ﴿**من بعـد خلق**﴾ إيذان بتمـكين كل مرحلة خَلْقـية. ونفى التداخل بينها.

* ﴿**ذلكم الله ربـكم**﴾ استـئناف مقرر لكمـال قدرة الله وبديع صنعـه، واسم الاشارة الموضوع للمـشار إليه البعـيد لتفـخيم شأن المشار إليـه - هنا - وهو الله عز وجل

وإلحـاق «ميم» الجـمع وتثنية الإخـبـار بـ ﴿الله﴾ و﴿رب﴾ وإضافـته إلى ضـمـير المخاطبين ﴿ربكم﴾ لتقرير وحدانية الله ونفى عقيدة الوثنية بعد التعرض للشرك فى أوائل السورة.

وفى اسم الجلالة ﴿الله﴾ إيحاء بديع إلى جلال سـلطان الله وقهره. وفى ﴿ربكم﴾ رمز إلى إنعامه على عباده بالخلق وحسن الرعاية وإحكام التدبير.

* ﴿له الملك﴾ تقرير بعد تقرير لوحدانيته وتفرده بالتصرف فى الكون.

وفى العبارة قصر صفة ملكية الكون على موصوف هو الله عز وجل أى: له هو لا لغيره.

* ﴿لا إله إلا هو﴾ توكيد معنوى لمعنى الكلام قبله، ولذلك فـصلت الجملة عما قبلها لكمال الاتصال. وفيه قصر الألوهية عليه عز وجل.

* ﴿فأنى تصرفون﴾ كناية عن إنكار حـال المنكر أو مكانه. كـمـا تقدم مـرات. وهى إحدى الكنايات اللطيفة فى النظم الحكيم.

* * *

٢ - ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

الدراسة والتحليل:

بعد أن ذكر الله تعالى أن الناس فريقان: كافر عاص، ومؤمن مطيع. ثم هدد أهل الكفر فى الآيتين السابقتين على هذه الآية وهما:

﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ، وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ، وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ، قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا، إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٧، ٨].

عاد فى الآية موضوع الدراسة، فنفى المساواة بين هذين الفريقين.

فالقانت - وهو المؤمن المطيع الدائم على عبادة ربه له جزاء عند الله يغاير كل المغايرة جزاء من كفر وعصى: فريق فى الجنة وفريق فى السعير.

ودُلَّ على نفى المساواة بينهما بهذا الاستفهام: **﴿أَمَنْ هو قانت آناء الليل ساجدًا وقائمًا﴾** كمن هو كافر عاص. وقد حذف المعادل أو الطرف الثانى من معمول همزة الاستفهام. والذى قدَّرْناه واحداً من وجوه تذكر عادة فى مثل هذا الاستفهام.

وهو استفهام أطبق أهل الذكر على أنه لنفى المساواة بين الفريقين عند الله، ومنهم من يذكر الإنكار مكان النفى. ولا حرج فى ذلك - عموما - لأن النفى إنكار مخفف. والإنكار نفى مشدَّد. وإن كان مقامُ كل منهما يغاير الآخر. وقد أشرنا إلى ذلك من قبل. ونوجزه هنا مرة أخرى:

الإنكار يخاطَبُ به من يدَّعى الشىء الذى سُلِّط عليه الإنكار. كأن يدعى شخص لا علم له بالشعر ولا قرضه أنه قال شعراً سارت به الركبان، فتقول له: أأنت قلت شعرا.

أما النفى فمنظور فيه إلى الواقع الأعم من حال المخاطب شريطة أن يكون غير مُدَّعٍ. كقولك: أيستوى المجد والمهمل، وفى تقدير المعادل المحذوف فى هذا الاستفهام يقول الإمام جار الله:

«أمَّنْ هو قانت كغيره» وإنما حذف لدلالة الكلام عليه وهو جَرْيُ ذكر الكافر قبله، وقوله بعده: **﴿قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾**.

«وقيل معناه: أمَّنْ هو قانت أفضل أمَّن هو كافر؟ أو أهذا أفضل - يعنى الكافر - أمَّنَ هو قانت على الاستفهام المتصل»[1].

ويقول الإمام أبو السعود:

﴿امَّنْ هو قانت آناء الليل..﴾ من تمام الكلام المأمور به. وأم إما متصلة قد حذف معادلها ثقة بدلالة مساق الكلام عليه. كأنه قيل له تأكيدًا للتهديد، وتهكما به: أأنت

---

(١) الكشاف (٣/ ٣٩٠).

أحسن حالاً ومآلاً امَّنْ هو قـائم بمواجب الطاعات. ودائم على أداء وظائف العبادات في ساعات الليل حالتى السراء والضراء، لا عند مساس الضر فقط كدأبك حال كونه ﴿هو﴾ ساجـداً وقائماً أو اسـتئناف وقع جوابا عـما نشأ من حكايـة حاله من القنوت والسجود والقيام. كأنه قيل: ما باله يفعل ذلك ﴿**يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه**﴾.

«وإما منقطعـة. وما فيها من الاضـراب الانتقال من التهـديد إلى التبكيت بتكليف الجواب الملجىء إلى الاعتراف بما بينهما من التباين»[1].

أطال الإمام أبو السعود فى بيان حقيـقة الاستفهام فى الآية. وهو - وإن التقى مع الزمخـشرى - أكـثر تفصـيلاً منه.. وكـلاهما - يريان أن - معناه نـفى المساواة بين الفريقين وتابعهـما الإمام الألوسى، ونقل بعض عبارات أبى السـعود مع الإشارة إلى بعض آراء النحاة فى مفردات التركيب وصفوة ما عنده:

* جواز حمل (أم) على الاتصال والانقطاع.

* الاستـفهـام لنفى المسـاواة بين الفريقين مع التنـبيـه على أن المؤمن المطيع فى أعلى عليين. وأن الكافر العاصى فى أقصى مدارج الشر[2]. وكذلك صنع الأئمة الآخرون.

والخلاصة: أن هذا الاستـفهام - مهـما كان المعادل المحـذوف - استفهـام مجازى مستعمل فى نفى المساواة عند الله - فى الدنيا والآخرة - بين المؤمنين الطائعين والكفار العصاة:

أما فى الدنيـا فإن المؤمن الطائع يرضى الله عنه ويحـفه بألطافه. وأمـا فى الآخرة فينعم الله عليه الإنعام الأبدى فيخلد فى دار الرضوان.

والكافر مغضوب عليه فى الدنيا والآخرة.

ويردف على هذا النفى التهديد والوعيد الشديد.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**أمَّن**﴾ تقدير الاتـصال والانقطاع فى ﴿أم﴾ هنا سـائغ بلاغة. وقـد وضح الأئمة المعنى المراد على الوجهين.

* ومع هذا. فإن الجملة إذا حملت على الاستئناف المسوق لبيان الفوارق بين الفريقين

(١) تفسير أبى السعود: (٧/ ٤٤). (٢) روح المعانى: (٢٣/ ٢٤٦).

كان حسنا وسره البلاغى - فوق هذا - إدماج بشارة المؤمنين ونذارة المشركين.

وكون المعادل المحذوف هو وصف الكافر أَدخَل فى بلاغة النظم من جعله وصف غير المؤمن كما ورد فى أحد تقديرات الإمام الزمخشرى، وهو:

«أهذا أفضل - أى الكافر - أم من هو قانت». لأن فى النظم صوراً أخرى قد تقدمت وسوف تأتى خُرِّجت على ما رجحناه هنا.

* ﴿**هو قانت آناء الليل**﴾ ذكر الضمير ﴿هو﴾ وكان يكفى أن يقال: (أمَّن قانت): جىء به لإصلاح اللفظ من جهة الشكل، ولتقوية الصلة بين المسند إليه ﴿من﴾ الموصوف وبين المسند ﴿قانت﴾ الوصف فى المعنى.

وفى ﴿**آناء الليل**﴾ كناية عن شدة الوطء فى العبادة ومضاعفة الثناء على المتحدث عنه:

﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

* ﴿**ساجدًا وقائمًا**﴾ تقديم السجود على القيام لأن السجود أدخل فى باب العبادة، والجمع بين السجود والقيام طباق إيجاب اقتضاه الحال.

وإيثارهما، وهما اسما فاعل، على الفعل: (يسجد - يقوم) إشارة إلى طولهما، حتى ليُخيل للسامع أنه إذا سجد لا يرفع من السجود، وإذا قام لا يهوى من القيام.

* ﴿**يحذر الآخرة، ويرجو رحمة ربه**﴾ جملة ﴿يحذر﴾ وما عطف عليها إما حال ثانية من فاعل ﴿**قانت**﴾ وإما استئناف بيانى - كما ذكر أبو السعود لوقوعه جوابا عن سؤال نشأ عن الجملة الأولى، حاصله:

لماذا يطيل العبادة؟ فكان الجواب: ﴿**يحذر الآخرة..**﴾ وفيها إيجار بالحذف والتقدير:

يحذر عذاب الآخرة - النار - ويرجو رحمة ربه - الجنة. وهذا من الطباق الخفى البديع لدقة مأخذه ولطف مسلكه.

وتقديم الخوف ﴿**يحذر الآخرة**﴾ على الرجاء ﴿**ويرجو رحمة ربه**﴾ لأن النفوس مما يضرها أفزع، ولطلبه النجاة منه أسرع.

وعلى القــول بالاستئناف البــيانى يكون عطـف جملة: ﴿**ويرجو..**﴾ على جــملة ﴿**يحذر**﴾ للتوسط بين الكمالين لأن الجملتين خبريتان لفظا ومعنى.

* ﴿**قل: هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون**﴾ تصدير هذه الجملة ﴿**هل يستوى**﴾ بفعل الأمر ﴿**قل**﴾ إشارة إلى أهمية المـقول وكونه رسالة خاصة ينبغـى المواجهة بها وتبليغها فور تلقيها.

والاستفهام فى ﴿**هل يستوى**﴾ للإنكار: إنكار المساواة بين أهل العلم وأهل الجهل. وإيثار أداة الاستفهام ﴿**هل**﴾ لتحقيق الإنكار.

وفَصْلُ هذه الجملة ﴿**قل هل يستوى**﴾ عما قبلها له داعيان بلاغيان:

الأول: كونها إنشائية والأولى ﴿**يحذر**﴾ خبرية لفظا ومعنى.

والثانى: كونهـا توكيدا للإنكار فى ﴿**أمَّنْ هو قانت**﴾ وتقـديم أهل العلم على أهل الجهل لشـرف العلم وحقـارة الجهل، وبين ﴿**يعلمون**﴾ و ﴿**لا يعلمون**﴾ طباق سلب اقتضاه مقام الكلام.

وحذف معمولى الفعلين ﴿**يعلمون - يعلمون**﴾ إيجاز حذفى إشارة إلى شرفية العلم فى نفســه، وحقــارة الجهل فى نفســه، وعلى ما ذهب إليــه الزمخـشرى من أن المراد بالعلم العمل، وبنفى العلم ترك العـمل يكون فيهما مجاز مـرسل حيث أطلق السبب وهو العلم، والجهل، وأراد المسبب، وهو العمل والترك.

* ﴿**إنما يتذكر أولوا الألباب**﴾ فيها قصر وفصل: أما القصر فقد قصر صفة التذكر على أصحاب العقول. وأما الفصل فلأن هذه الجملة خبرية لفظا ومعنى، والأولى: ﴿**قل هل يستوى**﴾ إنشائية لفظا ومعنى فبين الجملتين كمال الانقطاع.

* * *

٣ - ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ، أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴾؟

[الزمر: ١٩].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية وردت فى مقام يمكن أن نطلق عليه مقام التسلية والتبصير لمحمد ﷺ. فقد كان - كما حكى عنه القرآن مرات - يتجاوز مرحلة البلاغ إلى مرحلة الإجهاد. إجهاد نفسه وتحميلها المشاق رغبة فى هداية قومه. فهو يعرف لماذا يدعوهم ولماذا ينهاهم ولماذا يأمرهم؟ إنه ينهاهم عن الشر والشقاء الأبدى. ويدعوهم إلى الخير والسعادة الأبدية.

هو يعرف هذا كله. وهم - مع حرصه الشديد على حب الخير لهم - نافرون وليتهم وقفوا عند حد النفور، لكنهم ألحقوا به وبأتباعه الأذى وناصبوهم العداء.

فكانت هذه الآية، يُبَصِّر الله فيها رسوله بأن له مهمة هى البلاغ وأنه ليس فى مقدرته أن يغرس الإيمان فى قلوبهم، أو يهدى من لم يرد الله هدايته لاشترائه الضلالة بالهدى.

والآية - على قصرها - اشتملت على استفهامين هما فى قوة الاستفهام الواحد:

* **﴿أفمن حق عليه كلمة العذاب﴾؟**
* **﴿أفأنت تنقذ من فى النار﴾؟**

وللإمام جار الله الزمخشرى كلام طيب فى تحليل النظم فى هذه الآية، يسعدنا أن نُطلع عليه قارىء هذه الدراسة. قال رحمه الله:

«أفمن حق عليه كلمة العذاب فأنت تنقذه، جملة شرطية دخل عليها همزة الإنكار، والفاء فاء الجزاء. ثم دخلت الفاء التى فى أولها للعطف على محذوف يدل عليه الخطاب تقديره: أأنت مالك أمرهم. فمن حق عليه العذاب فأنت تنقذه؟

والهمزة الثانية هى الأولى، كررت لتوكيد معنى الإنكار والاستبعاد».

فالآية على هذا جملة واحدة، ووجه آخر، وهو أن تكون الآية جملتين:

«أفمن حق عليه كلمة العذاب، فأنت تخلصه»؟ أفأنت تنقذ من فى النار؟.

«وإنما جاز حذف فأنت تخلصه؛ لأن: (أفأنت تنقذ) يدل عليه»[1].

هذا الفهم مقبول، بل هو متعين هنا وفيما أشبهه من هذا التركيب. والذى أوحى إلى الإمام جار الله بهذا التوجيه وجَعْلِه الاستفهام الثانى هو عين الأول، وورود الهمزة فى صدر الجملة الثانية ﴿**أفأنت تنقذ من فى النار**﴾ قبل تمام المعنى؛ لأن ﴿**أفمن حق عليه كلمة العذاب**﴾ شرط مفتقر إلى جواب ولا جواب فى الكلام قبل: ﴿**أفأنت. .**﴾.

وكذلك الفاء فى ﴿**أفأنت**﴾ أمارة على إثارة الذهن عن تصور المعطوف إليه.

وتابع الإمام الزمخشرى الأئمة من بعده، وبخاصة صاحب إرشاد العقل السليم وصاحب روح المعانى: فقد اقتفى أثره الإمام أبو السعود، وكاد ينقل كل ألفاظه، ثم جاء الألوسى، ونهج نهج أبى السعود، وكاد ينقل كل ألفاظه، كما صنع أبو السعود مع الزمخشرى.

أما المعنى الذى ذكره جار الله فهو عمدة ما ردده اللاحقون من حيث إن الاستفهام للإنكار. والثانى توكيد للأول[2].

والخلاصة: أن الاستفهام مجازى، وهو لإنكار هداية من لم يرد الله هدايته، عقابا له على اختياره الكفر على الإيمان.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**أفمن حق عليه كلمة العذاب**﴾ الخطاب فى هذه الآية لصاحب الرسالة الخاتمة ﷺ.

وإيثار الماضى ﴿**حق**﴾ لتوكيد الإنكار.

وتعدية الفعل ﴿**حق**﴾ بحرف الجر ﴿**على**﴾ للإشعار بالمضرة لأن من حقَّ عليه غير من حق له. فاللام للمنفعة، وعلى للمضرة والمعنى: صدقت عليه كلمة العذاب: أى انطبقت عليه وكانت أحواله موجبة للانتقام منه.

وإيثار ﴿**حق**﴾ على: صدق. لما تشعر به الأولى من تقرير العدل ونفى الظلم. ولتضمنها معنى: ثبت واستقر.

---

(١) الكشاف: (٣/ ٣٩٢). (٢) إرشاد العقل (٧٠/ ٢٤٨) وروح المعانى (٢٣/ ٢٤٨).

وإضافة ﴿كلمة﴾ إلـى ﴿العذاب﴾ بيانيـة، أى الكلمة التى يستتبعها العذاب لا الرحمة.

* و﴿كلمة العذاب﴾ كناية عما ورد فى القرآن الكريم فى عـدة آيات منها قوله تعالى:

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩].

* ﴿أفأنت تنقذ من فى النار﴾؟

الهمـزة لإنكار الفاعل (أنت) ولما كـان هـذا الخطاب موجهًا لرسول الله ﷺ، وهو من هو عند الله كرامـة وفضلا، كـان إنكار الفاعل هنا كنايتين لطيـفتين عن كل من:

(أ) أى فاعل ممن عداه.

(ب) إنكار الفعل، وهو الإنقاذ من النار نفسه. لا أن الإنقاذ واقع من غيره ﷺ.

لأن الله عز وجل قدَّر دخول أهل النارِ النارَ، جزاء وفاقا على كفرهم ومعاصيهم.

﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

* ووضع المظهـر ﴿من فى الـنار﴾ موضع المـضمر: تنقـذه لما فى المظهر من تـخويف وترهيب، لأن النار أشد وأقوى وأبشع وسائل العذاب.

ولما فى حرف الجر ﴿فى﴾ المفـيد لانغماس هذا الذى حق عليـه حكمة العذاب فى النار فهى محيطة بهم إحاطة الظرف بالمظروف كما قال عز شأنه:

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩].

وفى الآية من ضروب الإيجاز والاطناب ما فيها:

فكون الفاء الثانيـة عاطفة على محذوف مقدر إيجـاز بالحذف، ووضع المظهر ﴿من فى النار﴾ موضع المضمر (تنقذه) إطناب وكلاهما من البلاغة بمكان.

وفيها من ضروب البيان - على ما ذكره الأئمة - :

(أ) تنزيل المتوقع منزلـة الواقع، لأن دخول النار لم يقع وسوف يقع، ولكن عُـبِّر عنه كما لو كان واقعا. وهذه استعارة فى زمن الفعل.

(ب) تنزيـل محاولات صـاحب الرسالة ﷺ هداية قومـه وتحملـه المشاق فى سـبيلها

منزلة من يحاول إخراجهم فعلا من النار بعد انكبابهم على وجوههم فيها.
استعارة فى معنى الفعل.

(جـ) استعمال هذا الكلام فى التهديد والوعيد الشديد مجاز مرسل، حيث استعمل الإنشاء فى الموضعين، وما ورد فى حيزه من خبر فى إفادة التهديد والوعيد، وهما لطلب الفهم وإفادة فائدة الخبر أو لازمها.

وقد أدمج فى التهديد والوعيد تسلية صاحب الرسالة الخاتمة ﷺ مما يلاقيه من عنت قومه.

* * *

٤ - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّماء مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِى الأَرْضِ، ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصفَرًّا، ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُوْلِى الأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢١].

الدراسة والتحليل:

وردت هذه الآية عقب الآية الآتية ﴿أفمن حق..﴾ وهى شديدة الارتباط بما قبلها. لأن فيها سوقًا لآيات الله عز وجل فيما يراه الناس كثيرا من رحلة الماء الطاهر الذى ينزله الله من السماء إلى الأرض فيستقر فيها جداول وأنهاراً وبحوراً ومحيطات ليكون قريب التناول من أيدى عباده، وينتفعوا به فى أغراض شتى فى حياتهم.

ثم يكون هذا الماء سببا فى إنبات النبات المختلف الثمار والألوان.

ثم يقوى ويشتد ثم تأخذ ألوانه فى الميل إلى الاصفرار فى نهاية دورته بما فيها من منافع لا تحصى.

ثم يتحطم وقد نعم به الناس، وها هى ذى الأرض تخلو منه لكى تستقبل دورة أخرى من الإنبات.

ترى لو كان الله قد أمسك هذا الماء فلم ينزله من السماء، وجفف ما فى أنهارها وبحورها ومحيطاتها. أكانت الحياة تنمو وتستمر؟ أم تنقرض ويكون الناس أول الهالكين.

هذه المشاهد والمناظر يجلوها الله لعـباده لتثبيت المؤمنين ولهداية الضـالين، ولإقامة الحجة على المعاندين، والله لا يريد ظلما للعباد.

والاستفـهام فى صدر الآية تقريرى. والرؤية تنتظم الرؤية البصـرية والرؤيا العلمية معا. ومحال - هنا - فصل إحداهما عن الأخرى.

فالله - عـز وجل - يقرر عبـاده بهذه الحـقائق العظيمـة، ويدعوهم لمعـرفة مكانة النعمة فيـها، وتقدير المنعم بها حق قدره فـيؤمنون به ولا يكفرون. ويشكرون له ولا يجحدون. وهذا ما يلفت أنظارنا إليه عَجُز الآية:

﴿إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب﴾.

وجُلُّ الأئمة الأقدمين لم ينصوا على المراد من الاستفهام - هنا - بيد أن الإمام أبا حيان قال إنه: توقيف للسامع[1]. وهذا قريب من القول بالتقرير.

وقد صرَّح بالتقرير الإمام الطاهر فقال:

«والكلام اسـتـفهـام تقـريرى. والخطاب لكل من يصلح للـخطاب فليس المراد به مخاطبا معينا. والرؤية بصرية»[2].

والخلاصة: أن الاستفهام فى الآية تقريرى توقيفى، وأن الرؤية صالحة لتناول الرؤية بالبصـر، ثم الرؤيا العلمية، ويضاف إلى التـقرير معان ثانيـة أخرى، وفى مقدمـتها الامتنان على العـباد، والتعـريض بأهل الكفر الذين لم يلقـوا بالا للاعتبـار بما ذكر. تعريضاً بهم بالسفه وذهاب العقول.

ثم لفت الأنظار إلى دلائل قدرة الله الموجـبة للإيمان بـه، والامتثـال لما يأمر به أو ينهى عنه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **﴿ألم تر...﴾** استـئناف مسوق للعظة والاعـتبار إمـا بالتمـثيل للحيـاة الدنيا فى ازدهارها وسرعـة زوالها بصـورة الزرع فى نموه واخضـراره ثم يبسـه وزواله، لئلا

---

(١) البحر المحيط (٧/ ٤٢٢).

(٢) التحرير والتنوير: (٢٣/ ٣٧٦).

ينخدع الناس بالدنيا ويركنوا إليها زاهدين فى الحياة الباقية والنعيم المقيم.

وإما تمثيل مسوق لإظهار مآثر قدرة الله وبديع صنعه وعميم فضله على الناس، وأنه القمين بأن يؤمنوا به ويشكروه.

* ﴿**أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض**﴾ توكيد الخبر - هنا - بـ: أن + اسمية الجملة، لأن مضمون الخبر من الآثار الإلهية العظيمة التى من حقها أن تصاغ فى أساليب عظيمة مثلها، ليكافئ الشكلُ المضمونَ.

وإيثار الماضى ﴿**أنزل**﴾ للدلالة على تحقيق الوقوع وتنكير ﴿**ماءً**﴾ للتكثير، والتفخيم والتعميم، لأن الماء فضلا عن أنه سبب استمرار الحياة سبب لكل نعمة.. يتمتع بها العباد فى الحياة. فهو ماء كثير مبارك.

والفاء فى ﴿**فسلكه ينابيع فى الأرض**﴾ أفادت معنيين بلاغيين هما معنياها اللغويان:

* الأول: ترتيب السَّلْك على الإنزال.
* الثانى: تعقيب السلك على الإنزال. وفى هذا تصوير رائع للواقع المحسوس، الذى يألفه الناس فى حياتهم.
* وتنكير ﴿ **ينابيع**﴾ للتكثير والتنويع والتفخيم.
* ﴿**ثم يخرج به زرعًا مختلفًا ألوانه**﴾ عُطِف السلك على الإنزال بالفاء للترتيب والتعقيب، وخولف عطف الاخراج هنا فعطف على الانزال بـ (ثم) لإفادة التراخى الزمنى بين الإخراج والإنزال على بقاء إرادة الترتيب فيها.

وخولف بين الفعلين ﴿**سَلك**﴾ و ﴿**يخرج**﴾ بالمضى والمضارعة لأن إخراج الزرع من الأرض يتجدد ويحدث حالاً فحالاً. ولقصد إحضار الصورة فى الذهن.

وتنكير ﴿**زرعا**﴾ للتكثير والتنويع والتعظيم، وإفراده دون جمعه، حيث قال ﴿**زرعا**﴾ ولم يقل زروعا لمحًا للأصل، وهو المعنى المصدرى، أى: الإنبات من إطلاق المسبب ﴿**زرعا**﴾ وإرادة السبب: الإنبات، لما فيه من دلالة على طلاقة قدرة الله فألمح بالإفراد إلى السبب، وألمح باللفظ (زرعا) إلى المسبب فشملت الدلالة المعنيين معًا. وهذا من بديع الإدماج.

* ﴿**مختلفا ألوانه**﴾ إلماح إلى كثرة أنواعه وتباينها فى اللون والطعم والقيمة الغذائية. وأوثر التباين باختلاف الألوان لأنها أظهر للنظر من تباين الطعوم والأحجام والفوائد الأخرى التى لا تكاد تُحصر.

* ﴿**ثم يهيج فتراه مصفراً**﴾ الزروع ذات المواسم، كالقمح والشعير إذا نضجت جفت أعوادها فخفت، فترى تحريك الريح لها أبين وأظهر. وتسمع لحركاتها صوتا ملحوظا. وهذا ما نرجح وصف الزرع به فى قوله تعالى ﴿**يهيج**﴾ أى يتحرك بعمل الرياح حركات تشبه هياج الهائج وثورة الثائر من ذوى الحياة.

ويُقوِّى هذا الفهم قوله تعالى ﴿**فتراه مصفراً**﴾ فالعطف بالفاء يفيد أن رؤية الزرع مصفراً مقارنة لحالة الهياج.

وإسناد ﴿**يهيج**﴾ إلى ضمير الزرع (**هو**) مجاز عقلى علاقته المفعولية. لأن الرياح هى الفاعل لتحريكه وتمايله.

* ﴿**ثم يجعله حطاما**﴾ العطف بـ ﴿**ثم**﴾ فى ﴿**ثم يخرج به**﴾ إلى ﴿**ثم يجعله حطاما**﴾ عطف مراحل لا عطف مفردات. والحطام الدراس المتكسر من أعواد الزرع بعد حصده واستخراج ثماره.

وتنكير ﴿**حطاما**﴾ للتحقير والتكثير.. وهو من أظهر مواطن التذكر والاعتبار فى الآية.

وإسناد ﴿**يجعل**﴾ إلى الضمير العائد على اسم الجلالة ﴿**الله**﴾ للإيذان بأن المبدأ، وهو الإخراج، منه عز وجل.

وأن المصير، وهو الحطام، منه عز وجل. أما ما بين المبدأ والمصير فقد أسندت فيها الأفعال إلى فاعليها بإقدار الله لها على الفعل.

* ﴿**إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب**﴾.

أكد الخبر بـ «إن واسمية الجملة ولام التوكيد» لأن مضمون الخبر من الحقائق العظيمة التى يصوغها القرآن فى أساليب عظيمة مثلها. وللإيحاء بالاعتبار من هذه الآيات والعبر على وجه الايجاب.

وإيثار اسم الاشارة ﴿ذلك﴾ الموضوع للمشار إليه البعيد تعظيم وتفخيم للمشار إليه به تنزيلاً لبُعْدِ المكانة منزلة بُعْد المكان.

ودخول حرف الجر ﴿فى﴾ المفيد للظرفية. مؤذن بأن فى الكلام استعارة بالكناية. شبِّه فيها المشار إليه بظرف. والذكرى بمظروف فى ذلك الظَّرف. اعتناء بشأنها وتفخيما لها، لعل الناس يقبلون على تدبرها والانتفاع بها دينًا كما انتفعوا بها دنيا وتأخير ﴿أولى الألباب﴾ لتوافق فواصل الآيات ولأهمية ما قُدِّم عليه.

* * *

٥ - ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ، فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللهِ، أُوْلَئِكَ فِى ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

الدراسة والتحليل:

بعد أن تقدم الحديث مرات فى هذه السورة عن أصحاب الإيمان والطاعة، وأهل الكفر والعصيان، وكان النظم قد ذكر ما أعده الله لكل فريق، ثم ذكر فى الآية [١٩] دلائل من دلائل الإيمان عاد هنا يُفَرِّق مرة أخرى بين من يهديه الله ويوسع صدره للإيمان والطاعة، ويجعله على بصيرة من أمره يمضى فى حياته على هدى من الله فيجنى من الخيرات ما يسعده فى العاجل والآجل، وبين من جُعِل كفره بين عينيه وركب متن الباطل. أن الفريقين محال أن يلتقيا ويكونا سواء عند الله.

والاستفهام فى قوله عز وجل:

﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾ للنفى والإنكار. أى لا يستوى المؤمن المطيع والكافر العاصى، ويُردف على الإنكار معنيان متقابلان هما:

* بشارة المؤمنين المهتدين بهدى الله.

* ونذارة وتهديد الكفرة الفجرة.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام..﴾ الفاء عاطفة على مقدر ينسحب عليه الكلام.

وقد قدره الإمام أبو السعود فقال:

«أكل الناس سواء، فمن شرح الله صدره.. كمن قسا قلبه..»[1].

وفى ﴿شرح﴾ استعارة لـ: وسَّع. وهذا التوسيع مجاز ثان (استعارة) لجعل الصدر قابلا للإيمان بالله مستمرا على سلامة الفطرة التى فطر الله الناس عليها فهو مجاز المجاز.

وفى كلمة ﴿صدر﴾ مجاز مرسل؛ لأن المراد بالصدر القلب والعلاقة هى المجاورة.

ويجوز أن يكون المجاز فيه عقليا والعلاقة المكانية لأن الصدر مكان القلب.

وهى نسبة إيقاعية حيث أُوقع الشرح على الصدر وهو واقع على القلب.

وأوثر الإسلام على الإيمان - وهو العمل القائم على الإيمان، إشعارًا بكمال الهداية: الاعتقاد القلبى الجازم المطابق للواقع، الناشىء عنه عمل الجوارح من صلاة وزكاة وصيام وحج وجهاد..

* ﴿فهو على نور من ربه﴾ الفاء تفريعية مشعرة بأن ما قبلها سبب فيما بعدها.

و﴿على نور من ربه﴾ إما استعارة بالكناية شبه فيها النور بمطية ذلول يستعين بها راكبها على قضاء منافعه فى سرعة ويسر، وحذف المشبه به ورمز إليه بلازم من لوازمه هو حرف الجر ﴿على﴾ وسرها إخراج المعنوى فى صورة الحسى اعتناًء به وتمثيلا لمعناه.

وإما استعارة تمثيلية شبهت فيها الهيئة المركبة من العلم بمنهج الله فى الحياة وتطبيقه فى كل قول وعمل مع اطمئنان القلب بالهيئة الحاصلة من امتطاء مطية يصرفها راكبها فى قضاء منافعه مع اليسر والطمأنينة.

والجامع بين المستعار والمستعار له هو كمال التمكن مع إصابة المراد والشعور بالسعادة والنور مستعار للإيمان أو الهداية أو العلم، وهو استعارة تصريحية أصلية. والجامع هو وضوح الرؤية فى كل منهما ونسبة ﴿نور﴾ إلى ﴿رب﴾ وإضافة ﴿رب﴾ إلى ضمير المشروح صدره للإسلام لتشريف ذلك النور وتفخيم أمره.

ثم لبيان مصدر النور (أى فى الإضافة) والإشارة إلى كمال النعمة.

---

(١) تفسير أبى السعود (٧/ ٢٥١).

وفى حذف الخبر المقدر إيجاز ذو معنى بديع. وهو الإيماء إلى أن شرح الله صدره للإسلام لا يوجد له مساوٍ لا فى اللفظ (لأنه محذوف) ولا فى الواقع؛ لأنه (منعدم) فعلا.

والعبارة مع ملاحظة المحذوف تشبيه سلبى مرَّت صوره كثيرا فى ما سبقت دراسته من الآيات الحكيمات والذى نضيفه - هنا - لأول مرة:

إن هذا التشبيه (السلبى) يقترن فى النظم القرآنى الحكيم بالصور الاستفهامية إلا نادرًا كما فى قوله تعالى:

﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ [آل عمران: ٣٦].

* ﴿**فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله**﴾ استئناف مسوق لبيان مصير من اشترى الضلالة بالهدى.

وتنكير ﴿**ويل**﴾ للتهويل والتبشيع والتشديد فى الوعيد، وقسوة القلوب كناية عن الكفر، وأوثرت على التصريح بالكفر لذم الكفر واشتماله عليها. وإيثار الاسم: ﴿**القاسية**﴾ على الفعل للدلالة على أن قسوة قلوبهم متمكنة فيهم، ودائمة لا يختص بها وقت دون وقت.

* ﴿**من ذكر الله**﴾ هذه العبارة صالحة - مع بديهة النظر - أن تكون صلة لـ ﴿**فويل**﴾ أو صلة لـ ﴿**للقاسية قلوبهم**﴾ فإن كانت صلة للأولى فالمعنى كما يلوح لنا: فويل لهم من تركهم ذكر الله. ففيها إيجاز بالحذف.

وإن كانت صلة للثانية فالمعنى كما لاح لنا: القاسية قلوبهم من سماع ذكر الله. وهذا المعنى ذكره بعض الأئمة ووجهه عنده قوله تعالى:

﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥].

والأولى الاستشهاد بما ورد فى هذه السورة:

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ، وإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِه إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

أى الذين تقسو قلوبهم إذا ذُكِّروا بآيات الله. وعلى هذا فإن فى ﴿ذكر الله﴾ كناية عن القرآن إذا سمعوه.

والإضافة فى ﴿ذكر الله﴾ بيانية.

* ﴿أولئك فى ضلال مبين﴾ إيثار اسم الاشارة. ﴿أولئك﴾ الموضوع للمشار إليه البعيد للإعلام ببعدهم عن الحق، وعن ألطاف الله فى الدنيا ورضوانه المقيم فى الآخرة.

* و﴿فى ضلال مبين﴾ استعارة بالكناية شُبِّه فيها كثافة ضلالهم بالمظروف السميك، وهم مظروفون فيه وسرها شدة إحاطة الضلال بهم. ثم حذف المشبه به ورمز له بلازمه، وهو حرف الجر ﴿فى﴾ المفيد للظرفية.

* * *

٦ - ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُم تَكْسِبُونَ ﴾ [الزمر: ٢٤].

الدراسة والتحليل:

من خصائص سورة (الزمر) هذه كثرة التقابل والتنظير بين المؤمنين الطائعين، والكفرة الفجرة. وفى هذه الآية تكرار لما تقدم فى السورة من التقابل بين الفريقين فى أساليب استفهامية وغير استفهامية.

وفى الآية السابقة [٢٢] كان المثبت وصف المؤمنين والمحذوف وصف الكافرين.

وفى هذه الآية كان المثبتُ وصفَ الكافرين، والمحذوف وصف المؤمنين.

وهذا - فضلا عن اقتضاء المعنى إياه · تفَنُّنٌ فى التعبير بين المواضع المتشابهة. دفعًا للتكرار على نَسَقٍ واحد وتجديدًا للنشاط الذهنى.

والحذف - عموما - فى النظم القرآنى الحكيم حذف بلاغى لا يُصار إليه إلا لداع يرجِّح الحذف على الذِّكر، ويكون فى الكلام دليل عليه من النقل أو العقل، أو هما معًا، وذلك الدليل إما أن يعين المحذوف تعيينًا جليا، أو يشير إليه ويترك للعقل تعيين المحذوف بعد الايماء إلى نوعه.

وعلماء البلاغة يطلقون على الحذف الذى لا يقتضيه داعٍ بلاغى، يرجح أو يوجب

الحـذف على الذكر. يطلقـون عليه مـصطلح: «الحـذف اعتـباطًا» لخلوه من الحكمـة البيانية، كما يطلقـون على الحذف الذى ليس فى الكلام ما يدل عليه تحديدًا أو نوعا: الحذف إجحافًا. والنظم الحكيم يخلو من كـلا النوعين: الاعتباط والإجحاف. والآية موضوع الدراسـة من أبرز الشواهد على هذا، لأن المحذوف فـيها هو الخبـر بعد ذكر المبتدأ. وملاحظة ورود المبتدأ دليل قاطع على أن له خبرًا محذوفا.. وهو - كما قدره الزمخشرى- هنا:

«كمن هو آمن من العذاب»[1] وكذلك كان المحذوف فى الآية السابقة.

أما الداعى البلاغى للحذف فسنذكره فى مبحث أسرار النظم.

والاستفهام فى الآية - عند جـميع أهل الذكر - لنفى المساواة بين الفريقين. وهذه خلاصة ما قيل أو يقال فيه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة**﴾؟

فى الآية السابقة: (**أفمن شرح الله صدره للإسلام**..).

أوثر ذكر وصف المؤمنين مقدما، أى روعى فيه خصوصيتان بلاغيتان:

* الذكر، ثم التقديم.

وأوثر فى مقابلة وصف الكافرين - الخصوصيتان الآتيتان:

* الحذف، ثم التأخير.

وفى هذه الآية - موضوع الدراسة - جـاء النظم الحكيم بالعكس فوصف الكافرين جىء به مذكورًا مقدما.

ووصف المؤمنين جىء به مـحذوفـا مـؤخرا، ونسـأل هذا السؤال، ثم نحـاول - مجتهدين - الإجابة عليه.

السؤال: لماذا عكس النظـم الحكيم ذلك النسق البـيـانى بين الوصـفين؟ ومـا سـره البلاغى؟

---

(١) الكشاف (٣/ ٣٩٦).

الجواب: وهو مكون من (أ) و (ب):

أما:

(أ) فإن إيثار ذكر وصف المؤمنين مقدما فى الآية السابقة، فلأنه قبل وصفهم جاء قوله تعالى فى جملة فاصلة الآية التى قبله:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لِذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ أى أصحاب العقول المستنيرة. فناسب ذلك ذكر وصف المؤمنين مقدما، للإيذان بأنهم هم - لا غيرهم - أولوا الألباب.

وحذف وصف الكافرين - مع تأخيره - إشارة إلى أنهم مسلوبو العقول. فلا وجود لهم فى هذه الساحة الشريفة.

وأما:

(ب) أما إيثار ذكر وصف الكافرين مقدما فى هذه الآية فلأن جملة الفاصلة فى الآية التى قبلها [٢٣] جاء فيها قوله تعالى:

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ فناسب هذا أن يذكر وصف الكافرين مقدما، إيذانا بأنهم - هم لا غيرهم - الذين أضلهم الله فما لهم من هادٍ يهديهم بعد الله أبدًا، ثم أوثر حذف وصف المؤمنين وهو مؤخر لبعدهم عن هذا الإضلال المؤبد؟

تأمل - عزيزى القارئ - هذه الدقائق والأسرار السارية فى هذا النظم القرآنى المعجز المقنع الممتع. واهتف معى ما وسعنا الهتاف ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ، وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ، فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٤].

سبحانك ربنا: ما أحسن كلامك، وما أوسع علمك، يا أحكم الحاكمين.

وكنا قد وعدنا - آنفا - ببيان الدواعى البلاغية فى حذوفات القرآن. وهذا الذى هدانا الله إليه - هنا - هو الوفاء بذلك الوعد، ولله - وحده - الفضل والمنة.

* ﴿يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة﴾ للإمام جار الله الزمخشرى بيان رائع لذكر الوجه آلة للاتقاء فى الآية.

خلاصته: أن الإنسان فى الدنيا يدفع السوء عن وجهه بيده، ويحامى بها عنه؛ لأنه - أى الوجه - أعز عضو فيه وهذا الوجه الذى كان يُحامى عنه فى الدنيا يصير آلة لدفع العذاب يوم القيامة، وفى هذا من المهانة والاذلال ما فيه. ثم يجيب عن سؤال يثور فى النفس: وأين يده التى كان يُحامى بها فى الدنيا؟ ويجيب: إن أهل النار يدخلون النار وأيديهم مغلولة بالسلاسل. فلم يبق لهم شىء يدفعون به العذاب عن وجوههم.

ونضيف إلى هذا البيان الرائع. أن المراد بقوله تعالى ﴿**يتقى**﴾ ليس دفع العذاب. بل تعرض الوجه نفسه للعذاب فاستعير الاتقاء بالوجه لملامسة العذاب وجوههم. وهى - على هذا - استعارة تهكمية مؤلمة.

وإضافة ﴿**سوء**﴾ إلى ﴿**العذاب**﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف، أى العذاب المسيئ. والإضافة أبلغ من الوصف لإشعارها بالسوء من أول الأمر.

* ﴿**وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون**﴾ ذهب الإمام الألوسى إلى أن ﴿**قيل**﴾ من وضع الماضى موضع المضارع، وأن الأصل: (ويقال) وسره البلاغى تحقق الوقوع، فهو استعارة فى زمن الفعل. والواو عاطفة على ﴿**يتقى**﴾ أى: يتقى ويقال للظالمين.

وعلى هذا يكون المحذوف المقدر: كمن هو آمن من العذاب كالاعتراض بين المعطوف عليه والمعطوف.

* وإيثار ﴿**الظالمين**﴾ لما فيه من تعليل استحقاق العذاب الذى يتقيه الظالمون بوجوههم.

وبناء الفعل: ﴿**قيل**﴾ لما لم يسم فاعله؛ لأن الغرض حاصل بالقول نفسه دون التوقف على تعيين الفاعل.

* أما قوله ﴿**ذوقوا**﴾ فاستعارة تصريحية تبعية، والمستعارة له شدة الإحساس بالألم، ويجوز أن تكون استعارة بالكناية للتهكم بهم، فشبِّه ما يلاقونه من العذاب بالطعام الذى لا يستغنى عنه لشدة الحاجة إليه، ثم حذف المشبه به ودُلَّ عليه بلازمه وهو

الذوق، ويقوى هذا الوجه قوله تعالى فى وصف عذاب أهل النار:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ* طَعَامُ الأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِى فِى الْبُطُونِ* كَغَلْىِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣ - ٤٦].

* ﴿ما كنتم تكسبون﴾ كناية عن عملهم فى الدنيا. وفيه إيجار بالحذف. حذف المضاف، والتقدير: ذوقوا عقاب أو عذاب كسبكم.

* * *

٧ - ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلاً فيه شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً، الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

الدراسة والتحليل:

سوق الأمثال فى القرآن من طرائقه البارزة فى الايضاح والكشف عن غوامض المعانى. وقد أشاد القرآن بهذه الطريقة التى تقرب المعانى وتجعلها ماثلة، مثول الشمس أمام البصر والفكر، وأمثال القرآن - عموما - أنجم ساطعة فى سماء البيان.

والآية - موضوع الدراسة - تعرض مثلا من تلك الأمثال التى أولاها الدارسون - قديمًا وحديثا - عناية فائقة ودرسوها مجموعة ومفرقة كابن قيم الجوزية، ومن قبله شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية. وحديثا سماحة الشيخ عبد الرحمن الميدانى (ابن حبَّنَكة. وغيرهم كثير.

والمثل المضروب فى الآية مسوق للتفرقة بين عيوب عقيدة الشرك، وحقائق عقيدة التوحيد ومزاياها، المشرك فى هذا المثل مشبه برجل (رقيق) مملوك لجماعة من الشركاء المختلفى الطبائع والأهواء. هذا يأمره وذاك ينهاه. هذا يناديه وذاك من ناحية أخرى يناديه.

إن أرضى واحداً أغضب آخر، وإن أغضب واحدا أرضى آخر، ولكل واحد من الشركاء سلطان عليه، وشركة فيه فماذا يصنع حتى يحوز رضاهم أجمعين مع اختلاف مقاصدهم منه؟

وفى فقه هذا المثل يقول الإمام جار الله الزمخشرى:

«والمراد تمثيل حال من يثبت آلهة شتى، وما يلزمه على قضية مذهبه من أن يدعى كل واحد منهم عبوديته، ويتشاكسوا فى ذلك ويتغالبوا، كما قال تعالى - ولعلا بعضهم على بعض - ويبقى هو متحيرا ضائعا لا يدرى أيهم يعبد، وممن يطلب رزقه.. فَهَمُّهُ شعاع، وقلبه أوزاع.

وحال من لم يثبت إلا الها واحدًا فهو قائم بما كلفه عارف بما أرضاه وما أسخطه، متفضل عليه فى عاجله، مؤمل للثواب فى آجله»[1].

وبعد أن لخص الإمام أبو السعود كلام الإمام الزمخشرى قال **﴿هل يستويان مثلا﴾** إنكار واستبعاد لاستوائهما ونفى له على أبلغ وجه وآكده، وإيذان بأن ذلك من الجلاء والظهور، بحيث لا يقدر أحد أن يتفوه باستوائهما أو يتلعثم فى الحكم بتباينهما ضرورة أن أحدهما فى أعلى عليين، والآخر فى أسفل سافلين»[2].

وجوز الإمام الطاهر أن يكون الاستفهام فى قوله تعالى: **﴿هل يستويان مثلا﴾** للتقرير والإنكار ولم يبين وجه هذا التجويز[3].

والخلاصة: أن الاستفهام فى الآية استفهام إنكار ونفى، أى: لا يستوى مثلا هذان الرجلان. أما التقرير الذى جوَّزه الإمام الطاهر فلا وجه له إلا إذا تكلف.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **﴿ضرب الله مثلا﴾** سوق المثل فى القرآن بصيغة الضرب منسوبا إلى الله عز وجل أو صادرًا منه له حالات فى النظم الحكيم.
* منها هذه الحالة، وهى أن يساق المثل بالفعل الماضى من مادة (ض - ر - ب) مسنداً إلى الله عز وجل هكذا.. **﴿ضرب الله مثلا﴾**.
* ومنها أن يساق بعد الفعل المضارع (يضرب) وعليه جاء قوله عز وجل مسندا فيه الفعل إلى اسم الجلالة: الله.
* **﴿.. كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ﴾** [الرعد: ١٧].

---

(١) الكشاف (٣/ ٣٩٦ - ٣٩٧).

(٢) تفسير أبى السعود (٢٣/ ١٥٣).

(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ٤٨٢).

* ومنها أن يساق المثل مسندا فيه الفعل إلى ضمير اسم الجلالة ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

* ومنها مجيء الفعل مبنيا لما لم يسم فاعله مع إسنادها - قطعا - إلى ضمير اسم الجلالة.

﴿يَا أَيُّها النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ. .﴾ [الحج: ٧٣].

* ومنها أن يكون الفعل فِعْلَ أمر فاعله هو الله عز وجل، والمأمور رسوله الكريم ﷺ:

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ. .﴾ [يس: ١٣].

فالفعل المصوغ من مادة (ض - ر - ب) لا ينفك عن المثل المحكى عن الله فى النظم الحكيم. وسر هذا اللزوم هو الاعتناء بمضامين الأمثال التى يضربها الله لعباده وللدور العظيم الذى تؤديه فى مجال الدعوة من الالزام والافحام وتبصير المؤمنين بحقائق الإيمان. هذا فى الأمثال النازلة من الله لعباده. أما الأمثال التى يحاول أصحابها تمويه الحقائق بها، أو إظهار التعالم والتطاول على الله. فلا يشار إليها فى القرآن إلا فى مقام الذم أو النهى عنها:

فالأول كقوله تعالى فى وصف حجاج مشركى العرب فى شأن عيسى عبد الله ورسوله.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَومُكَ مِنهُ يَصِدُّونَ* وَقَالُوا آلِهَتُنَا خَيرٌ أَمْ هُوَ، مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً، بَلْ هُمْ قَومٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٧ - ٥٨]، أى ما ضربوه مثلا إلا للجدل، ومثال الثانى:

﴿فَلاَ تَضْرِبُوا للهِ الأَمْثَالَ، إن الله يَعْلَمُ وَأَنتُم لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤].

والضرب للمثل مستعار لذكره، أى أذكر لهم مثلا.

وسر هذه الاستعارة - كما تقدم - تشبيه ذكر المثل - لقوة تأثيره فى النفوس - بالضرب لما فيه من شدة الاحساس الذى يشعر به المضروب.

وفى الآية استعارتان تمثيليتان (مركبتان) الأولى تشبيه حال المشرك بالله بالعبد

المملوك لعدة شركاء. والجامع هو شدة العناء مع خيبة الرجاء وتوزع الأهواء.

والثانية شبه فيها حال المؤمن الموحد لله بحال المملوك لرجل واحد عادل رحيم، والجامع السلامة من العناء مع نجاح الرجاء وقرار النفس، وإيثار الذكورة (رجلا) فى المثلين لجرى النظم القرآنى على ذكر الرجل رمزًا للنوعين فى المعانى العامة .

* ﴿**هل يستويان مثلا**﴾ الاستفهام إنكارى كما تقدم وإيثار ﴿**هل**﴾ لتحقيق الإنكار، أى: لا يستويان قطعا.

* ﴿**الحمد لله**﴾ إثبات الحمد لله عقب سوق هذين المثلين المضروبين لحال المشرك وحال المؤمن، تثبيت للمؤمنين على الحق. وتعريض بالمشركين الذين اتخذوا مع الله أو من دونه آلهة.

والألف واللام فى ﴿الحمد﴾ للاستغراق، أى أن كل الحمد مختص به الله. نصرًا لعقيدة التوحيد، على عقائد الشرك والوثنية.

* ﴿**بل أكثرهم لا يعلمون**﴾ انتقال من إثبات التباين بين المؤمنين الموحدين، والمشركين، إلى بيان السبب فى اتخاذهم غير الله آلهة. وهو جهل من عبد من دون الله أربابا.

وإيثار ورود الخبر فعليا ﴿**لا يعلمون**﴾ لتوكيد وصفهم بالجهل بتكرير الإسناد إلى المسند إليه ﴿**أكثرهم**﴾ مرة أُسند الخبر إليه بواسطة الضمير، لأن واو الجماعة العائد عليهم هو الفاعل.

ومرة بإسناد جملة الخبر - برمتها - إلى المبتدأ وهذا فى قوة أن يقال: بل أكثرهم جاهلون والضمير فى ﴿**أكثرهم**﴾ إما للناس جميعًا، ويكون ﴿**أكثرهم**﴾ هم المشركين، وإما للمشركين.. ويكون أقلهم مشركا مع علمه ببطلان الشرك.

* * *

٨ - ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ [الزمر: ٣٢].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية إحدى الآيات الست عشرة التى وردت فيها هذه الصورة الاستفهامية التى على وزن (أفعل) بعد (فمن) أو (ومن) وكنا قد درسنا هذه الآيات مجموعة فى موضع واحد، وقد هدانا الله إلى فَهم جديد فيها، زال معه - يقينا - ما أثير حولها من «إشكال»[١].

لذلك نعفى أنفسنا - هنا - من تكرار ما تقدم فيها توخيا للإيجاز أما الاستفهام الثانى:

(أليس فى جهنم مثوى للكافرين) فهو جديد لم نعرض له من قبل، ومذهب أهل الذكر فيه معروف. وهو أنه استفهام تقرير أصالة.

لأن النفى بهمزة الاستفهام نفى النفى الحاصل بـ (ليس) فعاد الكلام إثباتا.

ويردف على هذا التقرير التهديد والوعيد الشديدان.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **﴿فمن أظلم﴾** لما ذكر الله فى الآية السابقة على هذه الآية مباشرة اختصام الناس عند ربهم يوم القيامة، بدأ فى هذه الآية ببيان أظلمية الذين كفروا، ليجاور وصفهم المبدوء به جهلهم المنصوص عليه - قبلا - فى قوله تعالى: **(ولكن أكثرهم لا يعلمون)**.

وقد وصف هذا (الأظلم) بوصفين هنا:

* الكذب على الله. * التكذيب بما أنزل الله. وهما وصفان يجمعهما الكفر بالله.

وتقديم الكذب على الله على التكذيب بما أنزل الله؛ لأن الكذب على الله أشنع وأقبح؛ لأن الذى يكذب على الله لا عذر له قط، بل هو يكذب متعمدًا عالما بأنه كاذب.

---

(١) انظر (١/ ٢٨١) من هذه الدراسة.

أما التكذيب بما أنزل الله، فقد يكون لشبهة تخامر المكذِّب. وسرعان ما تزول.

فالكذب على الله، والتكذيب بما أنزل الله كلاهما كفر مع الفارق اليسير الذى أشرنا إليه، لا للاعتذار عن المكذبين بما أنزل الله، ولكن لبيان احتمال ذكرناه للإنصاف، ولبيان السر البلاغى فى تقديم الكذب المتعمد على الله، على التكذيب، لأول وهلة - بما أنزل الله.

وفى قوله تعالى: ﴿**إذ جاءه**﴾ إشارة إلى أن هذا المكذب بما أنزل الله قد تمكن من معرفة الحق والاستماع إلى آياته فكفر عن عِلم.

وفى ﴿**الصدق**﴾ كناية عن موصوف، هو القرآن، وأوثرت الكناية - هنا - لاقترانها بالدليل، وهو النص على وصف القرآن بالصدق، أو هو الصدق نفسه، لعدول النظم عن اسم الفاعل: (الصادق)، إلى المصدر (الصدق).

* ﴿**أليس فى جهنم مثوى للكافرين**﴾ استئناف مسوق لبيان مآل أهل الكفر، وتقديم ﴿**فى جهنم**﴾ على ﴿**مثوى للكافرين**﴾ لتهويل سوء مصيرهم، حيث بيَّن من أول الأمر أن مثواهم فى جهنم، لأن المثوى إذا لم يكن فى مقر العذاب فلا سوء فيه.

ثم أفاد هذا التقديم قصر مثواهم على جهنم، أى: مثواهم فى جهنم ليس فى غيرها.

وتنكير ﴿مثوى﴾ للتفظيع والتبشيع.

كما ترتب على هذا التقديم - بعد المعنى الذى أفاده وهو القصر التوطئة لتوافق الفواصل فى الآيات من حيث الانسجام الصوتى:

(تختصمون - للكافرين - المتقون).

* * *

٩ - ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ، وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ، وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَمَن يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ﴾
[الزمر: ٣٦ - ٣٧].

الدراسة والتحليل :

فى هاتين الآيتين تثبيت وتسلية للنبى ﷺ إزاء تخويف المشركين إياه. وتقرير لسنتين من سنن الله فى العباد.

فمن لم يهده الله فلا هادى له من دون الله، ومن يهده الله فلا يضله أحد. والله قدير على نصرة أوليائه ودحر أعدائه، وفى الآية تَصدَّرَ هذا الاستفهام:

﴿أليس الله بكاف عبده﴾؟

وفى الثانية جاء فى عجزها هذا الاستفهام:

﴿أليس الله بعزيز ذى انتقام﴾.

والاستفهامان معًا للتقرير، كما مر توجيه التقرير فى نظيرهما من قبل. ومن جعلهما للإنكار جعله مسلطا على عدم الكفاية.

الأول : للتقرير بكفاية الله من شاء من عباده. ويردف على هذا التقرير: تسلية النبى ﷺ وتثبيته.

والثانى: للتقرير بعزة الله وقوة انتقامه من أعدائه، ويردف على هذا التقرير تهديد مناوئى الدعوة وخصوم الإسلام. وهذه خلاصة ما قيل أو ما يقال فيهما.

أسرار النظم وبلاغياته :

* **﴿أليس الله بكاف عبده﴾** الخصومة بين رسل الله وبين كثير من المرسل إليهم سمة من سمات الدعوات والرسالات السماوية دائما والرسول - أى رسول - حين يبعث إلى قومه يصول ويجول فى الميدان وحده، فهو فى حاجة إلى رعاية الله وحفظه وتأييده وكف الأذى عنه.

وهذا ما نلحظه - هنا - فى سورة (الزمر) فبعد الصراع الذى بدأ مع أوائل السورة، والمواقف السيئة التى وقفها المشركون من حقائق الإيمان. نجد هذه الآية تبادر

إلى تثبيت قلب النبى ﷺ، وتزرع الأمل، وتبث الأمن فى نفسه.

* ﴿**أليس الله بكاف عبده**﴾ وقد اقتضى المقام - هنا - دخول حرف الجر (الباء) على خبر (ليس) وهو (كاف) ولهذا الدخول (الجائز نحويا) فائدتان، إحداهما تعود على المعنى، والأخرى على اللفظ.

أما التى من حيث المعنى؛ فهى توثيق الصلة بين المسند إليه والمسند. ومحال أن يكون دخولها وعدم دخولها سواء فى النظم الحكيم. هذا وإن جاز فى كلام عادى البشر لم يجز بحال فى كتاب الله.

وأما التى من حيث اللفظ، فإن (الباء) لو لم تكن هنا لوجب ظهور نصب ليس هكذا: أليس الله كافيًا عبده ولكان فى هذا تطويل بين كفاية الله وبين من أراد الله كفايته: تطويل من حيث اللفظ. وتوطيل من حيث الزمن. وهذا من دقائق الأسرار فى كتاب الله العزيز.

* ﴿**ويخوفونك بالذين من دونه**﴾ الله - دائما - يرفق برسوله محمد ﷺ. ومن مظاهر هذا الرفق هنا أنه لم يذكر له تخويف خصوم الدعوة له إلاَّ بعد أن قدَّم بين يديه كفايته له، ليقع هذا الإخبار بالتخويف من نفسه موقعا هينا. وهذا شبيه بتقديم العفو على موضع المواخذة فى قوله تعالى: ﴿**عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ**﴾ [التوبة: ٤٣].

والواو فى ﴿**ويخوفونك**﴾ أحْرى أن تكون واو الحال لأنه لا يصح أن تكون عاطفة على ما قبلها لاختلاف الجملتين فى الإنشائية والخبرية. كما لا يصح قطع الجملة بعدها بخلوها من الواو، وإلا لاختل نظم الكلام.

* (**ومن يضلل الله فما له من هاد**) استئناف مسوق لتثبيت النبى ﷺ وتسليته. وتقرير لمضمون الكلام قبله.

ودخول (من) على (**هاد**) لاستغراق النفى، وشمول جميع أفراد المنفى.

* ﴿**ومن يهد الله فما له من مضل**﴾ تثبيت إثر تثبيت له عليه السلام لأن قريشا كانت تحاول فتنة المؤمنين السابقين إلى الإسلام عن دينهم. وهذا من شأنه أن يُدخل على

صاحب الرسالة ضروبا من الهموم والغموم. فـثبته الله عز وجل وبشره بثبات من معه على دينهم.

* **(أليس الله بعزيز ذى انتـقام)** استئناف مسـوق لتقرير معنى ما قبلـه، وتهديد ووعيد للمشركين. وما قيل فى دخول حـرف الجر (الباء) على خبر (ليس) فى نظيره من قبل يقال هنا لاقتضاء المقام إياه.

وإظهار اسم الجلالة (الله) بعد ليس فى الموضعين. لتربية المهابة وتقوية التقرير.

* * *

١٠ - ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوات وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ، قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِىَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِـفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ، قُلْ حَسْبِىَ اللهُ، عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

الدراسة والتحليل:

آية من آيات الحجاج والمحاورة العقلية الهادئة. والتلطف فى الخطاب توددًا للنفوس النافرة لعلها تميل إلى الحق وتهجر الباطل، ومن قـبل كان المشركون قد خوَّفوا رسول الله ﷺ من آلهتهم، كما حكى القـرآن الأمين. فجاءت هذه الآية تبين لهم فى هدوء ووضوح أن آلهتهم لا تعادل شيئا، فهى والعدم سواء.

ولكن هذا المعنى لم يُلقن لهم تلقيـنا، بل تفنن النظم الحكيم فى إبرازه وتصويره، فبـعد أن قرر أن هؤلاء المشـركين يسلمـون أن الله هو خالق السمـوات والأرض أمر رسوله أن يوجه إليهم هذه التساولات:

هل تستطيع آلهتهم أن تدفع عن أحد ضرًا يريده الله به؟

أو تمسك رحمة وخيرا أراده الله لبعض عباده، فترده هى وتحرمه منه؟

أمره أن يلقى عليـهم هذه التساؤلات ويتركـهم وأنفسهم للإجابة عليـها. والنفس لابد مقرة بأن الأصنام عاجزة كل العجز عن أن تجلب نفعا أو تدفع عنه الضر، وليس بلازم أن ينطقـوا بهـذه الإجابات. بل المهـم أن يتصـوروها فى أنفسهم. فإن اهتدوا

أفلحوا، وإن عاندوا لزمتهم الحجة لله عليهم وقد ورد في هذه الآية أربعة استفهامات:

* ﴿من خلق السموات والأرض﴾؟ * ﴿أفرأيتم ماتدعون من دون الله﴾؟

* ﴿هل هن كاشفات ضره﴾؟ * ﴿هل هن ممسكات رحمته﴾؟

والاستفهامان الأولان قد سبقت الإجابة عليهما مرات من قبل:

فالأول ﴿**من خلق السموات والأرض**﴾ للتقرير بالفاعل والثانى ﴿**أفرأيتم ما تدعون من دون الله**﴾ هو عند الجمهور بمعنى أخبرونى؟ وقد ناقشنا هذا من قبل مرات وانتهينا إلى أن المراد منه: إحضار صورة المستفهم عنه فى الذهن ليحكم عليها وهى حاضرة ماثلة فيه وكنا قد استدللنا على هذا بأمرين:

الأول: أن بعض مواضعه فى النظم الحكيم يمتنع منعا باتا حمله على معنى أخبرنى، أو أخبرونى.

الثانى: أبلغية ما ذهبنا إليه، وملائمته لجزالة النظم ومقتضيات الأحوال.

ويضاف إلى هذين أن بعض الأئمة، مال فى بعض المواضع إلى ما ذكرناه.

والحال - هنا - كذلك فالرسول ﷺ يأمرهم بأن يستحضروا حقيقة أصنامهم فى أذهانهم وليسمعوا ما يصفها به من أوصاف مزرية، ليبين لهم خطأ ما هم فيه من سوء الاعتقاد.

أما الثالث والرابع:

﴿**هل هن كاشفات ضره**﴾ ﴿**هل هن ممسكات رحمته**﴾ فهما للإنكار والتعجيز وتبكيت المخاطبين.

ولم نرد الإطالة بنقل ما ذكره الأئمة، وهو لا يخرج عما قلناه وإن كانوا لم يقفوا طويلا أمام استفهامات هذه الآية.

والخلاصة: أن الاستفهام الأول للتقرير بالفاعل وأن الثانى بمعنى الأمر عند الجمهور، أو لإثارة الذهن واستحضار صورة المستفهم ليحكم عليه وهو حاضر على ما لاح ويلوح لنا كثيرا.

أما الثالث والرابع فهما للنفى والإنكار والتوبيخ.

أسرار النظم وبلاغياته :

* **﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾** سبق تحليل هذا التركيب تفصيلا. وخلاصته أن اللام للقسم وإن شرطية.. وليقولن جواب القسم ساد مسد جواب الشرط، لتقديم القسم على الشرط.

والسر البلاغى فى التوكيد القسمى إشارة إلى أن المشركين يعتقدون اعتقاداً جازمًا أن الله وحده هو خالق العالم ولما كان هذا من شأنه أن ينكر أو يشك فيه أكد بالقسم وما فى حيزه من مؤكدات كاللام ونون التوكيد الثقيلة.

و(الله) إما فاعل لفعل محذوف والتقدير خلقهن الله، أو مبتدأ محذوف الخبر: (الله خلقهن). وأيا كان ففى العبارة إيجاز بالحذف.

* **﴿قل أفرأيتم..﴾** تصدير الجملة الاستفهامية بفعل الأمر (قل) للإيذان بأهمية المقول والاعتناء بتبليغه فور تلقيه والمواجهة به.

وعبر عن الآلهة المدعاة بـ **(ما تدعون)** تحقيرًا لشأنها واستهزاءً بها وتعريضا بعابديها المؤملين فيها.

* **﴿هل هن كاشفات ضره﴾** إيثار (هل) لتحقق الإنكار، وفى **(كاشفات)** استعارة. والمراد مزيلات الضر، وسرها الإيحاء بأن الضر جاثم فوق من نزل به والجامع ما يترتب على كل من الكشف والإزالة من تبدل الأحوال.

* **﴿هل هن ممسكات رحمته﴾** هل لتحقق الانكار وفى **(ممسكات)** استعارة لمانعات شبه المنع المعنوى بالامساك الحسى تجسيما للمعنى، ولما فى الإمساك من قوة المنع.

* **﴿قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون﴾** تصدير الجملة بقل لأهمية المقول. وفى (حسبى الله) تعريض بالمشركين وإبطال لعقيدة الشرك.

* **﴿عليه يتوكل المتوكلون﴾** أسلوب قصر، قُصرت فيه صفة التوكل على الله. قصرا حقيقيا تحقيقيا أى عليه لا على غيره.

وفى (**المتوكلون**) مجاز مرسل علاقته اعتبار ما سيكون والمعنى: على الله يتوكل من يريد التوكل.

وبين الضر والرحمة والإرادة والإمساك طباق دقيق المأخذ اقتضاه المقام.

* * *

١١ - ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ، قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لاَ يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلاَ يَعْقِلُونَ ﴾ [الزمر: ٤٣].

الدراسة والتحليل:

لما لم يستطع المشركون أن ينكروا وجود الله، ولا خلقه للعالم أغراهم الشيطان فأملى عليهم حيلة من حيله الضالة المضلة، ليتمكن من إيجاد مكان فى قلوبهم تزاحم فيه عقيدة الوثنية الإيمان بالله خالقًا للعالم. هذه الحيلة هى وضع الأصنام موضع الشفيع لهم عند الله، والوساطة التى تقربهم إليه. وبهذا استطاع أن يُفسد إيمانهم الفطرى بالله العلى العظيم. وعبادة الأصنام هى الوسيلة لنيل شفاعتهم عند الله؟ وهذا ما حكته عنهم سورة الزمر فى مطلعها:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلى اللهِ زُلْفَى﴾ [٣].

وكما حكى القرآن عنهم قولهم: (**هؤلاء شفعاؤنا عند الله**) من أجل هذا واجههم الله فى هذه الآية التى ورد فيها استفهامان:

الأول: ﴿أم اتخذوا من دون الله شفعاء﴾؟ والثانى: ﴿أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون﴾؟

والاستفهامان للانكار عليهم. وفى هذا قال الإمام الزمخشرى:

﴿أم اتخذوا من دون الله شفعاء﴾: بل اتخذت قريش. والهمزة للإنكار. **﴿من دون الله﴾** من دون إذنه **﴿شفعاء﴾** حين قالوا - هؤلاء شفعاؤنا عند الله - ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه. الا ترى إلى قوله تعالى: (**قل لله الشفاعة جميعا**) أى هو ما لكها فلا يستطيع أحد شفاعة عنده إلا بشرطين: أن يكون المشفوع له مرتضىً، وأن يكون الشفيع مأذونًا له. وها هنا الشرطان مفقودان جميعًا، و**﴿أولو كانوا﴾** معناه: أيشفعون

ولو كانوا ﴿**لا يملكون شيئا ولا يعقلون**﴾ أى، ولو كانوا على هذه الصفة لا يملكون شيئا قط حتى يملكوا الشفاعة، ولا عقل لهم)[1].

فالإمام جار الله يطبق مذهبه - هنا - فى ما إذا اجتمعت همزة الاستفهام مع أحد حروف العطف الثلاثة (**الفاء - الواو - ثم**) فى أن الهمزة قارة فى مكانها وليست مقدمة من تأخير كما يقول الجمهور. وأن مدخول الهمزة محذوف هو الذى سُلِّط عليه الإنكار. وأن حرف العطف عاطف ما بعده على المحذوف المقدر بعد الهمزة.

وفى ما ذكره الإمام الزمخشرى غَنَاء وأى غناء، فلا داعى لذكر غيره، والأئمة جميعا قد تابعوه ولم يختلفوا معه إلا فى بعض العبارات.

والخلاصة أن الاستفهام - هنا - فى الموضعين للإنكار باتفاق أهل العلم. وقد يضاف إليه من المعانى الثانية التهكم والتسفيه.

لأن من يرجو النفع من الأصنام، وهى جماد. فلا عقل ولا تمييز عنده. وكيف تنحط منزلة الإنسان الذى كرمه الله روحًا وصورة، وعقلا وفهما، كيف ينحط إلى هذا الحضيض المخزى؟

أسرار النظم وبلاغياته :

* ﴿**أم اتخذوا من دون الله شفعاء**﴾ أم منقطعة وبل فيها للاضراب والانتقال من قص مقابحهم قبل هذه الآية إلى إنكار اتخاذهم من دون الله أولياء والله هو الغنى الحميد المفتقر إليه كل من عداه، وماعداه. والهمزة التى تضمنتها (أم) للإنكار المذكور قبلا، والمعنى: بل أأتخذوا من دون الله شفعاء؟

  وتنكير ﴿**شفعاء**﴾ للتحقير بدلالة المقام وإن كانوا كثرة.

* ﴿**قل أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون**﴾ الاستفهام فى ﴿**أولو كانوا**﴾ للإنكار والتبكيت والتهكم كما تقدم، ونفى التملك والتعقل لتوكيد الإنكار. لأن رجاء الشفاعة ممن هذه صفته حماقة وجهل.

---

(١) الكشاف (٣/ ٤٠٠).

وتنكير ﴿شيئا﴾ للانعدام أو النفى معا بدلالة المقام وتقديم نفى التملك على نفى التعقل؛ لأن نفى التملك الواقع على عموم الأشياء كناية فى غاية اللطافة عن نفى تملك الشفاعة.

والذى لا يملك شيئا إذا كان ذا عقل رُجىَ خيره. ولكن هذه المعبودات الحقيرة كانت بمثابة العدم.

فلا ملك لديها، ولا عقل يهديها. وكفى بذلك حقارة وتفاهة.

وإيثار ﴿لا﴾ من بين أدوات النفى إشارة إلى أن الأصنام مسلوبة التملك والتعقل فى كل الأزمان.

* * *

١٢ - ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الزمر: ٥٢].

الدراسة والتحليل:

تنشأ فى أحضان الكفر معاصى غليظة، ومن هذه المعاصى اعتقاد الكفار أن حظوظ الدنيا رهن بإرادة الإنسان وسعيه فى طلبها. فإذا حدث لهم ثراء، وجرت بين أيديهم نعمة أرجعوا ذلك الثراء وتلك النعمة إلى مهارتهم وإلى الأسباب المادية التى مارسوها فى سعيهم، كما حدث من قارون فى سورة القصص حين قال لما طولب ونُصح بأن يرعى حقوق الله فى ثروته:

﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِى﴾ [القصص: ٧٨].

وهكذا يحكى الله عن أثرياء العرب فى عصر نزول القرآن. يلجأون إلى الله فى الضراء، ويجحدونه فى السراء. فإذا ذُكر أحدهم بفضل الله عليه قال كما قال قارون من قبل: ﴿إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾.

يتعقب الله هذا الموقف فيقول:

﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ قَد قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى

عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا، وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّآتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾.

ثم كان قوله تعالى: **﴿أولم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾**.

والاستفهام الذى صدرت به الآية **﴿أولم يعلموا..﴾** قد مرَّت نظائره كثيرا من قبل فى هذه الدراسة. وعرفنا فيه مذهبين: الأول مذهب الجمهور والثانى مذهب الإمام جار الله الزمخشرى.

كما عرفنا توجيهات الأئمة، وأقوالهم فى بيان المراد من الاستفهام أهو التقرير أم الإنكار. لذلك فإننا نختصر القول فيه هنا ونقول:

إن الاستفهام فى الآية استفهام مجازى. والمراد منه التقرير. ويردف عليه تكذيب المتحدث عنهم فى أنهم نالوا حظوظ الدنيا بمهارتهم. ثم التوبيخ على هذا الزعم. وهذه خلاصة ما قيل وما يقال فى هذا الاستفهام.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **﴿أولم يعلموا..﴾** استفهام تقرير وتكذيب وتجهيل والواو للعطف على مقدر، أى: أيقولون ذلك ولم يعلموا.. وهذا التقدير يغرى بالقول أن الاستفهام هنا للإنكار وهذا صواب إذا نُظر إلى الشق الأول الذى ولى الهمزة بيد أن المقام يحتم أن يكون للتقرير، لأن الله يحتج عليهم بأنهم يعلمون أن الباسط والقابض هو الله. فيجب حمل الاستفهام على مذهب الجمهور القاضى بأن الهمزة مقدمة من تأخير وأن التقدير: وألم يعلموا. فيكون النفى بالهمزة قد سلط على النفى المستفاد من **﴿لم﴾** فيعود المعنى إثباتا وهو التقرير الذى جزمنا به فى هذه الدراسة جريا على دلالة المقام.

* **﴿أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر..﴾** أكد الخبر - هنا - بـ: أن + أسمية الجملة. لأن مضمون الخبر حقيقة عظيمة من حقائق الإيمان فحقها أن تصاغ فى أساليب

فخمة مثلها، ليكافئ اللفظ المعنى يعنى: أن دواعـى التوكيد - هنا - هى اعتبارات ترجع إلى واقع الكلام. لا إلى المخاطب، ولا إلى المتكلم.

فإذا قـيل إن تنزيل المتحدث عنه - هنا - منزلة المنكر ظـاهر جداً من حكاية النظم عنهم أنهم قالوا: إنما أوتيته على علم».

قلنا: هذا سبب طارئ من أسـباب توكيد الخـبر فلا مانع من اعتـباره، لكن لو لم يكن ملاحظا لجاء الخبر هنا مؤكدا، لأن التوكـيد فيه وفى أمثاله سنة بلاغية مطردة فى النظم القرآنى الحكيم فى مثل هذا المقام.

وعـزو التوكـيـد إلى الأسـباب المطردة أولـى من عزوه إلى الأسـبـاب الطارئة إذا اجتمعت هذه الأسباب فى مقام واحد.

* ﴿**إن فى ذلك لآيات لقـوم يؤمنون**﴾ تذييل مقرر لمضمون الكلام قـبله. وتوكيد الخبر فيـه بـ: إن + اسمـية الجملة + لام التـوكيـد لما مر من أن مضـمونه من الحـقائق العظيمة، التى تصوغه البلاغة القرآنية من أجلها فى أسلوب عظيم مثلها.

وقد أشـرنا من قبل مرات إلى إيثـار التعبـير باسم الإشارة ﴿**ذلك**﴾ وتقـديم الجار والمجرور ﴿**فى ذلك**﴾ فى مثل هذا التركيب. وبينا نكاتها البلاغية من حيث اللفظ ومن حيث المعنى. وهما تفخيم المشار إليه. وإظهار العناية به.

أما تنكير (**آيات**) فللتعظيم بدلالة المقام.

* * *

١٣ - ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية إطلالة سريعة على حدث من أحداث يوم القيامة تريك الذين افتروا الكذب على الله فى هذه الحياة الدنيا فى صورة بشعة، منفرة، كأن وجوههم قطع من الليل المظلم فإذا ساء منظرهم كان ذلك أمارة على سوء مخبرهم، وهو افتراء الكذب على الله.

والاستفهام فى الآية (**أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين**) مر نظيره فى هذه السورة فى الآية [٣٢] وتقدم أن المراد منه التقرير والتهديد فليعد إليه من يريد.

أسرار النظم وبلاغياته:

* (**وجوههم مسودة**) إذا كانت الرؤية بصرية - وهى كذلك - كانت جملة (**وجوههم مسودة**) فى موضع الحال. أى تراهم حالة كون وجوههم شديدة السواد. وقد أوثر اسم المفعول (مسودة) على الصفة: سوداء. للإيذان بأن هذا الاسوداد حاصل لهم، وطارئ على ألوانهم جزاء لهم على افترائهم الكذب على الله.

ولم تُبْدلْ هذه الجملة مما قبلها فتنصب: وُجُوهَهُم. . للدلالة على ثبوت هذه الصفة لهم سواء رآهم أحد أو لم يرهم، ولأن تصور اللون قد يكون لعيب فى نظر الرائى. فلما جاءت هذه الجملة مرفوعة لامنصوبة فى اللفظ دل ذلك على أن السواد أصل فيهم.

* * *

١٤ - ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّى أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ [الزمر: ٦٤].

الدراسة والتحليل:

النزق والطيش كان سجية مشركى مكة، .. ومن آثار نزقهم وطيشهم أنهم ذهبوا إلى رسول التوحيد ﷺ وعرضوا عليه أن يعبد آلهتهم ويعبدوا هم إلهه على التبادل، وإذا فعل ذلك هادنوه وهادنهم فنزلت الآية - موضوع الدراسة - تلقنه الإجابة عليهم:

(**قل أفَغَيْرَ الله تأمرونِّى أعبد أيها الجاهلون**) والاستفهام - هنا - للانكار بإجماع أهل الذكر ويردف على هذا الإنكار التبكيت والتوبيخ والتجهيل وهذه خلاصة لما قيل فيه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* تصدير هذه الآية بفعل الأمر (**قل**) - كما تقدم للإشعار بأهمية المقول، وسرعة المواجهة به وتبليغه. وهذا المعنى لايكاد يفارق هذا الفعل إذاكان قائله هو الله والمأمور به هو رسوله الكريم.
* وإيلاء (**غير**) همزة الاستفهام لأنه محط الإنكار، وإيثار المضارع (**أعبد**) لاستحضار تلك الصورة وإنكارها.

  وكذلك (**تأمرونى**) وليشمل الإنكار عبادة غير الله فى عموم الأوقات.
* (**أيها الجاهلون**) تأخير هذا وما فيه من وصف ليرشح له، ولتوكيده ذكر موجباته قبله. وهو نداء إهانة وتحقير.

* * *

١٥ - ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً، حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ، وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا، قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

[الزمر: ٧١].

الدراسة والتحليل:

عرضت سورة الزمر مشهدين عظيمين من مشاهد يوم القيامة: وهما مشهدان نهائيان لوقائع ذلك اليوم العظيم:

المشهد الأول: سوق أهل النار إلى النار، وهو ما تقصه علينا هذه الآية.

والمشهد الثانى: سوق أهل الجنة إلى الجنة، وهو ما تقصه الآية [٧٣] من هذه السورة. ولا علاقة لهذه الدراسة بها لخلوها من أساليب الاستفهام.

أما الآية - موضوع الدراسة - فتعرض مشهد أهل النار يساقون إليها جماعات، فإذا وصلوها فتح خزنتها جميع أبوابها، ثم يفاجأون بهذا السؤال: **(ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا)**؟

سؤال مؤلم كل الإيلام:

لأنهم لايستطيعون أن ينكروا مجىء الرسل إليهم، ولا يستطيعون أن يُنكروا إنذار رسلهم إياهم لقاء ذلك اليوم الذى هم فيه بأهواله الفظيعة.

وفى الإجابة إدانة منهم لأنفسهم. فما أشقاهم وأتعسهم. أما الاستفهام فى الآية: **(ألم يأتكم رسل منكم)** فهو استفهام تقرير وتبكيت وتنديم. وهذه **خلاصة** ما يقال فى هذا الاستفهام.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا)**. جىء بالفعل ماضيا (سيق) موضع المضارع: (يساق). ولهذا المجئ داعيان بلاغيان:

الأول: وهو كثير شائع عند أهل الذكر؛ لأنهم مجمعون فى هذا العدول من

المضارع إلى الماضى بأنه لتحقق الوقوع تشبيـها للوقوع في المستقبل بالوقوع فى الماضى إيماءً إلى تحقق وقوعه، وكأنه قد وقع بالفعل. فهى استعارة فى زمن الفعل.

الثانى: أن النظم الحكيم لما جاء فـيه قبل هذه الآية ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا، وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِاىءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ**﴾ [٦٨-٧٠].

لما جـاءت هذه الآيات نقلت الأحـداث التى سـتقع إلى أحـداث وقـعت فعـلا، وتوارت الأفعال المضارعة وحلَّتْ محلها الأفعال الماضية.

هذا العرض يـنقل النفس إلى ما بعـد البعث والحـساب والفصل بـين الناس. فإذا سمعت قوله تعالى: ﴿**وسيق الذين كفـروا إلى جهنم زمرا**﴾ تخيلت النفوس - الآن - أنها تسـمع حكايات لوقائع وقـعت، لا تصويراً لوقائع سـتقع. إنها نـقلة معنوية لا حسيـة. وهذا ما يشعر به كل سامع لهـذه الآيات - وأمثالها - إذا صفـا قلبه، وخلا ذهنه من الشواغل، وألقى السمع وهو شهيد.

وعلى هذا فلا عدول من مضارع إلى ماض. بل إن كل فـعل ماض قد وقع موقعه من حقـيقة الدلالة. وهذه سـمة من سمـات هذا الكلام المعجز، وبيـان لقدرته على انتزاع النفوس من قيودها الزمانية والمكانية، والتحليق بها فى سماء الروح الفسيحة.

وعلى هذا فإن الذى يقال - هنا - أن الاستعارة ليست استعارة فى زمن الفعل من المستـقبل إلى الماضى، بل هى نقل مشـاعر من الحاضر إلى المسـتقبل لتشـاهد أحداثا ووقائع تقع فيـه، وكأنها تجرى أمام السمع والبصـر. ولايقدر على هذا إلا كلام رب العالمين، أما بناء الفعل (**سيق**) لما لم يسم فـاعله فلأن الغرض هو تصـوير المعنى فى نفسه دون التوقف على تعيين فاعله، وهو معروف عند السامع.

* (**فتحت أبوابها**) قَيَّـد النظم الحكيم فتح أبواب جهـنم بمجئ الذين كفروا ومـثولهم أمامها. وفى هـــذا إيحاء قـــوى بأنهـا كـانت مغلقة ولم تفتح إلا وقت مـجيئهم.

وغلق أبواب جهنم قبل أن يدخلوها دليل على أنها سيحكم غلقها بعد دخولهم فيها. وفى هذا تهويل لشأنها؛ لإنها سجن هم فيه خالدون. إذا قورن هذا بقوله تعالى فى شأن أهل الجنة، ﴿**حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها**. .﴾ ظهر الفرق جليا بين الحالتين.

فالجنة يقدم عليها أهلها ويجدون أبوابها مفتحة قبل مجيئهم، ترحب بهم، لأنها دار كرامة ونعيم مقيم والمعنى: «وقد فتحت أبوابها».

* (**قال لهم خزنتها**. .) الجملة (قال) ومقول القول بعدها جواب (إذا) وجمع (**خزنتها**) باعتبار ما على كل باب من أبواب جهنم من الخزنة. والمعنى: يقول خازن كل باب للداخلين منه:

* (**ألم يأتكم رسل منكم**. .) استفهام تقرير قطعا؛ لأن الهمزة لما دخلت على (لم) النافية للفعل المضارع بعدها نفت - أى الهمزة - النفى الحاصل بـ (لم) فعاد الكلام إثباتاً.

والمقرر به بهذا الاستفهام أربع حقائق:

* مجئ الرسل إليهم فى الحياة الدنيا. * كون أولئك الرسل منهم لا من غيرهم.
* تلاوة الرسل آيات الله عليهم. * إنذار الرسل لهم وتخويفهم من النار.

وإيثار المضارع (**يتلون - ينذرون**) على الماضى الذى كان الظاهر يقتضيه؛ لأن فى المضارع دلالة على تكرار التلاوة والإنذار، وتجديدهما مرة بعد مرة بتكرار موجباتهما ولو قيل: تلوا عليكم آيات ربكم، وأنذروكم لقاء هذا اليوم لكان المتبادر أنهم فعلوا ذلك مرة واحدة.

والمقام يقتضى التكرار، الذى يناسب سوقهم إلى جهنم، وتنكير (**رسل**) للتكثير والتعظيم بدلالة المقام وإضافة الآيات إلى (**رب**) من بين الأسماء الحسنى، مع إضافة (**رب**) إلى ضمير المخاطبين (**كم**) إشارة إلى قبح إعراضهم عن الآيات التى أنزلها الـ(**رب**) مولى النعم خالقهم ورازقهم والمحسن إليهم. وللتذكير بحق (**ربكم**) عليهم.

فإضافة (**رب**) إلى ضميرهم مقصودة قصدًا لبيان عقوقهم إياه وتمردهم على رسله وتكذيبهم إياهم.

كما أن فى وصف (**رسل**) بأنهم (**منكم**) قطعا للأعذار لأنهم يعرفون رسلهم كما يعرفون أبناءهم.

* (**يومكم هذا**) أشار الإمام الزمخشرى إلى السر البلاغى فى إضافة (يوم) إلى ضميرهم (كُمْ) فقال إن المراد منها يوم دخولهم النار لا يوم القيامة[1].

كما أشار أن اليوم - هنا - مستعار للشدة أو هو - فيما نرجح نحن - مجاز مرسل حيث أطلق الزمان وأريد الحالُّ فيه.

ومنه: أيام العرب، لشدائدها ووقائعها.

* (**ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين**) عَدَلُوا عن التكلم إلى الغيبة (**على الكافرين**) ولم يقولوا: (علينا) إقراراً منهم بأنهم كانوا كافرين. وإظهاراً للأسباب التى جعلتهم من أصحاب النار.

* * *

---

(١) الكشاف (٣/ ٤١٠).

سورة غافر

١ - ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ، وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ، وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ، فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [غافر: ٥].

الدراسة والتحليل:

سورة (غافر) من السور المكية، وكان ترتيب نزولها الستين، نزلت بعد سورة الزمر، وقبل سورة فصلت وترتيبها فى المصحف بين الزمر وفصلت، فهما جاراتاها فى الترتيب النزولى، وجاراتاها فى الترتيب المصحفى، وأغراض سورة (غافر) هى الأغراض الغالبة على السور المكية، الطويلة والمتوسطة الطول.

وكانت الآية التى معنا الآن أول آية يرد فيها أسلوب استفهام وهى- أعنى الآية - فيها تهديد شديد لكفار مكة، وتسلية طيبة للنبى ﷺ.

وفيها يقول الله لرسوله الكريم إن قومه ليسوا أول من كذَّب الرسل وأنه ليس أول رسول يكذبه قومه ويعادونه. بل كذب قبلهم قوم نوح وأقوام جاءوا بعدهم وحاولت كل أمة منهم أن تأخذ بتلابيب رسولها ليقضوا عليه وعارضوا الحق بالباطل. فأهلكهم الله، وجعل فى إهلاكهم أعاجيب لمن بعدهم وهؤلاء- إذا لم ينتهوا عما هم فيه- يهلكهم الله كما أهلك من قبلهم. وينصر رسوله الكريم عليهم كما نصر نوحا ومن بعده من الرسل المكرمين.

والاستفهام الذى فى الآية:

(فكيف كان عقاب) بدأ القول فيه الإمام جار الله فقال: «وهذا تقرير فيه معنى التعجيب»[1] وقد أوجز الإمام - رحمه الله - فأصاب.

---

(١) الكتشاف (٣/ ٤١٥).

ثم تابعه الإمام الآلوسى وذكر عبارته فيه[1].

والخلاصة: أن هذا الاستفهام للتقرير بالأخذ ثم التعجيب منه. ويضاف إليهما معنيات ثانيان، وهما تهديد المشركين، وتسلية صاحب الرسالة ﷺ.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم)** هذا الكلام استئناف مسوق لبيان مصير الذين كفروا، الذين يجادلون فى آيات الله كما ورد فى الآية [٤] من هذه السورة قبل آية الدراسة.

وتأنيث الفعل **(كذبت)** والفاعل مذكر **(قوم نوح)** لتغليب المعطوف **(والأحزاب)** على المعطوف عليه **(قوم نوح)** أى: كذبت قبلهم هذه الأمم أو الجماعات.

* **(وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه)** تصوير بليغ لعناد الأمم وعصيانهم الرسل. والهم الإقدام على الفعل، وهو هنا: البطش والانتقام من رسل الله. وهو يشعر عن بضيق تلك الأمم زرعا برسالات الله، وشعورهم بأن باطلهم مهزوم، وحق الله الذى أرسل به رسله هو الغالب.

فطارت أحلامهم شعاعا، وظنوا أن مغالبتهم الرسل انتصاراً لهم.

والأخذ فى قوله تعالى **(ليأخذوه)** بمعنى ليقتلوه فيكون فى العبارة مجاز مرسل بإطلاق السبب **(الأخذ)** وإرادة المسبب **(القتل)**، أو كناية عن القتل.

* **(وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق)** اصل الجدال والمجادلة مأخوذ من (الجدل) وهو فتل الحبل وبرمه لتقويته. ثم شاع استعماله فى فعالية الحجة، بالحجة، وكأن كلا من طرفى الجدال يحكم حجته ليغلب خصمه، والدحض النقض والإبطال. وهما من المجاز المشهور الجارى مجرى الحقائق اللغوية فالجدال على هذا استعارة جرت مجرى الحقيقة اللغوية والدحض ترشيح لها وهى ترشيح له.

* **(فأخذتهم فكيف كان عقاب)** الفاء للتفريع على ماقبلها مشعرة بالتعقيب والترتيب والسببية. أى أن أخذ الله إياهم مسبب عن همهم بأخذ رسلهم ومحاولاتهم دحض

---

(١) روح المعانى(٢٤/ ٤٤).

الحق بالباطل. وأن الله عاجلهم بالهلاك قبل أن ينالوا من رسله.

والفاء في (**فكيف**) تفريعية عن أخذ الله لهم. والجملة تذييل مقرر لتهويل أخذ الله إياهم، والدعوة إلى التفكر فيه ومعاينته للتعجيب مما أنزل الله بهم عقابا لهم على سوء أعمالهم. وجواب الاستفهام محذوف لتذهب فيه النفوس كل مذهب.

❊ ❊ ❊

٢ - ﴿ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ، لاَ يَخْفَىَ عَلَى اللهِ مِنْـهُمْ شَىْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ، للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر: ١٦].

الدراسة والتحليل:

تحكى هذه الآية والتى قبلها مشهداً مؤثراً من مشاهد القيامة، وهو مثول الخلق بين يدى الله حفاة عراة جثاة على الركب لاحول لهم ولاقوة ولاطول، شاخصة أبصارهم واعية أسماعهم، خافتة أصواتهم. ثم ينادى هذا النداء الرهيب:

(**لمن الملك اليوم؟**) فيجاب: (**لله الواحد القهار**)

والاستفهام استفهام تقرير وتوقيف للخلق جميعا، ثم استفهام تخذيل وتبكيت للذين لايؤمنون بالله ولاباليوم الآخر.

وهذه خلاصة ما يقال فى هذا الاستفهام.

أسرار النظم وبلاغياته

* (**بارزون**) اسم فاعل من برز بمعنى ظهر وانكشف وأوثر الاسم (بارزون) على الفعل يبرزون، لما فى دلالة الاسم من الثبوت والاستقرار إظهاراً لهيمنة الله فى ذلك اليوم وخضوع العباد له.

* (**لايخفى على الله منهم شىء**) توكيد وتقرير لمعنى (بارزون) وتنكير (شىء) للانعدام، وهو المصطلح البلاغى الجديد الذى لم نجد سواه بدل هذه الدلالة. لا التقليل ولا التحقير وهما ما اعتاد البلاغيون أن يجعلوهما من دلالات التنكير وإنما فسرنا المراد من التنكير هنا بالانعدام، لإنه واقع الأمر، فليس يخفى على الله شىء قط: لا قليل، ولا حقير فالشىء - هنا - منعدم تمام الانعدام، لذلك نرجو أن يجد هذا

الاصطلاح مكانا فى اعتبارات أهل الأختصاص والعلم.

* (لمن الملك اليوم) استئناف موطىء لما بعده ومقرر لما قبله. وهذا أولى من جعله استئنافا بيانيا بتنزيله منزلة جواب على سؤال مقدر نشأ عن الأولى، وقد قدَّره الآلوسى بقوله:

ماذا يقال لهم فى ذلك اليوم؟ والجواب: يقال لهم لمن الملك اليوم.

وهذا فيه ضعف فيما لاح لنا.

والاستفهام فيه للتقرير بالفاعل (المالك) لذلك ولى (من) حرف اللام الشبيه بأداة الاستفهام وقدم الجار والمجرور (لمن) وهو الخبر، على (الملك) وهو المبتدأ، لإفادة القصر.

* (لله الواحد القهار) جواب الاستفهام، ومن قبل قلنا إن النظم الحكيم لايذكر للاستفهام المجازى جوابا. ذلك هو الأصل. ولكن حين يكون الجواب حقيقة لاعمل للخيال فى تصورها وتصويرها فإن النظم القرآنى يذكر الجواب حينئذ، وقدمنا لذلك شواهد ومنها ذكر الجواب هنا، ووصف الله بالقهار بعد وصفه بالواحد دفعاً لتوهم غير المراد إذ قد يتوهم متوهم أن الوحدة ضعف والتعدد قوة فذكر القهار دفعا له.

* * *

٣ - ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا من قَبْلِهِمْ، كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وآثَاراً فِى الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللهِ مِن وَاقٍ ﴾ [غافر: ٢١].

الدراسة والتحليل:

الحديث مايزال متواصلا عن مشركى العرب. وفى هذه الآية يشنع عليهم القرآن ويرميهم بالغفلة، والبلادة والضعف ثم يهددهم الله عز وجل بمصارع الأمم الباغية من قبلهم، فإن الله تعالى أخذهم أخذ عزيز مقتدر، ولم تمنعهم قوتهم وحضاراتهم من بأس الله لما جاءهم.

ومشركو العرب لم يبلغوا من القوة والحضارة ما بلغته تلك الأمم المصروعة. فلهم الويل إذا لم يتركوا ماهم فيه من كفر وعناد، وقد جاء فى صدر الآية هذا الاستفهام:

(أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم)

وهذا الأسلوب القرآنى (الاستفهامى) كثير الورود فى النظم الحكيم - كما يعلم القارىء - وقد ألفناه نحن، وألفنا هو وعرفنا مسالك الأئمة تجاهه.

لكنهم - هنا - أمسكوا ولم يقولوا فيه شيئاً وإن كان بعضهم - الألوسى - أومأ فى كلام عارض أنه للإنكار[1].

هذا هو موقف الأقدمين. أما سماحة الشيخ الطاهر بن عاشور - وإن كنا قد تعودنا من قبل أنه يحمل هذا الأسلوب على الإنكار[2] - فقد جزم - هنا بأن الاستفهام تقريرى لا إنكارى، وهذا - كما قلنا - مخالف للمشهور عنه، وقد حمل منه مواضع كثيرة على الإنكار.

والخلاصة: أن هذا الاستفهام تقريرى بدلالة المقام، لأن الله تعالى يشنع على كفار العرب بأنهم غفلوا عن الوقوف فى سيرهم فى الأرض عن مواطن الاعتبار من عواقب الأمم التى دمرها الله من قبلهم، لما عتوا وطغوا وكذّبوا الرسل.

ولو كان هذا الاستفهام إنكاريا لكان اعتذاراً يتذرع به الكافرون على تبرير كفرهم.

ويردف على هذا التقرير الرمى بالسفه والبلادة.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(أولم يسيروا فى الأرض فينظروا ..)**؟ الواو للعطف على ما تقدم من ذم الأصنام التى يعبدونها ويؤمنون بها وهى عاجزة كل العجز عن قضاء أى شىء.

وكأنه قال: يؤمنون بها ويعبدونها غير خائفين من غضب الله، ألم يسيروا فى الأرض ويشاهدوا مصارع الأمم الضالة مثلهم؟

وجَعْلُ السير **(فى الأرض)** لاعلى الأرض، إشارة إلى تمكنهم من معرفة أحوال الذين هلكوا من قبل، ولو قيل: على الأرض لكان فيه شىء من المجافات بين التعبير والمعنى المراد منه على وجه الدقة والتمكن.

---

(١) روح المعانى (٢٤/ ٦٠). (٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ١١٦).

وقد نَظَّرْنا من قبل بين هذا التعبير وبين قوله تعالى:

(**وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً..**) [الفرقان: ٦٣].

حيث عُدِّى الفعل (**يمشون**) بـ (على) وعُـدِّى هنا وفـى نظائره بـ(**فى**) فحيث يراد التمكن لاقتضـاء المقام إياه يؤثر حرف الجر (فى) وحيث لايراد التمكن لعـدم اقتضاء المقام إياه تؤثر (على) وهذا من دقـائق المعانى فى النظم الحكيم والنظر مستـعار للتدبر والتفكر أى يتدبرون ويتفكرون فى عمق ووعى حتى لكأنهم ينظرون إلى الواقع بالعين الباصرة.

* (**كيف كان عاقـبة الذين كانوا من قبلهم**) توقيف وتعجيب على ماحل بالأمم العاتية، وتهويل وتفظيع لآخذ الله لهم بذنوبهم وتذكير الفعل (كان) والفاعل مؤنث (**عاقبة**) لأن التأنيث فيها مجازى.

وتكرار (**كان**) فى (**كانوا**) وكان يكفى أن يقال: عـاقبة الذين من قبلهم فـيه معنى الشمول لكل الأمم التى سبقت فحل بها من عذاب الله ما حل.

* (**كـانوا هم أشد منهم قـوة، وآثاراً فى الأرض**) توقيف على بلوغهم المدى البـعيد فى التمكن فى الأرض وسـيطرتهم على الأسباب المذللة لهـا والاستفادة منهـا فزرعوا وأنشأوا الحصون المنيعة، والقلاع الشاهقة وعبدوا الطرق وأخضعوا الأرض لما أرادوه منها والضـمير (هم) فـى (**كـانوا هم أشـد منهم قـوة**) لتـقوية الصـلة بين الصفـة والموصوف.

وتنكير (**قوة وآثاراً**) للتفـخيم والتعظيم، ولبـيان أن الله تعالى إذا بطش بأمـة كان بطشه سريعا فتاكا مهما بلغت تلك الأمة من أسباب القوة والتمكن فى الأرض.

* (**فأخذهم الله بذنوبهم**) الفاء أفادت ثلاثة أغراض بيانية:

* المسارعة من الله إلى هلاكهم.   * سببية ما قبلها فيما بعدها.

* ترتيب الأخذ على طغيان تلك الأمم.

وفى (**أخذهم**) مجاز مـرسل بإطلاق السبب وإرادة المسبب كمـا تقدم فى نظيره فى هذه السورة. ويحتمل التعبير وجوها بلاغية أخرى تقدمت إشارات إليها.

* (وما كــان لهم من الله من واق) تذييل مقــرر لمعنى الكلام قبله وهو كنــاية عن انعدام المحاماة عنهم و(مِنْ) الأولى بيانية والثانيــة (من واق) لاستغراق النفى جميع أفراد المنفى وتنكير (واق) للانعدام كما تقدم مرات.

* * *

٤ - ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّىَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ، وَإِن يَكُ كَاذِباً فَـعَلَيْهِ كَذِبُهُ، وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ، إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

الدراسة والتحليل:

لما صدع موسى علــيه السلام بما أمره الله به من دعوة فــرعون وقومه لتــوحيد الله وإفراده بالعبادة، هدى الشيطان فرعون وملأه إلى تلك الحيلة الشنيعة:

* قَتْلُ الأبناء الذكور الذين ينجبهم المؤمنون مع موسى عليه السلام.

* استبقاء الإناث ليكنَّ خدما لآل فرعون وقومه.

ثم هتف فيهم فرعون قائلاً:

﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُـوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ، إِنِّى أَخَافُ أَن يُبَـدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

هذه نظرة الطغــاة إلى المصلحين والدعــاة الكبار فى كل زمــان ومكان. وإن حلت تهمة قلب نظم الحكم محل تبديل الدين فى عرف الطغاة المعاصرين؟!

وقد لجأ موسى واستعاذ بربه من تهديد فرعون إياه:

﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

وفجــأة يظهر على مــسرح الأحداث رجــل كان قد منَّ الله عليــه بالإيمان - ولكنه كتمه عن قــومه - ووقف أمام فرعون وآله يستنكر إقدامــهم على قتل موسى. ويوهِّن الأسبــاب التى أوردها فرعــون لاستبــاحة دم مــوسى. هذا الرجل كان أذكى أذكــياء المؤمنين، بدءاً من كتم إيمانه إلى أسلوب المحاورة الحكيم الذى واجه به فرعون وملأه.

وخلاصة ما قال كما ورد فى الآية:

* ليس لهذا الرجل ذنب يستحق به القتل فقد أعلن إيمانه بربه، وجاء بمعجزات تؤيد ما ادعاه فعلام تقتلونه؟

إن الحكمة - كل الحكمة - أن لاتتعرضوا له، وسوف ينكشف حاله فإن كان كاذبا فكذبه على نفسه.

وإن كان صادقا أصابكم بعض مايقول، فاتركوه وشأنه والله لايهدى المسرفين فى الخصومة، الكذَّابين حتى على أنفسهم، أما الاستفهام فى الآية:

(**أتقتلون رجلا..**) فبإجماع أهل الذكر هو استفهام إنكار واستقباح وتحذير.

وهذه خلاصة ما قيل - أو ما يقال - فيه.

إسرار النظم وبلاغياته:

* (**وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه**) الواو للعطف على (**وقال فرعون**) وتنكير (**رجل**) للتعظيم بدلالة المقام وقد وصف هذا الـ (**رجل**) بثلاثة أوصاف:

* بالإيمان بالله وما جاء به موسى عليه السلام. * بأنه من آل فرعون لامن غيرهم.

* بأنه يكتم إيمانه فلايعلمه إلا الله. وقد روعى فى نسق هذه الأوصاف الثلاثة: تقديم الإيمان الموصوف به لشرف الإيمان .

تقديم كونه من آل فرعون على كونه كاتما لإيمانه، وقد وجه أهل الذكر تقديم (الفرعونية) على (كتم الإيمان) فقالوا إنه للنص على جنسية هذا الرجل وكونه من آل فرعون هذا ما اقتضى تقديم هذا الوصف، لأنه لو قُدِّمَ عليه الوصف بكتم الإيمان لالتبس المعنى، ولتبادر إلى الذهن أن الرجل يكتم إيمانه من آل فرعون، لا إنه هو من آل فرعون فالتقديم هنا احتراس لطيف لدفع مايتوهم أنه هو المراد[1].

* (**أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله**) الاستفهام لإنكار الوقوع واستقباحه والتوبيخ عليه.

والتعبير عن موسى بالوصف النكرة (**رجلا**) للتمويه على السامع، ولإيهام أن الرجل المؤمن لا يعرفه، وهو احتراس لطيف كذلك.

---

(١) إنما قلنا احتراس لطيف لأن الاحتراس عند البلاغيين يكون بزيادة لفظ لا بتقديم لفظ أو تأخيره.

* و(**أن يقول**) أى من أجل أن يقول والقول - هنا - مجاز مرسل عن الاعتقاد باطلاق المسبب (القول) وإرادة السبب (**الاعتقاد**).

* (**ربى الله**) مقول القول، وفى الجملة قصر صفة الربوبية على موصوف هو اسم الجلالة (**الله**).

وفى العبارة كناية لطيفة عن أن موسى لم يأت ذنبا يستحق عليه القتل سوى مجرد القول، ولم يعتد على أحد ولم يرتكب جريمة.

* (**وقد جاءكم بالبينات من ربكم**) توكيد الإنكار والاستقباح، والبينة مستعارة للمعجزة، لأن المعجزة تبين صدق من أجراها الله على يديه.

* (**وإن يك كاذبا فعليه كذبه، وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم**) فى هذه العبارات صور بلاغية واقعة موقعها من أصل الدلالة ومطابقة مقتضى الحال:

* ففيها حسن التقسيم بين الكذب والصدق.

* وفيها الطباق بين (كاذبا - صادقا)

* وفيها من إيجاز الحذف حذف المضاف فى (فعليه كذبه) أى فعليه وزر كذبه.

* وفيها التعبير بـ(إن) دون: (**إذا**) فى ترديد حال موسى عليه السلام بين أحد الأمرين. لأن (**إذا**) لاتصلح فى مقام الاحتمال لمافيها من معنى تحقق جواب شرطها.

* ومنها تقديم احتمال الكذب، وما يترتب عليه، على احتمال الصدق ومايترتب عليه، وسره البلاغى مجاراة الخصم فى دعواه استمالة له، وتودداً ذكيا لجذبه نحو الحق الذى ينافى أصل دعواه وهذا الأسلوب كبير الشبه بـ (الأسلوب المنصف) أو الكلام المنصف الذى يُظْهِرُ فيه أحد الخصمين غير المتعادلين مظهر المتعادلين تلطفا مع الخصم لإلزامه بالحق إذا رجع إلى نفسه.

* (**يصبكم بعض الذى يعدكم**) إيثار ذكر (**بعض**) وسيلة من وسائل التليين والتلطف فى الخطاب، لإقناع الخصم، لأنه لوجزم بوقوع كل مايعد به موسى فرعون وقومه لانكشف أمر المؤمن، لكنه ذكر كلمة (بعض) لتناسب احتمال الكذب والصدق فيما تقدم.

* (**إن الله لايهدى من هو مسرف كذاب**) يحتمل هذا القول أن يكون من كلام المؤمن،

ويحتمل أن يكون تـعقيباً من الله عـز وجل، وأيا كان فهو تذييل مـقرر لما قبله من معنى، وفيه تهديد لمن كان شأنه الإسراف والكذب.

وقد أكد مضمون الخبر بـ:

إن + اسمية الجملة+ تكرار الإسناد +ضمير الفصل لبيان أن مضمون الخبر من سنن الله التى لاتتبدل ولاتتحول.

وتقديم الوصف بالإسراف على الوصف بالكذب لأن الإسراف أعم من الكذب.

ولتوافق الفواصل فى حروف المد التى بنيت عليها فواصل السورة وهى الآلف:

(الفساد - الحساب - كذاب - الرشـاد - الأحزاب) هذا التوافق سنة بيانية فى نظم القرآن الحكيم لاتتخلف.

* * *

٥ - ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا، قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾

[غافر: ٢٩].

الدراسة والتحليل:

تواصل هذه الآية عرض النصح المخلـص الذى نصحه مؤمن آل فـرعون، أوْحكيمُ آل فرعون لفرعـون وملئـه. إنـه هنا فى صدر الآية يعظ قـومه موعظـة حكيمـة، فهم - الآن - آمنون يرفلون فى حلل النعـيم، أقوياء متـمكنون فى الأرض، ولكن الدهر ذو مفاجآت، فإن أراد الله بهم سوءاً فمن يدفع عنهم بأسه، إن هذا المؤمن كان حكيما حـقا. ولولا شـرف الوصف بالإيمان لقلنا إن الأنسب بهـذا الذكـاء وتلك الفطنة أن يوصف هذا الرجل بـ: حكيم آل فرعون.

كما تعرض الآية فى عجزها مثلا مذهلا من ديمقراطية فرعون فقد اتسع صدره لهذا الاعتـراض الصعب الذى أبـداه الرجل المؤمن. ولم يقتـصر فى اعـتراضه عـلى قرار فرعـون بقتل مـوسى عليه السلام. بل واصـل نصحه بما يهـيىء قوم فـرعون للإيمان بموسى ومـا أُنزل إليه من ربه. وأخـذ يرسم سيـاسة الدولة على مـرأى ومسـمع من

فرعون ويهــدد ويحذر وينذر وكأنه رســول من رسل الله الكرام. ومع هذا لم يغضب فرعون ولم يثر عليه، ولم يفكــر فى إيقاع أى أذىً به بل اكتفى بقوله **(ما أريكم إلا ما أرى، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد)** فجعل رأيه مجرد رأى مـعروض، يمثل وجهة نظره هو ولا يفرضه على أحد.

لقد كانت ديمقــراطية فرعون من أرقى وأكمل الديمقراطيــات، ومع هذه الديمقراطية (النموذج المتــاز - كان فرعون (الديمقراطى) إبليســاً آخر يقاسم (ابليس) الأول مملكة الكفر والفساد والإفساد، وليس له فى مجال الإيمان حبة خردل، ولا غرابة فى ذلك، لأن منزع الديمقراطية غير منزع الإيمان، والاستفهام الذى فى الآية:

* **(فــمن ينصرنا من بأس الله إن جــاءنا)** استــفهام إنكار باتفاق إنكار وجــود فاعل يدفع عذاب الله إن دهم قومــا، ويردف على الإنكار التبصير والإرشاد وهذه خــلاصة ما يُفهم من هذا الاستفهام.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(ياقــوم لكم الملك اليــوم ظاهرين فى الأرض)** من مقول الرجل المــؤمن. يوقف قومه على حاضرهم من التمكن فى الأرض، والقوة، والازدهار الحضارى والعمرانى.

وفى تقديم الجار والمجرور **(لكم)** وهو خبر، على **(الملك)** وهو المبتدأ: قصر الملك على قومه، أى : لكم الملك لا لغيركم تذكيراً لهم بنعمة الله عليهم.

وفى **(ظاهرين فى الأرض)** كناية عن قوتهم ومنعتهم والمراد من الأرض أرض مصر فهو من العام الذى أريد به الخاص، وسره تفخيم الملك الذى كان لهم.

* **(فــمن ينصرنا من بأس الله إن جــاءنا)** الفاء تفريعيــة على ما تقدمها وينصرنا مــستعار ليمنعنا، لأن من منعك عن مكروه فقد نصرك.

وإضافة البأس إلى اسم الجلالة للتهويل والتــفظيع والمبالغة فى التخويف، رغبة فى هداية قومه إلى الحق والإيمان.

* **(قال فرعون..)** فصلت هذه الجملة للاستئناف البيانى، جوابا عن سؤال نشأ عن قول الرجل المؤمن وإنكاره لقتل موسى، وما عطف عليه من نصائح وكأن قائلاً قال:

ماذا قال فرعون بعد سماعه ما قاله هذا الرجل المؤمن؟ فكان الجواب:

(**قال.... ما أُريكم إلا ما أرى..**) فبين الجملتين شبه كمال الاتصال.

وفى قول فرعون (**ما أُريكم إلا ما أرى، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد**) أسلوبا قصر صفة على موصوف طريقهما النفى والاستثناء.

وهذان القصران ادعائيان على حسب اعتقاد فرعون وأهوائه.

* * *

٦ - ﴿ وَيَا قَوْمِ مَالِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴾ [غافر: ٤١].

الدراسة والتحليل:

بعد أن ذكر النظم الحكيم تعقيب فرعون على نصائح الرجل المؤمن كما تقدم فى الآية السابقة، عاد مرة أخرى يروى مابقى من حديث المؤمن، وكانت هذه الآية امتداداً لحديثه، وفيها يتساءل حكيم آل فرعون عن المفارقة العجيبة بين دعوته إياهم، ودعوتهم إياه، فهو يدعوهم إلى النجاة من سوء المصير، وهم يدعونه إلى الكفر الموجب خلود صاحبه فى النار. فقد أدمج الكفر فى النار كما ترى، ويكاد يكون أسلوب الاستفهام فيها شمول الآية كلها:

(**مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار**)؟

وقد مس الأئمة هذا الاستفهام مسا خفيفا وألمحوا فى درج كلامهم عن عموم معنى الآية إلى أن الاستفهام للتعجب من حالهم، ثم التوبيخ عليه(1).

والخلاصة: أن هذا الاستفهام للإنكار أصالة ويردف على هذا الإنكار من المعانى الثانية مايناسب المقام من التعجب والتوبيخ ولابد من ملاحظة الإنكار الذى تتكىء عليه هذه المعانى، لأنها معانٍ كالأعراض تفتقر إلي ماتقوم عليه من محال أوما يشبه المحال.

أسرار النظم وبلاغياته:

* (**ويا قوم مالى أدعوكم..**) كرر نداء قومه هنا مع عطف النداء المكرر على النداء

---

(1) تفسير أبى السعود (٨ / ٢٧٧) وروح المعانى (٢٤/ ٧١) والبحر المحيط (٧/ ٤٦٧) والتحرير والتنوير (٢٤/ ١٥٣).

الأول، وكان يمكن أن يسلك واحدة من حالتين:

الأولى: ترك النداء أساساً والاكتفاء بالنـداء الأول مادام الحديث متصلا مع المنادى، فيقال: مالى أدعوكم.

الثانية: أن يكرر النداء بلا عاطف فيقال ياقوم مالى.

إذا لابد من أسرار بلاغية لتكرار النداء، ثم لعطفه على نظيره المتقدم عليه.

والذى لاح لنا هو الآتى:

* أما تكرار النداء فلإثارة ذهن المنادى وجذبه مرة أخـرى بعد النداء السابق، وبخاصة إذا طال الفصل فى الكلام.

* وأما العطف فللإيذان بأن مـايرد بعد النداء المكرر ذو أهميـة خاصة مغايرة لأهـمية ماقبله لأن العطف بالواو يـقتضى المغايرة التامة بين المـعطوف والمعطوف عليه، وقد تقرر ذلك بلاغة ونحوا ولغة.

وهذه المغايرة ملحوظة، هنا.. وهو الشروع فى بيان المفارقـات العجيبة بين دعوته لقومه ودعوة قومه له. وبين الله العزيز الغـفار والأصنام التى دعوها آلهة فعبدوها من دون الله.

ثم براءته منهم وتذكيرهم بأن مايقوله لهم سيعودون إلى تذكره بعد فوات الآوان.

* **(مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار)**:

هذه الصيغـة الاستفهامية (مـالى) كما تقدم كثيـرا فى هذه الدراسة - للسؤال عن السـبب، والسؤال عن الشىء يعنى أنه غـير مـوجود فى الماديات، وغـير مـعلوم فى المعنويات - وهو الملاحظ هنا - وقد توُصِّل بهـذا إلى معنى النفى والإنكار عن طريق الكناية التى وسـمناها بأنهـا لطيفـة لخفـاء مسلكهـا ودقة تصـورها ولهذا جـزمنا بأن الاستفهام - هنا - للإنكار أصالة.

ولكن ينبـغى أنه نلاحظ أن المنكر هنا ليس هو دعـوة مؤمن آل فـرعون قومـه إلى النجاة، بل المنكر هو دعوتهم إياه إلى النار.

أما ذكر دعوته إياهم إلى النجاة فقد كان توطئة للإنكار، وتقبيحا لوقوعه، وتعجبا منه وتوبيخا عليه.

لأن الإحسان - كما استقر فى حكم الفطرة السليمة - يجب أن يقابل بالإحسان المماثل له. أما مقابلة الإحسان بالاساءة - كما حدث من آل فرعون - فهو من أقبح القبائح فطرة وعقلا ودينا، أما ما قيل من أن المنكر هو مجموع الأمرين فغير سديد، لأن الدعوة إلى النجاة مما حسنه العقل والشرع والفطرة التى فطر الله الناس عليها.

وإيثار المضارع فى **(أدعوكم)** تفخيم وتعظيم لدعوته وأنه لم يفتأ يدعوهم إلى النجاة حالا بعد حال، لحرصه على هدايتهم.

وإيثاره فى **(وتدعوننى إلى النار)** للتشنيع عليهم ولتهويل جهلهم وغبائهم، إذ كان اللائق بهم أن يستجيبوا أو يصمتوا، أما دعوتهم إياه إلى النار فهى موطن العجب والتعجيب.

وفى **(النجاة)** مجاز مرسل. بإطلاق المسبب، وهو النجاة من عذاب الله، وإرادة السبب، وهو الإيمان بالله وسره البلاغى الترغيب فى الإيمان بذكر ثمرته ومآله وفى (النار) مجاز مرسل كذلك بذكر المسبب (النار) وإرادة السبب (الكفر) وسره البلاغى التنفير الشديد عن الكفر، بذكر المصير السىء المترتب عليه.

وفى المجازين مبالغة: حيث صور الإيمان بأنه النجاة نفسها. وصور الكفر بأنه النار نفسها، لتأكيد الترغيب فى الأول، وتأكيد الترهيب فى الثانى.

* وبين النجاة والنار طباق إيجابى بديع اقتضاه المقام.

* * *

٧ - ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾ [غافر: ٤٧].

الدراسة والتحليل:

تعرض هذه الآية مشهداً مأساوياً من داخل النار، بعد أن قضى الله فى شئون العباد، ودخل الجنة أولياؤه، ودخل أعداؤه النار.

ويبدو أن هذا الحوار الذى دار بين الضعفاء والرؤساء تصوير لحالهم جميعاً فى أول عهدهم بالنار، وقد ذاقوا طعمها.

يلجأ الضعفاء فى الدنيا الذين أطاعوا رؤساءهم فى الكفر والضلال إلى أولئك الرؤساء ويستفتونهم هل هم قادرون على أن يتحملوا عنهم مقداراً ما من العذاب الذى يلاقونه فى النار، وقد كانوا من أتباعهم فى الدنيا.

وهذا الاستفهام ﴿**فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار**﴾؟ استفهام حقيقى لا مجازى، كما أومأ الطاهر بن عاشور، لأن حمله على المجاز غير سديد.

والاستفهام الحقيقى - كما نعلم - من أماراته ذكر جوابه بعده، وهذا ما نراه فى الآية التالية لهذه الآية:

﴿**قال الذين استكبروا إنّا كل فيها، إن الله قد حكم بين العباد**﴾ [غافر: ٤٨].

وقد جرى النظم على ذكر إجابات الرؤساء على استفهامات الضعفاء فى كل موضع ورد فيه هذا الاستفهام فى كتاب الله العزيز، فلا داعى لما قاله الشيخ الطاهر عفا الله عنا وعنه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**وإذ يتحاجون فى النار..**﴾ الواو فى (**يتحاجون**) لأهل النار جميعاً، لا خصوص آل فرعون، والجملة استطراد لما قبلها.

وإيثار المضارع (**يتحاجون**) لاستحضار صورة تلك المحاجة، التى يورد فيها كل فريق حجته ليبطل بها حجة خصمه، و(**فى النار**) ظرف مكان لوقوع المحاجة.

* ﴿**فيقول الضعفاء للذين استكبروا**﴾ الفاء فى (**فيقول**) لترتيب بيان الحاجة تفصيلاً على

الإخبار بها إجمالاً وليست زائدة كما يرى بعض النحاة، فقد رأوها ليست للعطف، فحكموا بزيادتها.

وهذا غير مُسَلمٍ، وهى - وإن لم تكن للعطف - فقد لاح لنا أن لها معنيين بلاغيين:

أحدهما: ما أشرنا إليه من ترتيب التفصيل على الإجمال.

والثانى: أن لهذه الفاء معنى آخر لو لم يكن مراداً منها إلا هو لكان كافياً فى نفى شبهة الزيادة عنها، ذلك المعنى هو إفادة مبادرة الضعفاء إلى إلزام رؤسائهم بتحمل عبء (المتبوعية) والمبادرة إلى الوفاء بها، ولذلك قدموا ذكرها وجعلوها توطئة للوفاء بالتزاماتها.

* **﴿إنَّا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا..﴾:**

وتوكيد الخبر، والتعبير بالمصدر **(تبعاً)** للمبالغة فى إثبات التبعية، وكمال الإخلاص فيها فى الحياة الدنيا، وفى ذلك إلزام للذين استكبروا ليحملوا عن الضعفاء نصيباً من العذاب.

* وإيثار **(هل)** للدلالة على شدة رغبة الضعفاء فى تحقيق رجاءاتهم من الرؤساء.

وإيثار اسمية الجملة **(أنتم)** واسمية الخبر **(مغنون)** ترجمة عما فى أنفسهم من أن رؤساءهم - بمقتضى متبوعيتهم لهم فى الدنيا - ينبغى أن يتحملوا عنهم ما يخفف عنهم العذاب تحملاً مستمراً لا انقطاع فيه.

* وتنكير **(نصيباً)** يحتمل أنْ يكون للتعظيم، أى نصيباً كبيراً، وأن يكون للتحقير، أى: أى نصيب.

* و**(من النار)** إيجاز بحذف المضاف، والمعنى: من عذاب النار.

والآية التى تلت جواب الرؤساء تؤكد أن الاستفهام فى هذا الآية حقيقى لا مجازى، وهى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِى النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩].

فهل إذا جارينا الإمام الطاهر بأن استفهام الضعفاء (**فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار**) مجازى المراد منه التوبيخ: أى كنتم تدعوننا إلى دين الشرك فكانت عاقبة ذلك أنا صرنا فى هذا العذاب، فهل تستطيعون الدفع عنا[1].

هل إذا جاز ذلك بين الضعفاء والرؤساء يجوز أن يكون بين أهل النار والملائكة خزنة النار؟

كلا، ولكن أهل النار لما يئسوا من أن ينصر بعضهم بعضاً توجهوا إلى الملائكة ليشفعوا لهم عند الله، فهذه كلها أساليب حقيقة لا أساليب مجاز.

* * *

٨ - ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالبَيِّنَاتِ، قَالُوا بَلَى، قَالُوا فَادْعُوا، وَمَا دُعَاؤا ٱلكَافِرِينَ إِلاَّ فِى ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٥٠].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية جاء صدرها جواباً على طلب أهل النار من خزنة النار أن يشفعوا لهم عند الله ليخفف عنهم يوماً من العذاب، كما مضى فى الآية [٤٩] فى نهاية المبحث المتقدم كما جاء عجزها رداً على اعتراف أهل النار بأن الله كان قد بعث إليهم رسلاً بالبينات.

أما وسط الآية فكان اعتراف أهل النار ببعث الرسل فيهم، وقد صُدِّرت الآية بهذا الاستفهام:

﴿**أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات**﴾؟ وهو استفهام تقرير وإلزام، تقرر الملائكة فيه أهل النار بأن رسلهم الذين بعثهم الله فيهم بلغوهم ما أنزل الله إليهم وأتوهم بالمعجزات الدالة - يقيناً - على صدقهم فيما بعثوا به.

ويضاف إلى التقرير الملزم لهم بالحجة من المعانى الثانية التبكيت والتيئيس من رحمة الله، ثم الاستدراج كما سيأتى، وهذه خلاصة ما يقال فى هذا الاستفهام.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٦١).

أسرار النظم وبلاغياته:

* (قالوا..) فصلت هذه الجملة عما قبلها إما لأنها جواب الطلب فى الآية قبلها (**ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب**)، وإما لأنها استئناف بيانى - وهو الراجح - وفيه نُزِّلَتْ هذه الجملة منزلة جواب عن سؤال نشأ عن الجملة الأولى، حاصله: ماذا قالت خزنة النار فى الرد عليهم؟ فكان الجواب:

(**قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات**)؟! فبين الجملتين شبه كمال الاتصال.

وفى تقديم الفعل (**تأتيكم**) على الفاعل (**رسلكم**) وإيثار الجملة الفعلية على الاسمية، حيث لم يقل (**رسلكم تأتيكم**) **لأهمية الإتيان لأنه محط الإلزام**.

وإيثار المضارع (**تأتيكم**) استحضاراً لصورة الإتيان وكأنها تجرى أمام أبصارهم ساعة الحوار، مبالغة فى توكيد التقرير والإلزام.

كما أن فى ذكر المفعول، وإيقاع الفعل عليه (**تأتيكم**) وإضافة (**رسل**) إلى ضمير المخاطبين (**رسلكم**) ترشيحاً للتقرير والإلزام، وما يتولد عنهما من التبكيت والتقنيط.

* (**قالوا: بلى**) وفصلت هذه الجملة - كذلك - للاستئناف البيانى.

و(**بلى**) للإيجاب بعد النفى: أى بلى جاءتنا رسلنا بالبينات فكذبنا.

وسؤال خزنة النار لهم، لم يقف عند حد التقرير والإلزام والتبكيت والتيئيس، بل تضمن معنى مجازياً آخر هو الاستدراج، أى استدراجهم إلى الاعتراف، مع ما رتبه عليه الملائكة من المبالغة فى التيئيس، كما سيتضح من ردهم الأخير على أهل النار.

* (**قالوا: فادعوا..**) وفصلت هذه الجملة لأن بين الجملتين شبه كمال الاتصال، إذ وقعت الثانية جواباً عن هذا السؤال:

ماذا قال الملائكة حين اعترف أهل النار بإرسال الرسل إليهم؟ فكان الجواب:

(**قالوا فادعوا**) والفاء فصيحة، حيث أفصحت عن شرط مقدر ينسحب عليه الكلام، أى: إذا كان الأمر كما قلتم فادعوا ربكم أنتم ولا تطلبوا منا نحن أن ندعو

لكم، أما الأمر: (**ادعوا**) فهو للتهكم بهم، ولزيادة تقنيطهم من رحمة الله، ومضاعفة التبكيت والتحسير لهم.

* (**وما دعاؤا الكافرين إلا فى ضلال**) استئناف مسوق لتقرير معنى الكلام قبله.

وعدلوا عن الإضمار (**دعاؤكم**) إلى الإظهار (**دعاء الكافرين**) لما فى المظهر من تعليل الخلود فى النار، وهو الوصف بالكفر، ولو جرى النظم على أسلوب الخطاب لفات هذا المعنى مع ما له من دلالات رائعة يتطلبها المقام.

* (**إلا فى ضلال**) أسلوب قصر، قصر فيه الموصوف، وهو دعاء الكافرين على الصفة، وهى الكينونة فى الضلال، وقد سبق أن فى هذا التعبير - ونظائره - استعارة بالكناية، وتترتب عليها كناية هى التى من أجلها سيق هذا الكلام، وهى عدم استجابة الله لهم مهما دعوا وألحوا.

* * *

٩ - ﴿ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ، فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾

[غافر: ٦٢].

الدراسة والتحليل:

أتت هذه الآية فى أعقاب آيات كثيرة تحدثت عن شئون الله فى الكون، كان آخرها قوله تعالى: ﴿**الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه، والنهار مبصراً، إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون**﴾ [غافر: ٦١].

فجاءت الآية موضوع الدراسة جامعة لما تفرق فى الآيات قبلها ذاكرة أصول المحامد الإلهية تذكيراً للعباد وتقريراً بوجوب شكر الله، وإفراده بالعبادة والولاء:

فأثبتت له الألوهية والربوبية، وخالقيته لكل شئ، وتفرده ووحدانيته مبدئاً ومعيداً.

ثم جاء فى الفاصلة هذا الاستفهام:

﴿**فأنى تؤفكون**﴾ منكراً على الخلق أن يكون لهم حال ينصرفون إليه عن الله، أو مكان يتجهون إليه بعيداً عن هيمنة الله وسلطانه.

وهذا الاستفهام مرَّ بنا فى هذه الدراسة مرات عديدات وكررنا القول إنه للإنكار،

كما وضحنا مرات كيفية كونه استفهام إنكار، فلا ضرورة لتكراره هنا توخياً للإيجاز.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **﴿ذلكم الله ربكم﴾** اسم الإشارة (ذلك) أوثر هنا للدلالة على عظمة المشار إليه، وهو الله - عز وجل - للدلالة على عظمته فى نفسه، وللدلالة على وجوب تعظيمه على عباده.

وذكر علامة جمع المخاطب، وهى الميم فى (كم) إشارة إلى انضواء جميع المخاطبين فى المعانى المقرر بها فى نظم هذه الآية وتفخيماً لشأن الخطاب نفسه لما فيه من أصول المحامد والثناء على الله العلى العظيم.

* **﴿الله ربكم﴾** كثيراً ما يأتى فى النظم الحكيم الجمع بين (**الله ربكم**) بتقديم اسم الجلالة، أو (**ربكم الله**) بتقديم (ربكم) مضافاً إلى المخاطبين.

وقد تتبعنا مواضع استعمال هذا التركيب فى النظم القرآنى الحكيم فوجدناه يأتى فى المقامات التى لها أهمية خاصة فى مجال الدعوة.

كما وجدنا دواعى بلاغية دقيقة لتقديم اسم الجلالة (**الله**) فى المواضع التى قُدِّم فيها.

ودواعى بلاغية مثلها فى المواضع التى قُدِّم فيها (**ربكم**) على اسم الجلالة، وذكر هذا - هنا - يطول، فليرجع إليه من شاء حسب الإشارة التى فى الهامش(١).

* **﴿خالق كل شئ﴾** صفة ثانية لاسم الجلالة، وإيثار اسم الفاعل (**خالق**) على الماضى (خلق) وعلى المضارع (يخلُق) ليشمل الخلق فى جميع الأوقات.

* **﴿لا إله إلا هو﴾** صفة ثالثة لاسم الجلالة، بعد الربوبية والخالقية، والجملة قصرية، قصرت فيها صفة الألوهية على ضمير اسم الجلالة، قصراً حقيقياً تحقيقياً، وبها كملت المحامد الإلهية وتقديم هذه الصفات على (**فأنى تؤفكون**) لتوكيد الإنكار وتشديده، وقطع الأعذار جميعها عن الآفكين.

* * *

---

(١) دراسات جديدة فى إعجاز القرآن، مناهج تطبيقية فى توظيف اللغة. مكتبة وهبة - القاهرة، مبحث (رب).

١٠ - ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ ﴾ [غافر: ٦٩].

الدراسة والتحليل:

فى هذه الآية يلفت الله الأنظار إلى مقابح الذين يجادلون فى آيات الله، ويُعَجِّبُ المخاطب من التواءاتهم وتكلفاتهم وهم يحاولون أنهم فى جدالهم على حق، وهيهات هيهات؛ لأن الذى يخاصم الحق لا يخاصمه إلا بباطل، ومحال أن يكون للمجادل فى الحق حق يدحض به الحق، وهذا من البدائه.

والاستفهام فى فاصلة الآية للإنكار والتعجيب باتفاق الأئمة، وهذه خلاصة ما قيل فيه، أما الاستفهام الأول: (**ألم تر**) فهو للتقرير والتعجيب كذلك.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**ألم تر إلى الذين يجادلون..**﴾ الاستفهام تقرير وتعجيب من تهافتهم، والرؤية علمية.

وتوسيط حرف الجر (**إلى**) بين فعل الرؤيا وبين مفعوله (**الذين**) لما تقدم مرات من أن مفعول الرؤيا ذات لا معنى.

والمجادلة كما تقدم مستعارة من جَدْلِ الحبل وإحكامه؛ لأن المجادل يُحكم حجته ما استطاع للتغلب على خصمه.

* ﴿**أنَّى يُصرْفون**﴾ إنكار وتعجيب، أى كيف يتهافتون ويَعْيَوْن وهم يحاولون الطعن فى شئون الله، فأنى بمعنى (كيف) هنا.

وبناء الفعل (**يُصْرَفُونَ**) لما لم يسم فاعله إشارة إلى أن هذا الفعل - لقباحته - ينبغى ألا يكون له فاعل فى الوجود.

* * *

١١ - ﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ، فَأَيَّ آيَاتِ اللهِ تُنكِرُونَ ﴾ [غافر: ٨١].

الدراسة والتحليل:

ما فى هذه الآية تكـميل لمحامـد إلهية ذُكـرَتْ من قبل: ﴿اللهُ الَّذِى جَـعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِـنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَـلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ * ويريكم آياته. .﴾ [غافر: ٧٩ - ٨١].

والاستفهام فى الآية ﴿**فأىَّ آيات الله تنكرون**﴾ استفـهام إنكار، يعنى أن كل آية من آيات الله تتأبـىَّ على الجحد والإنكار، ولن يـجدوا آية واحدة تقـبل النفى أو الإنكار لرسوخ آياته وقوتها.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**ويريكم آياته**﴾ إيثار المضارع إشارة إلى أن إراءة الله آياته للناس تشمل كل الأوقات فى الأرض وفى السماء وفى الأنفس، وإضافة (آيات) إلى الضمير العائد على اسم الجلالة (الله) للتفخيم والتعظيم.
* ﴿**فـأىَّ آيات الله تنكرون**﴾ الفـاء للتفـريع على ما تـقدم ولربط جـزئى الكلام ربطاً مـحكماً، وترتيب الإنكار على الإراءة ولـو سقطت الفـاء لفاتت هذه المعـانى مع اقتضاء المقام إياها.

ودلالة هذا التركيب على الإنكار، أن السـؤال عن تحديد ما يقبل الإنكار من آيات الله يقتضى أنه غيـر موجود، وكونه غير موجـود يستلزم إنكار إنكار شئ منها، وهذا من الكنايات اللطيفة الكثيرة الورود فى مقام الاحتجاج فى القرآن.

* * *

١٢ - ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ، كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِى الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [غافر: ٨٢].

الدراسة والتحليل:

واصلت هذه الآية الحديث عن مشركى العرب، وكررت معهم ما قيل لهم من قبل فى هذه السورة وفى غيرها، وفيها حث وترغيب فى النظر والتأمل فى مصارع المكذبين، وألاَّ يغتروا بجمعهم وكثرتهم وقوتهم، لأنهم كانوا يقولون كما حكى عنهم القرآن فى سورة القمر: **﴿.. نحن جميع منتصر﴾** [القمر: ٤٤].

حذرتهم هذه الآية بأن من كان قبلهم وسلك سلوكهم دمره الله، وكانوا أكثر من مشركى العرب وأشد قوة وأكثر حضارة، فلما جاءهم بأس الله لم يُغن عنهم جمعهم ولا قوتهم ولا تمكنهم فى الأرض.

والاستفهام فى الآية (**أفلم يسيروا..**) نعود هنا فنُذكِّر بأن فيه مذهبين:

* مذهب الجمهور وهو أن الهمزة مقدمة من تأخير، وأن الأصل: فألم يسيروا، ولما كان الاستفهام له الصدارة فى الكلام قدمت الهمزة على حرف العطف (الفاء) فصار الكلام (**أفلم يسيروا**) وعلى مذهب الجمهور هذا يكون الاستفهام للتقرير بالسير فى الأرض والنظر فى مصارع الماضين لكنهم لم يعتبروا بسيرهم وما رأوه فيه.
* مذهب الزمخشرى، وهو يرى جواز أن تكون الهمزة فى مكانها من أول الأمر، وأن حرف العطف سواء كان الواو أو الفاء أو ثم يكون عاطفاً على محذوف مقدر، وقد قدره الإمام أبو السعود - وتابعه الإمام الألوسى - فقال: «أقعدوا فلم يسيروا»؟[١]

ومن يرى هذا المذهب يحمل الاستفهام على الإنكار مع ملاحظة أن المنكر فيه هو ما ولى الهمزة، وهو - هنا - القعود.

---

(١) تفسير أبى السعود (٧/ ٢٨٦) وروح المعانى (٢٤/ ٩١).

وبهـذا الرأى أخذ الإمـام الطاهر بن عـاشـور فحـمل الاسـتفـهـام على الإنكار مثلهما[1].

والذى نختـاره - هنا - كما اختـرناه من قبل فى مواضع كثـيرة هو أن الاستفـهام للتقرير، أعنى تقرير الرؤية والسير، وبهذا يحتج القرآن عليهم، لأنهم لم ينتفعوا ولم يتعظوا بما شاهدوا وعاينوا من مصارع الطغاة ومكذبى الرسل.

وإن فى هذا إنكار عليهم إلا أنه ناشئ عن التقرير بالسير والنظر، وليس هو المعنى المباشر المراد من هذا الاستفهام ونظائره، والمقام يقتضى ما اخترناه.

والخلاصة: أن هذا الاستفـهام للتقرير والتهديد والتـوبيخ، والنعى عليهم بأنهم لم يعتبروا بما هو مواطن عبرة واتعاظ.

ويتضـمن هذا الاستفـهام الحث على السـير فى الأرض وعمق التـأمل فى أحداث التاريخ، ففيها من مسالك الهدى والإرشاد ما فيها.

أسرار النظم وبلاغياته:

درسنا من قبل - مرات - أسرار النظم وبلاغياته فى أمثال هذا الاستفهام، ونكتفى - هنا - بما يأتى:

* ﴿**كيف كان عاقبة الذين من قبلهم**﴾ هذا تعجيب من بطش الله بالأمم العـاتية، وفيه تهديد للمتحدث عنهم من أن يكون مصيرهم مصير من شاهدوا مصارعهم.

* ﴿**كـانوا أكثـر منهم، وأشد قـوة وآثاراً فى الأرض**﴾ فى هذه العبارات مـلامح بلاغية مختلفة:

فأولاً: إذا نظرنا إلى علاقتها بما قـبلها وجدناها تفصيلاً للإجمال الذى فـيما قبلها، وبخاصة إذا ضممنا إلـيها ما بعدها من الآية نفسها، ومعـروف أن الإجمال يبعث فى الذهن حركة ونشاطاً وتشـوقاً للتفصيل الذى يعقبه، فإذا ظفـرت به النفس تمكن فيها المعنى المراد واستقر، وكان حرياً بأن يبعث على الهداية والفلاح.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/٢١٩).

وثانياً: وإذا نظرنا فى العبارة نفسها وجدناها كناية عن صفة التمكن فى الأرض، وتفجير طاقاتها وسعة التمتع بها.

* ﴿**فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون**﴾ جرى بعض الأئمة على أن الفاء للتفريع عما قبلها، ولكن قد لاح لنا معنى آخر فيها:

وهو أن تكون عاطفة على محذوف يقتضيه المقام ويشير إليه ما بعدها إشارات قوية، والتقدير فكذبوا الرسل مثل تكذيب هؤلاء فأهلكناهم فما أغنى عنهم كثرتهم ولا قوتهم.

والذى يرجح هذا الفهم أن قوله تعالى:

﴿**فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم**﴾ يشير إلى أن عاقبة الذين من قبلهم كانت مؤلمة وأن قوله تعالى:

﴿**فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون**﴾ يقرر وقوع العاقبة المدمرة، التى بقيت آثارها مثاراً للعظة والاعتبار وهاتان الإشارتان الواضحتان سبقاً ولحوقاً دليلان على وقوع الهلاك بينهما فى جملة لابد أن ينص فيها على علة الهلاك والتدمير القائمة بالمتحدث عنهم - هنا - وكانت هى علة تدمير السابقين عليهم، وقد جوَّز الأئمة أن تكون (ما) الأولى التى وليت فاء العطف:

نافية ضمنت معنى الاستفهام، أو تكون استفهامية، والمعنى: فأى شئ أغنى عنهم كسبهم أو مكسو بهم؟ والذى يلوح لنا أنها للنفى الخالص، بدلالة المقام، والمعنى: ما دفع عنهم ما كانوا فيه من كثرة وقوة شيئاً من عذاب الله لما أراده بهم.

﴿وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ، وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾.

* * *

الفهـــرس